



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

## ة خلال العهد العثماني

(1555-1833م)

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني

إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الطالب:

أحمد صاري

### أعضاء لجنة المناقشة

رئيس	جامعة الأمير عبد القادر -	أستاذ التعليم العالي	أ.د/احميدة عميراي
مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر -	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ أحمد صاري
	رة	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ علي أجقو
	جامعة الجزائر 2	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ أرزقي شويتام
	2	أستاذ محاضر	د/ فارس كعوان

السنة الجامعية 1437-1438 / 2016-2017م

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

صدق الله العظيم

سورة الزمر: الآية 9.

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى روح والداي رحمهما الله، إلى زوجتي ورفيقة دربي،  
و إلى أبنائي: يعقوب، يحيى، لقمان ومَنَار، و إلى كل أفراد الأسرة و كل  
الأصدقاء، وإلى كل المخلصين لهذا الوطن.

جامعة  
عبد القادر للطب  
الإسلامية

## شكر وعرافان

الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه الكريم وبعد: يسعدني ويسرني كثيرا أن أتوجه  
شكري وحالص امتناني إلى أستاذي الفاضل : الأستاذ الدكتور أحمد صاري المشرف هذه  
الأطروحة، والذي كان له الفضل في تكويني في مرحلتي الليسانس والماجستير وكان لي الشرف  
أنه قبل الإشراف علي في إنجاز مذكرة الماجستير، فقد كانت استفادتي كبيرة من توجيهاته  
وملاحظاته المنهجية الدقيقة، وآرائه وأفكاره السديدة التي أفادتني كثيرا.

وأقدم بالتحية والتقدير إلى السادة الأساتذة أعضاء المناقشة الموقرة على عبء  
قراءة هذا العمل و وعلى الملاحظات التي سيقدمونها لي والتي سأقبلها بصدر رحب  
وسوف أسعى للاستفادة .

ولا أنسى التقدم بالشكر والتقدير كذلك إلى الأستاذ "كمال شاشوة" على قبوله الإشراف  
واستقبالي مدة تربصي بفرنسا في معهد البحوث في العالم العربي والإسلامي  
(IREMAM) بأكس أون برفانس ( ) .

أتوجه بالشكر والاحترام لإدارة ومكتبات جامعة الأمير عبد القادر م  
الإسلامية بقسنطينة.

المختصرات :

1- باللغة العربية:

ج: جزء.

د.ت: دون تاريخ.

د.ط: دون طبعة.

د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية.

ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ص:

ط:

ع: عدد.

م.س: مقال سابق.

م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب.

: مجلد.

Art, Cit : Article precedement cité.

A.C.C.M: Archives de la Chambre de Commerce de Marseille.

A.M.G: Archives du Ministre de la Guerre (Vincennes Paris).

A.O.M : Archives Nationales d'Outre-Mer (Aix-en-Provence - France).

Ed: Edition.

IMP: Imprimerie.

O.P.U: Office des Publications Universitaires

Op, cit : ouvrage precedement cité.

R.A.C: Revue Algérienne et Coloniale.

R.A: Revue Africaine.

R.H.M: Revue d'Histoire Maghrébine.

R.O.M.M : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée

R.S.A.C: Recueil des Notices et mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine.

S.D: sans date.

S.N.E.D: Société Nationale d'Édition et de Diffusion (Alger)

T : Tome

T.S.E.F.A: Tableau de la Situation des Etablissements Français en Algérie.

Trad: Traduit.

V: Volume.

جامعة الجزائر  
مركز الدراسات والبحوث  
الاسلامية

# مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## 1- الموضوع وأهميته:

إن موقع بجاية في وسط السواحل الجزائرية، وحصانتها الطبيعية من جميع الجهات؛ جعلها ذات أهمية كبيرة، فالبحر يمثل نافذتها على العالم الخارجي، والجبال الشامخة تحمي ظهرها من أي خطر داخلي، ووادي الصومام يشكل همزة وصل مع المناطق الداخلية، فلا شك أن هذا الموقع الاستراتيجي جلب لها الانتباه، فقد أدرك كل الذين تعاقبوا عليها قيمتها كعاصمة، لحصانتها الطبيعية من جهة، ومزاياها الاقتصادية حيث انفتاحها على الخارج والداخل في الوقت نفسه، ومزاياها البشرية من جهة ثانية؛ بدءا بالفينيقيين ثم الرومان والوندال والبيزنطيين، ثم العرب الفاتحين، فلا غرابة أن يعيد الناصر ابن علناس تأسيسها، ويتخذها عاصمة لمملكته، فهي تتوفر على شروط الحماية والتطور والازدهار، ولا شك أن استراتيجية موقعها سبب لها أيضا الخراب في الكثير من الأحيان، بسبب تنافس الدول الطامعة.

وبعدما كانت بجاية عاصمة للحماديين، ومدينة ذات أهمية للموحدين، ثم استرجعت مكانتها الحيوية في عهد الحفصيين، أبتليت من جديد بالخراب والدمار على يد الإسبان في مطلع القرن السادس عشر، فاندثرت حضارتها وانطفأت شمعتها، و سكاها، وتهدمت معالمها واحتفت. لكن السكان الذين كانوا يمتازون بروح المقاومة لكل سيطرة أجنبية، لم يستسلموا لقدرهم، ولم يعدموا الوسيلة، وآلمهم أن يعيشوا في بؤس وشقاء يروا مدينتهم ترنح تحت حكم العدو.

ففي الوقت الذي تسابق فيه بعض أمراء بنو زيان إلى الحاكم الإسباني في وهران؛ بعد احتلالها يطلبون الدعم المالي والعسكري، عارضين عليه التعاون للتغلب على خصومهم من نفس الأسرة، بدل السعي للموقوف في وجه المحتل الإسباني وطرده من المرسى الكبير وهران، وقف سكان بجاية وقبائلها صفا واحدا ملتفين حول زعيمهم الروحي ابن القاضي، وهبوا جميعا لتحرير مدينتهم. وإدراكهم أن قدراتهم المحدودة لا تسمح لهم بمقارعة الإسبان، جاءت فكرة طلب المساعدة من الإخوة بربروس الذان- على ما يبدو- لم يفوتوا هذه الفرصة الذهبية لإيجاد موطأ قدم لهم في منطقة الشمال الإفريقي، حتى يمنعوا الإسبان الطامعين في بسط نفوذهم على هذه المنطقة، يدفعهم الانتصار العظيم الذي حققوه في الأندلس، والذي توج بإسقاط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة

.1492



إن سقوط السلطة السياسية الحفصية وعجزها عن الدفاع عن مدينة بجاية وإحفاقها في منع الاحتلال، وعدم استسلام السكان المحيطين بزعامة السلطة الدينية، بقيادة الشيخ أحمد بن القاضي، وعزمهم على التصدي للعدو ومقاومته ومحاولة طرده وذلك من خلال الاستنجاد بالإخوة بربروس، إنما ينم عن معرفتهم ودرائتهم بالأحداث السياسية التي كانت تعرفها المنطقة حينئذ؛ وإحاطتهم علما كذلك بالأحداث التي كان البحر المتوسط مسرحا لها، ومن ثمة إدراكهم العميق لحقيقة ما كان يجري على الساحة؛ من صراع بين العالم الإسلامي، والعالم المسيحي بقيادة إسبانيا راعية المسيحيين وحاميتهم من جهة، والدولة العثمانية راعية العالم الإسلامي من جهة ثانية. فإذا كان الحكام الحفصيين في بجاية ونواحيها قد انسحبوا بعد هزيمتهم أمام الإسبان إلى المرتفعات المجاورة، ليختفي أثرهم إلى الأبد، فإن سكان بجاية ونواحيها ظلوا يراقبون المكان عن كثب، ولم يعدوا الحيلة حتى تمكنوا من تخليص المدينة والمنطقة من هذا العدو.

إن استماتة سكان قبائل المنطقة ودفاعهم وتضحياتهم عن حريتهم وسيادتهم يعد من أهم الخصال التي كانوا يتحلون بها، فقد استثمر الإخوة بربروس اندفاعهم في بسط سيطرتهم على كثير من المناطق في إيالة، وفي محاولات تحرير بجاية كذلك، ورغم الدور الذي لعبه سكان بجاية ونواحيها في تحديد مصير الجزائر خلال العهد العثماني، من خلال المساهمة في ربطها بالدولة العثمانية وترسيخ حكمها، وما تبعه من تغييرات جذرية في المنطقة، فإنها لم تنل حظها من الدراسة والتأريخ خلال هذه الحقبة من تاريخ الجزائر، وبالمقابل كان نصيب مدن جزائرية عديدة أوفر حظا، لأن بجاية لم يعد لها شأن يذكر خلال هذا العهد، لأنها لم تحافظ على أهميتها ومكانتها، وتعرضت إلى الإهمال والتهميش من طرف السلطة العثمانية، ومن هنا جاء بحثنا الموسوم بـ: "بجاية خلال العهد العثماني 1555-1833" ليعالج إشكالية الوجود العثماني في بجاية ونواحيها، ويميط اللثام عن الأحداث التي عرفتها المنطقة خلال هذه الفترة، التي لا تزال تميزها الضبابية والغموض، وقد حاولت الأحداث التي عرفتها بجاية في ظل الحكم العثماني. وراعت التسلسل الزمني لهذه الأحداث في تسطير خطة وعناصر البحث، وهو من حيث الجدة يعد بحث جديد في طرحه للإشكالية و المضمون، وكنت أود أن أذكر القادة الذين ترأسوا الحماية العسكرية في هذه المدينة، طوال فترة الوجود العثماني فيها، وكذا أسماء القضاة والقضايا التي كانت تعرض عليهم للفصل فيها، لكنني لم أتمكن من الحصول على المعلومات التي يمكن أن تفيدني في تحقيق هذا الغرض، بسبب غياب الوثائق.

## 2- دواعي اختيار الموضوع:

وقد أخترت الخوض في هذا الموضوع كأطروحة، لجملة من الدوافع الموضوعية والذاتية، فمن الدوافع الموضوعية، أذكر أنه لم ينجز لغاية الآن حسب علمي، بحث أو دراسة أكاديمية تتناول بالدراسة تاريخ بجاية ونواحيها خلال الحكم العثماني للجزائر، إذ ركزت الدراسات والأبحاث المتعلقة بتاريخ بجاية على العهدين الحمادي والحفصي خاصة.

- أهمية المنطقة سواء من حيث الموقع الاستراتيجي أو علاقتها التاريخية بالأمم الأوروبية.

- الدور الذي لعبه سكان بجاية ونواحيها في تحديد مصير الجزائر من خلال الأحداث التي كانوا طرفا فاعلا فيها في مطلع القرن السادس عشر.

- اعتقادنا بأن الدراسة شتملاً ثغرة كبيرة في تاريخ الجزائر، وستثري المكتبة الجزائرية التي تفتقر إلى مثل هذه الدراسات، كما ستضيف عملاً آخرًا لرصيد المكتبة التاريخية الوطنية والعربية في مجال التاريخ السياسي والاجتماعي الذي مازال في بداية مشواره.

أما الدوافع الذاتية فيأتي في مقدمتها رغبتني الملحة في التعرف على تاريخ المنطقة التي ظلت ممتنعة عن الخضوع لأية سلطة أجنبية على مر العصور، إلا لسلطة شيوخها. وكذلك رغبتني في الإسهام في إثراء حقل البحث التاريخي في مجال تاريخ المدن.

## 3- إشكالية البحث:

يتمحور موضوع هذه الدراسة حول إشكالية عامة تتمثل في طبيعة الوجود العثماني في بجاية ونواحيها منذ تحريرها من الاحتلال الإسباني عام 1555، إلى غاية سقوطها في أيدي الفرنسيين عام 1833م، وتتفرع عنها الأسئلة التالية:

ما هي الأسباب التي ساهمت في سقوط بجاية في أيدي الاحتلال الإسباني؟ وكيف كان موقف السلطة الحفصية والسكان منه؟ لماذا وكيف استنجد سكان بجاية بالإخوة بربروس؟ ولماذا أخفق الإخوة بربروس في تخليصها من الإسبان؟ فيما نجح صالح رايس في انتزاعها منهم سنة 1555؟ وهل كان لسكان القبائل المجاورة لبجاية دور يُذكر في محاولات تحريرها؟.

كيف كان مصيرها بعد تحريرها وإحاقها بالسلطة العثمانية؟ وهل استعادت مكانتها السابقة؟ وكيف كانت علاقة السكان بالسلطة العثمانية؟ وكيف كانت علاقة السكان مع قائد المدينة التركي؟ لماذا هُشمت بجاية في حيث وقع تطوير مدن أخرى وعلى رأسها مدينة الجزائر؟ هل يعود ذلك إلى خشيتهم من منافسة مدينة الجزائر التي اتخذوها مركزا لحكمهم والعاصمة الاقتصادية لهم، أم أن طباع سكان المنطقة المحبة للاستقلال ورفض الخضوع لأية سلطة أجنبية كان وراء إحجام السلطة العثمانية على الاهتمام بها، وتحويلها إلى عاصمة للبلاد؟ وهل صحيح أن الأتراك العثمانيين كانوا السبب وراء خرابها وزوال مكانتها الاقتصادية والحضارية؟ ولماذا لم تتمكن من استعادة مجدها الضائع؟

هل كان لبجاية دور اقتصادي في الإيالة؟ وما نوع النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها السكان؟. كيف تمكنت السلطة العثمانية حكم بجاية ومناطقها؟ ماهي الأساليب التي مكنتها من الاحتفاظ بها طول مدة الحكم العثماني في الجزائر؟ كيف كانت الأوضاع في بجاية ونواحيها في أواخر العهد العثماني؛ الذي عرفت فيه الإيالة الاضطرابات بسبب تناقص دور القرصنة، فكان من نتائجه انتشار حالات التمرد والعصيان وتدهور الأحوال الصحية؟ كيف تمكن الاستعمار الفرنسي من احتلالها وكيف كان رد فعل السكان.

#### 4- مناهج البحث:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج السردى أو الوصفى في سردنا للأحداث التاريخية وتتبع مراحلها على اعتبار طبيعة الموضوع خاصة في فصليه الأول والثاني فهو ضروري للتعرف على المجال الجغرافي والنبة التاريخية عن بجاية عبر العصور المختلفة، وكذا معرفة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بجاية قبل العهد العثماني ثم أثناء هذا العهد، كما استعنا بالمنهج التحليلي في تحليل الأحداث والظروف المحيطة بها وملاساتها خاصة في الفصل الثالث، ولجأنا في مواضع عديدة إلى المنهج المقارن كلما تعلق الأمر باختلاف الأقوال أو تضاربها بين المصادر المحلية والأجنبية، وفي أحيانا كثيرة في المصادر الأجنبية وجدنا تضارب في الآراء وخاصة إذا تعلق الأمر بالأرقام والإحصائيات.

## 5- الدراسات السابقة ومصادر البحث:

لقد حظيت بجاية خلال العهدين الحمادي<sup>1</sup> والحفصي<sup>2</sup> بالدراسة والبحث من قبل العديد من الكتاب والباحثين، سلطوا في دراساتهم الأضواء على تاريخ هذه المدينة، بجوانبه المتعددة، السياسية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك لأهميتها الكبيرة آنذاك، فقد كانت عاصمة الدولة الحمادية، ثم عاصمة ثانية للسلطنة الحفصية، إلا أنها لم تحظ بنفس الاهتمام خلال الفترة العثمانية التي 1555 إلى 1833، ولهذا ارتأينا أن يكون بحثنا في هذه الحقبة التاريخية التي لا يزال يكتنفها الكثير من الغموض والضبابية.

فمدينة الجزائر مثلا خصها نور الدين عبد القادر بكتاب عنوا "تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم العصور إلى الفتح التركي" وتناولت الأستاذة فاطمة الزهراء اشي بالدراسة قسنطينة المدينة والمجتمع أواخر العهد العثماني، والباحثة الفرنسية إزابيل رنو و أنجزت أطروحة باللغة الفرنسية حول<sup>3</sup> وصدرت مؤخرا دراسة للأستاذ سلمان نصر تحمل عنوان "صفحات من التاريخ السياسي والحضاري لمدينة قسنطينة من العهد النوميدي إلى يومنا الحاضر"، وكتب يحي بوعزيز عن

<sup>1</sup> أنظر دراسة رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، د.م.ج. الجزائر، 1977.

<sup>2</sup> أنظر دراسة صالح بعيزق: بجاية في العهد الحفصي -دراسة اقتصادية اجتماعية، منشورات كلية الآداب، جامعة  
2006.

ودراسة:

Dominique Valérian: **Bougie, port Maghrébin à la fin du moyen âge (1067-1510)**, Publications de l'École française de Rome, Rome, 2006.

وكذلك مسعود بريك: النخبة والسلطة في بجاية الحفصية (7-9 / 13-15م)، ط1 دار ميم للنشر، الجزائر  
2014.

<sup>3</sup>Isabelle Grangaud: **La Ville Imprenable, Une histoire sociale de Constantine au 18e siècle**, Média – Plus, Constantine, 2004.

وهران<sup>1</sup>، ومحمد الطمار عن تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، وعبد الرحمان الجليلي عن تاريخ المدن الثلاث "المدينة، ندرومة، ومليانة وغيرها من الدراسات.

وخلال الفترة الاستعمارية ظهرت العديد من الدراسات التاريخية تتناول تاريخ الجزائر بصفة حوليات بيليسي دو رينو وكتبات دوماس وفايسات وإرنست مرسييه، ودوغرامون، ورين وبربروجر وفيزو، وألبير دوفولكس، وروبان، ولابريموداي، وغيرهم. وإن كانت هذه الكتابات تناولت موضوع دراستنا بشكل غير مباشر إلا أن استفادتنا منها كانت كبيرة، ويعد شارل فيرو<sup>2</sup> من أبرز من اهتموا وكتبوا عن بجاية ومدن جزائرية أخرى، بهدف التعرف على طبائع السكان وعاداتهم، وذلك لتمكين السلطة الاستعمارية من إيجاد السبل ا سكان الجبال الوعرة كجبال القبائل. فخص بجاية ببحث مطول في سلسلة تاريخ مدن بايلك قسنطينة تحت عنوان Histoire de Bougie دون أن يحصرها في إطار زمني محدد. فكانت استفادتنا منه كبيرة جدا وكان خير معين لنا في هذه الدراسة على الرغم من أنه اعتمد كثيرا على الرواية الشفوية والأسطورة أحيانا، إلا أن ذلك لم ينقص من القيمة العلمية والتاريخية لكتبه.

ويعتبر مولود قايد من الكتاب الذين اعتمدنا عليهم في دراستنا هذه، وخاصة كتابه باللغة الفرنسية الأول حمل عنوان: "تاريخ بجاية ومنطقتها منذ أقدم العصور إلى 1954"<sup>3</sup>، الذي يعد من أهم الدراسات التي تناولت تاريخ بجاية، لكننا لما اطلعنا عليه فوجئنا بأنه لم يخصص للفترة العثمانية التي تمتد على مدى 278 سنة سوى 10 صفحات فقط، في حين خصص للفترة الإسبانية التي لم تتجاوز 45 23 صفحة ولعل ذلك يرجع إلى قلة المصادر. وخلص في النهاية إلى أن بجاية تحت الحكم التركي كانت عديمة القيمة والمنفعة، وأنها عرفت الخراب والبؤس، فلم يستطع الفكاك مما كتبه فيرو وبربروجر ورين وغيرهم من كتاب المدرسة الاستعمارية. والكتاب الثاني حمل عنوان "البربر عبر التاريخ"<sup>4</sup>، وقد عدنا إليه كلما تطلب من الأمر ذلك ولا سيما في ما يتعلق بأحداث القرن السادس

<sup>1</sup> يحي بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ دار الغرب للنشر والتوزيع وهران 2002.

<sup>2</sup>Charles Féraud :« Histoire des villes de Constantine – Bougie», in, R. S. A. C, Constantine, 1869.

<sup>3</sup>Histoire de Béjaia et sa région depuis l'antiquité jusqu' à 1954, SNED, Alger, 1976.

<sup>4</sup>Les Berbères dans l'histoire, éd, Mimouni, Alger, S.D.

عشر الذي تميز بالصراع بين أسرتي ابن القاضي وبني عباس، وكذلك في صراع الأسرتين وتحالفهما مع الأتراك العثمانيين، وكيف استطاع هؤلاء أن يستثمروا العداء الذي كان بين الأسرتين المذكورتين. كما اعتمدنا على السعيد بوليفة في كتابه " جرجرة عبر التاريخ "، الذي يحتوي

ناول الصراع بين أمراء كوكو وبني عباس، والوجود الإسباني وتأثيره في المنطقة.

وبالنظر لغياب الدراسات التاريخية التي تغطي تاريخ بجاية ونواحيها خلال الفترة العثمانية، فإن الموضوع يكتسي أهمية كبيرة، ويندرج كذلك في اعتقادنا في إطار التأريخ المحلي والجهوي، أي التأريخ للمدن والمناطق، فأرجو أن تملأ هذه الدراسة ثغرة في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني. وستدعم رصيد الدراسات لهذه الفترة التي لا تزال في اعتقادنا محتشمة رغم الجهود المبذولة من طرف بعض الباحثين.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة وعلى التساؤلات التي أثبتت اعتمدنا على مجموعة من الوثائق التي عثرنا عليها في مراكز أرشيفية مختلفة نذكر منها: الوثائق غير المنشورة حيث عثرنا على بعضها في مركز الأرشيف الوطني الجزائري منها سلسلة بيت البايك حيث توجد علب تحمل الأرقام 165 إلى 183 ورقم سجلها 179 والعلب المرقمة من رقم 146 إلى 164 ورقم سجلها 146 وهي تحتوي على وثائق خاصة بأوقاف بجاية لكنها في حالة سيئة يصعب قراءتها وفك رموزها، والملاحظ على هذه الأوقاف أنها كانت متنوعة من حيث مكوناتها بين دكاكين ومنازل ومعظمها حدائق وقطع أرضية تقع خارج مدينة بجاية، كما أن أصحاب الأوقاف كانوا من كلا الجنسين. وأما العلب المرقمة من 217 إلى 245 والتي رقم سجلها 328 فتحتوي على وثائق متعلقة بدخل أوقاف بجاية والتي تتمثل أساسا في زيت الزيتون والتين الجفف.

وعثرنا في المكتبة الوطنية الجزائرية على وثائق ضمن مجموعة دفاتر مهمة تحت رقم 3204 ورقة رقم 6 و8 و9 و11 و17 و47 و82 والمجموعة رقم 3205 ورقة 11 و102 و دفتر مهم رقم 3207، ورقة رقم 171. و 242. يحتوي قسم المخطوطات على وثائق عثمانية، منها الملف 3204، وثيقة رقم 39 / 1170 / 1756. وعلبة رقم 3206، ورقة رقم 44 و47.

<sup>1</sup>le Djurdjura à travers l'histoire depuis l'antiquité jusqu'a 1830, Alger, 1925.

وفي أرشيف ماوراء البحر بأكس أون بروفانس بفرنسا اطلعنا على وثائق وأغلبها عبارة عن ميكروفيلم تعذر علينا فهم كثير منها، كما أن أغلبها يحتوي على معلومات ومادة تتعلق عموماً بتاريخ إيالة الجزائر، أما الوثائق المتعلقة بموضوع البحث فهي عبارة عن تقارير جاءت تحت عنوان الأرشيف الإسباني وتتناول موضوع الاحتلال الإسباني لبجاية، وتقارير متنوعة حول وضعية بجاية قبل الاحتلال الفرنسي عامة من قبائل وتحصينات.

ومن جملة الوثائق التي اطلعنا عليها نذكر: وثائق الحكومة العامة للجزائر GGA السلسلة K66 رقم 3، والسلسلة E رقم MIOM45/18 و السلسلة MIOM-15/25 التي حملت عنوان "الحالة العسكرية".

- وفي مركز أرشيف وزارة الحربية A.M.G بقصر فانسان - باريس استفدنا من بعض وثائق المجموعة رقم 1 3 المقال رقم 8 و تتمثل في مجموعة تقارير حول بجاية. والسلسلة BB7-8 التي تقع تحت عنوان "شؤون خارجية" تحتوي على وثائق مشروع الشركة الملكية الفرنسية للاستغلال الزراعي والتجاري في الجزائر سنتي 1830-1831 أفادتنا هذه الوثائق في التعرف على المنتجات الفلاحية التي كانت تنتجها منطقة بجاية.

#### الوثائق المنشورة:

وفيما يتعلق بالوثائق المنشورة التي اعتمدنا عليها يأتي مخطوط أبو علي إبراهيم المريني الذي يحمل عنوان "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية"<sup>1</sup> الذي قام به الجيش الفرنسي شارل فيرو بترجمة

<sup>1</sup>Charles Féraud : «conquête de Bougie par les Espagnoles d'après un manuscrit arabe», in RA, n°13, 1868.

كاتب هذا المخطوط هو أحد علماء بجاية وعلى الأرجح كان مؤرخ البلاط الحفصي، وهو شاهد عيان على أحداث الحملة الإسبانية على بجاية، ويعتقد أبو القاسم سعد الله أن عنوان المخطوط غير كامل لأن كتاب ذلك العصر كانوا يسجعون عناوين تأليفهم، كما أشار إلى أن المعلومات حول هذا المؤرخ قليلة وغير دقيقة، أنظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998 ص

نصه ونشره في المجلة الإفريقية سنة 1869م دون أن يفيدنا بالنص الأصلي، حيث يشكل مصدرا هاما في هذا البحث إذ يزودنا بمعلومات نادرة وقيمة فيما يخص حالة بجاية والشرق الجزائري عامة في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، حيث الاضطرابات والفتن وعدم الاستقرار، كما يفيدنا بتفاصيل الاحتلال الإسباني لبجاية، فكانت استفادتنا من المخطوط كبيرة.

ولا يمكن لأي باحث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني الاستغناء عن كتاب غزوات عروج وخير الدين <sup>مجهول</sup>، على الرغم من أنه لا يخلو من المبالغات والإفراط في التفاصيل، إلا أنه ذا قيمة تاريخية وعلمية كبيرة، باعتباره يروي تفاصيل من صنع الأحداث حينها، فقد كانت استفادتنا في الجزء المتعلق باتصال الجزائريين بالأخوين عروج وخير الدين وتدخلهما في بجاية، ثم في الجزائر.

و اعتمدنا كذلك على كتابات هايدو<sup>1</sup> رغم مبالغته أحيانا في تحيزه إلى جانب المسيحيين إلا أن ذلك لا ينفي القيمة العلمية والتاريخية لمؤلفاته الخاصة بالجزائر في هذه الفترة.

يعد المؤرخ الإسباني كريخال مرمول<sup>2</sup> من أهم المصادر الأجنبية التي اعتمدنا عليها كثيرا في هذا البحث، على الرغم من التحفظ الذي يتوجب على الباحث أن يبديه اتجاه هذا المؤلف، لابتعاده عن الموضوعية في كثير من المواضع، باعتباره مؤرخ البلاط الإسباني فمن الطبيعي أن ينحاز لجهة بلده. وكانت استفادتنا من المعلومات الدقيقة القيمة التي احتوى عليها مؤلفه "إفريقيا"، والذي رجع قيمته إلى المدة الطويلة التي قضاها في البلاد البربرية (المغرب العربي)، حيث تجول فيها خلال مدة 28 سنة حسب ما أورد بربروجر، وأصبح مؤلفه مرجعا لكتاب أوروبيين ألفوا كتباً حول المنطقة أمثال بيار دافيتي Pierre Davity والأب دابر Dapper. كما اعتمدنا على ليون الإفريقي (الحسن الوزان) في موسوعته "وصف إفريقيا"، في تتبع الأحداث التي عرفتها بجاية في مطلع القرن السادس عشر باعتباره شاهد عيان فكانت المعلومات التي قدمها قيمة وذات مصداقية ولا يخلو هو كذلك من بعض الهفوات.

<sup>1</sup> Fray Diego de Haedo: **Histoire des Rois d'Alger**, tra de l'Espagnole par Henri

Delma de Grammont, édition, Alger Grands Livres, Alger, 2004.p278.

<sup>2</sup> Marmol Carjaval Louis del : **l'Afrique de Marmol** , trad, par Nicolas Pérrot et seieur d'Ablancourt, Paris, 1667, T2, LV.,Méditerranée, N°8, 1970.



وكأي باحث في تاريخ الجزائر العثماني لا يمكن الاستغناء عن كتب الرحال والأسرى والقناصل والدبلوماسيين الأوروبيين أمثال الأب دان في كتابه "تاريخ بربرية وقراصنتها" و"مذكرات ارس دارفيو" ، وكتاب لوجي دوطاسي "تاريخ مملكة الجزائر"، ورحلة الأنجليزي طوماس شو إلى إيالة الجزائر، ومذكرات الأسير إمانويل دارندا والأديب الإيطالي فيليبو بانانتي والرحالة الطبيب الفرنسي بيسونال ، والرحالة الدبلوماسي دو بارادي، كما اعتمدنا على الورتلاني في رحلته. واعتمدنا كذلك على كتاب "المرأة" لحمدان حوجة، ومذكرات أحمد الشريف الزهار، ومذكرات القنصل الأمريكي وليم شالر وغيرها من المصادر المكتوبة باللغة العربية.

وعلاوة على المراكز الأرشيفية التي سبق ذكرها، فقد قمنا بزيارة إلى مراكز أرشيفية خارج الوطن منها الأرشيف الوطني التونسي، و المكتبة الوطنية التونسية، والمكتبة الوطنية المغربية، والخزانة الملكية بالرباط، ومؤسسة آل سعود في الدار البيضاء، ومكتبة جامعة محمد الخامس بالرباط بالمملكة المغربية، ومكتبة جامعة 9 أفريل بتونس، ومكتبة جامعة آل البيت بالمملكة الهاشمية الأردنية، ومركز البحوث في التاريخ المغاربي في تونس، ومؤسسة عبد الجليل التميمي بتونس. كما ترددنا على مركز الأرشيف الولائي بقسنطينة، واستفدنا كثيرا من رصيده أما أرشيف ولاية بجاية، ومكتبة بلدية بجاية ومكتبات بعض زوايا المنطقة كزواية شلاطة، وزواية تاموقرة، وزواية صدوق وزواية الهامل ببوسعادة، فإننا لم نعثر بها على ما كنا نصبو إليه من مخطوطات تخدم موضوع الدراسة.

## 6- خطة البحث:

وقد تناولت الموضوع وفق خطة كيفتها حسب المادة الخبيرة التي تمكنت من جمعها وقد واجهتني صعوبة كبيرة في ضبط عناصرها بسبب قلة المادة المصدرية، وتتمثل هذه الخطة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ثم الملاحق وقائمة المصادر والمراجع والفهارس.

فالفصل الأول جعلته تحت عنوان بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين واشتمل على خمسة مباحث، خصصت المبحث الأول لتحديد المجال الجغرافي لبجاية ونواحيها، وتناولت فيه التضار والمناخ والنبات الطبيعي الذي يميز المنطقة، وفي العنصر الثاني تناولت طبوغرافية مدينة بجاية والأسماء المختلفة التي حملتها عبر العصور.

أما المبحث الثاني تناولت فيه لمحة تاريخية عن بجاية ونواحيها في العصور القديمة، ثم في العهد الإسلامي فتحدثت عن العهد الموحد بشيء من الاختصار ثم العهدين الحمادي والحفصي، وباعتبار العهد الأخير همزة وصل بين العهدين الحمادي والعثماني، وركزت أكثر على الحالة العامة في بجاية ونواحيها أواخر العهد الحفصي، باعتبار هذه الفترة مفصلية، ساهمت في إضعاف الدولة عدة عوامل ساعدت على سقوط بجاية في يد الاحتلال الإسباني؛ الذي أنهى الوجود الحفصي الذي دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن، ثم تطرقت إلى الاحتلال الإسباني؛ ظروفه؛ وعوامل نجاحه وردود فعل السلطة والسكان.

وخصصت المبحث الثالث لدراسة الحالة السياسية في المغرب الأوسط في مطلع القرن السادس طرقت للغزو الإسباني للسواحل الجزائرية (1505 - 1511)، ودور العلماء والشيوخ الدينيين في قيادة حركات الجهاد ضد الغزاة، في ظل عجز الكيانات السياسية التي كانت قائمة حينئذ، ثم تناولت الاحتلال الإسباني لبجاية (1510)، وموقف السلطة الحفصية وسكان بجاية ونواحيها

أما المبحث الرابع فقد خصصته لاستنجد سكان بجاية بالإخوة بربروس، وتناولت فيه عنصرين أولهما ظهور شخصية ابن القاضي وتأثيره في المنطقة، وثانيها تدخل الإخوة بربروس لتحرير بجاية سنتي 1512 و 1514، وأسباب فشله.

وتناولت في المبحث الخامس بجاية تحت الاحتلال الإسباني (1510 - 1555) حيث وقفت فيه على استنجد سكان الجزائر بالإخوة بربروس، ثم إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وتحالف الإسبان مع سلطان إمارة بني عباس، وتأثير ذلك على المنطقة خاصة، والإيالة عامة، ثم بحثت في حادث تحطيم حصن البينون على يد خير الدين بربروس وتأثيره على بجاية ونواحيها.

وجعلت الفصل الثاني تحت عنوان السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها وخصصت له ثلاثة مباحث، حيث تناولت في المبحث الأول تحرير بجاية وإلحاقها بالسلطة العثمانية؛ وتطرقت فيه إلى الوضع العام في الإيالة، ثم الوضع في بجاية، كي يتسنى لنا التعرف أكثر على الظروف التي أحاطت بالعملية، ثم انتقلت إلى الحديث عن أحداث حملة صالح رايس لتحرير بجاية (1555)؛ والعوامل التي ساعدته على تمكنه من افتتاحها من الإسبان، ثم إلحاقها بالسلطة العثمانية. وتطرقت في المبحث الثاني

إلى التنظيم الإداري في بجاية، وقسمته إلى ثلاثة عناصر تناولت في الأول التنظيم الإداري في الإيالة و التوجه الديني للسلطة العثمانية باعتباره الرابط الذي جمع بين الأتراك العثمانيين وسكان الجزائر، ثم وقفت في العنصر الثالث على التنظيم الإداري في بجاية ونواحيها، وبعد ذلك انتقلت إلى دراسة السياسة العثمانية في بجاية ونواحيها في المبحث الثالث، وفيه وقفت عند أهمية استرجاع بجاية من أيدي المحتل الإسباني بالنسبة للحكم العثماني، ثم ناقشت إشكالية تبعية بجاية لدار السلطان أو لبابلك قسنطينة، ثم استعرضت مهام القائد وتعيينه وبحثت فيه نظام الحماية في بجاية، كما تعرضت إلى أطماع الدول الأوروبية للاستيلاء على بجاية، بالنظر لموقعها الجيوستراتيجي، وتناولت فيه الحملات العسكرية البحرية التي شنتها هذه الدول على بجاية ومصير هذه الحملات.

وحمل الفصل الثالث عنوان السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية، وتضمن هو الآ خمسة مباحث، فالمبحث الأول جاء تحت عنوان أصل السكان، وتطرق فيه إلى أصل سكان بجاية ونواحيها، ثم انتقلت إلى التنظيم الاجتماعي، حيث تطرقت فيه إلى نظام الجماعة و بعض عادات وتقاليده السكان، ثم انتقلت في المبحث الثاني إلى دراسة نشاطات السكان؛ فبدأت بالنشاط الف باعتباره النشاط الرئيسي بما فيه تربية المواشي، ثم انتقلت إلى النشاط الصناعي إذ تطرقت إلى مقومات الصناعة، ثم أنواعها، واستعرضت النشاط التجاري، بما فيه الأسواق ومكانتها في حياة السكان.

وتناولت في المبحث الثالث الفئات الاجتماعية في بجاية ونواحيها، فتطرق إلى فئة البربر باعتبارهم السكان الأصليين و يمثلون أغلبية السكان، ثم تناولت فئة الأندلسيين والظروف التي دفعتهم إلى الهجرة إلى بجاية مع تأثيرهم في مختلف المجالات، ثم تطرقت إلى فئة الأتراك والكراغلة باعتبارهم الفئة الحاكمة، ثم تناولت فئة اليهود ودورهم وعوامل استيطانهم في المنطقة، وأخيرا فئة المسيحيين.

وتت في المبحث الرابع إلى المؤسسات الثقافية والدينية ودورها في بجاية ونواحيها، المؤسسات التعليمية في مقدمة موضوعات هذا المبحث، ثم انتقلت إلى دراسة المساجد والدور الذي لعبته دينيا وثقافيا وتعليميا، كما تناولت الزوايا ودورها الديني والثقافي والاجتماعي، وفي الأخير تطرقت إلى مؤسسات الأوقاف باعتبارها مصدر تمويل هام للمؤسسات الدينية والتعليمية. وأما المبحث الخامس من هذا الفصل فقد خصصته للحديث عن الأحوال الصحية في بجاية ونواحيها فتناولت طبيعة ونوعية المأكل والملبس والمسكن.

وأما الفصل الرابع والأخير فقد خصصته لعلاقة السكان بالسلطة وجعلته في ثلاثة مباحث رئيسية فحمل المبحث الأول عنوان سياسة الحكام الأتراك في الجزائر، وقسمته إلى ثلاثة عناصر: تناولت فيها سياسة السلطة العثمانية في بجاية، ثم مكانة العلماء والمرابطين في وسط المجتمع، ثم علاقة العلماء والمرابطين بالسلطة، باعتبارهم يمثلون السكان وحلقة الوصل مع السلطة، ثم علاقة السكان بسلطة القايد، ودور مصلحة الكراست في الوفاق بين السكان والسلطة، وتناولت الأسر النافذة في بجاية ونواحيها، في المبحث الثاني؛ حيث قسمته إلى ع : هما الأسر ذات النفوذ الروحي (الديني) والأسر ذات النفوذ المادي (الديوي)، فتناولت أسرة سيدي محمد أمقران في بجاية ودورها، وأسرة ابن علي الشريف، وتناولت أسرتين كبيرتين كان لهما الدور الرئيسي في منطقة حوض الصومام وهما: أسرة أولاد مقران، وأسرة أورابح، وفي المبحث الثالث استعرضت توتر علاقة السكان بالسلطة في أواخر العهد العثماني، وتحدثت فيه عن موقف السلطة العثمانية من الصراع بين الأعراس والقبائل، ثم موقف الأسر الكبيرة في بجاية ونواحيها من ثورة ابن الأحرش، وفي المبحث الرابع تناولت الحملة الفرنسية على بجاية الأسباب والنتائج، ورد فعل السكان.

واحتوت الخاتمة ع استنتاجات توصلت إليها من خلال عرض فصول البحث، ولا أدعي أنني استوفيت الموضوع حقه، بل لا تزال بعض العناصر في حاجة إلى دراسة وتعمق وآمل أن يثرى بدراسات وأبحاث أخرى.

وقد واجهتني في بحثي هذا بعض الصعوبات أذكر منها على الخصوص، قلة المصادر المحلية المتعلقة بالموضوع، وما وجد منها لا يفيدنا بتفاصيل أدق وأعمق وأشمل للأحداث، واكتفائها بذكر الحوادث الكبرى فقط، رغم أهمية تلك الأحداث، على العكس من المصادر الأوروبية التي تركز على التفاصيل، وتضع أمام القارئ صورة متكاملة عن الحدث، وهذا ما جعلنا نواجه صعوبات كبيرة في الحصول على المادة الخيرية، وبالتالي توجب علينا أن نكمل هذا النقص في التفاصيل في المصادر المحلية، برجوعنا إلى المصادر الأوروبية من خلال القيام بترجمة النصوص وما يتبع ذلك من صعوبات حيث العديد من المصطلحات الأجنبية يصعب إيجاد الترجمة المناسبة لها.

ومن الصعوبات التي واجهتني كذلك أنني في رحل البحث عن المادة الخيرية وجمعها لم أعثر على دراسة أكاديمية تتناول الموضوع من قريب أو بعيد أهتدي بها، ولذلك وجدت نفسي مضطرا في أحيان كثيرة إلى الاعتماد على الكتب العامة.

كما واجهت صعوبة في تغطية كل عناصر البحث من ثمة الإجابة على بعض الإشكاليات في ظل غياب المادة المصدرية، ومن الصعوبات التي اعترضت سبيلي قلة الوثائق المصدرية فمعظمها موجودة في شكل ميكروفيلم وهي غير واضحة وقد وجدت صعوبة كبيرة في قراءتها وفهمها مما حال دون استغلالها استغلالاً جيداً.

وفي الأخير أتوجه بالحمد و الشكر إلى الله العليّ القدير على إتمامي هذه الرسالة، وأوجه شكري وامتناني للأستاذ الدكتور أحمد صاري على تحمله مشاق تتبع مراحل إنجاز هذا العمل حتى النهاية، و إلى كل من شجعني على مواصلة درب البحث العلمي وأخص بالذكر زوجتي التي كانت عوناً لي في كثير من الأحيان و تحملت انشغالي بإنجاز هذه الرسالة لسنوات، وأخي الهاشمي الذي لم يتوقف يوماً عن تشجيعي وتحفيزي على مواصلة دراستي، و تمنيت لو عاش أبي وأمي حتى هذه اللحظة ليشاركاني فرحة إنهاء الرسالة.

القادر للعلوم الإسلامية

# الفصل الأول: بجاية قبل مجيء

## الأتراك العثمانيين

المبحث الأول: المجال الجغرافي لبجاية ونواحيها

المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن بجاية ونواحيها

المبحث الثالث: الحالة السياسية في المغرب الأوسط في مطلع القرن السادس عشر

المبحث الرابع: استنجد سكان بجاية بالإخوة بربروس

المبحث الخامس: بجاية تحت الاحتلال الإسباني (1510-1555)

### المبحث الأول: المجال الجغرافي لبجاية ونواحيها

قبل التطرق إلى الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني في بجاية ومناطقها، يجدر بنا أولاً تحديد الإطار الجغرافي للمنطقة المراد البحث فيها وتتبع التطورات التي عرفتھا طوال فترة الحكم العثماني في الجزائر.

تقع مدينة بجاية شرق مدينة الجزائر العاصمة وشمال غرب مدينة قسنطينة، تطل على البحر الأبيض المتوسط، في ساحلها خليج تحميه كتل صخرية عالية من الرياح والعواصف جعلت منه ميناءً صالحاً لإرساء السفن خلال موسم الشتاء.<sup>1</sup> و بجاية الجزائر ب 180 كلم، وتقع في الجهة الشمالية الغربية من خليج يعرف باسم المدينة (خليج بجاية)، تبعد بأربع كيلومترات عن مصب نهر الصومام، وبنيت المدينة على ساحل البحر، عند منحدر جبل غورايا، الذي شيد السكان حصن للمراقبة في العصور الغابرة ويصل ارتفاعه إلى ستمائة وسبعون متراً (670 م) يحتوي الخليج على مرسى سيدي يحيى.<sup>2</sup> و فلكياً على خط طول 5.9° شرقي غرينيتش ودائرة عرض 36.49° شمالاً. تضاريسها يغلب عليها الطابع الجبلي مع بعض السهول الساحلية الضيقة أهمها سهل الصومام.

وتجمع الدراسات والكتابات إلى أن موقعها حصين وأنها بنيت عند منحدر جبل شديد الارتفاع، وهي ذات ميناء جميل ومحصن طبيعياً ومحمي من وادى الشتاء، إذ يمكنه استيعاب عدد كبير من السفن.<sup>3</sup> وأشار الضابط بوتان في تقريره إلى موقع بجاية الاستراتيجي وأشاد بمينائها الواقع على خليج رائع وودكر أنها كانت محمية بخمسة حصون مجهزة بالمدافع<sup>4</sup> وتحدث عنها المؤرخ الفرنسي لو روي "le Roy" في قوله "أنه لا يمكن الدخول إليها عن طريق البر إلا عبر وادي الصومام، حيث

<sup>1</sup> Jean le Roy : **Deux ans de séjour en petite Kabylie**, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1911, p15.17.

<sup>2</sup> Charles Féraud : «conquête de Bougie», p3.

<sup>3</sup> Lanfreducci et Bosio : «Côtes et discours de Barberia», trad de l'italien par Pierre Grandchamp, RA, n°66, 1925, p523.

<sup>4</sup> Boutin, Vincent-Yves : **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'Etat d'Alger**, Paris, 1830, p154.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

تخطيط بها الجبال من جميع النواحي إحاطة السوار بالمعصم، مما يجعل منها مدينة منيعة وقد جمعت بين المنعة وجمال المنظر<sup>1</sup> ولا تزال بقايا سور كان يحيط بها<sup>2</sup>.

وتشكل الجبال الكثيرة المحيطة بالمدينة حاجزا نبع السكان من التوسع في الوقت نفسه سدا منيعا يحمي ظهر المدينة التي وراية الذي ينحدر تدريجيا نحو البحر من الشرق إلى الغرب وينتهي بثلاثة رؤوس هي: رأس الفحم أو الرأس المثقوب، والرأس الأسود، ورأس الأبق المعروف عند السكان بـ "رأس سيدي المليح" في الجهة الجنوبية<sup>3</sup>. إن إ بجاية ونواحيها على البحر المتوسط وطبيعة تضاريسها التي تميزها الجبال والوديان، والمنخفضات والأحواض تتلقى كميات معتبرة من الأمطار تتراوح بين 600 ملم إلى 1100 في السنة<sup>4</sup>. يمتاز صيفها بالحرارة وشتاؤها غزير المطر ودافئ، ويمتد موسم الأمطار فيها من أكتوبر إلى مارس<sup>5</sup>، وعليه ففصل الجفاف لا يزيد طوله عادة عن خمسة أشهر في السنة. أما درجات الحرارة معتدلة عموما، إذ أن متوسطها السنوي يتراوح ما بين 6°م في المناطق المرتفعة، و قمم الجبال و 17°م في المناطق الساحلية<sup>6</sup>. كما تكسو قممها الثلوج في اسم الشتاء، مما يساعد على انحدار الأودية والجاري المائية من المرتفعات وتؤدي الينابيع التي تغذي أودية المنطقة معظم شهور السنة السكان حولها، إذ تتيح المناطق السهلية وتوفر المياه القيام بالنشاط الزراعي الذي كان يتركز أساسا على غراسة الأشجار المثمرة: كالتين والزيتون، اللتين تشتهر بهما المنطقة<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> Jean le Roy : op, cit, p8.

<sup>2</sup> M. Renaudot : **Voyage à Alger, ou description de cette ville, de ses environs du Royaume d'Alger, avec l'état de ses forces, de terre et de mer**, le Coint, Paris, 1830, p25.

<sup>3</sup> Eugène Daumas: **Mœurs et Coutumes de l'Algérie**, éd, ANEP, Alger, 2006, p67.

<sup>4</sup> عبد القادر حليمي: **جغرافية الجزائر: طبيعية بشرية، اقتصادية، مطبعة الشركة الجزائرية، 1968، ص ص 80 -**

<sup>5</sup> L. Billiard et autres: **Les Ports et la navigation de l'Algérie**, librairie la Rose, Paris, 1930, p152.

<sup>6</sup> Nedjma Abd el fettah Lalmi : **la Ville, l'urbanité et l'autochtonie, analyse de représentations dans les discours sur Béjaia**, université de Béjaia, 2000, p256

<sup>7</sup> Anonyme : **La Kabylie**, de Maistrasse et Wiart, Imp, Paris , 1921. p34.



## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

إن كميات التساقط المعتبرة التي تتلقاها المنطقة جعلتها تتميز بشبكة هيدروغرافية كبيرة تمثلها أودية: الساحل الذي يحمل اسم وادي الصومام قبل مصبه، "وادي أقريون، ووادي البارد" وغيرها من الأودية مما جعلها منطقة وافرة المحاصيل الزراعية.<sup>1</sup>

ويغطي المنطقة غطاء نباتي كثيف ومتنوع تبعا للعوامل التضاريسية والمناخية السابقة الذكر فنجد غابات أشجار البلوط، والصنوبر، والزان، والفلين، والأرز، والخروب وغيرها. في المناطق الجنوبية شبه القارية، نباتات وأحراش نبات الديس والدفلة والصبار، وعند سفوح الجبال تنتشر المراعي التي يستغلها السكان في تربية المواشي<sup>2</sup> وتوفر على نباتات نادرة تستخدم في الطب.<sup>3</sup> نوع النبات بالمنطقة ظاهرة هامة يجعلها صالحة لغراسه أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة وهذا ما يؤكد الرحالة الورتلاني الذي ذكر في رحلته: «و (القبائل الشرقية) كثيرة الشجر من زيتون، وعنب، وتين، كثيرة الفواكه إلا النخيل، والليم فليس فيها».<sup>4</sup>

أما بجاية فيحيط بها البحر من الشمال والشمال الغربي ومن الشرق والجنوب الشرقي السهول الخصبة ذات الإنتاج الفلاحي المتنوع العالي المردود، كان الناس يستغلونها حسن استغلال مما جعل البحجة الاقتصادية تعم البلاد وأهلها كما أكد ذلك الغبريني.<sup>5</sup> ويحدها جبل الغرب والذي كان يدها قديما بالمياه الصالحة للشرب، و بوخليفة من الشرق ووادي غير من الجنوب الغربي وهو الذي يوصلها بمنطقة حوض الصومام والهضاب العليا وتالة حمزة من الجنوب الشرقي.<sup>6</sup> ويفصل وادي الصومام بين جبال البابور التي تمتد إلى الشرق<sup>7</sup> ويحمل هذا الوادي تسميات مختلفة تبعا

<sup>1</sup> أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق رابح ر، ش. و. ن. ت، ط2، الجزائر، 1981، ص 4.

<sup>2</sup> عبد القادر حللمي: المرجع السابق، ص، 228.

<sup>3</sup> موسى لقبال: المرجع السابق، ص 3.

<sup>4</sup> الحسين بن محمد الورتيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. المشهورة بالرحلة الورتيلانية، تقدم محمد بن شنب، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر، 1908، ص 81.

<sup>5</sup> يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار لهدى، الجزائر، 2009، ص 42.

<sup>6</sup> Mouloud Gaid : Hitoire de Béjaia et sa région depuis l'antiquité jusqu' à 1954, SNED, Alger, 1976, p20.

<sup>7</sup> Ibid, p21.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

تبعاً للمناطق التي يمر بها، ف في قسمه العلوي "وادي الساحل"، ثم وادي أقبو ووادي الصومام ويسمى وادي بني مسعود عند المصب أو الوادي الكبير (إغزر أمقران بالأمازيغية)، وي عرضه في بعض الجهات إلى 40 أ، وأحياناً إلى 200 أ، ويتغذى هذا الوادي من عدة روافد أهمها: وادي بوسلام الذي يندفع من نواحي سطيف، ووادي أمسين و وادي غير الذي يعتبر أهم الروافد وأغزرها<sup>1</sup>. قد لعب هذا الوادي دوره في النشاط الفلاحي للسكان، كما كان يستعمل في النقل و المواصلات وكان يلعب دور التواصل الاجتماعي والثقافي المدينة وسكان المناطق المجاورة<sup>2</sup> وقد أثار هذا الوادي البديع ذي المياه العذبة انتباه كل الذين زاروا بجاية وأشاروا إلى أنه زاد من جمال منظرها ومن حصانتها.

ويكتسي موقع بجاية ونواحيها أهمية صانته الطبيعية، حيث يتميز الـ بانخفاض عدد الأيام التي تتخللها الرياح القوية، محمي مخاطرهما؛ ولا يعرف اضطرابات إلا في حالة وجود هيجان من الشمال الشرقي فضلاً عن وقوع الميناء في المنطقة الغربية لخليج بجاية وهو ما وفر مدخلاً واسعاً نحو الساحل بعمق 3500<sup>3</sup>. كما يحتوي هذا الساحل على ثلاث تعرجات كبيرة هي: تعرج سيدي يحيى، تعرج سيدي عبد القادر وتعرج الميناء الروماني، وهي التعرجات المحمية من الشمال بأراضي مرتفعة تمثلها الأراضي الرابطة بين رأس كربون (رأس الفحم) وجبل ثورايا في الغرب ومن الجنوب بالشاطئ (الساحل) ومحمية من جهة الشرق برأس كفالو (Cavalo)<sup>4</sup>. وقد تفتن الحكام الأتراك لخصانته فكانوا يحمون سفن الأسطول به خلال فصل الشتاء. وقد احتفظت لنا المصادر بمعلومات قيمة عن بجاية ومناظرها الخلابة، فقد سحر موقعها وجمالها الجغرافيون والمؤرخون

<sup>1</sup> Charles Féraud : «Histoire de Bougie», l'Oued-Sahel, n°1564, jeudi 4 Avril, 1901, p2.

<sup>2</sup> موسى لقيال: «مميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسطى» مجلة الأصالة، ع 19 1974 ص4.

<sup>3</sup> بلدة لعوانة حالياً التي تقع على بعد 35 كلم شرق مدينة جيجل.

<sup>4</sup> A. Lieussou : **Etudes sur Les Ports de l'Algérie**, Imp, administrative de Paul Dupont, 2<sup>em</sup> Edi, Paris, 1857, P 137.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

فسجلوا إعجابهم بما البلوي (4 / 10م) بأنها: "حاضرة البحر ونادرة الدهر"<sup>1</sup>. وذكر البكري (ت 1094م) في قوله: "أه مدينة أهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون مشى سيتطور بعد ذلك بفضل موقع المدينة ودار صناعتها وما يتوفر لديها من المواد الأولية بحيث يصبح أهم مرسى على هذه الشواطئ"<sup>2</sup>. وقال عنها العبدري (688 / 1289م): "بنت في موقع حصين في مكان محاط بالجبال الشاهقة، التي تعتبر بمثابة جدران تحمي ظهر المدينة ناحية البر، وفي الوقت نفسه تسمح بمراقبة البحر بسهولة، هذا الموقع الحصين جعل غزو المدينة في غاية الصعوبة"<sup>3</sup>. ونفس الملاحظة سجلها الرحالة التركي ييري رايس<sup>4</sup> الذي زارها في 1491 رفقة البحار كمال رايس<sup>5</sup> لم يخف إعجابه بموقعها المهيّب وبالسد المنيع الذي يحمي ظهرها من جبال عالية، فقدم لنا وصفا في : "يقع نصف المدينة في جبل مغطى بأشجار الصنوبر ويقع النصف الآخر بمحاذاة الشاطئ وهو عبارة عن سهل، وأما الجهة العليا من الجبل فهي

<sup>1</sup> خالد البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، ص 157. نقلا عن ابراهيم جدلة: المجتمع الحضري في إفريقية في العهد الحفصي، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات، جامعة قفصة، تونس، 2010 ص34.

<sup>2</sup> أبو عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (المسالك والممالك) نشر البارون دي سلان ط2، الجزائر 1913، ص 82.

<sup>3</sup> العبدري: المصدر السابق، ص 158.

<sup>4</sup> هو بخار وجغرافي تركي، قدم إلى سواحل غرب المتوسط رفقة به كمال رايس لنجدة مسلمي الأندلس، اشتهر بكتابه الذي "بحرية كتابي" و رسم فيه خرائط منها المدن وموانئ المطلة على البحر المتوسط. أنظر، مذكرات خير الدين بربروس: ترجمة محمد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 62.

<sup>5</sup> هو بخار تركي أرسله السلطان العثماني بايزيد الثاني لقيادة أسطول لإنقاذ مسلمي الأندلس بعد نداء الاستغاثة الذي بعثوا به إلى عقب سقوط غرناطة في أيدي الإسبان، فكان ينقل المسلمين واليهود الأندلسيين إلى سواحل الجزائر وتونس، أنظر، مذكرات خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 63. ويوحى تواجده في بجاية مع أسطوله أن الدولة العثمانية كانت في الواقع قد اتخذت بعض الموانئ الجزائرية كمحطات لها في حملاتها البحرية المتكررة لإنقاذ المتكويين الأندلسيين، ويدل قبول سكان هذه المدن والسماح للأتراك العثمانيين بالتزول في موانئهم على الأحوة الإسلامية وعلى السمعة الطيبة التي كان هؤلاء يتمتعون بها في سبيل الدفاع عن المسلمين وحم

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

شديدة الانحدار ولا يوجد بها أي حصن، ولهذا السبب تنزل القردة أثناء الليل، وفي الوقت الحالي (1491م) لا توجد حصون بالمدينة ولكن الخرائب لا تزال شاهدة على وجودها. ال بقايا وبالقرب من الميناء.<sup>1</sup> وكتب بيار دافيتي (1573-1635) يقول عنها: "تحتوي المدينة فنادق جميلة وشوارعها جميلة ومنتظمة، ويوجد قرب البحر قصر جميل مزين بلوحات ولوحات حصية وخشبية، وفي الجهة الشرقية من المدينة يقع مصب الوادي الكبير، و المدينة والمنطقة المحيطة بساتين الأشجار المثمرة".<sup>2</sup>

وفي 1720 زارها الرحالة الإنجليزي طوماس شو "أنها تتوفر على أهم ء في الإيالة الجزائرية، حيث يحتوي على رصيف طويل يمتد داخل البحر مبني بحجارة متقنة الصنع."<sup>3</sup> و انتبه المؤرخ الفرنسي جون لو روي Jean le Roy إلى بجاية في ل عنه أنه لا يوجد خليج في البحر المتوسط يضاهي في جماله. و يط بها الغابات والنباتات المتنوعة ويكثر فيها تمرركز السكان، الذين يتجمعون في قرى متناثرة تربط بينها مسالك ودروب وعرة و.<sup>4</sup>

نستنتج مما سبق أن موقع بجاية البري والبحري استجاب للاعتبارات التقليدية الأمنية، فجل أمسيون يحمي ظهرها، وقمته تراقب البحر والبر معا، كما ان وادي الصومام وفر لها منفذا نحو الهضاب العليا والصحراء، فضلا عن الموقع البحري الممتاز جعلها ميناء متوسطي عن جدارة، وهذا ما يفسر غناها وازدهارها السابق حين توفرت لها الإرادة السياسية الرشيدة، وقد جعلها هذا الموقع كذلك قبلة لطلاب العلم والعلماء فأصبحت مركز تشع منه العلوم والمعارف.

<sup>1</sup> Robert Mantran: **Pérris Reis**, op, cit, p36.

<sup>2</sup> Pierre d'Avity: op, cit, p191.

<sup>3</sup> Shaw: op, cit, p178.

<sup>4</sup> Jean le Roy : op, cit, p17.

أنظر كذلك:

Stéphen d'Estry : **Histoire d'Alger, depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours**, A. Mame, imp, Tours, 1845, p147.

المبحث الثاني: تاريخ بجاية ونواحيها

1- بجاية ونواحيها في العصور القديمة

أشارت الدراسات التاريخية والأثرية أن بجاية كانت عامرة منذ العصور الحجرية حيث قام م.أ.ديروج باكتشاف مغارة باشا التي تبعد بحوالي 1500 أسفل جبل وراية وتبعد عن بجاية بـ 2 وبالقرب منها اكتشفت مخابئ كلوزال، كما تم اكتشاف مخابئ الإبر في الجهة الشمالية الشرقية من ، وتدل هذه المواقع على الحضور البشري ببجاية وما جاورها في عصور ما قبل التاريخ مروراً بالعصر الحجري القديم حتى العصر الفينيقي.<sup>1</sup> وتدل الشواهد ما توصل إليه أحد الأثريين على أن القرطاجي هم أول من بنى مدينة بجاية وأطلقوا عليها اسم صالداي Saldae<sup>2</sup> وذكر زال (Stéphane Gzell) اعتماداً على ما أورده سترابون أن "Saldas" يعني الميناء الكبير<sup>3</sup> وفي حوالي سنة 104 ق. م تمكن الرومان من الاستيلاء عليها،<sup>4</sup> ويبدو أنهم اكتشفوا الم الاستراتيجي للمدينة والميناء، فاعتنوا بها وأصبحت ميناءً ثم تعاقب عليها الوندال والبيزنطيون على التوالي.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> A. Débruge: «Abri sous roche à Bougie», R.S.A.C, Constantine, 1903, 76.

<sup>2</sup> A. Débruge: «Tombeau présumé Phénicien à Bougie», extrait du bulletin de la société archéologique de Sousse, n° 4, 1904, p4.

أنظر كذلك: دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص350.

أنظر كذلك:

Stéphane Gzell : **Atlas Archéologique de l'Algérie**, Paris, 1911.

L. Billiard et autres: op, cit, p152.

<sup>3</sup> Stéphane Gsell: **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, V5, librairie Hachette, Paris, 1927, 248.

<sup>4</sup> Ibid, p202.

<sup>5</sup> صالح يعيزيق: المرجع السابق، ص35.

### 2- بجاية في العهد الإسلامي:

عرفت بجاية في العصر الإسلامي " " وهو اسم استقرت في المدينة صالداي فأصبحت تعرف بهذا الاسم حسب ما ذهب إليه ابن خلدون<sup>1</sup>، ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب إلى الحقيقة ذلك لأن من عادة البربر أن يطلقوا اسم أول قبيلة تنزل بموقع ما على ذلك الموقع نفسه، ولا يزال سكان المدينة ومناطقها إلى يومنا هذا يفضلون إطلاق هذا الاسم على المدينة.

وفي سنة 708م تمكن الفاتح م سى بن نصير من انتزاع بجاية من الوندال وأصبحت تابعة للنفوذ الإسلامي، ثم بعد ذلك دخلت طي النسيان شأنها شأن بعض المدن الأخرى كمدينة جيحل والجزائر لا نكاد نجد لها ر بسبب ت المصادر العربية عن ذكرها خلال القرون الأربعة الأولى لفتح بلاد المغرب (من القرن الثامن حتى الحادي عشر الميلاديين)، ولم تظهر كمدينة هامة سوى في العصر الحمادي<sup>2</sup>. ووردت بجاية في المصادر الأوروبية في العصر الوسيط والحديث تسميات عديدة : Bougie<sup>3</sup> التي تعني الشمعة، وعرفت به عند الأوروبيون وحملت هذا الاسم طوال

الفترة الاستعمارية ولا تزال تذكر به عند الفرنسيين إلى الآن<sup>4</sup>، وبناء على قول فيرو يكون الفرنسيون أصحاب هذه التسمية الأخيرة ولعل لها علاقة بصناعة الشمع التي كانت تشتهر بها بجاية وكانت صدره إلى أوروبا كما يذهب إلى القول الكاتب الفرنسي ستيفان ديستري<sup>5</sup> Stephen d'Estry d'Estry<sup>5</sup> وشاطره مواطنه رونار Renard فيما ذهب إليه<sup>6</sup>.

أما في العصر الحديث فقد وردت في المصادر الأوروبية بأسماء عديدة : Bugia وبوزيا Busia وبيزانا Buzana وبيجا Bugea<sup>7</sup> كان الملاحون الإيطاليون يشيرون إليها

<sup>1</sup> عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، الكتاب الثالث، دار الكتاب اللبناني، 1969، ص 313.

<sup>2</sup> Gzell: op, cit, p202.

<sup>3</sup> Shaw: op, cit, p179.

<sup>4</sup> السير فون مالتسان: « تاريخ بجاية»، ترجمة أبو العيد دودو، مجلة الأصالة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ع 19 1974 ص 39.

<sup>5</sup> Stéphen d'Estry: op, cit, p39.

<sup>6</sup> Ibid, p39.

<sup>7</sup> Féraud: «Histoire des villes...», p 139.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

في خرائطهم خلال الفترة الممتدة من 1318م إلى 1524م بعدة تسميات: Bugia و Buzia و Buzana و Bugea و Bujia<sup>1</sup> ويذكر الرحالة التركي بيري راييس أن الفرنسيين يسمون بجاية Bougha ويسميها الأتراك بوجيبي Boudjiyé أما العرب فيطلقون عليها اسم بجاية<sup>2</sup>. Bédjaya

وارتبط ظهور بجاية على مسرح الأحداث مجدداً بعد اختفائها مدة طويلة من الزمن بالأمير الحمادي الناصر بن علناس الذي أعاد تأسيسها سنة (460 / 1067م)<sup>3</sup> وكان للزحف الهلالي على بلاد المغرب دوراً في إعادة بناء وتوحيدها إلى<sup>4</sup> سماها الناصرية نسبة إليه، ولكن الناس غلبوا عليها اسم ايث البربري وما تزال هذه التسمية الأمازيغية حتى اليوم هي الشائعة التداول لدى سكان بجاية و... وفي سنة 1152م استولى عليها عبد المومن الموحد وطردها الحماديين.<sup>5</sup> ويلخص لنا ياقوت الحموي قصة بناء بجاية في: "وسبب اختطاطها وما انطوي عليه من أحداث: ...مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري في حدود عام 457هـ بينها وبين جزيرة مزغناي (الجزائر) أربعة أيام كانت قديماً ميناء فقط ثم بنيت المدينة من لحف جبل شاهق، وفي قبيلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد وتسمى "الناصرية" أيضاً باسم بانيها وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخلصها من المنافع شيء إنما هي دار مملكة تركب منها السفن وتساغر إلى جميع الجهات وكان السبب في اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس، صاحب إفريقية أنفذ إلى ابن عمه "الناصر بن علناس" محمد بن البعبع رسوياً لإصلاح حال كانت بينهما فاسدة "ابن البعبع" "بجاية" وفيه أبيات من البربر قليلة فتأملها حق التأمل... وأشار عليه (أي على ال...) ببناء "بجاية" وأراه المصلحة في ذلك والفائدة التي الصناعة بها وكيد العدو. فأمر من وقته بوضع الأساس وبنائها بعسكره.. ولما توفي

<sup>1</sup> Eugène Reybaud: *Echo de Bougie*, 18 Mars 1928, p1.

<sup>2</sup> Pérré Reis: op, cit, p164.

<sup>3</sup> ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص339.

<sup>4</sup> اسماعيل العربي: «سياسة الناصر بن علناس اتجاه المهديّة» مجلة الأصالة، ع 19 1973، ص 19-30.

<sup>5</sup> رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص 135.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

الناصر سنة 481 / 1088م واصل ابنه المنصور الذي خلفه، ما كان عليه من اهتمام بعمران المدينة وكان معروفا بولعه بالبناء ، فأسس جامع "بجاية" وجدد قصورها ، وتأنق في احتطاط المباني...<sup>1</sup> و اشتهرت بجاية في العهد الحمادي بتجارها النشطة والمزدهرة داخليا وخارجيا<sup>2</sup> وقد ساعدها على ذلك امتلاكها أسطول بحري قوي ن يتصدى لغارات المسيحي في المنطقة.<sup>3</sup> وهذا ما يؤكد الإدريسي في : "ومدينة بجاية في وقتنا هذا أي في عام(548 / 1153م) مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة والقوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير بار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهـ يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتبن وكثير من سائر الفواكه بما ما يكفي لكثير من البلاد، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر، يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا"<sup>4</sup>.

وقد تمكن الموحدون من القضاء على ملك بني حماد في بجاية ونواحيها سنة 542 / 1145م ونج الحروب التي نشبت وقعت بين ابن ية والموحدين، حيث اغتتم ابن غانية فرصة ضعف الدولة الموحدية بسبب ثورة أعراب المنطقة عليها، وكذا تواطأ أمراء الحماديين معه، فتمكن من انتزاعها منهم سنة 580 / 1184م، وكان الاستيلاء على بجاية خطوة مهمة مكنته التوغل في المغرب الأوسط والاستيلاء على مدن أخرى منها مدينة الجزائر، وفرض الحصار على قسنطينة لكنه فشل في اقتحامها بسبب ومطاردة الموحدين له فاضطر إلى التوجه نحو بلاد

<sup>1</sup> ياقوت الحموي: معجم البلدان.

<sup>2</sup> روبر بارنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامس، ط1، بيروت، 1988، ص 409.

أنظر كذلك، رشيد مصطفى: «بجاية في الحماديين» مجلة الأصالة، ع 1 1971 ص ص 83-91.

<sup>3</sup> يحيى : المرجع السابق، ص42.

الشريف الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية، مقتبس من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بر

<sup>4</sup> الجزائر، 1957، ص63.



## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

الجريد بتونس.<sup>1</sup> وفي الوقت الذي كان ابن غنية يحاصر قسنطينة، أرسل الخليفة الموحي يعقوب المنصور أسطول بحري، وقوة برية، وكاتب سكان بحاية بأن ينفضوا من حول ابن غانية ويعودوا إلى طاعته ووعدهم بالصفح عنهم، فاستجاب السكان لدعوته وقاموا بفتح أبواب المدينة أمام جيوش الموحيين، فلما دخلوها سنة 581 / 1185م فرَّ أميرها يحي الذي كان قد ولاه أخاه غانية عليها والتحق به.<sup>2</sup> إلا أن دولة الموحيين ما لبثت أن اعترها الضعف والانقسام فاضمحت مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، لتقوم على انقاضها الدويلات الثلاث المعروفة وهي: دويلة بني (1228م) في تونس والشرق الجزائري و مركزها مدينة تونس. ودويلة بني عبد الواد أو بني زيان<sup>3</sup> (1235م) في وسط الجزائر وغربها ومركزها مدينة تلمسان. ودويلة بني مرين<sup>4</sup> (1248م) في المغرب الأقصى ومركزها مدينة فاس.<sup>5</sup>

ويمكننا أن نستخلص أن عوامل كثيرة ساهمت في الازدهار والرقى الذي بحاية خلال العهد الموحي، لعل من أبرز هذه العوامل المتمتاز على البحر من جهة و السياسة الرشيدة التي اتبعتها حكامها والتي ارتكزت على تنمية النشاط التجاري الخارجي والانفتاح على أوروبا،

<sup>1</sup> روبرار برنشفيك: المرجع نفسه، ص 37. أنظر كذلك مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث النهضة الجزائرية، ج 2 ط 2 الجزائر، 1963 .

<sup>2</sup> محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 ص 23.

<sup>3</sup> ينتسب المرينيون إلى مؤسس الدولة أبو يوسف بن يعقوب، وهم فخذ من بطون قبيلة زناتة البربرية.

<sup>4</sup> نسبة إلى قبيلة زناتة البربرية، أما أصل تسميتهم فمن جددهم زيان بن ثابت. لمزيد من التفاصيل حول هذه الدويلات الثلاث أنظر ابن خلدون، ديوان العبر، ج 7.

<sup>5</sup> عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر المغرب (1517-1659)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1983 ص 15.

أنظر كذلك، المهدي البوعبدلي: جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني ق: (10 - 13 ) لم المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2013 ص 271.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

ذات شهرة ومكانة على المستوى الدولي آنذاك، فهل سيستطيع الحكام الحفصيين الاحتفاظ بهذه الم  
المميزة أم لا؟.

خضعت بجاية للحكم الحفصي<sup>1</sup> 630 / 1230م السلطان أبو زكريا يحيى  
(625-646 / 1228 - 1249م) الذي تمكن من إخضاع ثم زحف على  
بجاية واستولى عليها بعد أن قبض على واليها، وسع حدود دول الفتيحة<sup>2</sup> وكانت مملكة بجاية  
الجزائر غربا إلى بونة شرقا ومن الزاب جنوبا إلى البحر المتوسط شمالا،<sup>3</sup> ثم تمكن أحد  
أمرائها من الاستقلال عن سلطان تونس عام 1368م، وحولها إلى عاصمة لمنطقة حكمه التي كانت  
تتد حتى قسنطينة شرقا، ومنطقة الزاب جنوبا، ولم تكن حدودها ثابتة حيث أحيانا إلى  
مشارف مدينة الجزائر، وقد ظلت حدود الغربية لمتغيرة لمدة زمنية طويلة تبعا للفتوحات  
والحروب التي خاضها السلاطين الحفصيون ضد أبناء عمومتهم بنو عبد الواد.<sup>4</sup> بجاية كثيرا  
نتيجة لذلك، ولا سيما أن هذه الحروب كانت تنشب بين المرينيين والزيانيين من جهة، وبين الحفصيين  
والزيانيين من جهة ثانية، حيث كانت كل قوة تحاول الاستيلاء عليه نظرا لموقعها الاستراتيجي، ولعل

<sup>1</sup> ينحدرون من الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتائي، زعيم قبيلة هنتاتة البربرية بأعالي جبال الأطلس  
بالمغرب الأقصى، ينسبه المؤرخون على عمر بن الخطاب(ض)، وكان صاحباً أميناً ومخلصاً للمهدي بن تومرت كما  
كان شديد الإخلاص للخليفة عبد المؤمن الموحيدي.

ألفريد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ط2 ترجمة وتحقيق عبد الرحمان  
بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص297.

لمزيد من المعلومات حول بني حفص أنظر: ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس : محمد الشمام،  
الطبعة3، المكتبة العتيقة، تونس: 1967 ص168 وما يليها.

وكذلك: محمد العروسي المطوي: المرجع السابق.

<sup>2</sup> محمد العروسي المطوي: المرجع ، ص 129.

<sup>3</sup> Boulifa: op, cit, p 54.

<sup>4</sup> لمزيد من التفاصيل حول الأسرة الحفصية يراجع: ابن أبي دينار: المؤنس، وابن أبي الضياف: إتخاف أهل الزمان  
بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان 1963، و ابن خلدون: المصدر السابق.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

ضعفها كذلك كان سببا في زيادة الأطماع حولها.<sup>1</sup> ولم يكن الأمراء الحفصيين يفرطون في الدفاع عن عاصمتهم، فكانوا يتصدون لكل من يحاول غزوها ولكن يبدو أن إحدى محاولات الم بالنجاح، فسيطروا عليها سنة 1347م غير أنهم لم واهما حيث استرجعها الحفصيون 1361م، في عهد السلطان أبو إسحاق إبراهيم الثاني (1357-1369) فعين على رأسها أحد أبنائه.<sup>2</sup>

ويظهر أن التنارع على بحاية يعود إلى أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية ويبدو أن النزاع سيشتد حولها بين أفراد الأسرة المالكة في نهاية العهد الحفصي يأتي ذكره بين أمير قسنطينة و سلطان بحاية. ورغم الاضطرابات التي عرفتها بحاية خلال العهد الحفصي كما رأينا، إلا أنها اضره للعلم ومركز إشعاع فكري وثقافي،<sup>3</sup> إذ كانت تنافس حواضر علم وقتئذ كالأزهر والزيتونة والقرويين، ولعل ذلك يعود إلى الحكام الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم حول تقريب العلماء ورجال الثقافة والفكر، وفي بناء المساجد والمدارس والمعاهد والكتاتيب والسهر على الوقوف عليها ماديا ومعنويا، ومن المؤكد أنه كان للتنافس بين الملوك الزيانيين والحفصيين دور في ازدهار الحياة الثقافية في كل من تلمسان و بحاية، حيث نتج عن هذا التنافس نتائج طيبة في هذا المجال. تتمتع بنشاط تجاري كبير حيث ظلت حاضرة السكان القبائليين و قبائلهم، بحكم موقعها بين القبائل الكبرى والصغرى، فكان القبائليون يقصدونها للاتصال بالخارج كما يقول روبر بارانشفيك<sup>4</sup>. ولما وصل السلطان أبو عبد الله الحفصي (1494-1526) إلى حكم تونس سنة 1494م أي سنتين بعد

مبارك الملي: المرجع السابق ج3، ص 257.

<sup>1</sup> Ernest Mercier : **Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus réculées jusqu'a la conquête Française** (1830), T. III, Ernest leroux éd, Paris, 1868, p 199.

<sup>2</sup> محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 640.

<sup>3</sup> M. Renaudot : **Tableau du Royaume, et de la ville d'Alger, et de ses environs, état de son commerce, de ses forces, de terre et de mer, description des moeures et des usages du Pays**, Librairie universelle P. Mongie Ainé, Paris, 1830, p232.

<sup>4</sup> روبر بارانشفيك: المرجع السابق، ص 417.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

سقوط غرناطة،<sup>1</sup> عين لحكم قسنطينة ابنه أبو بكر، ولحكم بجاية ابنه الثاني أبو العباس عبد العزيز. وعلى ما يبدو أن أبا بكر لم يكن راضيا على تعيينه على رأس قسنطينة، التي لم تكن تتوفر على مؤهلات بجاية، إذ سرعان ما دب الصراع بينهما بسبب هذا الأخير إلى توسيع منطقة نفوذه حتى بجاية وواحيها نظرا لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية. ومن المؤكد أن سلطة تونس يدل على ذلك بجرؤ أبو العباس عبد العزيز أمير بجاية حين السلطان عن الخيلولة دون تطور النزاع بين الأخوين إلى حد الاقتتال.<sup>2</sup> ورغم استقلال مدن قسنطينة وبجاية عن السلطة المركزية في تونس إلا أن علاقة حكام المدينتين سرعان ما عادت مع السلطة المركزية، حيث كان الإقليم المحلي يستجيب لطموح الأمراء وكان يحفزه، بل ويشيره في بعض الأحيان على حد قول روبر بارنشفيك.<sup>3</sup>

وأمام الضعف الذي كان ظاهرا على هذه السلطة، ازدادت أطماع أبا في الاستيلاء على بجاية، فشن الحرب على أخيه السلطان عبد العزيز، الذي كان على اطلاع بنواياه خصمه كان تصدى له، واستمرت الحرب 1507 إلى غاية الاحتلال الإسباني سنة 1510.<sup>4</sup> وعلى أية حال فقد قاد أبا بكر عدة حملات عسكرية على بجاية لكنه أخفق في الاستيلاء عليها بسبب قوة جيشه ووقوف القبائل المحيطة إلى جانبه من جهة، وحصانة المدينة من جهة ثانية. ومهما يكن أمر لا شك أن هذه الحرب قد ساهمت كثيرا في إضعاف بجاية، حيث تراجع النشاط التجاري مع الدول الأوروبية في هذه الفترة.<sup>5</sup>

ولعل مما زاد من ضعف دفاعات بجاية القوة البحرية والبرية التي أرسلها سلطانها لنجدة سكان وهران ومساعدتهم في صد حملة الإسبان بزعامة بيدرو نافارو 1509 كما أخبر بذلك مؤرخنا أبو

<sup>1</sup> حول حالة الضعف والانقسام الذي عرفته السلطنة الحفصية منذ اعتلاء السلطان أبو عبد الله محمد كرسى العرش (1494 - 1525م)، راجع، محمد العروسي لمطوي: المرجع السابق، ص 647 وما يليها. أنظر أيضا، برنشفيك: المرجع السابق.

<sup>2</sup> Féraud : «Conquête...», p338.

<sup>3</sup> روبر بارنشفيك: المرجع السابق، ص 422.

<sup>4</sup> Féraud: « Histoire des villes... » p339.

<sup>5</sup> Robin : La Grande Kabylie..., p95.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

علي المريني رغم انشغال هذا السلطان بالحرب السابقة الذكر مع أخيه أبي بكر وذلك السلطان الزياني له وبناءً على كلام المريني فإن السلطان عبد العزيز أمر بتجهيز جيش بجائي كان ينوي قيادته بنفسه إلى وهران، لكنه خشى أن يغتنم أبو بكر فرصة غيابه ويقوم بالزحف على بجاية ويستولي قيادة الجيش البري إلى محمد بن عبد الله الكناي.<sup>1</sup> كما أرسل في الوقت ذاته أسطولاً بحرياً، تعرض للهزيمة على يد الأسطول الإسباني الذي خرج لملاقاته لما علم بقدمه حسب ذات المصدر الذي ذكر أن خسائر المسلمين كانت كبيرة.<sup>2</sup>

وفي نهاية هذا البحث يمكن القول أن بجاية عانت الإهمال والتهميش لمدة طويلة، حتى جاء من أخرجها من طي النسيان في العهد الموحد، ثم عرفت الإنطلاقة الفعلية لازدهارها الحضاري في العهدين الحمادي والحفصي، وذلك راجع إلى المؤهلات الطبيعية والبشرية التي كانت تتوفر فيها، ونستنتج كذلك أن الحرب التي نشبت بين السلطان عبد العزيز وأبي بكر وفرت الظروف الملائمة للإسبان للاستيلاء عليها.

<sup>1</sup> محمد شريف سيدي موسى: الحياة الفكرية ببجاية من القرن السابع إلى بداية القرن العاشر الهجري (13-

16م) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2001/2000 ص ص 31 - 32 .

<sup>2</sup> Féraud: « Conquête de Bougie... », p250.

المبحث 1 : الحالة السياسية في المغرب الأوسط في مطلع القرن السادس عشر

1- الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية (1505 - 1511م) ودور العلماء والشيوخ الدينيين في قيادة حركات الجهاد:

الدولة الموحدية وسقوطها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ( السابع الهجري ) نشأت على أنقاضها ثلاث دويلات صغيرة كما سبقت الإشارة، وكانت الدولة الزيانية الأضعف قوة مما جعلها تتعرض لمحاولات الدولتين الأخرين السيطرة عليها وتوسيع نفوذهما على حسابها، وقد استمر هذا الوضع حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي حين ر الإخوة بربروس على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للمتوسط، والذي كان له دور في حدوث تطورات غيرت مجرى تاريخ المنطقة.

إن ضعف الدولتين الحفصية والزيرية - اللتان كانتا تقسمان المغرب الأوسط - واقتصاديا أدى إلى بروز قوى ووحدات محلية صغيرة كان يسودها التناحر والصراع،<sup>2</sup> فالمدن الساحلية كوهران وتنس وشرشال والجزائر ودلس وجيجل والقل إما كانت تحت حكم أمير زياني مستقل عن الدولة الزيانية كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس، أو تحت حكم أمير حفصي مستقل عن السلطنة الحفصية في تونس كالأمير عبد الرحمان في بجاية، وعمه أبو بكر في قسنطينة، أو تحت حكم مجلس منتخب من طرف سكان المدينة مثلما هو الشأن بوهران، أو شيخ قبيلة كالشيخ سالم التومي زعيم قبيلة الثعالبة بمدينة الجزائر.<sup>3</sup> الذي استطاع أن يستقل بالحكم بها مرتكزا على عصبية القبيلة السابقة الذكر، ومتحالفا مع الأرستقراطية التجارية التي نزحت من الأندلس واستقرت بالمدينة وسيطرت على تجارتها وحرفها<sup>4</sup> وأما في المناطق الجبلية فقد قامت إمارات وممالك محلية وراثية مثل

<sup>1</sup> عمار بن خروف: المرجع نفسه، ص16.

<sup>2</sup> المزيد من التفاصيل أنظر:

Mercier : op, cit, p 6 et suites.

<sup>3</sup> عمار بن خروف: المرجع السابق، ص 20. أنظر كذلك، أبو القاسم : المرجع السابق ج 1 ص 132 ومايليها.

<sup>4</sup> دلندة الأرقش وآخرون: مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات كلية الآداب متوبة،

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

<sup>1</sup> بجبال جرجرة (زواوة) بزعامة أسرة بن القا <sup>2</sup>، وإمارة أولاد مقران بمنطقة بني عباس في جبال البيان جنوب بجاية <sup>3</sup>. وفي المدن الداخلية بسطت بعض الأسر سلطتها كأسرة بني جلاب في ورقلة وتقرت والوادي، وسيطرت بعض القبائل على المناطق السهلية كقبيلة بني عامر في الجنوب الوهراني، والذواودة في منطقة الزاب <sup>4</sup>، وأما المناطق الجبلية المنيعية فقد ظلت مستقلة صعب على الأتراك أو على أية سلطة أخرى الاقتراب منها <sup>5</sup>. وكان الصراع بين الكيانات المغربية والإسبان في الربع الأول من القرن السادس عشر عنيفا في منطقة شمال إفريقيا، واشتد أكثر بظهور العثمانيين في المنطقة،

<sup>1</sup> تشكل مملكة أو إمارة كوكو مثل غيرها من الممالك البربرية، من تحالف مجموعة من القبائل تحت زعامة رئيس أقوى قبيلة، وكانت هذه المملكة تضم القبائل الساحلية وقبيلة زواوة، تأسست حسب أحد الكتاب في حوالي سنة 1515 بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان. أنظر، لحسين بن شيخ آث ملويا: القانون العرفي الأمازيغي، دار الخلدونية، الجزائر، 2006.

توالى على حكم مملكة كوكو أحمد بن القاضي لمدة ثلاث سنوات، ثم خلفه أخاه محمد لمدة ثلاثين عاما، ثم أحمد بن أحمد حفيد محمد بن أحمد الذي حكم مدة عشر سنوات وتوفي عام 1583 ناركا الحكم لابنه محمد بن أحمد، ثم تولى الحكم بعد هذا الأخير عمر بن القاضي، لكن بوليفة يذكر أن أحمد بن القاضي قتل عام 1527 ليحل محله أخاه الحسين الذي حكم المملكة مدة طويلة من الزمن.

أنظر:

Boyer Pierre : «Espagne et Coucou. Les négociations de 1598 et 1610», In: R.O.M.M, N°8, 1970. pp. 29. Boulifa: op, cit, p399.

<sup>2</sup> المعلومات حول هذه المملكة أنظر:

Tahar Oussedik : le Royaume de Koukou, E.N.A.L, Alger, 1986.

<sup>3</sup> تأسست الإمارة على يد سيدي عبد الرحمان في حوالي عام 1500 ثم انتقلت الأسرة إلى منطقة مجانة عام 1624 وتحولت إلى مشيخة، لمزيد من التفاصيل أنظر، لخضر بوطبة: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518- 1837)، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2006. (مذكرة غير منشورة).

<sup>4</sup> عمار بن خروف: المرجع السابق، ص 20. أنظر كذلك

Mercier : op, cit, p5.

<sup>5</sup> دلندة الأرقش وآخرون: المرجع السابق، ص33.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

كقوة إسلامية ومساهماتهم الحاسمة في مصيرية الشعوب الإسلامية مشرقا ومغربا و على إنقاذ المسلمين الأ بتوفير كافة المساعدات إليهم وتقوية جانب المسلمين على أعدائهم في المنطقة وكذلك رد هجمات الإسبان وإحباط مخططاتهم، وهذا ما فسّر من طرف القادة الإسبان بأنه تهديد مباشر لسلامة أراضي وبالتالي يمثل خطرا على الوحدة الروحية للمسيحية.<sup>1</sup> وكان الإمبراطور شارل الخامس<sup>2</sup> الذي خلف فرديناندو الكاثوليكي يسعى إلى التوفيق بين المسيحيين<sup>3</sup> وتوحيد الجهود وتوجيهها لمحاربة الأعداء المسلمين.<sup>4</sup>

وقد وفر هذا الوضع بطبيعة الحال للإسبان الظروف الملائمة لشن الغارات على المنطقة،<sup>5</sup> انتصبوا في مطلع القرن السادس عشر على سواحل المغرب الأوسط فركزوا حامياتهم بالموانئ وسيطروا على بحاله البحري بحيث سقطت المدن الساحلية في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، دون أن تتمكن السلطة القائمة من المواجهة نتيجة الضعف المتأصل بها، وتراجع قاعدتها البشرية والترابية والاقتصادية،

<sup>1</sup> Tal Shuval: op, cit, p6.

<sup>2</sup> ويعرف بشارلكان ولد عام 1500 ورث عرش إسبانيا عن والدته جان ابنة الملك فرديناند وإزابيلا اللذان طردا المسلمين من الأندلس، عين أميرا على ألمانيا بعد موت جده لأبيه مكسيمليان، عين إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة فرديناندو الكاثوليكي سنة 1516 قضى حياته في محاربة الملك الفرنسي فرانسوا الأول، وحارب خير الدين وحاول الاستيلاء على الجزائر لكنه لم يفلح، كما حارب المذهب اللوثيري وأتباعه واضطهدهم، ولما ينس من الحروب والصراعات تنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني سنة 1556 واعتزل الحياة في دير حتى توفي 1558.

<sup>3</sup> أوروبا في هذه الفترة تعيش الحروب الدينية وبوادئ الانقسام الديني بعد أن جهر المصلح مارتن لوثر بدينه الجديد والذي أصبح يعرف بالدين البروتستانتي أو اللوثيري. لمزيد من التفاصيل أنظر: عبد العزيز سليمان نوار و عبد العزيز نعنعي: تاريخ أوروبا المعاصر. وعبد المجيد نعنعي وعبد المجيد البطريق: التاريخ الأوروبي الحديث. و عبد المجيد : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعصرة 1453-1848 دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983.

<sup>4</sup> عبد الجليل التميمي: «الخلفية الدينية للصراع الإسباني - العثماني على الإيالات المغربية خلال القرن السادس

« المجلة التاريخية المغربية، عدد 10-11 1978، ص ص 8-9 .

<sup>5</sup> حول أهداف الغزو الإسباني راجع، عمار بن خروف: المرجع السابق، ص ص 20-21.



## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

فقد حل الضعف والهوان بمملكة الزيانيين بعدما تقلص نشاطها التجاري مع السودان والمغرب الأقصى، وتناحر حكامها فلم تتمكن من توحيد المغرب الأوسط.<sup>1</sup> وقد زاد تواطؤ بعض ملوكها ومع الإسبان وتآمرهم معهم من فقدائهم مصداقيتهم لدى السكان، وفي نفس الوقت إثارته إسبانيا إثر اتحاد مملكتي أراغون وقشتالة (بعد زواج ملكة قشتالة إزابيلا مع فرديناندو ملك الأراغون) وفي إطار حروب الاسترداد "Reconquista" رأت الحكومة الإسبانية أن تتعقب مسلمي الأندلس- الذين فروا من الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها على يد المسيحيين الكاثوليك أو هُجروا منها والتجأوا إلى سواحل الشمال الإي - عدة حملات عسكرية عنيفة ومفاجئة على السواحل الجزائرية، انتهت باحتلال المرسى الكبير عام 911 / 1505م ووهران وتنس 915 / 1509م وبجاية 916 / 1510<sup>2</sup> ومما لا شك فيه أن احتلال هذه الثغور شبيهة الإسبان في المضي قدما نحو احتلال المزيد المدن الساحلية الاستراتيجية<sup>3</sup> حيث سارعت هذه المدن إلى إعلان للإسبان خوفا من تكرار مجازر وهران والمرسى الكبير وبجاية، فخضعت تنس وشرشال، ثم مستغانم ومدينة الجزائر التي أصبح سكانها تحت رحمة المدافع التي نصبها الإسبان قبالة المدينة على جزيرة صغيرة تسمى حصن البينون (Le Pénon)<sup>4</sup>، وقد أثار سقوط تلك المدن الاستراتيجية في يد الإسبان الرعب لدى سكان المدن الأخرى فأسرعن إلى الإعلان عن خضوعها وقبولها التبعية بالشروط الإسبانية<sup>5</sup> تلمسان تلمسان التي أظهر ملوكها المتناحرين المتصارعين ضعفهم في مواجهة الإسباني بل ذهب بهم الحال إلى الاستنجاد بالعدو.

<sup>1</sup> دلندة الأرقش وآخرون: المرجع السابق، ص33.

<sup>2</sup> : «الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس أسبابه ومراحلته» مجلة الأصالة، ع 14- 15 1973 ص 241.

<sup>3</sup> Bartolomie Bennassar : **Histoire des Espagnoles, 1. du VI<sup>e</sup> au XVII<sup>e</sup> siècle**, Armand Colin, éditeur, Paris, 1985, p 590.

<sup>4</sup> كلمة البينون تعني في اللغة الإسبانية الصخرة العالية عند الأهالي برج الفنار. أنظر، de Henri Delma de Grammont : **Histoire d'Alger sous la domination Turque**, Ed, Bouchène, Paris, 2002, p 42 et suivantes.

<sup>5</sup> عمار بن خروف: المرجع السابق، ص 21.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

ومن الحقائق التي يجب الاعتراف بها ذلك الدور الكبير الذي لعبه العلماء والشيوخ الدينيين في الوقوف في وجه الغزو الخارجي للمدن الساحلية الجزائرية، في ظل عجز السلطات التي كانت قائمة حينئذ عن القيام بهذا الدور، حيث يخبرنا عبد الجليل التميمي أن أحمد بن القاضي الغبريني هو من ترأس سفارة أعيان مدينة الجزائر إلى اسطنبول حيث أحاط فيها السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520)<sup>1</sup> بوضعية الدويلات المغاربية وصراعها مع إسبانيا الكاثوليكية<sup>2</sup>. وهذا يدل على أن العثمانيين كانوا يشعرون أن أقرب الناس إليهم هم المرابطون ورجال التصوف، وكانوا يطمئنون لهم ويحلونهم ويتبركون بهم وتقربوا منهم<sup>3</sup>.

والأمر الذي يجب تأكيده هو أن الإحساس المشترك الخطر المسيحي هو من جمع بين الجزائر والأتراك العثمانيين ا يقاتلون العدو جنبا إلى جنب، و لمعثمانيون أن ا على الفضاء الجغرافي والسياسي والعمراي والاجتماعي للمنطقة، وذلك قبل ظهور الإخوة بربروس على مسرح

<sup>1</sup> السلطان الغازي سليم الأول بالتركية العثمانية وغازي ياوز سلطان سليم خان أول الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعون، وأول من حمل لقب "أمير المؤمنين" من آل عثمان. الدولة العثمانية 1512 حتى سنة 1520 يُلقب "أو" الشجاع " الأتراك نظراً لشجاعته وتصميمه في ساحة المعركة، ويُعرف في الغرب بأسماء سلبية، فكان الإبن "السلطان سليم العا" (Selim Le sombre)، نظراً لما يقوله بعض المؤرخين بأنه كان دائماً الوجه. ويعرف عند الفرنسيين باسم سليم الرهيب. (Selim le terrible) الأول عرش السلطنة بعد انقلاب قام به على والده، "بايزيد الثاني" الإنكشارية وحقاقان القرم، ونجح بمؤازرتهم بمطاردة إخوته وأبنائهم والقضاء عليهم الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق له منازع في الحكم. وفي عهده ظهرت السلالة الصفوية الشيعية في إيران وأذربيجان ونشبت بينها وبين العثمانيين حرب ضروس انتصر فيها السلطان سليم، ومن ثم حول أنظاره نحو السلطنة المملوكية فغزا أراضيها وقضى عليها نهائياً بعد أن استمرت 267 . خلفه ابنه سليمان القانوني بعد وفاته سنة 1520.

<sup>2</sup> عبد الجليل التميمي: «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين» المجلة التاريخية المغربية، العدد 23-24، 1981، ص 56.

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 469.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

الأحداث في هذه المنطقة<sup>1</sup>. ويذهب بوليفة إلى القول أن سبب احتلال بجاية يعود إلى المساعدات التي وللغارات التي كان يقوم بها قراصنتها انتقاما من المسيحيين ونصرة إخوانهم في الدين، كما أنها أصبحت مع نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر إلى قاعدة لنشاط غير معهود للبحارة الأتراك قبل استنجد سكانها بالأخوين عروج وخير الدين، ويعزز هذا الكلام نقله مصدر معاصر (دون أن يفصح عن اسمه) أن بحارة من جنوة انتقلوا من بجاية إلى منورقة وأخبروا سلطات هذه الجزيرة أنهم شاهدوا سفينتين من نوع الغالير وجليوطتين مجهزتين ب13 و18 بهذه المدينة تابعة للأتراك.<sup>2</sup>

وعلى أية حال فإن الاحتلال الإسباني في شل الحركة التجارية في بجاية ونواحيها الفضاء التجاري للسكان من جهة البحر بهم الضرر، حيث كانوا يعتمدون على التجارة في نشاطهم الاقتصادي، الأمر الذي جعلهم يصرون على تحرير مدينتهم، وهو ما يفسر إفا الأمير الحفصي عبد الرحمان والبعض الآخر بالأمير أبي بكر الحفصي، لكن فشل الأمير جعل آمالهم تتعلق بالإخوة بربروس -الذين بدأ تجمعهم يلمع في الحوض الشرقي للمتوسط- يترددوا في الاستنجد بهم، مع شيخهم ابن القاضي -إن صحت هذه الرواية- مساعدة هؤلاء الإخوة بربروس الذين لم يكن بوسعهم رفض هذا الطلب.<sup>3</sup> فلم يكن يعنيه الصراع هذين الأميرين على ما يبدو بل كان هدفهم الأساسي تحرير بجاية. والظاهر أن فشل عروج وخير الدين في افتكك بجاية في كلتا المحاولتين، والضرر الكبير الذي لحق بالسكان المجاورين لهذه المدين اضطرتهم إلى التعامل مع الحماية الإسبانية عن طريق التجارة.

ولم تكن قبائل زواوة المتحصنة في جبال الجرجرة في الواقع معزل عما كان يحدث في البحر المتوسط من صراع بين المسيحيين والمسلمين، حيث قام بدور التحذير من الخطر المسيحي المرابطون وكذا الأندلسيون الذين لجأوا إلى المنطقة فشعرت زعامات هذه المنطقة بالخطر الحقيقي بعد سقوط مدن دلس وبجاية في أيدي الكفار فكان عليهم أن يكونوا السابقين في حمل السلاح لمواجهة هذا الخطر الداهم، لكنهم كانوا في حاجة إلى شخصية فذة تقودهم وتؤطرهم في ظل محدودية الإمكانيات، حيث

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص131 .

<sup>3</sup> Boulifa : op, cit, p89.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

كان السكان بملكون أفضلية الحصانة الطبيعية، وكذا الحماس الديني، ان  
عدو أكثر تنظيمًا وتسليحًا.<sup>1</sup>

يقول الشيخ المهدي البوعبدلي واصفا الحالة السياسية في المغرب الأوسط: "كان خطر الحملة الصليبية في كل من المغرب والجزائر ا ملوكهما عن الدفاع، سببا في توحيد صفوف السكان والتفاهم نحو زعمائهم المختارين، ولم يكتفوا باختيار الزعماء ومبايعتهم، بل صاروا دعاة لجمع كلمة الزعماء أنفسهم منذرين لهم بالخطر الذي يهدد البلدين."<sup>2</sup> ومما لا شك فيه أن عبد الرحمن الثعالبي - الذي كان آنذاك (أي أواخر القرن التاسع الهجري) على رأس إمارة "الثعالبة بمدينة الجزائر وسهول متيجة يحكم المنطقة حكماً ذاتياً-<sup>3</sup> يكون قد عانى كثيراً من الهجمات الصليبية، ولا يستبعد أبداً أنه كانت له اتصالات مع العثمانيين<sup>4</sup> بحكم رئاسته لقبيلته، وبحكم شهرته كرجل روحي كبير،<sup>5</sup> يذكر المنور مروش أن أسفاره في عدة جهات سمحت أن تكون له فكرة عن الصراع الدائر بين القوى الإسلامية والمسيحية في البحر المتوسط، كما سبقت الإشارة إليه، و كان يدرك نوايا الإسبان في شن حملات غزو على سواحل المغرب الأوسط، وكان يتوقع هجوماً أوروبياً على بحاية كرد فعل على استيلاء العثمانيين على القسطنطينية رأى أنه من واجبه أن يحذر سكان هذه المدينة، فبعث إلى علماء وأعيانها فيما بين سنتي 1453 و1471 وقد ذكر هذا العالم أن الرسول (ص) هو من أخبره في ، كما ذكر أنه تمكن من تحذير سكان مدينة الجزائر من الخطر المسيحي المهدق بهم، واستجابوا إلى نصائحه لهم بالاستعداد للدفاع عن مدينتهم وصد الغزاة.<sup>1</sup> وأهم ما يمكن استنتاجه من هذه الرسالة

<sup>1</sup> Boulifa : op, cit, p90.

<sup>2</sup> المهدي البوعبدلي: «الحياة الف في عهد ال و ا : الحفص والتركي و آثارها» مجلة الأصالة، ع19 مارس 1974 133-147.

أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007 ص، 208.

<sup>3</sup> عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف ش.و.ن.ت، الجزائر، (د.ت) ص25.

<sup>4</sup> وليم سينسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب، عبد القادر زيادية، ص31.

<sup>5</sup> Tahar Ousdik: op, cit, p58.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

هو ذلك الفراغ السياسي الرهيب، وفقدان سلطة تجمع كلمة الأهالي، والقبائل المنتشرة في ربوع هذه الأرض، فلم يجد الثعالبي سلطاناً لهذه البلاد يوجه إليه خطاب الجهاد، وحماية الشواطئ من مدهمة "بني الأصفر" لها - .<sup>2</sup>

ويبدو أن ابن القاضي كان الموصل لجهود الثعالبي في التصدي للغزو المسيحي، والمنفذ لتحذيرات ذلك أنه بعد سقوط النظام الحفصي في بجاية اعتبر نفسه سيداً على منطقة زواوة التي كانت بجاية حاضرتها وعاصمتها السياسية والإقتصادية والثقافية والدينية وحب الدفاع عنها واسترجاعها، تمكن من تجنيد آلاف المقاتلين من شرق ووسط البلاد، مستعينا بنفوذه القوي لدى السكان<sup>3</sup> وقدم الدعم للإخوة بربروس الذين كافأوه على جهوده بتعيينه حاكماً على المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط ما بعد لما تمكنوا من مد سلطانهم في المنطقة. وفي عام 1519 عينه خير الدين وأعيان مدينة الجزائر على رأس الوفد الذي حمل رسالتهم إلى السلطان العثماني.<sup>4</sup>

### 2- الاحتلال الإسباني لبجاية: 1510 وموقف السلطة الحفصية والسكان

سبق الحديث عن نجاح الإسبان في احتلال عدة مدن ساحلية، كانت مدينة بجاية من أهم هذه المدن، فماهي الظروف التي ساهمت في سقوطها في أيدي الإسبان؟ وكيف كانت ردة فعل السلطة الحاكمة والسكان؟.

تذكر الباحثة نجمة عبد الفتاح العلمي أن حملة بيدرو نارو على بجاية جاءت انتقاماً حاكمها الحفصي على مساهماته في إنقاذ المسلمين الأندلسيين<sup>5</sup> ثم المات التي أرسلها لنجدة سكان وهران في دفاعهم عن مدينتهم كما ذكرنا من قبل.<sup>5</sup> ويندرج غزو بجاية ضمن سلسلة الهجمات

<sup>1</sup> لمنور مروش: دراسات عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني، القرصنة، الأساطير والواقع، ج2، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص ص 56-57.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء...، ص 208.

<sup>3</sup> Boulifa : op, cit, p116.

<sup>4</sup> Boyer: art, cit, p27.

<sup>5</sup> Nedjma. A: op, cit, p52.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

الإسبانية على المدن الساحلية الجزائرية بتة من رجال الدين وعلى رأسهم الكردي ل الشهر بحقه على المسلمين والذي قيل أنه مول حملة وهران بنفسه.

ففي يوم 1509/11/30 أبحر القائد بدرو نافارو على رأس أسطول بحري 20 حربية كبيرة، 10 آلاف من وهران<sup>1</sup> في سرية تامة مدعياً أنه عائد إلى إسبانيا حتى لا تتسرب الأخبار إلى البحارة، و بعد إقامته في جزر البليار مدة شهر، شق طريقه نحو بجاية التي وصل إليها يوم 5 1510<sup>2</sup> الأوامر بالإنزال عند الميناء القديم (في شاطئ سيدي يحيى) عملية الإنزال بنجاح، وكانت الخطة تقضي بفرض حصار طويل المدى على المدينة ثم بعد ذلك بجيشه قرب سور المدينة و أكواخ من الخشب للاحتماء فيها. وفي هذه الأثناء كان سلطان بجاية عبد العزيز الحفصي متواجداً في كما سبقت الإشارة، بعد أن تمكن من طرد أخاه أبو بكر<sup>3</sup> فلما بلغه الخبر أرسل على الفور ابنه أبو فارس من قسنطينة على رأس قوة كبيرة لتدعيم المقاومة وإحباط خطة الاحتلال، كان جيشه يتألف من المقاتلين البربر و العرب جاؤوا من جميع المناطق، وعسكرت هذه القوات في الحدائق المحيطة بالمدينة وكان العلماء والمرابطون يحرضون الناس على الجهاد ويبثون فيهم الحماس قعت معارك عنيفة جيش المسلمين خسائر ثقيلة، عدد الشهداء حسب المريني 4550<sup>4</sup> ا فيهم العلماء والمرابطين والأ ، واستشهد الأميرين أبو فارس و أبو عبد الله وكان السلطان عبد العزيز عمارة ما كان يجري في بجاية ونواحيها من أحداث تلقى بألم شديد نبأ استشهاد ولديه أبو فارس وأبو عبد الله، فلما تلقى الأبناء سوى الأميران العباس وعبد الرحمان<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> كانت مدينة وهران والمرسى الكبير قد وقعتا في يد الاحتلال الإسباني سنتي 1505 و1509، لمزيد من المعلومات حول الاحتلال الإسباني لوهران أنظر:

Elie de la Primaudae: documents inédits...

<sup>2</sup> توفيق المدني: المرجع نفسه، ص121.

<sup>3</sup> هي قبيلة بربرية تقطن المنطقة الشمالية الغربية لقسنطينة، لمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق، مجلد 6 ص644.

<sup>4</sup> Féraud: «Histoire des Villes... », pp252-253.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

ويذكر المريبي أن الأمير عبد الرحمان فقد كل عائلته في تلك المراك. <sup>1</sup> وبعد ذلك قاد الجيش الأميران المذكوران الذان أصدرتا الأوامر على الفور بالإسراع في إخراج النساء والأطفال والمسنيين المدينة لحمايةهم، لما أدركا صعوبة التصدي للعدو وهي عادة سكان المنطقة في هذا العصر للتأثير على معنويات العدو، فاحتتموا الجبال المجاورة، بينما استمر الأميران المذكوران في قيادة المقاومة و الدفاع عن المدينة حتى الإسبان تمكنوا من احتلالها، اضطر الأميران إلى الانسحاب إلى منطقة بني عبد الجبار على يمين وادي الصومام ( 24 كلم عن بجاية) المقاتلين <sup>2</sup>. وخوفا أن يلحق بهم الأعداء التحنوا إلى بني عباس <sup>3</sup> وبينما ا حدث تجري في بجاية كان أمير قسنطينة أبو بكر الحفصي يتبع الأخبار إقامته في بلزمة في نواحي باتنة، فأراد أن ينتهز فرصة إخفاق أخيه السلطان عبد العزيز وولديه في إفشال الاحتلال فجمع قوة كبيرة من المقاتلين وقبائل المنطقة المتحالفين معه، ولا ندري الطريقة التي تمكن بها جمع هذه القوة، ومن المحتمل أنه لجأ إلى الخطاب الديني للتأثير على القبائل، وعلى أية حال فقد نجح في جمع الحشود، لكن السؤال الأهم ماذا يمكنه أن يفعل وماذا سيفعل بهذه الحشود؟ وهل بإمكانه تخليص بجاية من نكبتها؟ و مهما يكن من أمر فقد سار هذا الأمير على رأس تلك الحشود نحو بجاية أين خاض عدة معارك عنيفة ضد المسيحيين لمدة ثمانية أيام دون توقف، ولكن سرعان ما قتال جيش السلطان عبد العزيز وقوات أبي بكر الإسبان الفرصة في توجيه ضربة لجيش أبي بكر استشهد خلالها عدد كبير من أتباعه، ونجا هو بنفسه. وتشير المصادر إلى أن أتباع السلطان عبد العزيز كانوا يوجهون أسلحتهم إلى أتباع أبي بكر أكثر مما كانوا يوجهونها لأعدائهم الإسبان. <sup>4</sup> وقد ساعد هذا الخلاف بلا شك الإسبان انتصار و وامن السيطرة على بجاية. وبعد الهزيمة التي مني بها الأمير أبي انسحب خارج سور المدينة وعسكر بقواته في انتظار القيام بمحاولات أخرى من معسكره أن أحياه السلطان عبد العزيز جمع ما تبقى معه من قوة، وانطلق من قسنطينة قاصدا بجاية، فخرج للقاءه في الطريق وكانت المواجهة في منطقة تكرر كارت بين سطيف وبجاية قتل فيها السلطان عبد العزيز،

<sup>1</sup> Féraud: Ibid, p245.

<sup>2</sup> Féraud: « Conquête... », p255.

<sup>3</sup> Ibid, P256.

<sup>4</sup> Féraud: « Histoire des villes... », 234.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

فتفرق أتباعه وعاد الناجون منهم إلى قسنطينة.<sup>1</sup> حقهم أبا بكر بقواته وتمكن من دخولها والثأر من أتباع السلطان عبد العزيز المقتال.<sup>2</sup>

ويبدو أن الأمير أبو بكر كان مصرا على الاستيلاء على بجاية بعد اغتيال أخيه عبد العزيز، ورأى أن منح الإسبان مزيدا من الوقت ليس في صالحه، قرر السير على رأس جيش كبير للقيام بمحاولة أخرى لتخليص بجاية بجيشه في منطقة تكر كارت، أين التحق به وزيره الكناني ومعه مقاتلين من القبائل العربية. وبينما كانت المعارك شديدة بين المقاومين و الإسبان ظهر فجأة شخص غير متوقع اعتقد الإسبان أن العناية الإلهية من أرسلته لمساعدتهما في هذه البلاد الموحشة، هذا الشخص وهو مولاي عبد الله - وهو شقيق السلطان عبد العزيز حيث مرمول أن هذا الأخير سلب منه الحكم وأعماه وزج به في السجن- اغتتم فرصة المعركة وتمكن من الهرب من السجن ولجأ إلى الجبال المحاورة.<sup>3</sup>

فشل الأميران عبد الرحمان وأبو بكر إذن في إفشال خطة الاحتلال، فالأول لجأ مع تبقى من أتباعه إلى قلعة بني عباس كما سبقت الإشارة، وفي نفس الوقت عاد أبو بكر إلى عاصمة حكمه قسنطينة ليختفي بعد ذلك حيث لم تعد المصادر تذكره. أما القائد بيدرو نافارو المنتصر في هذه المعارك فقد استقبل بعد استيلائه على بجاية من طرف الأسقف الجديد على رأس جميع الكهان ورتلوا أمامه التراتيل الدينية، ثم شرع في الا ل البهيج.<sup>4</sup> و بعد أيام قليلة عاد مولاي عبد الله السابق الذكر إلى بجاية نقر من أتباعه حاملا الراية البيضاء<sup>5</sup> بيدرو نافارو و استمع إلى قصته عرضة فورا على طبيب الأسطول فأجرى عملية جراحية ناجحة فك بها أهداب عينيه فارتد بصيرا لأن قرنيه

<sup>1</sup> Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p 67.

<sup>2</sup> Féraud : **Histoire...**, p338.

<sup>3</sup> Féraud: « Conquête... », p339.

<sup>4</sup> لمزيد من التفاصيل حول الاحتلال الإسباني لبجاية يراجع

Marmol : op, cit, 416.

أنظر كذلك:

Pierre Dan: op, cit, p78.

<sup>5</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 378.



## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

وعصبة البصري لم يصا بأذى، فأعلن ولاءه لهذا القائد على حُ وأظهر استعداده للتعاون إذا استرد عرشه الموب فوافق القائد بيدرو نافارو بعد استشارة الملك، ثم أصبح مولاي عبد الله<sup>1</sup> هذا دليل القائد بيدرو نافارو لملاحقة الأمير عبد الرحمان وأتباعه في الجبال<sup>2</sup> وهكذا أصبح لبحاية ملكين أحدهما مواليا للإسبان وهو مولاي عبد الله، والآخر معتصما بالجبال وهو الأمير عبد الرحمان. وفي إحدى حملات بيدرو نافارو على معسكر الأمير عبد الرحمان رفقة مولاي عبد الله الذي دهم على مكان تواجده، يقول مرمول أنه ألحق به خسائر كبيرة وعاد بالغنائم المينة التي اضطر هذا الأمير عبد الرحمان على التخلي عنها، يقول مرمول: "وكان ما أخذوه تسعمائة من الجمال ومثلها من البقر، وعدد من الخيل والبغال والغنم والماعز، وقدرًا كبيرًا من الذهب والفضة، ولباس الحرير؛ ومجموع

<sup>1</sup> أرسل بيدرو نافارو يعلم الملك فرديناند قضية مولاي عبد الله الذي ظهر فجأة، فرد عليه على الفور برسالة تحمل تعليمات دقيقة نظرا لأهمية القضية، فأحيره بتعيين الأمير عبد الله ملكا على المناطق الداخلية على أن لا يشمل هذا التعيين بحاية لأنها أصبحت تابعة لإوما جاء في الرسالة التي بعث بها فرديناند: "لتكن المعاهدة مع مولاي عبد الله على الواقع الحاصل ولم تكن ذات مفعول دائم، وبما أن بحاية قد أصبحت ضمن ممتلكاتنا تنفيذًا للقرار الصادر بذلك من الكنيسة الرومانية فلا يمكن أن يعطى لمولاي عبد الله لقب ملك بحاية بل ليكن ملكا على أي مكان يختاره، فيما عدا البلاد الساحلية إذ أن مدينة بحاية وملحقاتها ومداحيلها وتولي الأحكام فيها وكذلك البلاد الأخرى والمدن والقرى الموجودة على ساحل البحر يجب أن تكون لنا وحدنا بحالصة بصفة تامة مطلقة، ولا يحق لمولاي عبد الله أن يدعي أي حق له عليها أو أي حكم على سكانها من النصارى أو المسلمين، وبما أن البلاد المذكورة ومدنها وقراها هي من ممتلكاتنا الخاصة فإننا نعترف لمولاي عبد الله بالملك على بقية البلاد الداخلية، من المملكة مع مداحيلها وأحكامها، إنما نحتفظ لأنفسنا بالحق الأعلى في الإشراف على القضاء الذي هو من حق السيادة، كما أن هذا الملك يجب أن يلتزم بدفع جزية سنوية نترك لك حرية تقديرها كما يسمح لعبد الله ومائة من أعوانه أن يسكنوا مؤقتًا ريبض بحاية إلى أن نجد عاصمة ملكه شريطة أن لا يبنى بذلك الريبض مسجداً". أنظر، توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة، ص.

<sup>2</sup> مرمول: المصدر ال، ص 379.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

جهاز الملك وأحجاره الكريمة" <sup>1</sup> فكانت هذه الحملة الثمرة الأولى للتحالف مع مولاي عبد الله. <sup>2</sup>  
واعتمادا على مخطوط المريني كانت خسائر المسلمين فادحة يث قدرها ب4500 <sup>3</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أعمال النهب والتخريب الذي تعرضت له مدينة بجاية على يد الإسبان،  
استولوا على فنيها ذخائرها وقاموا قصور ومنازل ومساجد بحثا عن الكنوز  
شهد بذلك المؤرخ إبراهيم المريني <sup>4</sup> فهدموا منارة قصر اللؤلؤة التي تعتبر من روائع الفن المعماري  
الحمادي، وهدوا قصر الكوكب وشيدوا الإمبراطور <sup>5</sup> وحملوا التحف الفنية إلى  
إسبانيا حسب بول وينتزر Paul Wintzer 1524 30 <sup>6</sup> وأكثرها غرق  
في الطريق كما أورد الجيلالي. <sup>7</sup> الرحالة التركي بيري رايس سياسة التخريب التي انتهجها  
الإسبان في بجاية حيث يقول: "أن مدينة بجاية تعرضت لغزو الإسبان، وقام الكفار بعد ذلك  
عمران المدينة التي أصبحت تحت رحمتهم." <sup>8</sup> وعبر الرحالة المغربي التمرغوطي عن أسفه وحسرتة عما  
آلت إليه بجاية بسبب الاحتلال الإسباني، بعدما أشاد بماضيها الزاهر حيث قال عنها: "إذ هي الآن  
خراب هدمها النصارى... ولم يبق بها إلا ديار قلائل على طرف البحر وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة." <sup>9</sup>  
وتحدث ليون الإفريقي عن هذه المنشآت في قوله: "وتتخذ عرضا على خاصرة البحر في مسافة لا يمكن  
تصورها، وكلها صروح مشيدة حسن البناء، توجد قرب الجبل قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة

<sup>1</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 378.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 378.

<sup>3</sup> Féraud : « Conquête de Bougie... », 339.

<sup>4</sup> Féraud : Ibid, p 339.

<sup>5</sup> -عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 205. أنظر كذلك:

Naima Mahindad Abderrahim: **Essai de restitution de l'Histoire urbaine de la Ville de Béjaia**, T1, (texte), mémoire de magistre, Ecole Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Université de Béjaia, 2001, p58.

<sup>6</sup> Paul Wintzer : **Bougie, place Fort Espagnol**, Paris, 1972, p201.

<sup>7</sup> عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج7، ط، دم ج، الجزائر 1994، ص 205.

أنظر كذلك، توفيق المدني : المرجع نفسه، ص122

<sup>8</sup> Pérrri Reis: op, cit, p164.

<sup>9</sup> التمرغوتي: المصدر نفسه، 16.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

بالفسيفساء والجص المفزع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازورد العجيبة، حتى إن هذه الأعمال الغنية تساوي أكثر من قيمة البناء نفسه.<sup>1</sup> ويقول الشيخ المهدي البوعبدلي عن التخريب الذي تعرضت له بجاية: "أما بجاية فإنها كما جميعا أصيبت بالاحتلال الإسباني الذي اشتهر كان أشد خطرا الكتب العربية المغول والتار والصلبيين الأولين"<sup>2</sup>.

وذهب بعض الكتاب إلى أن الإسبان قد تقدم المدينة عن آخرها لكي يحملوا السكان على الاستسلام.<sup>3</sup> وبناء على قول أحد الكتاب فإن الإمبراطور شارل كان يهدف إلى تكوين مستعمرة إسبانية في بجاية ويجعل سكانها عبيدا للإسبان إلا أن عجز عن ضمان التمويل المستمر للحامية العسكرية بسبب تربع القراصنة الجزائريين، أفضل حينئذ اضطر إلى إسباني بتعليمات من الإمبراطور إلى دعوة السكان الذين غادروا المدينة إلى العودة إليها، وعاهدوه ضمان حرية ممارسة شعائرهم الدينية، واحترام لغتهم ومزاولة نشاطهم التجاري المعتاد،<sup>4</sup> نداء سوى عدد قليل من الأسر الحفصية، أما الأندلسية ت إلى مدن الجزائر وقسنطينة وتونس، واستقرت بعض الأسر المحلية في الجبال المجاورة، و شهدت المدينة نزوح عدد من السكان الجبليين الذين فضلوا الاستقرار خارج منور المدينة حسب تعليمات الإمبراطور المذكور، وينتمي هؤلاء إلى : مزاية وفناية وزواوة وآيت جبار.<sup>5</sup>

ولسنا في حاجة إلى تأكيد التحصينات والتعزيزات العسكرية التي قام بها بيدرو نفارو في بجاية لإدراكه أن السكان لا يمكنهم تسليم المدينة بهذه السهولة، ولكن يبدو أن الحامية الإسبانية واجهت مشكلة عويصة لم تضعها في الحسبان، تمثلت في أزمة التمويل بسبب رفض السكان المجاورين التعامل معها تجاريا رغم المحاولات الإغراء الإسبانية، وفرضوا حصارا محكما على هذه الحامية، فلم يعد بإمكانها تجاوز أسوار المدينة.<sup>6</sup> وفي الواقع لم ي الإسبان يواجهون حصارا ومقاومة القبائل المحيطة، بل كان

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 50.

<sup>2</sup> المهدي البوعبدلي: الحياة الثقافية في الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1 2013، ص 59.

<sup>3</sup> Coulet du Gard : **la Course et la pératerie en Méditerrané**, éd, Empire, Paris, 1980, p30

<sup>4</sup> Y. Bouabba: **les Turcs au Maghreb Central**, Alger, 1972, p1.

<sup>5</sup> Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p246.

<sup>6</sup> René Coulet du Gard : op, cit, pp30-31.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

هناك عدو آخر أكثر فتكاً؛ إنه وباء الطاعون الذي كان يضرب بج حيث تخبرنا المصادر أنه أصاب بجاية سنة 1510 وكان يفتك ب 100<sup>1</sup>. فعلاوة على تجمع عدد كبير من الجند (15000 جندي) على سرعة انتشار العدوى مما جعل بيدرو نافارو يقرر نقل قسم كبير منهم لغزو طرابلس الغرب<sup>2</sup> وعاود نفس الوباء الظهور 1535 و عدد كبير من الأشخاص وصاحبه مجاعة رهيبه.<sup>3</sup>

بعد تفحصنا واستعراضنا فصول الاحتلال والمقاومة العنيفة التي لاقاها الجيش الإسباني فإننا نستغرب مما ذكره ليون الإفريقي من أن الإسبان تمكنوا من احتلال بجاية دون مقاومة من قبل السكان، فنقرأ : "ونظراً لأن سكان بجاية كانوا يعكفون على الملذات والمتعة وكانوا يرتجفون من الخوف للإشاعات التي تتصل بالحرب، حيث كانت الحرب لا تثير حماسهم ولم يكونوا متمرنين على أساليبها، فقد هربوا مع ملكهم عند مقدم بيدرو نافارو، وتركوا المدينة بكل ما فيها من الكنوز والتحف، التي غدت غنيمة في يد الإسبان، وقد استولى الإسبان على بجاية وقاموا بنهبها، ثم قام بيدرو نافارو ببناء قلعة منيعة على شاطئ البحر، كما قام ببناء قلعة أخرى ظلت مهدامة لوقت طويل، ووضع في القلعتين حاميات من الجنود وزودهما بالذخيرة والمؤن".<sup>4</sup> ويؤيده في القول المؤرخ الإيطالي بيار دافيني<sup>5</sup> ومحمد العروسي المطوي الذي أورد هو الآخر أن القوات الحفصية لم تحرك ساكناً عند احتلال بجاية،<sup>6</sup> بجاية،<sup>6</sup> ولكن يبدو القول أن سكان بجاية لم يقاوموا الجيش الإسباني، وأنهم كانوا يرتعدون خوفاً لسماعهم عن الحرب كما يزعم ليون الإفريقي بجانب للحقيقة، فلو كانوا كذلك لأخلوا المدينة لأنهم كانوا على علم بقدوم الحملة الإسبانية، كما فعل سكان مدينة طرابلس لما علموا أن بيدرو نافارو في

<sup>1</sup> Marol : op,cit, p425.

أنظر كذلك، فلة موساوي القشاعي: الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، (1830-1518)، ص 79.

<sup>2</sup> محمد العروسي المطوي : المرجع ، ص 656.

<sup>3</sup> de Grammont : op, cit, p17.

<sup>4</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 360.

<sup>5</sup> Pierre d'Avity: **Description générale de l'Afrique, seconde partie du monde**, c.sinnius, Paris, 1637, p192.

<sup>6</sup> محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 660.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

طريقه إليها لاحتلالها. وقد اعترف المؤرخون الإسبان أن المقاومة السكان كانت عنيفة وقوية، وأن انسحاب الأميرين الحفصيين العباس وعبد الرحمان وأتباعهما من الناجين إلى الجبال المجاورة إنما كان بعد تمكن الإسبان من السيطرة على المدينة<sup>1</sup> وهذا ما يؤكد كل من هايدو<sup>2</sup> ومرمول<sup>3</sup> ونعتقد أن اعتراف المؤرخين الإسبان بالمقاومة الشديدة التي واجهها الجيش الإسباني، ومنهم فيرارا وماريانا<sup>3</sup> وزوريطة<sup>4</sup> وخوان دو فيراراس<sup>5</sup> في الأقوال السابقة. ويذهب دوغرامون إلى التشكيك في صحة ما أورده المريني فيما يتعلق بالمقاومة الشديدة للغزو الإسباني ويرر ذلك بأنه لا يتوقع من مصدر محلي أن يذكر الحقيقة لأن ذلك يعد إنقاصا للسلطة الحفصية ومساسا لكرامتها، وفي يبرر قول المؤرخين الإسبان إلى أنه ليس من البطولة أن يدخل الجيش المدينة بدون تحقيق نصر مظفر.<sup>6</sup>

وأجمعت المصادر المعاصرة أن الحامية الإسبانية في بجاية عانت هجمات الأهالي وكانت هدفا لغاراتهم، حيث فرضوا عليها حصارا قاتلا في المراحل الأولى للاحتلال وهكذا فقدت الدولة الحفصية واحدة من أهم حواضرها وعجزت عن حمايتها والدفاع عنها كما عجزت قبلها السلطة الزيانية في الدفاع عن المرسى الكبير ووهران وغيرها من المدن الساحلية المهمة وال وراء ذلك ضعفهما وانقسامهما وتمزقهما.

<sup>1</sup> Marmol: op, cit, P345.

<sup>2</sup> Haedo: op cit, p356.

<sup>3</sup> خوان ماريانا Juan Mariana مؤرخ إسباني (1624-1537) من أهم مؤلفاته

**Histoire d'Espagne depuis Tubal, fils de Japhet, jusqu'à l'avènement de Charles-Quint**, publiée d'abord en latin (Tolède, 1592-95, 4 vol. in-fol.),

قام نفس المؤلف بترجمة الكتاب إلى اللغة الإسبانية عام 1598 في توليدو، وقد حصل بفضل هذا الكتاب على - ليف إسبانيا.

<sup>4</sup> جيرونيمو زوريتا (1580-1512)، كاتب ومؤرخ إسباني. كرس حياته لجمع وحفظ الذاكرة التاريخية لمملكة أراغون، وكان اسمه في أول مؤرخ المملكة في 1548. وشغل أيضا منصب سكرتير مكتب المقدسة من محاكم التفتيش ومجلس فيليب الثاني عام 1566.

عمله الرئيسي هو حوليات تاج أراغون، الذي كان يعمل لمدة ثلاثين عاما، الذي نشر سنة وفاته. من أهم مخطط كرونولوجي من الفتح الإسلامي إلى عهد فرديناند الثاني.

<sup>5</sup> Juan de Feraras: **l'Histoire d'Espagne jusqu'en 1589**, Madrid, 1720-1721, 16 volumes, traduits en français, 1751.

<sup>6</sup> de Grammont: op, cit, p36.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

وأمام الحصار الذي ضربه السكان على الحامية الإسبانية كان عليها التفكير في حل يُخرجها من هذا المأزق فكانت فكرة البحث عن حليف في المنطقة الداخلية الحل الكفيل، كما أن إحاطتهم بجبال شاهقة شديدة الوعورة توطن بها على القتال وشديدة العداة للكفار.<sup>1</sup> يدركون أن عليهم نب الصراع مع هذه القبائل رأوا أن وضعهم لا يسمح لهم سوى باتباع الأسلوب السياسي، وذلك من خلال محاولة إغراء سلطان قلعة بني عباس تمكنوا من الاتصال به طريق جواسيسهم وأخبروه أنهم يكون الاحترام والتقدير لأجداده الحماديين وأنهم يسعون على استعادة ملكهم الضائع. يبدو أن الذهب الإسباني قد أوتي ثماره حيث عقد معهم هذا السلطان التحالف<sup>2</sup> وكان يزودهم باحتياجاتهم المختلفة مقابل الذهب،<sup>3</sup> كما أبحر بذلك صاحب الغزوات.<sup>4</sup> وذهب دوغرامون إلى القول أن السلطان عبد العزيز كان يخطط لتأسيس مملكة على أنقاض مملكة الحفصيين ويتخذ من بجاية عاصمة له<sup>5</sup>، فهل كان يرغب في استعادة مجد الحماديين؟.

ويرجع بعض الكتاب تمكن الإسبان من احتلال المدينة إلى غياب السلطان عبد العزيز عن عاصمة حكمه، حيث كان متواجدا في قسنطينة<sup>6</sup>. ونحن نعتقد أن هناك مجموعة من العوامل ساهمت في نجاح الإسبان في الاستيلاء على بجاية، لا شك أن غياب السلطان عبد العزيز كان أحد العوامل.

وفي شهر جوان 1510 عين الملك فرديناند الدون أنطونيو رافانيدا حاكما جديدا لبجاية خلفا لبيدرو نافارو الذي غادر المدينة في نفس الشهر، وأعطى الملك للحاكم الجديد تعليمات صارمة تتعلق بحكم المدينة حيث إله رسالة مؤرخة في 23 أكتوبر 1511 يخول له فيها حق التعاقد مع أي طرف

<sup>1</sup> Said Boulifa: op, cit, pp 94-95.

<sup>2</sup> Ernest Mercier: **Histoire de Constantine**, J.Marle, et F .Biron imprimeurs éditeurs, Constantine, 1903, p198.

<sup>3</sup> Boulifa: op, cit, p94.

<sup>4</sup> مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر،

1934، ص 18.

<sup>5</sup> de Grammont: op, cit, p36.

<sup>6</sup> Féraud: Ibid, p246.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

شريطة أن يكون ذلك في مصلحة إسبانيا ويفضل التعاقد مع مولاي عبد الله، كما نصحه من خلال تلك الرسالة أن يتعامل مع الأمير عبد الرحمان كالكند ومع عبد الله كتابع<sup>1</sup>.

ومهما يكن من أمر فقد حقق الملك فرديناندو مكسبا عظيما لمملكته وللكنيسة المسيحية، فقد دفعت به نشوة الانتصار إلى التصريح بأنه سيواصل المعركة الصليبية وأنه سوف يتعقب المسلمين إلى أن يسترجع بيت المقدس وأنه سيتعاون مع فرسان جزيرة رودس ويستولي على مصر<sup>2</sup>. ولكي يطمئن الدول الأوروبية التي كانت تربطها علاقات تجارية مع بحاية سابقا، حرصا على مصلحة الحامية الإسبانية في المدينة، أعلن أنه سيحمي المبادلات التجارية. وبما ان حكومته لم تكن بمقدورها ضمان تموين مستمر للحاميتها في بحاية، كان جنود الحامية يغيرون على القبائل المجاورة، وكانوا يفرضون عليها إتاوات وغرامات متنوعة وكانت هذه القبائل قد أجبرت على الخضوع للإسبان تحت طائلة الفقر، والوضع الاقتصادي المزري<sup>3</sup>.

ومما يجب لفت الانتباه إليه أن دول أوروبا وشعوبها استقبلت خبر سقوط مدينة بحاية في أيدي الإسبان، با بتهاج والسرور وتلاوة لموات الشكر في الكنائس والأديرة، حيث اعتبر نصر عظيم بإمكانه أن يفتح الطريق لنشر المسيحية في ربوع هذه البلاد البربرية، حيث ذكر فيرو اعتمادا على مخطوط معاصر لهذه الفترة؛ أن أعضاء البرلمان الفرنسي أدوا في خشوع صلاة النصره الملك فرديناند في بحاية، وواضح جليا أن عدم مشاركة سكان جنوة وبيزا في هذه الاحتفالات، جمع إلى تم التجارة القوية مع بحاية، فوقوعها في أيدي الإسبان يعني توقف النشاط التجاري<sup>4</sup>. وإذا كان العالم المسيحي استقبل الحدث بالابتهاج والسرور فإن العالم الإسلامي أصيب بخيبة كبيرة، حيث ت أخبار سقوط هذه المدينة نزول الصاعقة على آذان سكان مدينة الجزائر وغيرها من مدن الساحل. مملكة بني مزغنة على سبيل المثال بات التواجد الإسباني بوهران وبحاية يهدد أمنهم وسلامتهم، وأمام هذه الفاجعة جمع سالم التومي أعيانه

<sup>1</sup> توفيق المدني: المرجع السابق، ص 132.

<sup>2</sup> توفيق المدني: المرجع، ص 135.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 136.

<sup>4</sup> Féraud : « Hitoire des villes...», art, cit, p 236-237.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

يستشيرهم في الأمر فأجمعوا على استرضاء الإسبان دفعا لخطرهم وانتقامهم ونفس الشيء فعله حاكم تونس الحفصي<sup>1</sup>، وهكذا سقطت بجاية في يد الغاصبين وهي التي كانت قلعة من قلاع العلم والثقافة ومنارة في البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحمادي والحفصي، فكيف ستصبح وهي تحت نير الاحتلال الإسباني؟ كيف تعامل الإسبان مع سكان مدينة بجاية والمناطق المجاورة لها؟ وكيف تعامل سكان بجاية و مع المحتلين الإسبان؟

يذكر السعيد بوليفة أن التحركات الإسبانية في منطقة الشمال الإفريقي أثارت مخاوف سكان المنطقة وأشعرتهم بالخطر الحقيقي الذي كان يهدق بهم فسارعوا جميعا عربا وأمازيغ إلى نسيان خلافاتهم من أجل الوقوف في وجه هذا الخطر الداهم، ومن أجل ذلك أجمعت كل زاوية وبجاية المتضررة من هذا الغزو، على ضرورة تجنيد كل الطاقات والإمكانات، لمحاربة العدو لإدراكهم أن أهدافه لن تتوقف في بجاية، بل ستمتد إلى أبعد من ذلك، بل هناك من ذهب إلى أن بعض مرابطي منطقة زاوية اقترحوا إبرام الصلح مع أمراء قلعة بني عباس أعداء التقليديين من أجل مواجهة الخطر المسيحي المشترك.<sup>2</sup>

وفي نهاية هذا المبحث يمكن القول أن النزاع بين أمير قسنطينة وسلطان بجاية قدم هذه الأخير على طبق من ذهب للإسبان، الذين تمكنوا من الاستيلاء عليها، وكانت النتيجة أفول نجمها الذي يسطع لقرون عديدة، كما نستخلص أن السكان قاوموا الاحتلال مقاومة شديدة، لكنهم أخفقوا في منع الاحتلال بسبب ضعفهم، فهل سيستسلمون للأمر الواقع؟ أم سيعملون على تحرير مدينتهم؟.

<sup>1</sup> توفيق المدني : المرجع ال ، ص126.

<sup>2</sup> Boulifa : op, cit, p90.



### المبحث الرابع: استنجد سكان بجاية بالإخوة بربروس

ارتبط تواجد الإخوة بربروس في بجاية ونواحيها بشخصية دينية من المنطقة سوف يكون لها دور بارز في ترسيخ الحكم العثماني ليس في بجاية فحسب، بل في كامل الإيالة الجزائرية، تتمثل هذه الشخصية في الشيخ أحمد بن القاضي.

#### 1- ظهور شخصية ابن القاضي وتأثيره في المنطقة:

لازم اسم ابن القاضي الوجود العثماني في الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر حتى نهايته تمت الإشارة، فقد لفت إليه أنظار الأخوين بربروس نظرا للمكانة التي كان يحظى بها بين بني قومه، وفي منطقة زواوة، إضافة خبرته السياسية والعسكرية، فلم يجدا في الواقع بديلا عنه على الأقل في مثل الظروف التي مرا بها في هذه الفترة العصيبة، ويبدو أن طموحه كان يتشابه مع طموح الأخوين المذكورين فجمع التحالف بينهم، حيث قدم لهما خدمات جليلة، لكن العلاقات سرعان ما توترت بين خير الدين بربروس وهذا الزعيم القبائلي، ولا توجد معطيات تاريخية دقيقة تفسر أسباب هذا الخلاف الذي نتج عنه تمكن ابن القاضي من من إبعاد خير الدين عن مدينة الجزائر والسيطرة عليها لسنوات،<sup>1</sup> لكن هذا الأخير تمكن بدهائه وحيلته وخبرته من القضاء عليه فُ على يد أحد أتباعه حسب رواية هايدو.<sup>2</sup> وبناء على ما أورد سعيدوني ترك ابن القاضي ثلاثة أبناء، احدهم بقي في جرجرة وهو الذي استمر في يقادة الإمارة، والثاني اتجه ناية الضنة، والإبن الثالث لجأ إلى الأوراس حيث أسس زاوية هناك استمرت في النشاط حتى الفترة الاستعمارية.<sup>3</sup>

إن تأثير الشخصية الدينية والخبرة الإدارية التي كان يتمتع بها الشيخ أحمد بن القاضي جعلت قبائل زواوة ترحب بإقامته بينهم، فاختار مقر حكمه في مكان التي تقع في أعالي واد (سباو) ويتوسط ثلاثة قبائل قوية هي آيت إيسوغر، آيت يحيى وآيت<sup>4</sup> وقد تمكن ابن القاضي بفضل نفوذه الديني من توحيد قبائل المنطقة تحت زعامته.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> المنور مروش: المرجع السابق ص 58.

<sup>2</sup> Haido: op, cit, p 323.

<sup>3</sup> سعيدوني: ورقات...، ص 493.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p114.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

قوة إمارة كوكو في هذه الفترة لتشمل كل السواحل الممتدة من جيغل شرقا إلى وادي سباعو غربا  
أورد روبان.<sup>2</sup>

وقد اختلفت الروايات حول كيفية اتصال الإخوة بربروس بسكان بجاية ونواحيها ويشير  
الشيخ المهدي البوعبدلي إلى هذه القضية ويذكر أن الآراء مختلفة ومتضاربة في بشأنها، فهو يذكر أن ابن  
القاضي وسالم التومي اتصلا معا بالإخوة بربروس، كما يشير إلى أن المعلومات المؤكدة حول ابن  
القاضي قليلة وغامضة، ولا يُعرف عنه سوى توليه القضاء في بجاية في آخر العهد الحفصي وهو خير  
أكد يقول أن بحوزته وثيقة تثبت ذلك<sup>3</sup>. وأورد خير الدين بربروس في مذكراته أنه « كان متجه  
مع أخيه عروج إلى مضيق سبتة قاصدا الأندلس، جاءه وفد من بجاية حاملا رسالة جاء فيها: " إن كان  
ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا  
القرآن الكريم. لما نلقاه من ظلم الإسبان. فما نحن نضع أمرنا بين أيديكم جعلكم الله سببا لخلاصنا  
سليمه إيانا إليكم، ففضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار."<sup>4</sup> ون حظ أن خير  
الدين لم يزودنا أكثر، أكثر اكتفى بذكر الوفد فقط دون أن يوضح لنا من أرسله ومن  
ترأسه وأين التقى بالأخوين عروج وخير الدين . وهناك رأي آخر يذكر أن أمير قسنطينة أبو  
الذي اتصل بالإخوة بربروس طالبا منهم المساعدة على استرجاع بجاية<sup>5</sup> ان يطمع في

<sup>1</sup> Tahar Oussedik: op, cit, p57.

<sup>2</sup> Joseph Nil Robin : **La grande Kabylie sous le régime Turc**, éd, Bouchène, Alger, 1999, p 39.

<sup>3</sup> المهدي البوعبدلي: «أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر  
الوهراني» مجلة الأصالة، عدد ممتاز، جوان 1972، الجزائر، ص279.

الأرشييف الوطني الجزائري: معاهدات سلم وتجارة بين الجزائر والقوى المسيحية خلال العهد العثماني، الجزائر،  
2001، ص9.

<sup>4</sup> مذكرات خير الدين بربروس المرجع السابق، ص 67.

<sup>5</sup> فبعد أن تمكن من إزاحة أخيه الذي كان يقف حجر عثرة أمام تحقيق حلمه في الاستيلاء على بجاية باغتياله،  
أخذ يدبر لافتكاك بجاية من الإسبان والاستيلاء عليها، غير أن إمكانياته الحربية لم تكن  
رأى أن يطلب المساعدة من الإخوة بربروس.

<sup>6</sup> Haedo: op, cit, p47.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

الاستيلاء على <sup>1</sup> وحسن السعيد بوليفة يكون اتصال أبو بكر بالإخوة بربروس جاء بعد أن يئس من مساعدة سلطان تونس الحفصي له حيث طلب منه مده بالجنود عبر البحر لكـ لم يجبه لطلبه<sup>2</sup>.

أما السعيد بوليفة رواية ثانية مفادها أن أحمد بن القاضي هو أول من اتصل بالإخوة بربروس حيث سافر للقائهم في تونس<sup>3</sup> ويؤيده في هذا الرأي محمد دراج<sup>4</sup>. في حين دوغرامون وإرنست واتبلد رواية ثالثة مخالفة للروايتين السابقتين، تقول أن أمير بجاية عبد الرحمان الحفصي الذي أرسل وفدا إلى الإخوة بربروس في تونس طالبا منهم المساعدة في تحرير بجاية<sup>5</sup> وهناك رواية أخرى انفرد بها إرنست يقول فيها أن سكان بجاية هم أول من اتصل بالإخوة بربروس في تونس<sup>6</sup>.

### 2- تدخل الإخوة بربروس في بجاية (1512-1514):

ومهما كانت الجهة التي اتصلت بهم فقد لبى الإخوة بربروس الدعوة وانطلقوا إلى بجاية بغرض افتتاحها ولا شك أن ابن القاضي - إن صححت الرواية التي ترجح أنه أول من اتصل بمؤلاء الإخوة - يكون قد وعدهم بمـ عدد كبير من المقاتلين من سكان القبائل الذين كانوا يوجدون في حالة استعداد لطرد الكفار من بجاية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عروج أصبح نتيجة للانتصارات التي حققها على النصارى في البحر المتوسط رجل الساعة (مول الساعة) وبطل الإسلام على حد قول المؤرخ طال شوفال<sup>7</sup>

<sup>1</sup>Jean- Louis, Belhachemi: **Nous les frères Barberousse corsaires et rois d'Alger**, p56.

<sup>2</sup> Boulifa: op, cit, p94.

<sup>3</sup> Ibid, p94.

<sup>4</sup> محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر (1512 - 1543) الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013 ص87.

<sup>5</sup> de Grammont: op, cit, p41.

Ernest Watbled: «Etablissement de la domination Turque en Algérie», in **RA** n°101, 1873, p353.

<sup>6</sup> Mercier : **Histoire de Constantine...**, p 427.

<sup>7</sup> Tal Shuval: op, cit, p18 .

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

بالنسبة لسكان القبائل الذين رأوا فيه خلاصهم من الخطر المسيحي الذي بات يهدد منطقتهم.<sup>1</sup> و المؤكد أن الإخوة بربروس لم يرغبوا في تفويت هذه الفرصة واتجهوا بقواتهم صوب بجاية في 12 أوت 1512<sup>2</sup> لانتزاعها من الإسبان، يقول صاحب الغزوات واصفا هذه المحاولة: " وأرسي بقرها فرأى خمسة عشرة جفنا من أجفان الكفار قادمين إلى بجاية فخرج خير الدين ومن معه من الأجفان إلى البحر طلبا للفسحة فظهر للكفار أنهم فروا منهم فحين توسط خير الدين البحر جعل يقلل في السير فقرب منه أجفان العدو طمعا فيه ورموا عليه بجملته مدافعهم وحين اشتغل الكفار بجملته مدافعهم هجم عليهم المسلمون فدهش الكفار من تلك المهجمة وكانت أجفان المسلمين التي قدموا فيها أربعة غرق عروج واحدة وأخذ خير الدين واحدة وفر الباقون إلى مرسى بجاية ثم إن خير الدين بعث الجفن الذي غنمه إلى تونس ورجعوا إلى المرسى التي كانوا فيها يريدون انتهاز الفرصة في عدو الدين فظهر لعروج أن يتزل في البر بطائفة من الغزاة ليضرب على العدو ببجاية فلم يساعده أخوه على ذلك لرؤيا كان رآها قبل ذلك فصمم عروج على ما أراده فرفع معه خمسين من الغزاة ونزل إلى البر مثل عدده من الكفار فاستأصلهم قتلا فلما قرب من أحواز المدينة رمى عليهم الكفار فأصيب عروج في ذراعه واشتد عليه الأمر بسبب الألم الذي حصل له فسمع أخوه بذلك فبعث له طائفة من الغزاة ليأتوا به فوصلوا إليه وحملوه إلى أخيه خير الدين فحين وصل إليه زاد به الألم وقويت عليه الجراح فأجمع الأطباء على قطع يده، فساعدهم خير الدين على ذلك وقال حياة أخي خير من موته فزاد عند ذلك ضعفه وكاد أن يشرف على الهلاك فأوصى أخاه بوصايا كثيرة من جملتها أن يكون سفره دائما في جفنه وأن لا يفارقه في هذه السفرة ليكون نظره عليه فركب معه في جفنه واستتاب أحد جماعته في جفن آخر.<sup>3</sup> وتؤكد هذه الرواية الرسالة التي بعث بها أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول حيث أخبروه أن "عروج جاء من تونس لإنقاذ بجاية من أيدي الكفار وتأهيلها

<sup>1</sup> Boulifa: op, cit, p100.

<sup>2</sup> P. Christian: L'Algérie de la jeunesse, (1847), Alph. Desesserts éditeur, Paris, 1847, p179.

أنظر كذلك، جون وولف: الجزائر وأوروبا، وتع أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 21 ومايليها.

<sup>3</sup> غزوات: المصدر السابق، ص 18. أنظر كذلك:

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

بن، فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه أبو العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنايتها، وشاهد الكفار عندما دخلوا القلعة المسلمون وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها، واحتلال بنيتهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة وقتل الباقون منهم. لقد حارب المسلمون الكفار أثناء الليل وأطراف النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة عروج القتال بقي المشار إليه (يقصد عروج) يقاتل الكفار مع جماعة قليلة.<sup>1</sup> وقول ليون الإفريقي عن هذه الحملة: "جاء بربروس على رأس ألف مقاتل تركي وعشرين أ وحاصر بجاية وبعدها اقتحم أحد حصني زحف على الحصن الآخر لكنه أصيب بطلقة مدفع فقطعت ذراعه فاضطر إلى الانسحاب تاركًا خلفه مقتل 100 جندي من أتباعه و500 الم ورحل إلى جيجل.<sup>2</sup> وقد لاحظ أحد الكتاب الفرنسيين أن سكان بجاية يذكرون أن عروج وإقدامه أثار حماس المرابطة. وراية تلك المرأة المدفونة في قمة الجبل، فاستيقظت ونزلت لمشاركته في تحرير بجاية وهي تردد الأناشيد لثبث الحماس في المقاتلين.<sup>3</sup>

يستنتج مما سبق أن إصابة عروج كانت السبب في رفع الحصار على بجاية، وعبرت هذه المحاولة على الرغم من إخفاقها على إصرار سكان المنطقة وعزمهم على تحرير مدينتهم بمساعدة الإخوة بربروس، لأنهم لم يكونوا يملكون العتاد الكافي لم يكن لديهم ما يكفي من التجربة والخبرة في قتال المسيحيين.

<sup>1</sup> راجع كذلك، عبد الجليل التميمي: «أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519» المجلة التاريخية المغربية، عدد، 197، ص 116 ومايليها.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 360.

أنظر كذلك، اسماعيل العربي: «بجاية من خلال النصوص الغربية» مجلة الأصالة، ع 17 - 18، الجزائر، 1982، ص 74.

<sup>3</sup> Gilbert Meynier : *l'Algérie, cœur du Maghreb classique, de l'ouverture arabo-islamique au repli (698- 1518)*, Ed, la Découverte, Paris, 2011, p307.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

وتذكر المصادر المعاصرة أن الإخوة بربروس بعد انسحابهم مروا على مدينة جيغل وتمكنوا طرد الجنويين الذين كانوا قد استولوا عليها بقيادة القرصان الشهير أندري دوريا<sup>1</sup> و إلى الجبال المجاورة لعدم قدرتهم على القتال، فعادوا إلى ديارهم وأملاكهم بمساعدة هؤلاء الإخوة<sup>2</sup> عوضوا فشلهم في اقتحام بجاية بالاستقرار في جيغل التي وجدوا فيها الملاذ وحسن الاستقبال.<sup>3</sup>

لم يشن إحقاق عروج في المحاولة الأولى<sup>4</sup> في استرجاعها، في من مرا . وبالرغم من فشل هذه المحاولة إلا أنه من المؤكد أنها كانت تجربة مفيدة لكلا الطرفين، فالسكان<sup>1</sup> ن من التعرف عن على قدرات الإخوة بربروس وأتباعهم ومهاراتهم في القتال<sup>4</sup> ومكنت هؤلاء من التعرف أكثر على تحصينات المدينة من جهة، وكذا التعرف على قدرات السكان القبائليين ومدى تحملهم المصاعب . وفي سنة 1514م أعاد الإخوة بربروس المحاولة حيث انطلقوا من جيغل على رأس قوة بحرية تتألف من 12

1100 جندي تركي - دون أن ينتظروا دعوة من ملكها الذي فر إلى الجبال- وعندما وصلوا إلى بجاية التحق بـ هذا الملك مع المقاتلين القبائليين،<sup>5</sup> وقد حضر الرحالة ليون الإفريقي هذه المحاولة فكان شاهدا على أحداثها فتحدث عنها : "خرجت من الجزائر قاصدا بجاية فوجدت بربروس محاصرا

<sup>1</sup> يعتبر أحد أشهر القراصنة في العصر الحديث، وهو من مواليد جنوة سنة 1466م وتوفي سنة 1560م، كان يقود قراصنة القديس يوحنا في جزيرة رودس، وبعد استيلاء العثمانيين على هذه الجزيرة، انتقل إلى جزيرة طالطة وأصبحت مجموعته تعرف بفرسان مالطة، كان يصول ويجول في البحر المتوسط لاعتراض سبيل السفن الإسلامية، وكان يتميز بالقوة والشجاعة والإقدام على الصعاب، والحنكة والقدرة على المناورة والتخطيط الحربي، ووقعت له مواجهات عديدة مع الإخوة بربروس، وضع نفسه في خدمة الملوك والأمراء كمرتزق فخدم تحت إمرة الإمبراطور شارلكان الذي استعان به في حملاته البحرية ضد تونس (1535م) والجزائر (1541م)، وفراسوا الأول ملك

<https://ar.wikipedia.org/wiki/>

<sup>2</sup> Haedo : op, cit p47.

<sup>3</sup> توفيق المدني: المرجع ال ، ص 167.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p123.

Haedo: Ibid, p48.

<sup>5</sup> نحير الدين بربروس: المصدر السابق، ص62. أنظر كذلك

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

قلعتها فمكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة إلى أن هرب والتجأ إلى جيج<sup>1</sup>، وكان عروج قد في هذا الحصار نحو مئة 100 رجل من رجاله وبعد قصف المواقع الإسبانية لمدة 24 ساعة دون جدوى تمكن عروج من الاقلاع القلعتين اللتان بناهما الإسبان، لكنه فشل في هذه اقتحام المدينة بسبب أن المراكبي الجليليين غادروا مواقعهم، وعادوا إلى قرانهم لفلاحة حقولهم دون أن يستأذنوه وتبعهم عدد كبير من الجند الأتراك، فاضطر إلى الانسحاب وقبل ذلك أغرق الإثنى عشرة سفينة التي كان قد تركها بوادي الصومام تعذر عليه أخذها حتى لا يستغلها العدو، وقفل راجعا إلى قاعدته بجيجل<sup>2</sup>. ويضيف هايدو إلى أن انسحاب المقاتلين القبائليين وتزامن ذلك مع وصول خمسة سفن للمساعدة تم إرسالها بأمر من الملك فرديناندو وكانت بقيادة مارتن دو رونتيرا Martin de Rentera<sup>3</sup>. وأما ابن أبي الضياف فيخبرنا أن عروج كان قد أشرف على فتح بجاية نفذ منه البارود سلطان تونس محمد بن الحسن الحفصي ليزوده بالبارود فلم يجبه إلى طلبه خوفا على زوال ملكه<sup>4</sup>. و المؤرخ دو غرامون أسباب فشل المحاولتين إلى حصانة المدينة طبيعيا وكذلك إلى التحصينات التي أسرع الإسبان في بنائها عقب استيلاء ضافة إلى النجيدات التي سبق ذكرها<sup>5</sup> و توفيق المدني انسحاب عروج إلى الخسائر الكبيرة في الأرواح بالإضافة إلى استشهاد أخيه إلياس و قال أنه رجع إلى جيجل ومعه 600 أسير<sup>6</sup>. و سعيدوني أسباب أخرى إلى ما سبق ذكره تمثلت في العتاد وحصانة موقع المدينة<sup>7</sup>. ويتحدث مولود قائد عن

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص39.

<sup>2</sup> المصدر ، ص38.

أنظر كذلك

Moulay Belhamissi: **Histoire de la Marine algérienne**. ENAL, Alger, 1983, p114.

<sup>3</sup> Haedo: op, cit, p22.

<sup>4</sup> ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، ص 10.

<sup>5</sup> de Grammont: op, cit, p3.

<sup>6</sup> توفيق المدني: المرجع السابق، ص171.

<sup>7</sup> عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص272.

أنظر كذلك:

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

مساعدات أرسلها السلطان العثماني و التي اشتملت على 24 سفينة مسلحة مع التهنئة لعروج وإخوته، لكنها وصلت متأخرة<sup>1</sup>، فإن صحت هذه معلومة فإن ذلك يدل على متابعة هذا السلطان لأحداث، وأنه كان يولي لجهود الإخوة بربروس العناية والاهتمام. ومهما يكن من أمر ك إخفاق الإخوة بربروس في افنكك بجاية انطباعا سيئا، فقرر عروج أن لا يعود إلى تونس وبقي في جيجل التي أمضى بها موسمي الخريف والشتاء، وهناك توطدت علاقته بسكان هذه المدينة، ولاسيما لما أنقذهم من مجاعة واهيية، بعد ما غنم ثلاثة سفن محملة بالحبوب حيث قام بتوزيع هذه الحبوب السكان حسب ما ذكر خير الدين في مذكراته<sup>2</sup> كما أورد هايدو الكلام نفسه.<sup>3</sup> وبقي في هذه المدينة حتى جاءه وفد من مدينة الجزائر فانتقل إليها في بداية سنة 1516 كما سنأتي على ذكره.

### المبحث الخامس: بجاية تحت الاحتلال الإسباني (1510 - 1555)

خلال المدة التي مكث فيها الإسبان في بجاية تجمع المصادر أن نود الحامية عاشوا حياة شاقة، بسبب الحصار الخ الذي سكان القبائل المجاورة الذين يبدو أنهم لم يسلموا المدينة بسهولة، كما يدعي بعض الكتاب، ولم يتوقف هذه الحامية عن راسل إ حاكم خبير بشؤون الحكم وكان يلح في الإسراع بإرسال الإمدادات من رجال وذخيرة حربية ومؤونة وأموال من أجل تحصين المدينة.<sup>4</sup> وهذا ما يؤكد مؤرخ البلاط الإسباني مرمول حيث يقول أنه كان يحرص مدينة بجاية حامية عسكرية تتألف من خمسمائة جندي موزعين على ثلاث حصون، وكان هؤلاء يقومون ب غارة على القبائل القريبة كلما سمحت الفرصة فكانوا يعودون بالغنائم من أبقار

P. Christian : op, cit, p180.

de Grammont : **Histoire d'Alger...**, p3.

<sup>1</sup> Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p56.

<sup>2</sup> خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص62.

<sup>3</sup> Haedo : op, cit p23.

<sup>4</sup> Jacques Heers: **les Barbaresques, la course et la guerre en méditerranée XIV<sup>e</sup>XVII<sup>e</sup> siècle**, Ed, Perrin, 2001, p155.



## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

وخيول وأسرى يسهرون على خدمتهم، ولكنهم لم يكونوا يخاطرون بالتوغل أكثر نحو الداخل بسبب تواجد القبائل المسلحة ببنادق الصيد.<sup>1</sup>

وفي ذات السياق يقول بول وينترز: " كانت مؤن مدينة بحاية ضئيلة منذ بداية الغزو، فعندما وصلت سفينة من إسبانيا تحمل المساعدات، وجدت جنود الحامية يقتاتون على القبط والجرذان والخيول منذ شهر، عندما غادر بطرس النفاري هذه المدينة، فاضطر الحاكم الجديد للتفاوض بسرعة مع قبائل الضواحي لشراء ما تبقى لقوافل الجنود بأثمان باهظة، حتى ينقذ الحامية من الهلاك فالمؤونة التي كانت ضئيلة في بداية الغزو أضحت أكثر سوءاً مع نهايته، واستطاعت الحامية الإسبانية في الفترة الممتدة ما بين 1511 و 1516 بفضل التحالف مع سلطان قلعة بني عباس، أن تتحمل حصار بربروس دون معاناة كبيرة، إذ كان هناك قوافل تأتي من بلاد القبائل لتزويد السوق."<sup>2</sup>

وذكر الأب دان أن الإمبراطور شارل كان لما لجأ إلى بحاية 1541 بعد فشل حملته الشهيرة على مدينة الجزائر<sup>3</sup> وجد جنودها لا يكادون يجدون ما يأكلون<sup>4</sup> ويُذكر أن العاصفة أجبرته الإقامة في هذه المدينة عدة أيام، قبل أن العودة إلى إسبانيا<sup>5</sup> فوقف بنفسه على معاناة الحامية الإسبانية، من الجوع والعطش فضلاً عن الخوف والأوبئة، جراء الحصار الذي ضربه عليها السكان الجليلين، تحصينات المدينة، فأعطى الأوامر على الفور<sup>6</sup> وترميم الأسوار المتضررة<sup>7</sup> حيث أن مهندس إيطالي استقدمه من صقلية، ولكم الخلاف بين هذا المهندس

<sup>1</sup> مرمول كرتخال: المصدر ال ، ص417.

<sup>2</sup> Paul Wintzer: op, cit, p202.

<sup>3</sup> لمزيد من التفاصيل حول هذه الحملة أنظر مولاي بلحميسي: «غارة شارل العاشر على مدينة الجزائر 1541» مجلة الأصالة، ع12، الجزائر، 1978، ص وما يليها.

<sup>4</sup> شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى) من البدء حتى الفتح الإسلامي 647م، تعريب، محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969 ص 154.

<sup>5</sup> Pierre Dan: op, cit, p50.

<sup>6</sup> Elie de La Primaudaie: **documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (1506-1574)**, A. Jourdan, Libraire –éditeur, 4, place de gouvernement, Alger, 1875, p, 258.

<sup>7</sup> لا تزال كتابة على أحد الجدران التي أمر الإمبراطور ببنائه قائمة إلى يومنا هذا.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

و الحاكم الدون دو بيرالطا حال دون إكمال التحصينات، وقد تجلّى هذا الخلاف في الرسالة التي وجهها هذا المهندس الإيطالي إلى الإمبراطور يشتكى من دو بيرالطا مخبراً إياه أن قصر الإمبراطور لا يمكنه أن يجتمل أكثر من ضربتين مدفع<sup>1</sup>. وذكر فيرو أن شاركان أعرب عن أسفه على عدم توجيهه إلى بحاية قبل التوجه إلى مدينة الجزائر وقف بنفسه على الجيوستراتيجي<sup>2</sup>. وذهب رنسي إلى القول إن خطر الموت<sup>3</sup>، وتفشي الأمراض في وسط جنود الحامية الإسبانية في بحاية كان يدفع بهم إلى اعتناق الدين الإسلامي للتخلص من المعاناة<sup>4</sup>. وقد أشار هايدو إلى فرار الجنود الجنود الإسبان من مدينة بحاية ولجوءهم إلى قلعة بني عباس وكان عددهم نحو الألف جندي، وذكر أن سلطان القلعة المذكورة عبد العزيز كان يحسن استقبالهم، بغية الاستفادة من خبرتهم الحربية، وكان يسمح له بالانخراط في صفوف جيشه والغريب أن مرمول كذلك يشاطره نفس القول<sup>4</sup> ولكننا نشكك في صحة هذا الكلام إذ كيف يمكن لسلطان بني عباس أن يسمح لجنود العدو باللجوء إلى قلعته ويقوم بحمايتهم؟، ثم يقبل بهم كجنود في صفوف جيشه؟، ثم كيف تمكن هذا العدد الكبير من التسلي من بحاية والالتحاق بالقلعة البعيدة عنها كل البعد دون أن يلاحظهم السكان؟. فمرمول لم يزودنا بتفاصيل وافية حول هذا الحدث. وتجدد الإشارة إلى أن اعتناقهم الدين الإسلامي كان لإسقاط الجزية والعبودية عنهم. وهذا الفرار إن دل على شيء، إنما يدل على الظروف التي أصبحت لا تطاق الإسبانية، لأن عقوبة الهارب والمعتنق للإسلام عند الحكومات المسيحية كانت الإعدام.

### 1- استنجد سكان مدينة الجزائر بالإخوة بربروس وإحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

سبق أن تطرقنا إلى أن أهالي مدينة الجزائر كانوا تحت رحمة حصن البينون، وذكرنا أن هؤلاء السكان اغتناموا فرصة وفاة الملك فرديناند<sup>5</sup> للتخلص من الجزية التي كانوا يدفعونها له، لكن لم يكن بمقدورهم الدفاع عن مدينتهم ضد الإسبان المتواجدين في الحصن المذكور، حينئذ قرروا الاستنجد أراد سكان مدينة الجزائر - الذين وا الشيخ سالم التومي - أن يفسخوا الهدنة

<sup>1</sup> أنظر نص الرسالة في:

Elie de La Primaudaie: op, cit, p 258.

<sup>2</sup> Féraud : «Hitoire des villes...», p259-260.

<sup>3</sup> Gilbert Meynier : op, cit, p305.

<sup>4</sup> Haedo: op. cit, p280

<sup>5</sup> هو الملك فرديناند الخامس توفي يوم 23 1516، ثم خلفه ابنه شارل الخامس.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لهذا الملك، فأرسلوا وفدا إلى عروج ريس الذي كان يقيم في مدينة جيجل كما أسلفنا<sup>1</sup> للاستنجاد به لتخ هذا الحصن اللعين<sup>2</sup> فاستجاب عروج بدعوتهم وتوجه بنفسه مع أتباعه عن طريق البر، وأرسل في الوقت نفسه قوة بحرية أخرى عبر البحر إلى مدينة الجزائر<sup>3</sup> وعند وصوله قام بتسليم المدفعية وشرع في قصف الحصن لعدة أيام لكن ضربات مدافعه لم تكن تصل إلى أهدافها، فاضطر إلى رفع الحصار، وبناء على قول هايدو أدى فشل عروج إلى تدمير سكان المدينة وعلى رأسه سالم التومي واستيائهم وأظهروا ندمهم على استغاثتهم بالأتراك، وتسبب ذلك في وقوع مناوشات بينهم وبين الأتراك فكان تدخل عروج عنيفا حيث قام باغتيال سالم التومي حنقا وذلك بعدما كشف عن مؤامرة دبرها مع جنود الحامية الإسبانية للقضاء عليه هو وأتباعه،<sup>4</sup> وبعد ذلك نادى به أتباعه ملكا على البلاد<sup>5</sup>، وعندما رأى سكان المدينة صرامته وشدة بأسه أعلنوا ولاءهم وخضوعهم لسلطته.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، م 2، ص 39.

<sup>2</sup> Yves Ternon : **Empire Ottoman, le déclin, la chute, l'effacement**, éd, du Felin, Paris, 2002, pp, 50-51.

<sup>3</sup> Haedio: op, cit, pp 52- 53

أنظر كذلك أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، م، و، ك، الجزائر، 1986 ص 23- 24.

<sup>4</sup> اختلفت الروايات حول مقتل سالم التومي بين من يذكر أنه قتل حنقا على يد عروج، ومن يقول أن عروج شنقه علانية، ورأي آخر يذكر أنه مات مسموما، أنظر: حماش: المرجع السابق، ص 27. أنظر كذلك:

Corinne Chevalier: **Les trentes premières Années de l'Etat d'Alger, 1510- 1541**, O.P.U, Alger, 1986, p43.

<sup>5</sup> Haedo: op, cit, p53.

<sup>6</sup> حول الموضوع أنظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 39.

Marmol: op, cit, p 417.

Haedo: Ibid, p54.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

وبعد مقتل عروج<sup>1</sup> عام 1518 على يد الإسبان في محاولته فتح تلمسان، خلفه في حكم مدينة الجزائر أخاه خير الدين، الذي اقتنع أنه لا مناص من ربط المغرب الأوسط بالسلطان العثماني فهو القادر على حمايته، لما أدرك وضعه الحرج بسبب نقص الذخيرة والمقاتلين وإحاطة الأعداء، بالعودة إلى اسطنبول حسبما تذكر بعض المصادر تمسك به السكان وطلبوا منه البقاء، حينئذ أن يشكّلوا وفدا من اعيانهم ويرسلونه إلى السلطان العثماني يحمل إليه رسالة<sup>2</sup> يطلبون فيها هذا الوفد بقيادة ابن القاضي في شهر أكتوبر عام 1519م ورجع في أوائل عام 1520م برد السلطان بالموافقة وبعث لخير الدين قفطان التولية مع سيف مطرز وقفطان ودعمه بخ 2000 من الج الانكشارية ، فأصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ تابعة رسميا إلى الدولة العثمانية.<sup>3</sup>

وقد ظل احتلال بجاية من طرف الإسبان طوال الخمسة والأربعين سنة يشكل تهديدا مستمرا لإيالة الجزائر، كما كان يمثل بالنسبة للإسبان مركزا استراتيجيا وقلعة حصينة لمراقبة تحركات الأتراك في الجزائر بصفة دائمة ومستمرة وكانت بمثابة شوكة في جسم الإيالة، ولذلك قرر صالح ريس إزاله و طرد الإسبان منها، وقد حاول الإسبان خلال فترة احتلالهم للمدينة تأليب شيوخ القبائل ضد الأتراك وتحريضهم على التمرد والعصيان وشق عصا الطاعة عن طريق بث الجواسيس الذين كانوا يعملون على زرع بذور الشك وفقدان الثقة بين القبائل والقرى إذ كانت القبيلة أو القرية تتهم القبيلة الأخرى بالتجسس لصالح العدو.<sup>4</sup> وأدى سقوط مدينة بجاية في أيدي الإسبان إلى نتائج خطيرة على الصعيد السياسي في منطقة القبائل والمغرب الأوسط . الاحتلال في تراجع النشاط البحري وتوقفه مما أثر سلبا على النشاط التجاري للسكان وعلى الحركة الاقتصادية بالمنطقة

<sup>1</sup> - وجر أن ابن القاضي انسحب بجيشه عائدا إلى بلاد القبائل متحليا عن عروج، وهذا خير الدين يتهمه بالنسب في مقتل أخيه عروج، وسعى إلى الانتقام منه فساءت العلاقات بين الطرفين. أنظر:

Adrien Berbrugger: *les Epoques militaires de la Grande Kabylie*, Pais, 1857, p61.

<sup>2</sup> أنظر نص الرسالة في، عبد الجليل التميمي: « رسالة من أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول » مجلة التاريخية المغربية، عدد3 1974.

<sup>3</sup> Haedo: op, cit, p53.

<sup>4</sup> Gaid : *l'Algerie sous les Turcs*, SNED, Alger, 1974, pp 71-72.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

قضى الاحتلال على العلاقات التجارية التي كانت تربط بحاية وسكانها بالمدن الأوروبية.<sup>1</sup> الإيطالية مثل بيزا وجنوة والبندقية، والإسبانية مثل فلنسية وملقة وميوركة ومينوركة، وال<sup>2</sup>. وكان النشاط التجاري للبحائيين مع مختلف المدن الأوروبية السابقة الذكر مصدرا لثرائهم وللرخاء الاقتصادي الذي كانت تعرفه المدينة والذي أشار إليه العديد من الرحال العرب والأوروبيين كما أسلفنا.

وتجدر الإشارة إلى أن الإسبان لما استولوا على بحاية عززوا تحصيناتها مما مكنتهم من البقاء بها مدة خمسة وأربعون سنة<sup>3</sup> وعينوا على رأسها الأمير الحفصي مولاي عبد الله تنفيذًا لتعليمات شارلكان الذي كان يبدي اهتماما كبيرا لبحاية نظرا لأهميتها بالنسبة للمشاريع الإستعمارية الإسبانية حينئذ، إلا أن سكان بحاية رفضوه وثاروا عليه واعترفوا بحكم أبي بكر أمير قسنطينة، الذي ساهم مع الإخوة بربروس في محاولاتهم لانتزاع بحاية.<sup>4</sup> وحسب ما يذهب إليه إلترن الإسبان قد تمكنوا من استمالة من أمير بحاية عبد الرحمان الحفصي وأمير كوكو إلى صفهم، اتفق على تقديم المساعدة للإمبراطور شاركان وصوله إلى مدينة الجزائر والانضمام إلى قواته، ولكنه ظل يراقب المعركة من الجبل واكتف بتقديم الأرزاق للإسبان في بحاية مقابل دفع أثمانها ذهباً.<sup>5</sup>

ويبدو أن أمير كوكو كذلك كان قد وعد شارلكان بمده بألفين مقاتل مسلح في حملته على مدينة الجزائر، فانطلق بالمساعدات حسب الاتفاق المبرم، لكنه علم في الطريق بهزيمة شارلكان، فعاد

<sup>1</sup> Ouatmani Settar: **Béjaia à l'époque ottomane : Etude sur l'état de la ville sur le plan politique et économique**, Colloque inetnational Béjaia ville d'histoire et de civilisation, Béjaia 30-31 Octobre 2012, p6.

<sup>2</sup> لمزيد من التفاصيل حول موضوع التجارة الخارجية لبحاية مع أوروبا ، راجع، Dominique Valérian: op, cit, p58 et suites.

<sup>3</sup> إبراهيم حركات: «دور بحاية في الحضارة»، مجلة الأصالة، ع، ص16.

<sup>4</sup> ابن علي شغيب: أم الحواضر بين الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، 1980 .52

<sup>5</sup>عزيز سامح إلترن: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989 .166

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

أدراجه ولما علم با حباب هذا الأخير مع بقية جيشه إلى بجاية التحق به هناك وقدم له المساعدات التي كان الإسبان في حاجة اسة إليها.<sup>1</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن هزيمة الأسطول الإسباني عند مدينة الجزائر كان له تأثير كبير على نفسية شارلوكان حيث يُروى أن تاجه سقط منه بينما كان يهيم بالصعود إلى السفينة للعودة إلى إسبانيا فرمى به في البحر وأقسم أن لا يضعه على رأسه مجدداً، وتخلّى عن العرش لابنه فيليب الثاني 1556 وأرسل جنته إلى بابا روما بولس الثالث (1534م-1549م) عندما وصل إلى إسبانيا انزوى في أحد المعابد إلى أن توفي عام 1558.<sup>2</sup>

### 3- الإسبان سلطان إمارة بني عباس:

تشير المصادر المعاصرة أن الملك فرديناند الكاثوليكي أعطى الأوامر لحكام بجاية بضرورة إيجاد حليف قوي في المنطقة لحماية ظهر الحامية الإسبانية بحج هجمات السكان، وكذا من أجل ضمان تموين مستمر لها لأن الحامية عن طريق البحر غير مضمون. كللت جهود الحاكم الإسباني في البحث عن هذا الحليف بـ التحالف مع سلطان قلعة بني عباس عبد العزيز.<sup>3</sup> وقد أشار الغزوات إلى هذا التحالف في قوله أنه في منتصف عام 1516م كتب عروج مدينة الجزائر رسالة إلى أخيه خير الدين بجيجل يخبره بالسير إلى شيخ قبيلة في الجبال المجاورة لبجاية هو جاسوس وعون سبان على المسلمين، يمدهم سنويا بمبلغ من المال قدره 10000 دوكة<sup>4</sup> إضافة إلى 1000 القمح و1000 خروف و700 عجل و14 فرس مجهزة.<sup>5</sup>

ويؤكد هذه الاتفاقية صاحب الزهرة النيرة حيث يقول: " فلما بلغ الكتاب إلى عروج رايس أرسل كتاب إلى خير الدين مضمونه أن في ناحية جيجل شيخا مقدملا على طائفة من البرابر هو عون

<sup>1</sup> Féraud: op, ct, p262.

<sup>2</sup> عزيز سامح إتر: المرجع ، ص 165.

<sup>3</sup> Féraud : Ibid, p211.

<sup>4</sup> قدرها بربروجرب 82600 فرنك، أنظر:

Berbrugger: op, cit, p59.

<sup>5</sup> غزوات عروج وخير الدين: المصدر السابق ، ص40.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

النصارى الذين ببجاية وجاسوس لهم ومقدمهم في كل سنة بسبعة آلاف صاع من البر وألف شاة وسبعمائة بقرة، أن يكون في التحيل لأن يدخل هذا الخائن في قبضه". ويقول صاحب الغزوات: "فعند بلوغ ذلك الخبر إلى خير الدين خرج هو وجماعة من الغزاة واجتهد إلى أن تمكن منه فلما تيقن الخبيث أنه لا خلاص له من قبضه صالح خير الدين على أن يؤدي إليه في كل سنة ما كان يؤديه للنصارى فأخذ منه ثقة فعند ذلك أعلم أخاه عروج بما دره على الخبيث الخائن للمسلمين.<sup>1</sup> ورغم أن كل صاحب الغزوات والزهرة النيرة لم يشير بصريح العبارة إلى اسم هذا القبيلته، إلا أن المرجح أن يكون الشيخ المعني هو سلطان بني عباس أشار إلى ذلك ببروجر<sup>2</sup> وأيده كل من فيرو<sup>3</sup> ورين<sup>4</sup> والسعيد بوليفة<sup>5</sup> ومولود قايد.<sup>6</sup>

أما هايدو يبدو أن الأمر قد اختلط م يفرق بين سلطان بني عباس وأمير كوكو ذكر أن ابن القاضي هو الذي كان متحالفا مع الإسبان، فسار إليه عروج من مدينة الجزائر في مطلع عام 1515م وتمكن من قتله وإحضار الجزء الأكبر من مملكته<sup>7</sup>، وبرجوعنا إلى ما ورد في كتاب الغزوات يتضح لنا أن أن زعيم القبيلة الذي كان متحالفا مع الإسبان هو عبد العزيز سلطان بني عباس وليس ابن القاضي كما ذكر هايدو، حيث ذكر الكاتب نفسه في موضع آخر أن الناحية الشرقية من عمالة الجزائر كان يتقاسمها قارة حسن وابن القاضي، بينما كانت الناحية الغربية رافضة لطاعة خير الدين وهي المنطقة نفسها التي كانت تابعة لحكم سلطان بني عباس<sup>8</sup>. ووقد جاء في شروط التحالف سلطان بني عباس أن يدفع إلى الحاكم الإسباني 3600 قيسة من القمح

<sup>1</sup> محمد بن رقية التلمساني: «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع 3 1967 ص ص 5-6.

<sup>3</sup> Féraud: op, cit, p211.

<sup>4</sup> Louis Rinn: **Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie**, Paris, 1891, p13.

<sup>5</sup> Boulifa: op, cit, p159.

<sup>6</sup> Gaid: op, cit, p51.

<sup>7</sup> Haedo: op, cit, p52.

<sup>8</sup> وات عروج وخير الدين: المصدر ال ، ص 56.

## الفصل الأول: ----- بحاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

و100 قيسة من الشعير، و50 قيسة من الخروب وألف حروف و50 بقرة وعلاوة على ذلك يقوم السكان المجاورين لبجاية بتزويد الحامية إلا (1000) حمولة<sup>1</sup> من الخشب دون مقابل.<sup>2</sup>

غير أن السلطان عبد العزيز لم يلتزم بتلك الشروط فيما بعد الأمر الذي كان يدفع بجنود الحامية إلى غزو المناطق المجاورة من حين لآخر حين كانت تشتد بهم الأزمة، وكانوا يصبون غضبهم على تلك المناطق، وذلك من خلال أعمال النهب والسلب والتقتيل، وكان بعضهم يضطر إلى مقايضة الأسلحة بالغذاء مع سكان تلك المناطق، وذلك بعد نفاذ متونتهم أو تأخر حكومتهم عن إمدادهم بالمتونة في الوقت المناسب.<sup>3</sup> والجدير بالذكر أن الإمبراطور الإسباني شارلكان كان منشغلا بالحروب الدينية التي شهدتها المناطق التي كانت تخضع لنفوذه في ألمانيا كنتيجة لحركة الإصلاح الديني التي تزعمها المصلح الثائر مارتن لوثر<sup>4</sup>، بالإضافة إلى صراعه مع منافسه الملك الفرنسي فرانسوا الأول من جهة وكذا الزحف العثماني من جهة أوروبا الشرقية حيث وصل العثمانيون حتى فيينا عاصمة النمسا التي حاصروها عام 1529م<sup>5</sup> لكنهم لم يتمكنوا من فتحها من جهة ثانية، فانشغاله في تلك الأحداث جعله لا يستجيب لنداءات الاستغاثة التي كان حكام بجاية يرسلونها من حين لآخر.

وعلى أية حال يمكن القول أن سلطان بني عباس قدم خدمات جليلة للإسبان في بجاية، حيث أنقذهم من الموت جوعا.<sup>6</sup> وكان عليه أن يساهم في إحكام الحصار عليهم لكنه فضل الذهب الإسباني كما يقول بوليفة على قيامه بواجبه لمحاربة عدة مغتصب، ويُذكر أن محاصرة سكان القبائل المجاورة اجبرت جنود الحامية على التخلي عن سور المدينة الحمادي وبنوا سورا جديدا ضيقوا به رقعة المدينة، لتعذر الدفاع عنه بسبب قلة عددهم.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> لم توضح لنا المصادر نوع هذه الحمولة، فهي حمولة سفينة، أو غير ذلك.

<sup>2</sup> Paul Wintzer: op, cit, p204.

<sup>3</sup> Paul Wintzer: op, cit, P205.

<sup>4</sup> Fernand Braudel: «les Espagnoles et l'Afrique du nord 1492- 1577», in RA n° 69, 1928. P71, 102.

<sup>5</sup> عبد الجليل التميمي: «الخلفية الدينية»، ص8.

<sup>6</sup> Boulifa: op, cit, p139.

<sup>7</sup> Féraud : « Histoire des villes », p369.



### 4- سقوط حصن البينون وتأثيره على بحاية ونواحيها:

بعد أن تمكن خير الدين بربروس من ترسيخ الوجود العثماني في مناطق عديدة في الإيالة، كان يدرك تماما أن حصن البينون هو بمثابة شوكة في ظهر الجزائريين،<sup>1</sup> لا بد من إزالتها، كما كان يدرك أسباب فشل أحياه عروج في تهمد الحصن، فاتخذ بالأسباب وقرر إزالته والقضاء عليه، فشرع في قصفه في رمضان عام 936 هـ / ماي 1529م وتمكن من الاستيلاء عليه يوم 16 من نفس الشهر وقتل الجنود الإسبان الذين كانوا فيه، حيث لم ينج منهم سوى 25 150 حسب رواية مالتسان<sup>2</sup> ولكي يقضي على أمل الإسبان في العودة إليه قام بتحطيمه نهائيا. واستعمل حجارتة في بناء رصيف ربط به هذه الجزر بالميناء(المول).<sup>3</sup>

وكان لتحطيم هذا الحصن آثارا طيبة عادت على خير الدين حيث جاءه طائعا خاضعا كل من كان معارضا ومناوئا له<sup>4</sup> وقد استقبل سكان إيالة الجزائر حدث تحطيم خير الدين حصن البينون بالفرح بالفرح والبهجة، و أدرك سكان المناطق التي مازال الإسبان يحتلوها أهمية تحطيم هذا الحصن وأعاد الأمل لسكان منطقة القبائل في إمكانية استرجاع ينج<sup>5</sup>. فسارعوا صوب لطرده الإسبان منها، لكن يبدو أن اندفاعهم كان يفتقر إلى التكتيك والتنظيم ففشل هجومهم.<sup>6</sup> وفي الوقت نفسه نزل الخير على مسامح سائر المسيحيين كالصاعقة و كان بمثابة كارثة حلت بهم.

ومن دون شك لو كللت محادثات جمع قوة مملكة كوكو بجبال الجرحرة والقبائل التابعة لإمارة قلعة بني عباس بمنطقة البيبان وحوض واد الساحل التي تتمتع بالحصانة الطبيعية مع دعم الأتراك القوي

<sup>1</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص50.

<sup>2</sup> السير فون مالتسان: المرجع السابق، ص 40.

<sup>3</sup> الرحمان الجيلالي: المرجع ، ص51.

<sup>4</sup> أورد عزيز سامح إثر في كتابه السابق الذكر معلومات وافية عن هذا الحدث العظيم وأحداث أخرى في هذه

المرحلة الحاسمة والحساسة. أنظر، إثر: المرجع السابق.

<sup>5</sup> Boulifa: op, cit, p137.

<sup>6</sup> de Grammont: op, cit, p51.

أنظر كذلك، مبارك الميلي: المرجع السابق، ص 57.

## الفصل الأول: ----- بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين

بالنجاح، وكان مصير الإسبان في بجاية مصير مواطنيهم في حصن البينون، ولأصبح الأتراك أسياد المنطقة بدون منازع، ومما لا شك فيه أن جنود الحامية الإسبانية في بجاية شعروا بخوف شديد و الذي بات يتهدهدهم بعد أن بلغتهم أخبار سقوط حصن البينون، والدليل على ذلك رسائل الاستغاثة التي كان يمد المدينة المذكورة، حيث توحى هذه الرسالة أ كان يتوقع هجوم القبائل.<sup>1</sup>

و شكل الاحتلال الإسباني لمدينة بجاية عام 1510 متوجعا حاسما في التركيبة الاجتماعية للمدينة، فبعد أن ظلت طوال الين الحمادية والحفصية نقطة استقطاب للمهاجرين من مختلف المناطق والجهات من العلماء والمتقنين والتجار، غادرها الأندلس وقاصدين مدن أخرى كمدينة الجزائر وقسنطينة وعنابة وتونس، فاعتمرت بسكان القبائل الجبلية إمرال وفناية والزواوة وآيت جبار(الجبابرة).<sup>2</sup>

كما هجرها أغلب السكان واستقروا في القرى الجبلية في انتظار استرجاع مدينتهم، لكن طول مدة الاحتلال الإسباني يبدو أنه ساهم في استقرارهم في المناطق التي قصدوها.

نستنتج أن سقوط بجاية في أيدي الإسبان مهد الطريق أمام هؤلاء لاحتلال مدن جزائرية أخرى، كما يمكننا القول أن احتلال بجاية كان سببا في اتصال الجزائريين بالإخوة ببروس ومن ثمة تحدد مصير الجزائر، من خلال ارتباطها بالباب العالي منذ سنة 1520.

<sup>1</sup> Elie de la Primaudae: **documents inédits**, p 259.

<sup>2</sup> Boudjamaâ Haichour : **Bejaia et sa région à travers les Ages, Histoire, Société, Science, Culture**, Colloque international Bejaia, 1997, Ed, association Géhimab, Bejaia, 1997.

# الفصل الثاني: السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

المبحث الأول: تحرير بجاية على يد صالح رايس (1555)

المبحث الثاني: التنظيم الإداري في الإيالة الجزائرية

المبحث الثالث: أساليب الحكم العثماني في بجاية ونواحيها

## المبحث الأول: تحرير بجاية على يد صالح رايس 1555

### 1-الوضع العام في الإيالة:

كما قد تعرضنا في الفصل الأول عن محاولتين اللتان قام بهما الإخوة بوس بجاية من الاحتلال الإسباني (1512 و1514) وذلك بعد استنجد السكان بهم<sup>1</sup>، وفي هذا المبحث سنتطرق لعملية تحرير بجاية، وقبل ذلك نود أن نشير إلى كلام لمنور مروش الذي يفهم منه أن خير الدين تفكيره صالح رايس بخصوص تحرير بجاية، إن ينوي بعد تمكنه من تحطيم حصن البيون تنظيم حملة له لكن الأحداث التي عرفتها الإيالة والدولة العثمانية حينها حالت دون تحقيق هذا الهدف.<sup>2</sup> فظلت تعاني تحت نير الاحتلال الإسباني إلى أن جاء صالح رايس<sup>3</sup> إلى الحكم قرر ريرها عندما أصبحت الظروف مواتية.<sup>4</sup>

وصل صالح رايس إلى الحكم بعد حسن بن خير الدين<sup>5</sup>، وكان حريصا على نيل رضا السلطان سليمان القانوني (1520-1566)، فرأى أن ذلك لا يكون إلا بإحراز نصر مبین على الأعداء الإسبان، أو إخضاع القبائل المتمردة، أو مد النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى، وكان ذلك يحقق رغبة هذا السلطان، وكان صالح رايس يجب حوض المعارك والحروب والبطولات، فرغب

<sup>1</sup> Michel Harvé : les débuts de la Régence d'Alger, 1518-1566, Paris, 2005, p26.

<sup>2</sup> المنور مروش: المرجع السابق، ص 128. أنظر كذلك،

Boulifa: op, cit, p89.

<sup>3</sup> تولى الحكم بعد خير الدين باشا عام 1552 إلى غاية سنة 1556، ولا تزال المعلومات حول شخصيته قليلة وغامضة، لا تذكر المصادر سوى أن أصله من الأسكندرية وأنه مارس النشاط البحري منذ صغره رفقة حسن

باشا بن خير الدين، واشتهر بحصاره أسطول القرصان أندري دوريا في معركة بريفيتزا باليونان عام 1538 من التفاصيل راجع، ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني ص 291 وما يليها.

<sup>4</sup> المنور مروش: المرجع السابق، ص 129.

<sup>5</sup> اعتلى حسن باشا بن خير الدين كرسي الحكم ثلاث مرات، الأولى من سنة 1544 – 1552 والثانية من

1557 إلى 1567 والثالثة كانت من سنة 1569 إلى 1571.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

في استكمال ما تركه الحكام الأوائل، من إتمام الوحدة الترابية للإيالة<sup>1</sup> وبهذا الصدد لمنور مروش "الدور الكبير الذي لعبه هذا الباشا في ترسيخ الحكم العثماني في البلاد داخليا حيث قام إخضاع سلاطين بني جلاب في تقرت والوادي وورقلة<sup>2</sup> 1552 وأجبرهم على دفع الضريبة بعد أن امتنعوا عنها، وعلى الصعيد الخارجي تمكن من طرد المغاربة من الجهة الغربية من الإيالة، وسيتمكن من طرد الإسبان من بجاية<sup>3</sup>. الجهود التي بذلها الحكام الأوائل في سبيل ترسيخ أسس متينة للدولة الجزائرية، إلا أن الوجود الإسباني في بعض المدن، يشكل تهديدا مباشرا لأمن وسلامة المنطقة ويعد بمثابة شوكة في الدولة يجب إزالتها ويعتبر في الوقت نفسه حجر عثرة أمام أي تقدم لأتراك في سعيهم لتوسيع نفوذهم في كامل تراب الإيالة، وهو مطلب السكان الجبليين الذين هجروا مدينة بجاية ولم يفقدوا الأمل في العودة إليها، فكان على هذا الباشا أن يقول المؤرخ التركي عزيز سامح إتر: "اكتسب صالح رايص شهرة عظيمة من جراء انتصاره في فاس، وبغية انتصاره بانتصار آخر أكثر شهرة وعظمة عمد فور عودته إلى دراسة المواقع الإسبانية دراسة دقيقة وقد صدق تصوراته وخاصة بشأن بجاية وأهميتها، وأدرك سبب اتخاذ الإسبان التدابير الجيدة"<sup>4</sup>.

ويعتبر تحرير بجاية من المواضيع التي حظيت باهتمام الكتاب والمؤرخين لاسيما منهم الإسبان نظرا لأهميته، وانعكاساته على الصعيدين الجزائري والإسباني، ومع ذلك فالمتتبع للأحداث يجد نفسه أمام آراء متضاربة ومختلفة في بعض التفاصيل، وهو ما سنحاول التعرض له فيما يأتي.

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدون: «رسالة من أعيان مدينة قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح رايص (963 / 1555م)» في، الشرق الجزائري، المرجع السابق، ص 35.

<sup>2</sup> كانت هذه المدن من أهم محطات طريق الذهب السوداني وهو ما يفسر الغنائم الكثيرة التي عاد بها صالح رايص إلى مدينة الجزائر، أنظر، المنور مروش: المرجع السابق ص 128. وكذلك

Haedo: *Histoire des Rois...*, p234.

<sup>3</sup> المنور مروش: المرجع السابق، ص 128.

<sup>4</sup> عزيز سامح إتر: المرجع السابق، ص 193.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

المصادر أن صالح رايس كان منشغلا أحداث المغرب الأقصى كان  
السعديين طامعين في التوسع على حساب الأراضي الجزائرية<sup>1</sup> تأمر مع الإسبان  
كان مترعجا من احتمال قيام ثورة داخلية بزعامة عبد العزيز سلطان إمارة بني عباس الذي أعلن  
تمرده وانفصاله عن الحكم التركي، وبالرغم من ذلك لما علم الحالة المزرية التي كانت تعاني  
الحامية الإ في بجاية وما تلاقيه من مصاعب، أدرك أن الفرصة المناسبة لتنظيم حملة عسكرية  
نتزاع<sup>2</sup> فكيف كانت الأوضاع في بجاية؟ ومامدى استعداد سكان المنطقة للتجاوب مع هذه  
الحملة؟.

### 2-الوضع في بجاية:

على الرغم من أن الأوضاع في الإيالة بصفة عامة لم بعث على الارتياح،  
الدولة لم تستقر نهائيا، فالخطر الإسباني لا يزال يهدد الإيالة ويحيط بها من كل جهة، إلا ان صالح  
رايس رايس بنظرته الثاقبة أنه لا يمكن الإطمئنان على الجهة الغربية طالما لم يتم طرد الإسبان من بجاية  
أولا ثم من وهران، وأيقن بعد تقلب الأمور على أن الوقت مناسب لتنظيم حملة قوية يطرد بها  
الإسبان من بجاية نهائيا. و بهذا الشأن يخرنا مرسية أن صالح رايس عاد من حملته على المغرب  
بالانتصار الذي حققه قرر تعزيز هذا الانتصار بانتصار آخر ينال به رضا الباب العالي، من خلال  
حملة لتحرير بجاية حيث أحيط علما بأن الحامية الإسبانية ذات الخمسمائة جندي (500)  
في حالة لا تسمح لها بالصمود في الدفاع عن المدينة طويلا وهذا ما تؤكد التقارير  
الإسبانية التي أشارت إلى أن المدافع التي كانت بحوزة هذه الحامية لم تعد قادرة على إطلاق القذائف،  
و أن الحصون التي أمر الإمبراطور شارل الخامس ببنائها عند تواجده بالمدينة عام 1541 لم تتم  
بسبب خلاف وقع بين المهندس الإيطالي المكلف بهذه الترميمات وحاكم المدينة وقتئذ كان  
جنود هذه الحامية مهددون بالموت جوعا بسبب النقص الفادح في المؤونة<sup>3</sup> وفي الواقع لم يتوقف

<sup>1</sup> لمعلومات أكثر حول العلاقات الجزائرية المغربية في الفترة العثمانية راجع عمار بن خروف: المرجع السابق.

<sup>2</sup> João Mascaranbas : **Esclave à Alger, récit de captivité de João Mascaranbas** (1621- 1626), trad, de Portugais, annoté et présenté par Paul Teyssier, Ed, Chandeigne, Paris, 1993, p34.

<sup>3</sup> Mercier: **Histoire de l'Afrique....**, p82.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

حاكم المدينة عن توجيه الرسالة تلو الأخرى الإمبراطور فيها سوء الأحوال في بجاية  
و في الإسراع في إيصال النجدة 1535 بعث هذا الحاكم رسالة يشتكي فيها فقدان  
المؤونة وتفاؤ الأموال لدفع رواتب الجند الذين لم يتلقوا رواتبهم منذ 18 شهرا، كما نفذ علف الخيول.<sup>1</sup>  
وذلك بسبب حصار السكان المجاورين غير أن الإمبراطور شارل الخامس لم يكثر لهذه الرسائل.<sup>2</sup> و  
شك أن صالح رايس كان يدرك تماما حصانة بجاية وسبب إخفاق الإخوة بربروس في اقتحامها من  
قبل، ولذلك لم يقرر المسير إلا بعد الاستعداد التام ماديا ومعنويا، بغية تجنب أخطاء المحاولات  
السابقة<sup>3</sup> كما كان يدرك في الوقت ذاته صعوبة المهمة إن لم يعتمد على مساعدة أهالي المنطقة.  
ولذلك وقبل الإقدام على تنفيذ خطته، كان أن يعمل على ا باب الأمن في البلاد،  
جاهدا على كسب ود زعماء منطقة القبائل من خلال عقده الصلح مع ابن القاضي زعيم كوكو  
حيث اعترف له بسيادته على قبائل منطقة جرجرة، وأما السلطان عبد العزيز زعيم قلعة بني عباس  
فمن الصعب كسب وده لأنه كان في حالة صراع مع الحكومة فمن المحتمل أن يكون صالح رايس  
قد استنجد بمرابطي المنطقة لإقناعه بالمشاركة في تحرير بجاية و من الممكن كذلك أن يكون سلطان  
بني عباس قد أراد أن لا يفوت فرصة شرف الجهاد لاسيما وأن عدوه التقليدي أمير كوكو أبدى  
استعداده للمشاركة فيها.<sup>4</sup> ومهما يكن من أمر فإن مشاركة هذا السلطان بلاشك كانت فعالة

<sup>1</sup> أنظر رسالة المهندس ليرانو إلى الإمبراطور في 9 1543 في،

la Primaudaie: « Documents inédits... », RA, n° 19, 1875.

أنظر كذلك:

M. Mauroy : **Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrional depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes**, imp, de Duverger, Paris, 1852, p244.

<sup>2</sup> كان الإمبراطور يواجه مشاكل كانت تمر بها الإمبراطورية على الساحة الأوروبية، فضلا عن متاعبه الصحية فلم يكن بوسعها ترك هذه المشاكل المصيرية والالتفات إلى حامية تعاني من أزمة تموين على الجانب الآخر في حين كان عرش إمبراطوريته في خطر، وتوحي الرسائل والتعليقات التي كان هذا الإمبراطور يبعث بها إلى حكام بجاية، بأن يتدبروا أمر التموين بأنفسهم من خلال السعي إلى ربط علاقات تحالف مع القوى المحلية، وعدم الاتكال على الحكومة.

<sup>3</sup> Mercier: op, cit, p83.

<sup>4</sup> Haedo: op. cit, pp279- 280.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

بالنظر لما يملكه من قوة وخبرة في القتال كما شهد بذلك كل من هايدو ومرمول، وبحكم قربه من بجاية كذلك، فمن المؤكد أن اعتماد صالح رايس على قوات سلطان بني عباس كان كبيرا.<sup>1</sup>

وعلى أية حال السلطنة المركزية تلجأ إلى الشيوخ والمرابطين للقيام بدور الوساطة بينها وبين شيوخ القبائل المتمردة، لا سيما عندما تكون هذه السلطنة في حاجة ماسة إلى تهدئة الأوضاع لما تكون مقبلة على عمل عظيم كطرد العدو، أو تجريد حملة ضد بايات تونس أو سلاطين المغرب الأقصى، فكان المرابطون عادة ما يؤدون هذه المهمة بنجاح كما فعلوا مع سلطان قلعة بني عباس.<sup>2</sup> ولعل من الدوافع القوية التي جعلت صالح رايس يصر على افتكاك بجاية علمه بالمؤامرة التي كان بطلها حاكم فاس محمد الشيخ المهدي<sup>3</sup> مع الإسبان بغية طرد الأتراك من إفريقيا الشمالية رغم سرية الاتفاق الذي تم بين الطرفين، فعزم على ضرب الطرفين كل على حدة قبل أن يتحدا، وقبل القيام بأية مبادرة قام بدراسة المواقع الإسبانية في بجاية دراسة جادة، فأدرك الأهمية التي تكسبها بجاية وعرف سر اهتمام الإسبان بها.

### 3- تحرير بجاية وإحاقها بالسلطنة العثمانية:

إن قلعة بجاية كانت تمثل بالنسبة للإسبان موقع استراتيجي في الساحل الإفريقي، لكنهم لم يتمكنوا من ضمان تموين مستمر لحاميتها، وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لصالح رايس حيث لم يجد صعوبة كبيرة في انتزاعها،<sup>4</sup> وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن صالح رايس استعان بالطريقة القادرية ليحقق أهدافه وجه نداء إلى الجهاد، فقدم شيوخ وزعماء القبائل - مما فيها تلك التي لم تعلن خضوعها للأتراك- المساعدة والمشاركة في المعارك. وإذا كان أمراء كوكو وبني عباس أول من استجاب لنداء الجهاد، وحمل المساعدات من الذخيرة والمقاتلين، فإن قبائل الحضنة والجنوب لم

<sup>1</sup> Gaid : l'Algérie sous, p71.

<sup>2</sup> عزيز سامح إلتتر: المرجع السابق، ص 200.

<sup>3</sup> ناصر الدين سعيدوني: الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2013، ص37.

<sup>4</sup> جون وولف: المرجع السابق، ص71.



## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

تتأخر عن المشاركة في الحدث فجاءت بعدد معتبر من الفرسان، وبذلك تمكن صالح رايس من جمع قوة كبير من المقاتلين بفضل التعبئة التي نادى بها مرة واحدة.<sup>1</sup>

أتم صالح رايس الاستعدادات أمر بانطلاق الأسطول البحري في مطلع شهر جوان 1555 من مدينة الجزائر، وكان 22 من نوع الغاليز ومثلها من السفن التي حملت الذخيرة والمؤونة، وأسند قيادته وانطلق هو عن طريق البر رأس المقاتلين، قدر مرمول عدده بعشرة آلاف مقاتل مشاة وفرسان<sup>2</sup> وقدر هايدو عدده ثلاثة آلاف (3000) من الانكشاريين والأعلاج مسلحين بالبنادق، وذكر أنه استعان ببركة وعناية مرابط شهير يدعى سيدي محمد أو الحاج، وعندما عرج على منطقة القبائل انضم إليه زعيم إمارة كوكو ابن القاضي وسلطان بني عباس ومعه عدد كبير من المقاتلين فرسان ومشاة وصل عددهم إلى 30 ألف.<sup>3</sup> ونعتقد أن صالح رايس فضل التوجه إلى المدينة عن طريق البر من أجل أن يتمكن من الاتصال بالأهالي بغرض جمع مزيد من المقاتلين في طريقه.

ويؤكد اعتقادنا هذا ما ذكره السعيد بوليفة أنه ا شارف على الوصول إلى بجاية عسكر بقواته. وادي الساحل، وهناك اندفع السكان الجبليون نحو ه، وانضموا إلى قواته للمشاركة في حرب الكفار<sup>4</sup> بعد أن كاد اليأس يسيطر عليهم لأن فقدانهم لها طال أمده. وناقد أشرنا إلى معاناة سكان القبائل المجاورة في الرسالة التي بعثوا بها إلى الأخوين عروج وخير الدين، مما كانوا يلاقونه من الإسبان، كما سبقت الإشارة إلى ما ذكر مرمول أن جنود الحامية كانوا يقومون بحملات السلب والنهب في المنطقة المحيطة ببجاية، إلا أن هذه الغارات لم تكن ممكنة إلا في حالات نادرة لأن القبائل التي تسكن تلك الجهات مدربة على القتال لم يكن رجالها يكفون عن التجوال بتلك الجهات مسلحين بالبنادق.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> Boulifa: op, cit p153.

<sup>2</sup> Marmol : op, cit, p 418.

عزيز سامح إثر: المرجع السابق، ص 194.

<sup>3</sup> Haedo : Histoire des Rois..., p278.

<sup>4</sup> Boulifa : op, cit, p152. - Pierre Dan: op cit, p82..

<sup>5</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 417.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

ويذهب البعض إلى تفسير وقوف ابن القاضي إلى جانب الأتراك في هذه الحملة برغبته في استعادة مدينة بجاية التي كانت تابعة لمنطقة نفوذهم مثل أزفون<sup>1</sup> ودلس وجيجل<sup>2</sup>.

لما وصلت سفن الأسطول إلى بجاية، تمكنت ولوج فخر الصومام و داخل اليابسة لإنزال الحمولة وفي نفس الوقت وصلت القوات البرية التي كانت تحت قيادة صالح ريس، وكانت الخطة تقضي بنقل المدفعية إلى الواجهة الخلفية للمدينة، للتمكن من قصفها من الأعلى، وتجنب قذائف المدافع الإسبانية،<sup>3</sup> بعد ذلك أمر بتشديد الحصار على المدينة.<sup>4</sup>

ولم تحل الأيام الأولى من شهر سبتمبر حتى أصبحت المدفعية والمقاتلين على استعداد تام لإطلاق النار وأثناء الحصار وجه صالح ريس نداء إلى قائد الحامية الإسبانية يخبره بعدم جدوى المقاومة طالبا منه الاستسلام دون إراقة الدماء.<sup>5</sup> لكن هذا القائد رفض الاستسلام، و يبدو أن كبيرة في قدرات جيشه وحصانة المدينة، أو ربما اعتقد أن الحملة ستفشل مثلما فشلت الحملتان السابقتان، ولا يدري أن الوضع هذه المرة مختلف، حينئذ أمر صالح ريس بالشروع في الهجوم، ف قصر الإمبراطور من تم ، أما المدفعان ذوي العيار الثقيل فقد وجههما لإطلاق النار على سفينة في عرض البحر قد من إسبانيا محملة بالذخيرة والمؤونة ورواتب الجند لتقدم المساعدة فتم تحطيمها وإغراقها، بعد ذلك أعطى الأوامر بقصف الحصون الإسبانية تخدام المدافع ذات العيار الثقيل.<sup>6</sup> كما وجه الأوامر كذلك بالهجوم على المدينة برا وبحرا و بجاية الكونت دو بيرالطا هذه الحملة، يقول: " بعد وصول صالح ريس بقواته إلى ميناء بجاية أمر بتنصيب المدفعية مقابل حصن الإمبراطور، وقام بتدمير كل تحصيناته في

<sup>1</sup> هي مدينة ساحلية تقع بين بجاية ودلس تبعد عن مدينة الجزائر بحوالي 110 كلم وعن بجاية بحوالي 100

<sup>2</sup> Boulifa : Ibid, p116.

<sup>3</sup> BB<sup>7</sup>-8 : affaires étrangères n° : 09, Projet de compagnie Royale d'exploitation agricole et commerciale d'Algérie, par Iluleil – 1830- 1831, p16.

<sup>4</sup> عزيز سامح إلترا: المرجع السابق، ص 200.

<sup>5</sup> Boulifa: Ibid, p153.

<sup>6</sup> Belhamissi: **Histoire de la Marine algérienne...**, p114.

يوم ونصف يوم من القصف المستمر، ثم تمكن بعد ذلك من الاستيلاء على برج البحر ( القادر) وأسر 43 جنديا من مجموع 60 كانوا يحرصون، ووجه مدفعيته نحو القصبه التي كان بها القصر الكبير الذي كذ نحتمي فيه مع ما تبقي من جنود الحامية و استمر في قصفها من صبي يوم الأحد إلى الجمعة دون توقف فحطم أسوارها<sup>1</sup> إلى درجة يخيل للمرء أنها لم تكن ذات يوم محاطة بأسوار، وقد تمكن عدد من فرسان صالح رايس الولوج إلى القصبه عبر فجوة تم فتحها بفعل القصف المدفعي و والكثير من الجنود قاوم كانت شديدة، فلم يتمكن صالح رايس دخول المدينة في هذا اليوم أي يوم الجمعة، ولكن بعد ذلك أصبح الاستمرار في المقاومة أمرا مستحيلا فاضطررنا إلى الاستسلام فأخذ صالح رايس كل ما وجدته في المدينة، وتركنا عراة مع النساء والأطفال. ولم يسمح بالمغادرة سوى لمساعدتي لويس غورديناو وأنا و120 من جنودي، سمح البايبرباي بركوب سفينة scorciapino بدون بحار وبصعوبة كبيرة وصلنا ميناء أليكانت في "2. ويضيف مرمول بهذا الصدد أنه بعد مقاومة دامت إثنان وعشرون يوما لم يستطع القائد الإسباني دويرالطا الصمود أكثر أرسل إلى صالح رايس يعرض عليه الاستسلام شريطة أن يسمح للنساء والأطفال بالمغادرة مع ما يمكنهم حمله من ممتلكات على أن يمنحهم سفن تحملهم إلى إسبانيا.<sup>3</sup> وفي رواية اشترط عليه القائد الإسباني أن يسمح له باختيار 40 من أتباعه و مغادرة المدينة على متن سفينة فرنسية للعودة إلى إسبانيا، وعده بإطلاق سراح جميع مواطنيه.<sup>4</sup>

ويجب التذكير هنا أنه في خضم المعارك أرسل قائد الحامية الإسبانية رسالة إلى الوصية على العرش ابنة شارل الخامس الأميرة خوانا يطلب منها التعجيل بإرسال المساعدات، لكن الأوان كان قد فات. ويخبرنا مرمول أن صالح رايس لم يف بوعده بخصوص إطلاق سراح النساء والأطفال وحوطهم إلى عبيد وأسرى واستولى على أملاكهم كغنائم، ثم سمح للقبطان دو بيرالطا بالسفر إلى

<sup>1</sup> Elie de la Primaudae: **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506 – 1574)**, op cit, p 274.

أنظر كذلك، عزيز سامح إثر: المرجع السابق، ص 194.

<sup>2</sup> Elie de la Primaudaie: op cit, p 274.

أنظر كذلك،

Mercier: **Histoire de l'Afrique....**, p82.

<sup>3</sup> Marmol: op, cit, p418.

<sup>4</sup> Mercier: Ibid, p83.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

إسبانيا مع عشرين رجلا اختارهم بنفسه.<sup>1</sup> وأكد دو غرامون الكلام نفسه،<sup>2</sup> وتتفق المصادر أن هذا القائد ذي الحظ العاثر لما وصل إلى إسبانيا بصعوبة كبيرة أمر الإمبراطور بالقبض عليه وقدم أمام مجلس حرب وحكم عليه بالإعدام، وتم إعدامه على جُبنه وسوء تصرفه أمام الملأ في و<sup>3</sup> رغم تقديمه الدلائل التي تبرئه.<sup>4</sup> ثم تشفع له شجاعته واستماتته في الدفاع عن المدينة لدى الإمبراطور الذي قدمه كبش فداء ليبرئ ذمته أمام رجال الدين الكاثوليك.

و انتهاء المعارك قام صالح راييس بتة القائد علي صار دو<sup>5</sup> حاكما على المدينة<sup>6</sup> وأمره بإعادة التحصينات للمدينة<sup>7</sup>. وإجراء الترميمات، لأن المدينة خربت عن آخرها بسبب القصف الثقيل الثقيل والمعارك العنيفة.<sup>8</sup> وأورد كمال فيلاي أن صالح راييس كان يهدف من وراء طرد الإسبان من بجاية وتحريرها، إلى التفكير في تأسيس بابلك الشرق بقسنطينة و نقل دار الجهاد البحري إلى قلعة بجاية الحصينة.<sup>9</sup> وهي الفكرة التي راودت الأخوين عروج وخير الدين ولا شك أنهما انتبها إلى موقعها المهم في مشاريعهما في هذه المنطقة، كما أورد بعض الكتاب ونظرا لخصائتها الطبيعية، وغنى منطقتها بالخيرات الطبيعية. لكن إخفاقه واستنجد سكان مدينة الجزائر بـ

<sup>1</sup> Marmol: Ibid, p418.

<sup>2</sup> de Grammont: op, cit, p66.

<sup>3</sup> Haedo: op, cit, p278.

أنظر كذلك،

Pierre Dan: op, cit, p38.

و كذلك، توفيق المدني: المرجع السابق، ص 34

<sup>4</sup> Haedo: op, cit, p278.

<sup>5</sup> أصله من جزيرة سردينيا الإيطالية حسب يدل عليه لقبه ذلك أنه جرت التقاليد أن ينسب الشخص إلى البلاد أو المنطقة التي قدم منها فحسن فتريانو من فينيسيا (البندقية)، وحسن فورصو من كورسيكا، ومامي أرناؤوط من أناضوليا، وإزميري من إزمير وهكذا. وكان من أتباع عروج وخير الدين.

<sup>6</sup> Gaid: les Berbères dans l'histoire..., p23.

<sup>7</sup> Mercier: Histoire de l'Afrique..., pp80-81.

<sup>8</sup> Ibid, p81.

<sup>9</sup> كمال فيلاي: « البابلك نظام حكم في الجزائر العثمانية » الهجرة والرحلة، مجلة نخب الأبحاث والدراسات

السوسيو تاريخية حول حركات الهجرة، جامعة قسنطينة2، أبريل 2014، ص23.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

يتوجهان إلى ويتخذان منها مقرا لحكمه<sup>1</sup>. تحققت هذه الفكرة لأمكن هذه هذه المدينة أن تستعيد مجدها التليد.

ولعله من واجبا التنبيه إلى أن الأسطول الجزائري لم يشارك في تحرير بجاية بسبب تواجده في مياه البحر المتوسط في مهمة مطاردة السفن الإسبانية إلى جانب الأسطول الفرنسي بقيادة polin de la garde بولان دو لا غارد ودرغووث رايس،<sup>2</sup> كما ترك صالح رايس جزء كبير من جيشه في مدينة مدينة الجزائر حيث وصل أسطول فرنسي في هذه الأثناء ومعه رسالة من السلطان العثماني يطلب المساعدة من الأسطول الجزائري لتحرير ميناء طولون المحتل من طرف الإسبان<sup>3</sup>، فكان عدد السفن التي بعث بها إلى بجاية تمثلت حسب بربروجر في سفينتان من نوع القاير وسفينة كبيرة نوع البارك و نسي كان في ميناء الجزائر من نوع الكرافل<sup>4</sup> وكان حاكم المدينة آنذاك الدون ألونزو كاريلو قد قد سمع عن قدوم أسطول جزائري ضخم من بعض صيادي الأسماك الإيطاليين الذين ذكروا أنهم شاهدوه وهو في طريقه، ورغم أنه لم يصدق أن الجزائريين سيجرؤون على مهاجمته إلا أنه توخى الحذر والحيلة فكان مستعدا وصول الأسطول كما أبرق إلى إسبانيا في إمدادات إضافية.<sup>5</sup> ويذكر هايدو أن الخ رايس كان يغدق على المقاتلين بالأموال حتى يزيد من عزيمتهم وشجاعتهم ويحفزهم على الثبات في القتال،<sup>6</sup> وهي سنة حميدة درج الحكام الأتراك عليها منذ عهد عروج وخير الدين، كما أنه كافأ كلا من القائد محمد والقائد فرج بعشرين ألف أقة على مشاركتهم الفعالة بالمدافع في فتح المدينة.<sup>7</sup>

وقد أظهر صالح رايس الشجاعة والإقدام في هذه الحملة وضرب المثال الرائع لجنوده في تقدمه للقتال، فقد شهد له الأعداء بذلك فهايدو يذكر أنه كان يقاتل بشراسة وبصرامة حتى ينال رض

<sup>1</sup> de Grammont: op, cit, p125.

<sup>2</sup> Boulifa : op, cit, p152.

<sup>3</sup> Jacques Heers: op, cit, p106.

<sup>4</sup> Berbrugger: op, cit, p86.

<sup>5</sup> توفيق المدني: المرجع السابق، ص 344.

<sup>6</sup> Haedo : op, cit, p89.

<sup>7</sup> الأرشيف الوطني الجزائري: معاهدات سلم وتجارة بين الجزائر والقوات المسيحية خلال العهد العثماني

الجزائر، 2001، ص15.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

الباب العالي وذكر أيضا أنه قام بتوزيع الغنائم على الجنود والم  
120 امرأة و100 1200 أقية،<sup>1</sup> وسمح للقائد الإسباني الدون ألونزو دي بيرالتا مع  
رجالها بمغادرة بجاية كما سبق الذكر، ليكونوا شهودا على ضياء البلاط الإسباني.<sup>2</sup>

وليس من الغريب القول أن المدينة هُتمت عن آخرها إذا عرفنا أنها تعرضت للقصف الثقيل،  
وتبادل نيران المدافع طيلة 22 استلمها صالح راييس عبارة عن أطلال.<sup>3</sup> ويجب التنويه بالدور  
الذي لعبته قبائل المنطقة في تخليص بجاية حيث شاركت بأعداد كبيرة حسبما ورد في المصادر  
المعاصرة. ومن المؤكد أن القدرات الحربية للإيالة تطورت كثيرا على ما كانت عليه في عهد عروج  
رايس، وإلا لما تمكن صالح راييس من تحرير المدينة.

وعلى أية حال فقد أدى افتكاك بجاية فقدان إسبانيا لقلعة حصينة في إفريقيا الشمالية، كانت  
تأسس إمبراطورية استعمارية في هذه المنطقة انطلاقا من قاعدتها في بجاية<sup>4</sup> ويبدو أن  
الحامية بيرافون دو بريرا Pérafon de Rebra أدرك أن أيام الإسبان في بجاية باتت معدودة  
حيث جاء في إحدى مراسلاته للإمبراطور شارلكان : "إن بجاية ليست المكان الذي يمكننا فيه  
جمع الذهب و الجواهر، لقد بحثنا في هذه البلاد ولم نعتز فيها سوى على المور والأتراك كانوا يقفون  
لنا بالمرصاد".<sup>5</sup>

ونسجل هنا اندهاشنا وتعجبنا من سكوت المصادر المحلية و ع موقف العلماء والفقهاء  
والأدباء والشعراء في هذه الفترة، من فتح بجاية رغم أهميته وقتئذ، حيث كان الصراع المسيحي  
الإسلامي على أشده، ورغم الصدى الكبير الذي تركه داخل الإيالة، وفي سائر البلاد والإسلامية،

<sup>1</sup> Haedo: op, cit, p280.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني: الشرق الجزائري...، ص 20.

<sup>3</sup> Boulfa : op, cit p153.

<sup>4</sup> يذكر فرناند برودال أن هزيمة الإسبان كانت شديدة الوقع على إسبانيا الشرقية التي أصبحت الدعوة جادة  
إلى الانتقام السريع من خلال تنظيم حملة عسكرية دعا إليها الأساقفة والرهبان وأبدوا استعدادهم لتمويلها، أنظر:

Braudel: op, cit, p124.

<sup>5</sup> Belhamissi: **Histoire de la Marine algérienne...**, p114.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

بخلاف فتح وهران، الذي سجل فيه الأدباء والمؤرخون والشعراء وحتى الفقهاء حضورهم القوي، من خلال الإشادة بالحدث وكتابة القصائد الشعرية في مدح بطل هذا الفتح، سواء الفتح الأول سنة 1708م أو الفتح الثاني سنة 1792م.<sup>1</sup> ويعتبر برودل الكاتب الوحيد الذي ذكر أن استرجاع بجاية كان له انعكاسات على إسبانيا، حيث ألهمت مشاعر المسلمين هناك فأرادوا اغتنام هذه المناسبة من خلال قيامهم بحركة قادها الموريسكيون هدفت إلى الثورة في مقاطعة طوليدو أخدمت منذ البداية.<sup>2</sup>

والسؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان هو كيف كان موقف إمارتي كوكو وقلعة بني عباس وهما من أقوى الكيانات السياسية المحلية، من الوضع الجديد في المنطقة بعد طرد الإسبان؟ وبعد مساهمة كلتا الإمارات في هذا التحرير. تتحدث المعلومات القليلة المتوفرة لدينا عن زيادة أطماع زعمي الإمارات السابقين السلطان عبد العزيز وأحمد بن القاضي، حيث كان كلاهما بالاستيلاء اتخاذها عاصمة للحكم، والاستفادة من موقعها الاستراتيجي لإطلاقها على البحر يسمح لكلاهما بتنشيط الحركة التجاري في المنطقة بعد ركودها الطويل، وإقامة علاقات تجارية مع الدول الخارجية، فابن القاضي لا شك في أنه كان يرغب في إعادة المجد الضائع والسلطان عبد العزيز كان يرغب كذلك في الحصول على منفذ بحري لإمارته الفتية. و يبدو أن العداوة والتنافس فيما بينهما وخوف كل طرف أن يستولي الآخر عليها من جهة ثانية، الحكم التركي في المدينة على أن تخضع لأحدهما.<sup>3</sup>

ويدعم رأينا هذا تلك الرسالة التي بعث بها زعيم مملكة إلى الملك الإسباني فيليب الثالث يعرض عليه التحالف لشن حملة على أترار الجزائر ويخبره أن كل الظروف متاحة للقيام بهذه الحملة سادت الفوضى والاضطرابات، واشتد الصراع في دوايب السلطة،

<sup>1</sup> كان الفتح الأول على يد الداوي محمد بكداش، (1707- 1710) والباي مصطفى بوشلاغم، وكان الفتح الثاني سنة 1792 على يد الداوي حسن باشا و باي الغرب محمد الكبير. لمزيد من التفاصيل حول الحدثين راجع، ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية، وأبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1. وكذلك ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني.

<sup>2</sup> Braudel : op, cit, p123.

<sup>3</sup> Boulifa: op, cit, p161.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

ويستعرض في نفس الرسالة قواته التي يذكر أنها تبلغ 100 ألف مقاتل في حين لم يكن جند الأتراك يتجاوزون 9 آلاف جندي<sup>1</sup>، فهذه الرسالة تتبين بوضوح خضوع زعيم كوكو ومهادنته للسلطة العثمانية ووقوفه إلى جانب صالح راييس كما مر بنا في الحملة على بجاية، لم يكن في الواقع سوى استراتيجية اقتضتها نقص الإمكانيات العسكرية لمواجهة هذه السلطة، فكان يتحين الفرص لتحقيق حلم قديم طالما راود أسلافه وهو الاستيلاء على بجاية. ولكن من سوء حظ ابن القاضي أن الظروف التي كانت تمر بها إلبانيا لم تكن على ما يبدو تسمح بالقيام بأية مغامرة في الإيالة الجزائرية.

### المبحث الثاني: التنظيم الإداري في الإيالة الجزائرية

#### 1- التنظيم الإداري في الجزائر

اتصف نظام الحكم العثماني في الجزائر بتعاقب عدة أنظمة سياسية عبر فترات تاريخية معينة، أولها فترة حكم البايبربايات وتمتد من 1520م إلى 1587م وتضمنت مرحلة استنجد الجزائريين بالإخوة بربروس وإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية.<sup>2</sup> ثم تلتها مرحلة حكم البشوات وتمتد من 1587 إلى 1659م، وحددت مدة الحكم بثلاث سنوات فقط، وتمزت بميل البعض إلى السعي للثراء بسبب قصر مدة الحكم ما أدى إلى عدم الاستقرار الذي ميز هذه الفترة، وهو مبرر جعل الحكام يغيرون نمط الحكم إلى الأغوات وتمتد هذه الفترة 1659 إلى 1671 وهي أقصر مرحلة وأضطراباً.<sup>3</sup> وتمتد المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الدايات 1671 إلى 1830، وفي هذه الفترة تمتعت الجزائر باستقلال شبه تام عن الباب العالي، حيث كان الدايات يعقدون الاتفاقيات والمعاهدات مع

<sup>1</sup> Boyer : «Espagne et Coucou...», P7.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ - العهد العثماني، م. و. ك، ص4.

<sup>3</sup> مصادر ومراجع عديدة تناولت النظام العثماني في هذه الفترات لمزيد من التفاصيل يُنظر:

Haedo : **Histoire des Rois d'Alger....**

مرمول: المصدر السابق. شوفالييه كورين: الثلاثون سنة الأولى لتأسيس الجزائر وعبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج3. وتوفيق المدني: حرب الثلاثين سنة بين الجزائر وإسبانيا. وعزيز سامح إثر: المرجع السابق.

de Grammont : **Histoire d'Alger....**

أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ناصر الدين سعيدوني: وثائق جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2000.



## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

الدول الأوروبية دون الرجوع للباب العالي.<sup>1</sup> ولاحظ كل من المهدي البوعبدلي وسعيدوني أن مرحلة البدايات عرفت فترتين هما فترة اختيار الداوي من طرف طائفة رياس البحر و 1671 إلى 1689، ولما تقلص نفوذ رياس البحر بسبب تقلص نشاط القرصنة أصبح الديوان يختار الداوي من بين رجال الانكشارية واستمرت هذه الفئة في الحكم إلى غاية الاحتلال سنة 1830.<sup>2</sup> وسميت هذه المرحلة نسبة إلى لقب الداوي الذي كان الجزائريون يطلقونه على الحاكم الذي كان الأوجاق يعينونه لتسيير شؤون الإيالة إلى جانب الباشا الذي كان يرسله الباب العالي، حتى سنة 1711 منع علي داي الباشا المبعوث من الباب العالي من النزول من السفينة طالبا منه العودة إلى اسطنبول مهددا إياه بالقتل إن لم يمثل للأمر، فتوقف الباب العالي منذ هذا التاريخ عن إرسال الحكام إلى الجزائر. ولم يكن لقب الداوي من ابتكار الجزائريين بل سبقهم إلى استعماله التونسيون الذين استعملوا اللقب سنة 1590 والطرابلسيون سنة 1603.<sup>3</sup>

أما النظام الإداري للإيالة في الحكم العثماني، فكان يقوم على جهاز إداري محكم التنظيم، لا سيما منذ أواخر القرن الثامن عشر، حيث ارتسمت معالم الدولة بشكل جلي وواضح، وكان على رأس هذا الجهاز الداوي الذي يساعده مجلس الديوان الخاص، وكان يضم موظفين سامين كبار وكانوا في نفس الوقت أعضاء في مجلس الديوان الكبير.<sup>4</sup> وكان يساعد الداوي في أداء مهامه كبار رجال الحكم وهم كالتالي: حسب أهمية المنصب الذي كان يشغله كل منهم: الخزناجي، آغا العرب، بيت المالجي، خوجة الخيل، وكيل الحرج، الكتاب الأربعة، ومجموعة الخواجات، وكثر عددهم حتى

<sup>1</sup> حول هذا التقسيم راجع، عبد الرحمان الجليلي: المرجع السابق، توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة، أبو

القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج2.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 5.

<sup>3</sup> رشيد بورويبة: الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية م. م، ص 133.

<sup>4</sup> ناصر الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص16.

لمزيد من التفاصيل راجع، عبد الرحمان الجليلي: المرجع السابق، ص 17 وما يليها، وكذلك توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

بلغ الثمانين خوجة في بعض الأحيان، كما تنعت مهامهم فمنهم خوجة القصر، خوجة القمرك (الديوانة)، وخوجة الرحبة (المكاس)، وخوجة العيون ، وخوجة الجلد غيرهم.<sup>1</sup>

-مجموعة القياد: ويشرفون على البوادي (الأوطان)، ومن مهامهم السهر على حفظ الأمن واستخلاص الضرائب بالاستعانة بشيوخ القبائل والدواوير وقبائل المخزن، وقد تتعدى مهامهم إلى تسيير الشؤون العامة في بعض المدن.

-مجموعة الحكام: وكانوا يسند لهم الإشراف على تسيير المدن، من فرض النظام والسهر على استخلاص الضريبة، وقد تتعدى وظائفهم إلى الإشراف على بعض الأعراش.

-مجموعة الضباط المتقاعدین: (معزول آغالار أو بلوك باشلار)، ويشكلون مجلس الديوان الكبير برئاسة الكتخدا أو الكاهية. هذا ويوجد عدد آخر من الموظفين كالناظر والمحتسب ( الشرطة)، والمزوار والدلال والبراح.<sup>2</sup> وكان يتكون هيكل الحكم والوظائف الأساسية في الدولة مما : **الداي الذي** كان يأتي في هرم السلطة الداى وهو رئيس منتخب يحكم حكما مطلقا ولا يخضع لأية سلطة، وهو القاضي والحاكم في نفس الوقت، يعاقب ويعفو ويقرر الحرب والسلام.<sup>3</sup>

ويلى الداى من حيث الأهمية والمكانة الآغا وهو القائد الأعلى للقوات العسكرية، وهو الأقدم في خدمة الجيش، ولكن مدة حكمه لا تتعدى الشهرين القمريين.<sup>4</sup> وقد اعتمد الحكم العثماني في الجزائر على تقليد يقوم على إرسال الولاة من الباب العالى، حتى سنة 1711 كما سبقت الإشارة وكان يتم تعيينه كالتالى، يجتمع ديوان الإيالة بحضور كبار الموظفين والعلماء ومعظم جنود الأوجاق وقوادهم، وبعد الاتفاق على الشخص الذي سيحكم الإيالة يتقدم إليه العلماء والأعيان ويجلسوه على كرسي الحكم ويلبسونه الخلعة السلطانية أو القفطان،<sup>5</sup> وبعد جلوسه على كرسي الحكم يتقدم إليه المفتي ليذكره بالمسؤوليات التي يتوجب عليه القيام بها بأمانة وهي معاقبة المجرمين والحكم والعدل

<sup>1</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص19.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي : المرجع نفسه، ص ص 20 - 21.

<sup>3</sup> Peyssonnel et Désfontaines : op, cit, p411.

<sup>4</sup> Stiphen d'Estry: op, cit, p70.

<sup>5</sup> أنظر أحمد الشريف الزهار:المصدر السابق، ص95.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

والدفاع عن سيادة الأوجاق وأمن الإيالة وضمنان جرايات الجند، ثم يتقدم إليه الآخرون ويقدمون له التهنئة بالمنصب ويقبلون يده كدليل للولاء والطاعة<sup>1</sup>، وفي نهاية هذه المراسيم يرفع العلم العثماني وتضرب الموسيقى وتطلق المدافع، وبعدها يذاع في الشوارع خبر التعيين الجديد عن طريق منادي كما رسل الخبر إلى البايليكات الثلاث، وفي اليوم الموالي يأتي دور القناصل الأوروبيين لأداء واجب التهنئة نيابة عن حكوماتهم وفي الوقت ذاته يحصلون على توقيع الوالي الجديد على تجديد معاهدات بلدانهم مع الإيالة<sup>2</sup> وبعد أن يستقر الحاكم الجديد على كرسي الحكم

على خبر التعيين وظروفه وملاساته وأسبابه، ولكي يكون التقرير ذا مصداقية لدى الباب العالي بد أن يحمل توقيع كل من الخزنجي ووكيل الخرج وآغا الانكشارية والعلماء وعلى رأسهم المفتي والقاضي ونقيب الأشراف، ومما يشار إليه أن خبر التعيين كان يصل إلى الباب العالي قبل وصول تقرير الباشا، وذلك عن طريق القبطان داريا الذي كان بمثابة وزير البحرية العثماني، الذي يعتبر المسؤول الأول عن المقاطعات العثمانية التي تقع على البحار ومنها الإيالات المغاربية، وكان هذا الوزير يحصل على المعلومات والأخبار بواسطة السفن التجارية التي كان أصحابها يهتمون بنقل أخبار الإيالة، كما أنه كان شديد الحرص على تقصي وتبعية أخبار الجزائر لتبليغها للباب العالي بصفة مستمرة<sup>3</sup>.

وبعد أن يرسل الباشا خبر التعيين للباب العالي يبدأ في تحضير الهدية التي اعتاد حكام الجزائر إرسالها إلى السلاطين العثمانيين حتى يحصلوا منهم على الموافقة على ذلك التعيين وتمثل رموز تلك الموافقة في إرسال فرمان التولية وسيف مطرز وقفطان. وكان لباس القفطان للباشا يكون في احتفال كبير يحضره كبار العلماء والموظفين والأعيان حيث يقوم القفطاني بوضع الرموز الثلاثة بجانب الباشا الأيمن ثم يقبل يده ثلاث مرات، ويستمع الجميع للفرمان، ثم يتقدم بعد ذلك الخزنجي ليلبس القفطان للباشا، ويقوم الحاضرون كلهم لتهنئة الباشا بعد قراءة الفاتحة ويتمنون له النجاح والتوفيق في مهامه

<sup>1</sup> خليفة حماش: العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1988 ص36.

<sup>2</sup> Laugier de Tassy : **Histoire du Royaume d'Alger**, Amesterdam, 1725. , p213

<sup>3</sup> خليفة حماش: المرجع ال ، ص36.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

ويقومون كذلك بتقبيل يده، ولتعميم الفرحة في المدينة يتم إطلاق طلقات من مدافع القسبة والقلاع. ويأتي دور القناصل ليقوم كل منهم بتهنئة الباشا وتبليغه تهاي حكوماتهم.<sup>1</sup>

وقد جرت العادة أن يكون تجديد البيعة للباشا مرة في السنة في مناسبة عيد فطر، من طرف رجال الديوان، وأما تجديد البيعة للباشا على يد السلطان للاث سنوات، بالنسبة للشوات الذين حكموا لمدة طويلة، وكان التجديد مرهونا بالهدية الثمينة التي كان على الباشا تقديمها للسلطان ووزرائه، ونادرا ما كان السلطان ينعم على الشوات بتجديد البيعة لهم، وكان الشوات يتم إعفاؤهم من دفع الهدية التي كانت في غالب الأحيان م . وكان الباشا يقيم في قصر خاص به يطلق عليه باللغة التركية باشا قابوسي، ويسميه العامة دار الإمارة أو دار السلطان.<sup>2</sup> وفي حالة وفاة الباشا لا يحق لورثته أن يرثوا إلا ما وجد في بيت عائلته خارج دار الإمارة، ويقوم البيت المالجي بمصادرة جميع ممتلكاته في دار الإمارة ويضمها إلى بيت المال.

وقد قسمت الجزائر إداريا كما هو متعارف عليه إلى أربع مقاطعات هي دار السلطان وبايلك الشرق وبايلك الغرب وبايلك التيطري، وكانت كل مقاطعة تتكون من أوطان والوطن يتكون من وحدات إدارية تسكنها عشيرة أو عشائر يحكمها شيخ<sup>3</sup>، وكان الباشا يعين البايات على مستوى المقاطعات والباي يعين القيادة على مستوى الأوطان والقياد بدورهم يعينون الشيوخ على مستوى الوحدات الإدارية الأصغر.<sup>4</sup> وكان الباشا يرسل قفطان التولية للبايات لونه أحضر وكان البايات بدورهم يرسلون البرنوس الأبيض للشيوخ الذين يعينونهم في الأوطان. وكان جهاز الحكم يستعين بموظفين كبار في تسيير شؤون الإيالة منهم مجلس الديوان والبايات وقياد الأوطان وشيوخ القبائل إضافة إلى الترجمان والناظر.<sup>5</sup>

وكان يساعد الباشا أو الوالي مجلس استشاري يعرف بالديوان هو جهاز يعد بمثابة مجلس عام للدولة يضم الباشا ومساعديه والعلماء ة كافة القضايا التي تخص الإيالة ويصدر بشأنها

<sup>1</sup> نفسه، ص 43.

<sup>2</sup> خليفة حماش: المرجع السابق، ص 44.

<sup>3</sup> Baudicourt:op, cit, pp 271-272.

<sup>4</sup> Ibid, p273.

<sup>5</sup> الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 36.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

القرارات بعد الإجماع عليها والتي كان الباشا السهر على تنفيذها<sup>1</sup> وقد لا حظ حمدان خوجة أن الباشوات في أواخر العهد العثماني سيطروا على الديوان وجعلوا منه مجلسا من غير قوة ولا سلطان<sup>2</sup> وقال عنه كذلك القنصل الأمريكي أنه تحول إلى شبح لا حول ولا قوة له، وذكر أنه لو دعوة عمر باشا (1815-1818م) له للاجتماع بسبب تسوية النزاع الذي نشب بين الإيالة وأنجلترا 1817 لما كان لوجوده معنى ومما زاد من تدهور وضعيته مقر الحكم من قصر الجنية إلى القصة حيث فقد أهميته للأبد حسب ذات المصدر.<sup>3</sup> كما لوحظ أنه لم يع يجتمع إلا في المناسبات التقليدية التي اعتاد على الاجتماع حولها ليس لها تأثير كبير على الوضع العام للإيالة الاجتماع في أوقات دفع الجرايات<sup>4</sup>، وتعيين الباشوات وتحديد البيعة لهم، أو عندما يرسل الباب العالي مبعوثه إلى الإيالة للنظر في قضية من القضايا التي تخص هذه الأخيرة<sup>5</sup>.

### الباي ومهامه:

كان البايات ون في المركز الثالث بعد رجال الحكم الممثلين في الداى وأعضاء مجلس الديوان الأكبر الذين سبق الحديث عنهم، وإذا كان كبار رجال الحكم يحيطون بالباشا أو الوالي ويقومون بالقرب منه فإن البايات كانوا يعينون في الأقاليم البعيدة، كان باي يقيم في اصمة الإقليم الذي تم تعيينه فيه. وتتمثل مهام في الإشراف على تسيير شؤون المقاطعة من جميع النواحي الإدارية والسياسية والأمنية والعسكرية والثقافية والدينية، وحتى العلاقات الخارجية.<sup>6</sup> وكان

<sup>1</sup> حليفة حماش: المرجع السابق، ص55،

<sup>2</sup> حمدان خوجة: المرأة، ص154.

<sup>3</sup> وليم شالر: المصدر السابق، ص40.

<sup>4</sup> de Paradis : op, cit, p167.

<sup>5</sup> حليفة حماش: المرجع السابق، ص56،

<sup>6</sup> Vayssette : Histoire des Beys..., p112.

لمزيد من المعلومات حول علاقات البايات الخارجية أنظر كمثل دراسة الأستاذ حميدة عميراي: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البعث، قسنطينة

.2002

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

وكان يساعده موظف سامي يُ خليفة الباي، الذي كان يخلفه حال غيابه عن مقر الحكم، كان ينوبه في أداء واجب الدنوش، فالخليفة كان بمثابة الذراع الأيمن للباي على حد تعبير إرنست مرسييه،<sup>1</sup> فعلاوة على المهام السابقة الذكر يقوم بالاتصال بالقياد في المقاطعات والأوطان، ويسهر على عملية تحصيل الضرائب وتتسع صلاحياته لإقرار الأمن والهدوء، والتدخل في شؤون الأوطان كما يذكر فايستات Vayssettes.<sup>2</sup>

الشيخ:

وإذا كان الباشا يعتمد في الإدارة على مساعدة البايات، فإن البايات كانوا يعتمدون على الشيخ في بسط سلطاتهم وتأكيد وجودها خاصة في الأرياف والبوادي، وكان الشيخ يحظى بسلطات وصلاحيات واسعة في مجال المالية والأمن والجيش والقضاء في حدود الإقليم الذي كان يشرف عليه، وكان الإشراف على توزيع الأراضي وتنظيم ملكيتها بين العائلات ومراقبة كمية ونوعية الإنتاج الذي تدره على الفلاحين لضمان جمع الضرائب، من المهام الأساسية الم.<sup>3</sup> وكانت السلطنة تزود الشيوخ بالعتاد الحربي والأسلحة ال زمة لكي يتمكنوا من تمثيلها وفرض وجودها في أقاليمهم حسب ما يذهب إليه عبد الرحمان الجيلالي.<sup>4</sup>

ونظرا لمكانة هؤلاء الشيوخ في قبائلهم وأعراسهم فقد السلطنة علاقات وطيدة تمكنت من خلالها من توظيف سلطتهم ونفوذهم لخدمتها. ويمكن تقسيم ال بالسلطنة العثمانية في الجزائر إلى:

ال المخزنية: وهي ال الموالية للسلطنة وتكون عادة معفاة من الضرائب وإن كانت هذه الأعراس تختلف من حيث الامتياز الممنوح لها فيما أن تخفف عنها الضرائب فقط وإما أن تعفى منها

<sup>1</sup> Mercier : **Histoire de Constantine...**, p214.

<sup>2</sup> Vayssette : **Ibid**, p112.

<sup>3</sup> Louis Rinn : «le Royaume d'Alger sous le denier Dey», in, **R.A**, n°: 43,1898, p68.

<sup>4</sup> الجيلالي: المرجع السابق، ص556.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

نهایی<sup>1</sup> ، ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى السماح لها بممارسة نفوذها في إضافة إلى بعض الضرائب النقدية التي تخص بعض السكان الممتنعين عن سلطة البايك في بعض النواحي الجبلية الحصينة وهؤلاء لم يكونوا يدفعون الضرائب إلا تحت تهديد الحملات الانتقامية التي كان يشنها عليهم فرسان المخزن من حين إلى آخر<sup>2</sup>. وكانت سياسة البايك الجبائية تعتمد أساسا على التأييد الحربي لبعض القبائل والأعراش<sup>3</sup>.

المتمردة المستعصية: وهي البعيدة عن مركز الحكم وتسكن مناطق ظلت ممتنعة عن سلطات البايات وفي أغلب الأحيان فهي تتوكل على الجبلية الحصينة، حيث تعيش في شبه استقلال تام فلا تتعامل مع الحكام إلا من خلال شيوخها ومرابطيها ولا تتصل بسلطات البايك إلا عند تعرضها للحملات الفصلية التي تقوم بها الحلة المعززة بفرسان المخزن في فصل الخريف و الربيع<sup>4</sup>.

وكانت هذه القبائل والأعراش لا تدفع الضرائب إلا بالقوة وهو ما كانت تعتبره غرامات حرية وتنتمي أعراش بجاية وقبائلها إلى هذا النوع من القبائل بالإضافة إلى أعراش الشمال القسنطيني<sup>5</sup>. الرعية: وهي الخاضعة لمختلف أنواع الضرائب الشرعية والإضافية و يدخل الفلاحون و التجار الصغار و الحرفيون و غيرهم من العمال المستغلون في الأعمال الفلاحي و الصناعية العامة سواء في الريف أو في المدن ولم يكن هؤلاء يخضعون لضغوط السلطة الحاكمة فحسب بل كانوا تحت ضغط الإقطاعيات المحلية و التركية التي تكونت من أسر البايات و الساميين. وكانت السلطة تقوم بتسليم أراضي البايك مقابل أعمال وخدمات أو سد مرتبات وتقديم مكافآت لبعض الموظفين والمرابطين من ذوي النفوذ، وقد استحدث هذا النوع من استغلال أراضي البايك للحد من شوكة الزعماء المحليين وحاجة الدولة لاستمالة المرابطين وعدم التمكن من فرض

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدوني: «وضعية القبائل المخزنية والآثار المترتبة عليها» مجلة التاريخية المغربية، عدد 7- 8، 1977، ص 75.

<sup>2</sup> Robin : **La grande Kabylie...**, p13.

<sup>3</sup> de Grammont : op, cit, p240.

<sup>4</sup> ناصر الدين سعيدوني: «الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة» مجلة الأصالة ، عدد 60-61 ، ص 137

<sup>5</sup> de Grammont : op, cit, p241.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

السيطرة المباشرة على كثير من المناطق الجبلية الوعرة التضاريس والبعيدة، باستعمال القوة العسكرية، فلجوء الدولة إلى هذا النوع من استغلال الأراضي مرده إلى ظروف محلية وأوضاع تاريخية-  
أورده ناصر الدين سعيدوني- عرفها قطاع كبير من بايلك الشرق الجزائري خاصة.<sup>1</sup> كما يعتبر أسلوب التهديد بالقيام بحرق المحاصيل الزراعية وإتلافها وقطع الأشجار المثمرة وإحراق البيوت (الأكواخ)<sup>2</sup> أحد الأساليب التي كان يلجأ إليها الحكام الأتراك للضغط على القبائل المتمردة وحملها على الخضوع وطلب الأمان، أو إرغامها على الخروج من أماكن تحصينها لخوض للقتال.<sup>3</sup> كما كان البشوات يفعلون مع سلاطين بني عباس، حينما كانوا يتحصنون في القلعة.<sup>4</sup>

### 2- التنظيم الإداري في بجاية:

قبل التطرق إلى التنظيم الإداري الذي طبقتة السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها، تجدر الإشارة إلى أن التنظيم الإداري في الجزائر إبان العهد العثماني كان مستمدا من الإدارة في الدولة العثمانية<sup>5</sup> ولما ألحقت بجاية بالحكم العثماني شرع قائد علي صارديو في إذ أوامر وتعليمات البايبرباي صالح راييس كما سبقت الإشارة<sup>6</sup> ومن جملة ما قام به هذا القايد من إصلاحات، أنه قام بإزالة الرمال المترسبة عند مصب نهر الصومام حيث أصبح بإمكان السفن الكبيرة التوغل نحو الداخل للإحتماء من الأمواج خلال فصل الشتاء<sup>7</sup>، وذلك لا شك أن صالح راييس كان يدرك أن الإسبان لا يقبلوا بالهزيمة وأنهم سيعيدون الكرة لا محالة لاسترجاع المدينة.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدوني: الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، ص132.

<sup>2</sup> البيوت والأكواخ تشيد بالحجارة وتغطي بنبات الديدس وأغصان الأشجار مما كان يجعلها سهلة للاحتراق.

<sup>3</sup> Boulifa: op, cit, p90.

<sup>4</sup> Haedo: **Histoire des Rois...**, p243.

<sup>5</sup> خليفة حماش: المرجع السابق ص.89.

<sup>6</sup> de Grammont: op.cit, p85.

<sup>7</sup> Marmol : op, cit, p418.

<sup>8</sup> بناء على مصادر أوروبية كان الإسبان يراقبون السواحل الجزائرية بصفة مستمرة عن طريق جواسيسهم، بغية الاستيلاء على المدن الساحلية الحيوية مثل محاولة الاستيلاء على ميناء أزفون لكن المحاولة فشلت حيث كان أهالي المنطقة يقظين وتمكنوا من كشف المؤامرة التي دبرها أحد القساوسة ويدعى ماثيو، ونذكر مثالا آخر وهو تمكنهم من استعادة وهران سنة 1732 بعد أن تمكن من طردهم منها الداوي محمد بكداش سنة 1708.



## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

ولا شك أن مهمة السلطنة في بجاية ونواحيها كانت صعبة، نذرا لموقعها البعيد عن مقر الحكم المركزي من جهة، وإحاطتها بالجمال الشاهقة الارتفاع والقبائل المحاربة، ف أساسا حماية المدينة من تعرضها لأي غزو خارجي محتمل، لأن الأنظار كانت متجهة إليها، وكذلك حماية الأسطول الذي كان يقضي موسم الشتاء في مينائها، بالإضافة إلى الضرائب كرمز للولاء والتبعية كلما سمحت الفرصة، أ التنظيم الداخلي للقبائل والأعراس فقد تركت للعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة سابقا والتي كانت تنظم العلاقات العامة بين سكان تلك المناطق.<sup>1</sup>

والظاهر أن استرجاع بجاية أدى إلى إنتعاش النشاط التجاري بها مع المناطق الأخرى سيما في الشرق ضى على الوجود الإسباني وأعاد الحياة إليها حيث تحولت الكنائس إلى أصلها، والمدارس والمعاهد والكتاتيب عاد إليها نشاطها المعهود.<sup>2</sup> وبالرغم من ذلك فإن المدينة لم السابقة.<sup>3</sup>

### جهاز القضاء :

يعتبر القضاء في الدولة العثمانية من أبرز الأجهزة التي أولت لها الدولة العناية الكبرى، نظرا لأهميته وخطورته في الوقت نفسه، ولارتباطه بالمجتمعات التي كانت خاضعة للدولة، ومن هذا المنطلق جعلت السلطنة العثمانية في الجزائر القضاء من أهم أولوياتها وكان الحكام حريصين على تطبيقه وفق الشريعة الإسلامية. فكانت السلطنة تتوخى الحذر والحيطه في تعيين القضاة ومساعدتهم، وتقوم بتعيينهم وفق معايير وشروط صارمة وجادة، لأن العدل أساس الملك، ودوام الحكم والحصول على رضا السكان يرتبط بالأساس بالقضاء العادل، ولذلك نجدتها تعتمد في إستناد هذا المنصب الحساس في

<sup>1</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 57.

<sup>2</sup> Mouloud Gaid: *I'Algérie sous les Turcs...*, op, cit, p72.

<sup>3</sup> Dominique Valérian: op, cit, p633.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

عدة مدن كبيرة كالجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها، على البيوتات العلمية في هذه المدن، فنجد الأسر تكاد تحتكر الإفتاء والقضاء لنفسها مثلما حصل مع أسرة الفكون في قسنطينة.<sup>1</sup>

إن حرص الدولة العثمانية على تطبيق العدالة وفق مبادئ الشريعة الإسلامية في الأقاليم التابعة لها جعلها تعين لكل قاضي مفتي يساعده في إصدار أحكامه، ويعتبر السلطان سليمان القانوني (926 - 974 / 1520م-1566م) هو أول من استحدث هذا النوع من الإجراءات، وكان المفتي يأتي في المركز الثاني بعد القاضي<sup>2</sup>. ولكن يبدو أن جهاز القضاء تأثر هو الآخر بالجو العام الذي ساد إيالة الجزائر في أواخر العهد العثماني والذي اتسم باستبداد بعض الحكام وتسلبهم، وانتشار الفساد الإداري، فأصبح القضاء محل تنافس بين العلماء والأسر التي تملك النفوذ والجاه لاسيما في المدن، فأصبح من ثمة يتم تعيين القضاة دون مراعاة الكفاءة العلمية والتقوى والصلاح، والترف، فأصبح معظم القضاة متورطين في أكل مال اليتيم والأوقاف ويحكمون بجهلهم<sup>3</sup>، ومن الطبيعي أن يكون لذلك الأثر السيئ على المجتمع حيث تضيع الحقوق ويسود الظلم والأحكام العشوائية الارتجالية، مما يساهم في اتساع الهوة بين الحاكم المحكوم، وهو ما حدث في الجزائر في أواخر العهد العثماني، الذي وصفته لنا المصادر بكثرة الفوضى والاضطرابات وحركات التمرد والعصيان.

ويتضح حليا اهتمام السلطة في الجزائر بجهاز القضاء أنما جعلت في كل مدينة من مدن إيالة قاض يشرف على حل مشاكل السكان والنظر في المنازعات والخصوم التي كانت تحدث بينهم، وهذا يعكس اهتمامه بشؤون الرعية وينشر الأمن والاستقرار في إيالة<sup>4</sup>. ونلمس هذا الاهتمام في مراسلات السلاطين العثمانيين إلى ولاة الجزائر حيث كانوا يحثونهم على تطبيق الشريعة

<sup>1</sup> عبد الجليل التميمي: «الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني في القرن ال16م» المجلة التاريخية المغربية، ع 11-10 1978، ص 21.

<sup>2</sup> خليفة حماش: المرجع السابق، ص 74-75.

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 401.

<sup>4</sup> خليفة حماش: المرجع نفسه، ص 77.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

والعدل<sup>1</sup> وهناك ملاحظة مهمة يجب التنبيه لها وهي أن القاضي في الجزائر لم يكن يحق له النظر في القضايا إلا ما كان يتعلق بالسكان المدنيين، أي أن قضايا الإنكشارية وجنود البحرية كانت من اختصاص آغا الإنكشارية.

ومثلما هو معمول به في كل مدن الإيالة كان في بجاية قاضيان يسيرون شؤون القضاء في المدينة أحدهما حنفي والآخر مالكي،<sup>2</sup> كان هناك مفتيان أحدهما حنفي ينظر في شؤون الأتراك و الكراغلة، والآخر مالكي وكان يهتم بشؤون الأهالي كما هو معروف وكان الجميع و ن على النظر في شؤون السكان فيما يتعلق بالقضايا الشرعية والمنازعات.<sup>3</sup>

ويعتبر وجود القاضي والمفتي في أي مدينة رمز من رموز الدولة بالإضافة إلى القائد والحامية العسكرية،<sup>4</sup> وكان تعيين القضاة المالكية في مدينة بجاية مثلما كان الحال في غيرها من مدن الإيالة من اختصاص البشوات الذين كانوا يختارونهم من بين علماء وفقهاء الذهب المالكي<sup>5</sup> ومن ذلك الرسالة التي وجهها الداوي محمد عثمان (1766- 1791م) في أواخر رمضان عام 1201 / 1787م إلى العمال والسكان في بجاية يعلمهم بتعيين السيد محمد بن السيد الحسين قاضيا مالكيًا على بجاية.<sup>6</sup> ويفهم من كلام الأستاذ خليفة حمّاش أنه كان في مدينة بجاية كراغلة لأن الباشا كان يعين قاضيان ومفتيان في بجاية، مالكي وحنفي.<sup>7</sup>

وكان القاضي في الجزائر عموما وفي مدن الإيالة لا يسمح له بالنظر سوى في القضايا الخاصة سلمين من الرعايا الجزائريين ومن ضمنهم الكراغلة. وما يميز نظام القضاء في الجزائر خلال العهد العثماني أن صاحب الشكوى في حالة شعوره بعدم الرضا في الحكم الذي يصدره القاضي أو يشعر

<sup>1</sup> كمثل على ذلك أنظر رسالة السلطان سليم الثاني إلى العلي بن علي بتاريخ 978 / 1571، والرسالة المؤرخة في 979 / 1572، في عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 464.

<sup>2</sup> Pélissier, op, cit, p432.

<sup>3</sup> Féraud: « Notes sur Bougie...», p299.

<sup>4</sup> De Tassy: op, cit, p69.

<sup>5</sup> خليفة حمّاش: المرجع نفسه، ص 75.

<sup>6</sup> المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، علبة رقم 3206، ورقة رقم 44.

<sup>7</sup> خليفة حمّاش: المرجع نفسه، ص 78.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

بإجحاف في له الحق في رفع قضيته إلى المحل الكبير الذي كان يعد أعلى سلطة قضائية في الإيالة، وكان يتألف من المفتيان والقاضيان من كلا المذهبين وبعض كبار العلماء من كلا المذهبين ، وكان يعقد اجتماعاته مساء كل خميس من كل أسبوع في الجامع الكبير بمدينة الجزائر، ويحق في كل أقاليم الإيالة رفع قضيته إليه للنظر فيها.<sup>1</sup>

وكان القاضي المالكي في بجاية حسبما يذكر دو رينو يجلس في السوق الذي يعتبر مناسبة يلتقي فيها السكان من مختلف المناطق، فيعرضون على نازعائه فيبت فيها وكان حراسة مجموعة من الجند، وفي السوق كان البراح<sup>2</sup> عن التعليمات الواردة من الحكومة والتي لها علاقة بالسكان ال كانوا على المدينة بأعداد كبيرة للتسوق.<sup>3</sup>

ويبدو أن جهاز القضاء والإفتاء في أواخر العهد العثماني في الجزائر عامة وبجاية خاصة قد اهتزت مكانتهما بين الناس وبين العلماء، وامتدت يد الفساد إليهما، حيث نلمس ذلك مما ذكره الرحالة الورتيلاني في رحلته، أن منصب القضاء والإفتاء أصبح لا يتولاها إلا عن طريق الرشوة، ن يستنكر ذلك بشدة، ويمتنع عن أداء الصلاة خلف هؤلاء الأئمة في مساجد بجاية إذا زارها، ولم يقتصر على ذلك بل ذهب إلى حد منع الناس عن الصلاة خلفهم لأنها باطلة حسب نظر الشرع.<sup>4</sup> فلم تكن السلطة تعين لهذا المنصب الحساس من الذي الشروط ال

<sup>1</sup> خليفة حماش: المرجع السابق، ص ص 78-79.

<sup>2</sup> البراح هو شخص يقوم بمهمة الإبلاغ والإخبار بصوت عالي ويتحول في السوق كما يستعمل في التبليغ عن ضياع ممتلكات الناس.

<sup>3</sup> Pélissier: op, cit, p432.

<sup>4</sup> الحسين الورتيلاني: المصدر ال ، ص 111.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

وفي الواقع لم تنفرد الجزائر بمشكلة فساد جهاز القضاء والجهاز الإداري، بل هو ظاهرة عامة كانت تعاني منها الإيالات العثمانية الأخرى، بل حتى الدولة العثمانية، استشرى فيها الفساد<sup>1</sup> وفاة السلطان سليمان القانوني.<sup>2</sup>

وإذا كانت السلطنة تعني بسكان المدن من حيث القضاء فكانت تعين القضاء فيها، فإن الأريف والمناطق الجبلية كان المرابطون هم من يتولى مهمة القضاء بين الناس، وكان القا باحترام وتقدير السكان، وسجل حضوره القوي في الحياة الينية والاجتماعية للسكان، واحكامه ست إلزامية، فالجماعة هي التي كانت تسهر على تطبيق الأحكام الصادرة عنها أو عن القضاء، كونها هي الوحيدة التي تملك الوسائل الردعية،<sup>3</sup> وهي متنوعة تخضع لطبيعة الجرم أو المخالفة، ففيها التفرغ والمقاطعة والطرط من القبيلة أو العرش إلى غير ذلك من الأحكام.<sup>4</sup> ولما كانت منطقة بجاية على غرار منطقة القبائل يحتكم فيها السكان إلى العرف والتقاليد، فإن المرابطون كان عليهم التوفيق بين العرف والشريعة الإسلامية، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه في الواقع بسهولة إلا إذا كان المرابط من نفس المنطقة أي ابن البيعة. حيث المنازعات بين السكان لها خصوصياتها. وهي مرتبة أساسا بجياهم اليومية ذات الطابع الفلاحي. وكان المرابطون ملاذ الفئات المستضعفة الوحيد، حيث كانوا يلجئون إليهم طلبا للحماية في غياب السلطنة، ويبدو أن أخبار دعوات المرابطين على هؤلاء الذين لا ينصاعون لأوامر المرابطين كانت تتداول بين السكان على مر الزمن، ومن ذلك القصة التي أوردها فيرو حول مرابط يدعى أحمد بن خليفة الذي تعرض للإهانة على يد شيوخ أولاد مقران في مقامه فدعا عليهم

<sup>1</sup> لم يكف الكتاب والمؤرخين والسياسيين عن التحذير من الانحطاط الذي عرفته الدولة العثمانية مع أواخر القرن السادس عشر من خلال تأليفهم في السياسة والتاريخ والأدب داعين في الوقت ذاته إلى الإسراع في الإصلاحات، ومواكبة أوروبا في نهضتها قبل فوات الأوان.

<sup>2</sup> التفاصيل حول الموضوع راجع، عبد الرحيم بن حادة: «المثقفون والأزمة في العالم العثماني»، في: العثمانيون والعالم المتوسطي - مقاربات جديدة، تنسيق عبد الرحيم بن حادة وعبد الرحمان المودن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، 2003، ص 177 وما يليها.

<sup>3</sup> أرزقي شويتم: المجتمع الجزائري، ص ص 58-59.

<sup>4</sup> Hanoteau et Letourneaux: op, cit, p123.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

فحل بهم الدمار والخراب حيث دب صراع بينهم وقتال أدى إلى زوال مكانتهم ونفوذهم<sup>1</sup>، فهذه القصص كانت تدعم مركز المرابطين وتزيدهم مهابة وقوة.

المفتي:

وظيفة الفتوى أعلى وظيفة العالم في هذا العهد تحتاج إلى العلم و التعمق في المسائل الدينية إضافة إلى قوة الشخصية و النزاهة و الصلاح و الشجاع<sup>2</sup> لأن المفتي المترجم وهذا خلال إصداره الفتاوى في الأمور الدينية والدينية<sup>3</sup> و أنه في أعلى الجهاز الديني<sup>4</sup> أسند العثمانيون بالجزائر الرئاسة الدينية و القضائية تقليداً كان معمول في إسطنبول<sup>5</sup> و كان يختار الطبقة المثقفة الدينية، وبالرغم العالية إلا أنه لم أي نفوذ أو تأثير في الأمور السياسية.<sup>6</sup> وتجدد الإشارة إلى أن وظيفة المفتي الحنفي لم وظيفة رسمية في الجزائر، إلا بعد مجيء العثمانيين ليلقبوا المفتي الحنفي "الإسلام" إستانبول رفقة القاضي الحنفي وهذا لعدم وجود علماء أحناف في الجزائر في البداية<sup>7</sup> و انتهاء في الإيالة حيث يشرف الخيرات أو في أحد المساجد<sup>8</sup> أما المفتي المالكي فكان يعين الديوان رفقة المساجد وهو يتولى عزهم<sup>9</sup>. تجدد الإشارة إلى أن الحكام العثمانيين فضلوا المفتي الحنفي المفتي المالكي الذي كان السكان<sup>10</sup> ولقبوه "بأفندي" وهو كان الداي<sup>1</sup> جعلوا المسؤول الديني

<sup>1</sup> Féraud : « Hitoire des villes de Constantine, Bordj Bou Arrérij », in, R. S. A. C, Constantine, 1872.», 257.

<sup>2</sup> الله: المرجع نفسه، ص391.

<sup>3</sup> Louis Rinn: *Marabouts et Khouans études sur l'Islam en Algérie*, Librairie de l'Académie, Alger, 1881, p.7.

<sup>4</sup> Boyer: «Contribution...», pp27, 28.

<sup>5</sup> الله : «النظام القانوني و الشريعة في العهد العثماني» مجلة بحوث، د 4 1997

ص30.

<sup>6</sup> Rinn: Ibid, p10.

<sup>7</sup> سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص392

<sup>8</sup> Devoux: « Les édifices... », p144.

<sup>9</sup> Boyer: op, cit, pp27, 28

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

الديني المطلق<sup>2</sup> وهذا غرار كان بإسطنبول، وقد هذا الأمر العلماء المالكية و العلماء الحنفية حتى بدى وأنه مذهبي<sup>3</sup> و اهتمام العثمانيين بالعلماء الأحناف إلى كونهم المذهب<sup>4</sup> المفتي الحنفي إسطنبول لم بدأ علماء الجزائر الأحناف أصبح الباشا الجزائر، ويذكر ابن المفتي بهذا الصدد أن والده رجب شاوش كان أول مفتي أبناء العثمانيين بالجزائر عام 1102 / 1691م<sup>5</sup> وكان بالإفتاء في القضايا الخاصة و الكراغلة المذهب الحنفي، أما المالكية فكان لهم مفتي خاص الأحكام المذهب المالكي<sup>6</sup> فكان هذا الأخير مقره الجامع الكبير و مساعدان.

### 3- التوجه الديني للسلطة العثمانية

يقول أبو القاسم سعد الله حول التوجه الديني للحكام العثمانيين: " كان العثمانيون يجلبون العلماء و المرابطين لذا التي ربطتهم بعلماء الجزائر، جديدة راسخة حملوا هذا الشعور والإحساس إلى إيا الجزائر بحيث الطرق الصوفية تقودهم و و بهم نحر الجهاد، أما هم فكانوا يدينون لرجالها بالولاء و يتبركون بهم، و ينظرون إليهم نظرة المرید إلى و العبد إلى سيده."<sup>7</sup> لهذا الطبيعي أن العلاقة التي ربطت العثمانيين بعلماء و أولياء الجزائر تقدير الحكام العثمانيين في إسطنبول، الإنكشارية و طيدة بالدرأويش المولوية، والبكداشية،<sup>8</sup> فهذه الأخيرة

1 الله: المرجع، ج 1 ص 393 .

2 ناصر الدين سعيدوني المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 137 .

3 أبو القاسم الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 404 .

4 فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ص 21 .

5 الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، ص 392. نور الدين القادر، المرجع السابق ص 271 .

6 الله: المرجع السابق، ص 118.

7 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 185.

8 سعد الله: نفسه، ص 186.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

أخذ الإنكشارية زعيمها " بكداش " و رمزاً لهم<sup>1</sup> فالجندي الإنكشاري كان يحمل بالجزائر يحمل مارسها في الأصلي وبالمقابل وجد مرابطين آخرين بالجزائر يزودونه بالبركات و الدعوات خرج إلى الغزو البحري، كان آباؤه في الأناضول، و البلقان<sup>2</sup> البلقان<sup>2</sup> وخاصة إذا أن الدراويش الذين يرافقون الجيش يعودون إلى اسطنبول يلازمون الجيش، و وفاتهم حولهم الأساطير، فيصبحون جزءاً التقاليد العامة، يكاد يخرج الجند إلى المعركة إلا تبركهم بولي سواء كان أو<sup>3</sup> كان عادة رؤساء رؤساء المراكب الجهادية عند استعدادهم للحرب انطلاقاً من مدينة الجزائر رمز الجهاد البحري ومركزه، يقومون بزيارة ضريح الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي<sup>4</sup>، و الولي دادة و سيدي بتقة<sup>5</sup> الذي يرتبط اسمه بأنه المسؤول عن هزيمة شارلكان.<sup>6</sup> فإذا كان العثمانيون اعتمدوا على البكداشية، و المولوية في اسطنبول الجزائر اعتمدوا على المرابطين و رجال الطرق الصوفية خاصة الشاذلية<sup>7</sup> و القادرية<sup>8</sup> حيث وجد العثمانيون فيهم ضالتهم، و سندهم في بلد كانوا غرباء عنه. لقد استمر العثمانيون بعدما حلوا بالجزائر بممارسة عقائدهم الدينية التي مارسوها في اسطنبول، فنجدهم يزورون الأولياء طلباً للنصر، و البركة، كما كانوا يطلقون طلقات مدفعية عند ذهابهم، و إياهم تبركا و احتراماً لهم<sup>9</sup> و قد بلغ اعتقاد العثمانيين في رجال الدين خاصة المرابطين إلى حد كانوا لا يلاحقون

<sup>1</sup> نورس علاء موسى كاظم: «مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية» المجلة التاريخية المغربية عدد 25-26 1982، ص ص 101-100.

<sup>2</sup> سعد الله: المرجع السابق، ص 190.

<sup>3</sup> الله: أبحاث وآراء... ج 1، ص 196.

<sup>4</sup> الزهار: المصدر السابق، ص 61.

<sup>5</sup> Klein: op.cit. p16.

<sup>6</sup> الله: أبحاث وآراء، ج 3 ص 196.

أنظر كذلك، مولاي بلحميسي: «صناعة السفن بالجزائر أيام الأتراك (16-19)» مجلة الدراسات الأثرية معهد الآثار، جامعة الجزائر، ج 3 1995، ص 53.

<sup>7</sup> نسبة إلى الشيخ أبي الحسن بن عبد الله الشاذلي، من قرية الشاذلة بتونس، ولد سنة 1175م.

<sup>8</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 190-191.

<sup>9</sup> كوررين شوفالييه: المرجع السابق، ص 87.



## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

أي جان إذا فر إلى أحد الأضرحة، خوفا مما قد يلحق بهم<sup>1</sup> فاعتقادهم جعلتهم يطمئنون إليهم و يتقربون منهم، كما كانوا يستشيرونهم ويعملون برأيهم حتى ولو كانت فيه خطورة عليهم، منها ما ذكره أبو القاسم سعد الله أن أحد كبار رجال السلطة أراد الاستيلاء على الحكم في الجزائر، فاستشار أحد المرابطين الذي اقترح عليه التصديق بمبلغ مالي و ذبح أربعة كباش، و توزيعها على الفقراء واعداد إياه بالنصر، وقد أخذ معه برنس المرابط اعتقادا منه أنه سيحميه، لكن لما وصل إلى قصر الباشا ألقى عليه القبض وأعدم.<sup>2</sup> ونسوق حادثة أخرى، أوردها بيار بوايه Boyer اعتدى مرابط على ابنة أحد قناصل أورو اشتكى والدها للداي رد عليه بكل برودة أن هذا شرف له لأن شخص مثله تقرب من ابنته<sup>3</sup> فهذه الممارسات و الاعتقادات تبين لنا أن العثمانيين لم يكونوا راسخي العقيدة و أن إسلامهم طغت عليه عقائد مارسها الدراويش غالبا ما تكون منافية للدين و الأخلاق. إن العثمانيين بالجزائر عامة كانوا يجلبون المرابطين و رؤساء الطرق، و يؤمنون ب معتقداتهم التي تميل إلى الخرافة أكثر منها إلى المنطق، فحتى الذين عرفوا منهم بميولهم الثقافية اعتنقوا التصوف، و صدقوا هذه الاعتقادات، و صالح باي الذي كان بالخرافات رغم للحياة الثقافية تقول الروايات أنه قتل للمرابطين محمد الغراب "خاف سوء فبني ضريحاً جميلة<sup>4</sup> أما الباي محمد الكبير و الأمير القادر، و في لإرضائه<sup>5</sup> أن اعتقاده في الأولياء كان بحيث عزم وهران اطمئن بشهره الأولياء<sup>6</sup> و حدد

<sup>1</sup> حمدان : المصدر السابق، ص111

أنظر كذلك:

Emile Dermenghem: *Le Culte des saints dans l'islam maghrébin*, Paris, 1954, p155.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 469 .

<sup>3</sup> Boyer: «La vie quotidienne...», p80.

<sup>4</sup> أبو القاسم الله: المرجع نفسه، ص220

<sup>5</sup> محمد القادر: الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير القادر شرح و ممدوح ط2

دار اليقظة العربية. بيروت، ج 1 1964 ص113.

<sup>6</sup> ابن سحنون: المصدر السابق، 206.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

الفتح، و كان وقت الحصاد الناس الأمر حتى الخريف، و هذا حتى يتسنى لهم جمع الباى استشارة الأولياء و العلماء كان جواهرهم " رأيكم الحكمة و الصواب و أنتم و نحن في رأي الأولياء و العلماء أولى الألباب أدرى بالأمور، و بإشارتهم يكون الفور و السرور" للولى سيدي محمد أبي دية الضيرير بجيل (بنواحي سيدي بلعباس) أخيره هذا الأخير في العام المقبل، حان الفتح سار و القلب.<sup>1</sup>

و البعد الدينى للحكام الأتراك من خلال أول رسالة لعلماء بجاية إلى الإخوة بربروس يستنجدون بهم ضد الإسبان الذين استولوا على مدينتهم عام 1510 واستجابتهم لهذه الدعوة كان بدافع الدين و الجهاد.<sup>2</sup> و نتيجة للاعتقادات التي حملها العثمانيون بالغوا في العلماء المرابطين و اطمئنوا إليهم، و تبركوا بهم، و استشاروهم في عدة أمور كانوا<sup>3</sup> و أغدقوا الهدايا، و الهبات باعتبارهم أكثر فئات المجتمع إيمانا معتقداتهم الدينية و الجهادية، كانوا القوة الوحيدة المؤثرة في المجتمع والتي الاعتماد لإحضاع الأهالي و التحكم عبر أرجاء إيالة الجزائر. هذا المنطلق القول أن الجهاد، و إدراك العثمانيين أنهم غرباء الجزائر إضافة إلى العقيدة الصوفية التي حملوها دفعت بهم إلى البحث حلفاء لهم في الجزائر فئات المجتمع، لم يجدوا بديلا عن هذه الفئة<sup>4</sup> و استمر هذا التحالف التركي المرابطي القرن 16 م إلى نهاية الح العثماني، ساندت الحركة المرابطية العنصر التركي العسكري في نفوذه<sup>5</sup> و أشهر الطرق التي لها حظوة و اعتبار لدى الحكام، الطريقة القادرية و الرحمانية.<sup>6</sup> و كان لارتباط التواجد العثماني في الجزائر بالدين دورا كبيرا في توثيق التحالف المرابطي- العثماني، حيث كان الطابع العسكري

<sup>1</sup> الآغا المزارى: المصدر السابق، ص 261

<sup>2</sup> أنظر نص الرسالة في: غزوات عروج و خير الدين، ص 25.

<sup>3</sup> الله: المرجع السابق، ص 464

<sup>4</sup> الله: المرجع نفسه، ص 464 .

<sup>5</sup> Merad Boudia: op.cit., p340

<sup>6</sup> Pierre Boyer : «Contribution...», p36.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

ظاهرة مميزة بين الطرفين، وزادها الخطر الإسباني على المدن الساحلية تأكيدا، مما سمح بتحويل الزوايا إلى رباطات عسكرية وتحول العلماء والمرابون إلى قيادات عسكرية، لعبت دورها في مقاتلة العدو الإسباني مثلما هو الشأن في بجاية وما جاورها.<sup>1</sup>

ومن المظاهر الدالة على الدور الذي كان الدين في الحياة اليومية للسلطنة العثمانية في الجزائر، قيام القراصنة بزيارة أضرحة الأولياء الموجودة في مدينة الجزائر قبل الخروج في غزواتهم البحرية كضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي ولي مدينة الجزائر، وضريح سيدي علي العباسي، لإلقاء التحية والاستعانة ببركاتهم.<sup>2</sup> وقبل انطلاق القراصنة للغزو كانوا يقومون بإطلاق المدافع تحية لجامع سيدي بتقة، ويطلبون النصر من عند الله ووقوف الأولياء إلى جانبهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خروج القراصنة إلى الغزو كان يمثل فرصة للفرجة لا يفوتها السكان الذين كانوا يصطفون حول الميناء ويتمنون لهم التوفيق ويودعونهم حيث تعلقوا الأهازيج والتصفيقات والدعوات بالنصر، وكانوا يذبحون الخرفان لأن سيلان الدم يجلب البركة والنصر في اعتقادهم، كما كانوا يقومون بصب كمية من الزيت في البحر ووضع الشموع على السفن وإشعالها حتى يبقى البحر هادئا في نظرهم<sup>3</sup>، إن هذه الطقوس هي التي جعلت الكتاب الأوروبيين يرجعون هزيمة شاركان عند مدينة الجزائر إلى ممارسة الجزائريين السحر، وكان البحارة يحملون الأعلام الملونة وشعارات عليها أولياء المدينة، التي كان يكتب عليها آيات تتحدث عن النصر وتحمل أيضا أسماء الله الحسنى وعبارة نتصر بحول الله، وللحصول على عون الأولياء كانوا يرفعون شعاراتهم ويتوجهون إلى الله بالدعاء بجاه هؤلاء الأولياء.<sup>4</sup> ومن خلال ما سبق يمكن تفسير قلة عدد حاميات بجاية طول العهد

<sup>1</sup> Peyssonnel et Desfontaines : op cit, p337.

أنظر كذلك، الراشدي: المصدر السابق، ص 247.

<sup>2</sup> Moulay Belhamissi : **Histoire de la Marine algérienne...**, p93-94.

<sup>3</sup> لقد سجل أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769-1772) هذه الطقوس في مذكراته، أنظر:

Nils Moss: **un norvégien à Alger, 1769-1772** , trad, par Inès Bartolo, t X strid Nome, Ed, Statoil, Norvège, 2007, p67.

<sup>4</sup> لمزيد من التفاصيل حول الموضوع راجع، أوالقاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 182 وما

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

العثماني، بأن السلطنة كانت تعتقد- مثلما كان السكان يعتقدون- أن بجاية يحرسها الأولياء، ولعل إطلاق اسم "المحروسة بجاية" استجابة لهذا الاعتقاد.

### المبحث الثالث: أساليب الحكم العثماني في بجاية ونواحيها

تميزت الدولة العثمانية في إيالة الجزائر عموماً بأنها إقطاعية سواء في استغلال الأراضي أو في تجميع الرجال للحرب، فكانت الدولة تمنح الأراضي الزراعية لبعض الفرسان يقومون بزراعتها وخدمتها والإقامة فيها، وبالمقابل يقوم هؤلاء الفرسان بتزويد الدولة بالمحاربين في حالة الحرب، كما أنهم لا يدفعون الضرائب، ولا يتلقون أي راتب من الدولة، على عكس الجنود الأتراك الذي كانوا يتلقون أجورهم من خزينة الدولة باستمرار وانتظام، وكانت هذه الطريقة تضمن للحكام الأتراك جمع الضرائب من الأهالي وكذا تدعيم الجيش النظامي بالمحاربين أوقات الحرب والتدخلات العسكرية في المناطق والأقاليم<sup>1</sup> وقد أدت هذه السياسة إلى خلق طبقة من العسكريين الإقطاعيين الذين كانوا يتمتعون بنوع من الامتيازات. و شكل رؤساء وأصحاب الطرق الصوفية دعامة أساسية للحكم العثماني في الجزائر، حيث كان الحكام الأتراك يستعينون بهم في حكم البلاد في المناطق الريفية.<sup>2</sup> وهذا ما جعل ألفريد بيل يقول: " كان القسم الذي يسيطر عليه الأتراك كانت السيادة فيه للزوايا القادرية، واعتمد الترك على جماعات هذه الطريقة، وعلى سائر زعماء الصوفية، ويرجع ميلهم للطريقة القادرية بصفة خاصة إلى أسباب عديدة أولها أن سلطان الدولة العثمانية كان حامياً هذه الطريقة في الشرق وحتى في بغداد المقر الرئيسي لهذه الطريقة، وثانياً كانت الزوايا القادرية في المغرب الأقصى مخلصاً للأسرة الوطاسية، ومن ناحية فإن القرصنة في البحار والصراع ضد الإسبان ظهر كنوع من الجهاد الديني في نظر الأتقيّة من الصوفية"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،

الأردن، 1989، ص32.

<sup>2</sup> Albert Hourani : **Histoire des peuples Arabes**, traduit de l'anglais par Paul Chemla, édition du Seuil, Paris, 1991, pp 307-308.

<sup>3</sup> ألفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي،

دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص430.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

وقبل مجيئ الأتراك العثمانيين كانت الجزائر تتألف من عدة إمارات أو كيانات سياسية منتشرة هنا وهناك، تستند هذه الكيانات إلى حكم السلالات، كدولة بني زيان في تلمسان وإمارة كوكو في بلاد زواوة وبني عباس في منطقة بجاية، ومشيخة الثعالبة في المتيجة و بني جلاب وأولاد نايل وأولاد سيدي الشيخ في الصحراء، و الحراكنة والحنانشة في الإقليم الشرقي، وغيرها من القبائل والأعراش، فكان على السلطة العثمانية أن تتعامل مع هذه الكيانات إما بإخضاعها بالقوة كما فعلت مع مشيخة الثعالبة، وبني عباس وكوكو وبني جلاب، أو بالتحالف معها وكسب ودها وتوظيفها لخدمة أغراضها والاستفادة من نفوذها الذي كان يقوم على أسس عدة منها المال والثروة والشرف والسيف. وتمثل الزعامات المحلية إحدى الركائز التي قام عليها الحكم العثماني في الجزائر، بالإضافة إلى القبائل المخزنية.<sup>1</sup>

وقد اشتهرت قبيلة بني عبد الجبار في منطقة بجاية بالقوة والمكانة والنفوذ، حكم أسرة أورابح إلا أننا لم نعثر على معلومات تفيد بمحاولة الحكام الأتراك ربط علاقات مصاهرة مع شيوخ هذه الأسرة كما جرت عليه العادة مع الأسر الكبيرة، كما أن المعلومات التي بحوزتنا مصاهرة تمت بين الحكام الأتراك و مرابطي أمرة سيدي محمد أمقران الشهيرة، أو مع غيره من مرابطي المنطقة على الرغم من الشهرة والمكانة التي كان يحظى بها هؤلاء المرابطون من جهة، والفائدة الكبيرة التي كان من الممكن أن تعود على السلطة من وراء مصاهرتهم من جهة أخرى كما حصل مثلاً مع أمراء كوكو وسلاطين إمارة بني عباس من المقرانيين، وأسرة بن قانة في الجنوب وغيرها من الأمثلة. ولكن الظاهر أن السلطة وجدت في الامتيازات بديلاً عن علاقة المصاهرة، حيث تمكنت من حكم المنطقة بتوظيف علاقة الثقة المتبادلة بين الطرفين، حيث يشير بعض الكتاب إلى أن أحد الدايات منح ختمه الشخصي للمرابط سيدي عبد القادر النجار فحل المرابط سيدي محمد أمقران الذي سبقت الإشارة إليه، لاستخدامه في منح تراخيص وجوازات السفر لسكان المنطقة في تنقلاتهم في الإيالة.<sup>2</sup> وكان المتصوفة في نظر السلطة رموزاً للبركة والدعاء المستجاب والتقديس، كما أنهم كانوا رموزاً كذلك للسخط وجلب الانتقام والعقاب، وكان هؤلاء يحظون باحترام العامة وتقديسهم وطاعتهم طاعة عمياء، فكانت لهم مكانتهم الاجتماعية، وشعبيتهم وسط السكان، وهو ما كان

<sup>1</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص245..

<sup>2</sup> Féraud : op, cit, p280.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

ينقص السلطة لا سيما في الأرياف والأقاليم البعيدة والمناطق الجبلية حيث تحصن السكان بما يجعل من الصعوبة على السلطة إخضاعهم وفرض السلطة عليهم دون ثمن تدفعه.<sup>1</sup>

ولقد نجح الحكام الأتراك في كسب ود الزعماء الدينيين، وجعلهم يساندونهم ويقفون إلى في سياسة حكيمة تتم عن ذكاء ودهاء من لدن هذه السلطة، ومن الأمثلة على ذلك قيام أحد مرابطي منطقة القبائل الكبرى بتحريض سكان عرش آيت جناد على عدم دفع الضريبة لأسرة بن القاضي، واعتراف بسلطة الأتراك، مما ساهم في إضعاف هذه الأسرة،<sup>2</sup> وأدى إلى تلاشيتها تدريجياً، ويرجع سبب الصراع القائم بين الزوايا في المنطة وأمراء كوكو إلى ما كان يدفعه السكان من ضرائب ومن عوائد لكلاهما، واستطاع الحكام العثمانيين بذكاء أسلوبهم من تحويل معظم الأعراس الواقعة في حوضي سياعو ويسر إلى قبائل الرعية وقبائل المخزن وبالتالي ضمنوا ولاءها وخضوعها.<sup>3</sup> أو على الأقل بقائها على الحياد.

والظاهر أن الصراعات التي كانت تنشب من حين لآخر بين زعماء القبائل والأعراس في المنطقة من جهة، والصراع كذلك الذي كان قائماً بين بعض الزوايا وشيوخها كصراع شيوخ زاوية صدوق وزاوية بن علي الشريف في شلاطة، من جهة ثانية والسياسة الناجعة التي اتبعتها السلطة في الزعامات القبلية والدينية من جهة أخرى قد لعب دوراً فاعلاً في منع قيام إمارة محلية موحدة بعيداً عن السلطة العثمانية ومناوئة لها حسب ما يذهب إليه السعيد بوليفة<sup>4</sup>. فالصراعات المزمعة بين القبائل والأعراس والكيانات السياسية التي كان بمقدورها مواجهة السلطة (إمارة بني أولاد مقران وكوكو)، هذه الصراعات كانت في صالح السلطة العثمانية وهذا ما يفسر تمكنها من التوغل في أكثر المناطق صعبة ووعورة. ونلمس علاقة التحالف المصلحي الذي كان يجمع المرابطين بالسلطة العثمانية في الأعراف التي كانت تنظم الحياة العامة في أعراس منطقة القبائل حيث نص أحد القوانين على أن المرابطين حرمة يأخذون من الأعراس لأعشار الزرع والتين والزيت. ولما يخرج السلطان

<sup>1</sup> Mohamed Akli Haddadou : **les Guides de la culture Berbère**, Ed, INA-YAS, Paris, 2000, p122.

<sup>2</sup> Boulifa : op, cit, p286.

<sup>3</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 249.

<sup>4</sup> Boulifa : Ibid, p287

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

لحاربة القبائل، يدفع لزواياهم الثيران والسناجق للمساجد، والمرابطون يأمرّون أعراسهم بطاعة المخزن والعافية<sup>1</sup>. غير أن بعض المرابطين كانوا يؤيدون قبائلهم وأعراسهم فكانوا يقومون بدور الوسيط بين السلطنة والقبائل الثائرة حقنا لدماء المسلمين<sup>2</sup>.

وما يمكن استخلاصه من خلال تحليلنا للعلاقة التي كانت تربط السلطنة العثمانية بالسكان لا سيما في الأرياف حيث كان العنصر التركي قليل الوجود، أو منعدم، هو أن هذه السلطنة نجحت في توظيف الزعامات الدينية والقبلية ورجال قبائل المخزن لخدمتها، كما نجحت إلى حد بعيد في منع قيام أي تحالف بين القبائل من شأن هذا التحالف أن يمثل تهديدا للسلطنة العثمانية وذلك من خلال انتهاجها سياسة حكيمة تمثلت في منح الح التامة لهذه القبائل في تسيير شؤونها دون التدخل المباشر في شؤونها والاكتفاء بالمراقبة والمتابعة، مما جعل هذه القبائل وكذا الزعامات الدينية تتقبل الوجود العثماني. وكان لعامل الدين المشترك والخطر الخارجي دور أساسي وفعال في التفاف هذه القوى المحلية بالعثمانيين باعتبارهم جاؤوا كمنقذين ومخلصين لا مستعمرين<sup>3</sup>.

### 1- أهمية استرجاع بجاية من أيدي الإسبان بالنسبة للسلطنة العثمانية:

إذا كان استرجاع بجاية يعتبر نكبة وانتكاسة كبيرة بالنسبة للإسبان خاصة والعالم المسيحي عامة أثار استرجاع واستياء عام في البلاد المسيحية، إذ اعتبر المسيحيون هذه الهزيمة عار تلطخت به إ ترك أثرا سيقا في نفس الإمبراطور شارلكان، إلى درجة أن تلك الهزيمة كانت السبب المباشر في تنازله عن العرش<sup>4</sup>، وهذه المدينة الأوروبية كما كان يطمح إلى تحقيقه ملوك إسبانيا كان نصرا كبيرا وفتحا عظيما اهتزت له مشاعر المسلمين كافة، ويعتبر تعزيزا للوجود العثماني في الجزائر وتقويته، فعلاوة على الموقع الاستراتيجي الذي تحتله بجاية والذي كان رقابة والإشراف على الطرق البحرية بين الحوض الشرقي والغربي للمتوسط والتحكم فيه،

<sup>1</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 250 - 251.

<sup>2</sup> Haido: **Histoire des Rois d'Alger...**, p138.

<sup>3</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 256.

<sup>4</sup> السير فون مالتسان: «تاريخ بجاية»، المرجع السابق ص 43.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

سمح للأتراك باستغلال الخيرات والإمكانات الاقتصادية لـ ، كما ضَمَّنَ للأسطول الجزائري الحـ في فصول الشتاء في ميناء بجاية المحمي طبيعياً .

وقد أفرزت عملية تحرير بجاية جملة من النتائج بحملها فيما يلي:

أما كانت محفزا قويا شجعه على المضي في تحقيق أهدافه في تطهير كافة السواحل الجزائرية من الاحتلال الإسباني فطلب من السلطان سليمان القانوني مع الوفد الذي حمل البشري والهدايا والغنائم التي غنمها بعد تحرير قلعة بجاية، إمداده بالأسلحة والجند و ما يحتاجه قصد التوجه لمحصرة وهران واسترجاعها، فوعده السلطان بالاستجابة إلى طلبه، صالح رايس الجيش في منطقة تمنفوست شرق مدينة الجزائر في انتظار وصول إمدادات السلطان، وكان قد عقد التحالف مع السلطان السعودي في المغرب، لكنه أصيب بوباء الطاعون الذي ضرب مدينة الجزائر عام 1556 تسبب في وفاته، فأكمل حسان قورصو<sup>2</sup> الذي خلفه المهمة، لكنه وصل إلى مكان يسمى عين الترك أمر من السلطان سليمان أن ينسحب فوراً ويلحق به في اسطنبول، لأنه في حاجة ماسة إلى الأسطول الجزائري لدفع تهديدات أتدرية دوريا الذي كان يهدد مضيق البوسفور.<sup>3</sup> ولم تطل مدة حكم حسان قورصو، فتولى الحكم بعده حسن بن خير الدين باشا للمرة الثانية سنة 1557/ 964<sup>4</sup>.

ولا شك أن علي صار دو - وهو أول قائد على بجاية- واجه صعوبات كبيرة في إعادة إعمار بناء المدينة التي تعرضت للتخريب، لم يجد الأتراك لما فتحوها كما يذكر السعيد بوليفة سوى الجثث والخراب حيث تسببت المعارك العنيفة في تقدم كل البنايات جراء القصف من كلا الجانبين<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> Rozet et Carette : *l'Algérie...*, Paris, 1850, p49.

<sup>2</sup> هو أحد رجال صالح رايس الشجعان استنجد به السلطان العثماني لصد حملة إسبانية فتمكن من ذلك في منطقة البوسفور، وانتهى حكمه بمقتله على يد محمد شليبي كرد أغلو حيث أراد الأول منع هذا الأخير المبعوث من الباب العالي من حكم الجزائر فقتله وحكم الإيالة حتى عام 1557 /964م، أنظر نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، ص101.

<sup>3</sup> Belhamissi : op, cit, p116.

<sup>4</sup> Haedo: op, cit, p280.

<sup>5</sup> Boulifa: op, cit, p154.



ويبدو أن طرد الإسبان من بجاية وتحريرها على يد صالح رايس بمساعدة المقاتلين المحجوبية ونواحيها بزعامة سلطان إمارة قلعة بني عباس وقبائل الجرجرة بزعامة ابن القاضي أمير قد كان له صدى كبيرا ليس في الجزائر فحسب، بل في كل البلاد الإسلامية، فأعين مدينة قسنطينة على سبيل المثال أرسلوا رسالة إلى السلطان سليمان القانوني بتاريخ 963 / 1555م، يشيدون بجهاد صالح رايس ويُقرون بحكمه، واعتبروا استرجاع بجاية قاعدة المغرب الأوسط نصرا عظيما وفتحا مبينا للمسلمين كافة<sup>1</sup> و جاء في الرسالة: (وفي عامه الثالث صرف همته وشغلها بقتال عدو الدين إلى أن فتح من أيديهم مدينة بجاية، حصنا عظيما كان للمسلمين وله في أيدي الكاف على الأربعين من السنين، عجز عن فتحها الأولون وألقى السلاح دون ما حولها الآخرون، واتفق فتحه للمسلمين وحنقه للكافرين، في نصف شهر أو أقل من ذلك، كما بلغكم حقيقة ما هنالك، وكان ذلك الفتح المبين من أعظم فتوحاتكم على المسلمين وأشد نكاياتكم على أعداء الدين، واتفق كرامة من الله ومعجزات خاتم أنبيائهم لا زال ذكركم يزين المنابر وفخركم يعجز الأقلام والمحابر حائزين قصب المكارم الأول والآخر...)<sup>2</sup>. إن هذه الرسالة تدل على اعتراف الأهالي بفضل الأتراك العثمانيين، ووقوفهم إلى جانبهم في طرد الأعداء وفي ذلك نصر للدين، ذلك أن المسيحيين كانوا يستهدفون في حملاتهم وغزواتهم القضاء على هذا الدين، وإعلاء دينهم، كما كان رهبانهم يصرحون به جهرا.

### 2- إشكالية تبعية بجاية

اختلفت الآراء حول تبعية بجاية ونواحيها إداريا، حيث يرى البعض أنه مباشرة لدار السلطان، وأنها ظلت كذلك حتى نهاية العهد العثماني، رغم تأسيس بايلك قسنطينة الذي يعود إلى 1567<sup>3</sup> وهناك من يرى أنها أصبحت تابعة لبايلك قسنطينة منذ تأسيسه،<sup>1</sup> ويذهب ال

أنظر كذلك،

Robin : La Grande Kabylie....

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص30.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني: «رسالة من أعيان قسنطينة...»، المرجع نفسه، ص 35.

<sup>3</sup> وتقدر الإشارة إلى أن إلى أن الأتراك تمكنوا من دخول قسنطينة بداية من عام 1526 أي بعد أن تمكن خير الدين باشا من الاستيلاء على مدينة الجزائر وذلك حسب ما ورد في بعض الوثائق العديلية، وهذا ما يؤكد ابن

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

إلى أن بجاية و المنطقة الساحلية الغربية كانت إبان العهد العثماني تابعة لدار السلطان، في حين كانت قبائل منطقة الصومام والبيبان والبابور والقرقور تابعة لبايك قسنطينة.<sup>2</sup> ويعتبر البعض الآخر أن المناطق التي تيسار وادي الصومام كانت تابعة لإقليم دار السلطان، و المناطق الواقعة على يمينه مما يجعل بجاية ونواحيها تابعة إداريا إلى دار السلطان، ويدعم هذا القول أن قايد بجاية كان يعين من طرف البشوات مباشرة<sup>3</sup>. ومن المحتمل أن يكون هذا الرأي صائبا لسهولة الاتصال بدار السلطان. روبان.<sup>4</sup>

ويذهب الباحث آلان ماحي Alain Mahé إلى تأكيد هذا القول. حيث يجعل بجاية ضمن حدود منطقة القبائل الصغرى، ويعتبر وادي الصومام الفاصل الطبيعي بينها وبين منطقة القبائل الكبرى<sup>5</sup> وأما سعيدوني<sup>6</sup> و التميمي هذا الرأي فقد جعل بجاية داخل حدود باييك قسنطينة حين وضع حدود لهذا البايك في قوله: "بممتد إقليم الشمال الذي يضم الجبال الممتدة عبر الساحل من مدينة بونة

---

أبي الدينار القيرواني، إلا أن الحكام الأتراك في هذه الفترة جعلوا الحكم في المدينة في أيدي الأسر الكبيرة أمثال شيوخ العرب من أسرة أولاد مولة وأفراد أسرة أولاد القنون وأولاد عبد المؤمن حتى سنة 1567م تُصب أول باي على يد حسن بن خير الدين باشا. أنظر،

Féraud: «Epoque de l'établissement du Turcs à Constantine», in RA, n°10, 1866, p191.

<sup>1</sup> Lauger de Tassy : op, cit, p127.- Mouloud Gaid: **Histoire de Béjaia**, p138.

<sup>2</sup> Abd El Djallil Temimi: **le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, (1830-1837)**, Tunis, 1978, p123.

أنظر كذلك:

Nedjma Abdel Fattah El Almi : «du mythe de l'isolat Kabyle», **Cahiers d'Etudes Africaines**, XLVI(3), 175, 2004, p510.

<sup>3</sup> Eugène Vayssettes : **Histoire de Constantine sous la domination Turque 1517 – 1837**, édition Bouchène, Paris, p33.

<sup>4</sup> Joseph Nil Robin: op, cit, p11.

<sup>5</sup> Alain Mahé : **Histoire de la grande Kabylie XIX<sup>e</sup> XX Siècles Anthropologie historique du lien social dans les communautés villageoises**, Ed, Bouchène, Paris, 2002, p15.

<sup>6</sup> ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص5.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

شرفا إلى بجاية غربا ويتراوح طوله بين 60 و72 كلم، وذكر أن هذا القسم معروف في هذه الفترة بالساحل ولم تكن القبائل القاطنة به تدفع الضريبة بشكل منتظم، وكانت السلطنة ترغمها على الدفع عن طريق تجريد المحلات المعدة لذات الغرض<sup>1</sup>. ويبدو أن السلطنة أدركت أن شن الحملات العسكرية يكلفها الكثير فكانت تكتفي بمطالبة سكان هذه المناطق بالهدوء وعدم إزعاج الفرق العسكرية أثناء عبورها مناطقهم<sup>2</sup>. وجدير بالملاحظة أن وادي الصومام كان يشكل الحد الطبيعي الفاصل بين بايلك الشرق وإقليم دار السلطان، و الأطراف العليا لهذا الوادي تعرف بواد الساحل همزة وصل هامة بين المنطقة الساحلية ومنطقة مجانة ذات الإنتاج الفلاحي الوفير، فهي رابط رئيسي بين منطقة بايلك الشرق مع إقليم دار السلطان والمنطقة الشبه صحراوية<sup>3</sup> وقد لاحظ الرحالون والجغرافيون الذين زاروا بجاية الدور الذي كان يلعبه وادي الصومام في النقل والنشاط الفلاحي، وفي تمركز السكان حول ضفافه لوفرة السهول الخصبة والمياه<sup>4</sup>. لعب دور التواصل الاجتماعي والثقافي بين سكان المدينة والسكان المناطق المجاورة لها<sup>5</sup> ويبدو أن بجاية ونواحيها تمتعت بأسلوب فريد في الحكم، فمن ناحية تعتبر تابعة لنفوذ بايلك قسنطينة، وفي الوقت نفسه كان يتعين قيادها على يد البشوات وليس على يد البايات، وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب كما يرى فيرو<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> A. Temimi: op, cit, p50.

<sup>2</sup> سعيدوني: ورقات...، ص155.

<sup>3</sup> كانت مجانة تشتهر بإنتاجها للحبوب وتربية المواشي والخيول وكانت تحت حكم أسرة أولاد مقران منذ زمن

<sup>4</sup> Haedo : **Topographie et Histoire...**, p89.

Marmol : op, cit, p.

Shaw : op, cit, p178.

Chavalier d'Arvieux : op, cit, p238.

<sup>5</sup> موسى لقيال: «مميزات بجاية...»، ص4.

<sup>6</sup> Féraud: «Notes sur Bougie», op, cit, p 296.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

ويفهم من كلام التميمي أن قبائل بجاية لم تكن كلها تخضع للسلطة العثمانية، واستنادا لما أورده رين فإن ثلاثة عشر محيطة ببجاية كانت غير خاضعة للحكم العثماني، وهي قبائل الضفة اليسرى لوادي الصومام، وتشمل آيت سيدي عبو، إزمالن، آيت كسيلة، آيت يحي أويوسف، آيت أومالك، تاسنديمت، آسيف الحمام، آيت عامر، آيت سعيد، توجة، إبرجوجن، تيفرة وإفناين.<sup>1</sup>

وما يمكن أن نستخلصه من خلال استعراض الآراء المختلفة أن بجاية ونواحيها كانت تابعة مباشرة لدار السلطان، ودليلنا أننا لم نعثر على أي مصدر جاء على ذكر باي من بايات قسنطينة قام بحملة تأديبية ضد قبائل المنطقة التي تتفق أغلب المصادر أنها لم تكن خاضعة للسلطة، وأنها كثيرة التمرد والعصيان. بل كان البشوات يكلفون آغواتهم بهذه المهمة مثلما هو الحال مع يحي آغا الذي اشتهر بنجاحه في إخماد العديد من حركات التمرد والعصيان في منطقة القبائل عامة وبجاية خاصة وقد تناولنا هذا الموضوع في مبحث من الفصل الرابع من الأطروحة.

وقد عدد منطقة بجاية التي كانت 43 قبيلة وهي: مزاية بني عمران أولاد سيدي محمد أمقران، فناية، توجة، آيت أحمد وارث، تيفرة، بونجدامن، أولاد سيدي يحي أويدير، بني منصور، آث عامر، مزالة، بني كسيلة، أولاد سيدي عبو، أولاد تازمالت، برباشة، غيفسر، بني خطاب، بني بوبكر، مآ صنهاجة، بني جليل، بني إيمال، مسيسنة، أوزلاقن، بني وغليس، إزمالن، بني عمروس، بني ميمون، بني مسعود، بني ملول، بني بو عيسي، آث وارث وعلي، بني محمد، بني حساين، أولاد العزيز، أولاد عمر أوأيوب، بني سقوال، أولاد عبد الجبار (الجابرة)، آسيف الحمام، وذكر هذا التقرير أنها وهو النسيح نفسه الذي كان سائدا في المنطقة إبان الحكم العثماني.<sup>2</sup>

استعان الحكام الأتراك في بسط نفوذهم الاسمي على بجاية ونواحيها كما في باقي مناطق الإيالة المرابطين في المنطقة، ولعل أشهرهم المرابط سيدي محمد أمقران جد المقرانيين حكام بني عباس و مجانة، وكان هذا المرابط يحظى باحترام وتقدير سكان بجاية ونواحيها، لذلك رأى الحكام الأتراك أنه من الحكمة استغلال نفوذه وسمعته الطيبة ومكانته الروحية ووقاره، المنة والاستفادة من مزاياها و غيابها الوفيرة المحيطة فعمدوا إلى امتيازات التي انتقلت

<sup>1</sup> Rinn : «le Royaume d'Alger..», pp103-104.

<sup>2</sup> 66K/3, FR ANOM, GGA 66K/3.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

بعد وفاته إلى أبنائه وأحفاده ومن ذلك الامتياز الذي الحاج محمد باشا إلى الشيخ سيدي عبد القادر نجل سيدي محمد أمقران يخول له رئاسة الفروع الثلاثة لأولاد برباشة، وجاء في نص الشهادة أنه لا يخضع لسلطات الباي وله مطلق الحرية في التصرف في منطقة نفوذه.<sup>1</sup>

### أ- القايد و

كان النظام العثماني في الجزائر يقوم على تعيين القايد<sup>2</sup> على رأس المدن الكبيرة ليتولون مهمة تسيير شؤونها، وتمثيل السلطة بها، حيث كان يتولى القايد الإشراف على الأوطان ويعمل على إقرار الأمن واستخلاص الضرائب، من أهالي الأرياف، وللوصول إلى هدفه هذا كان يستعين بشيوخ الدواوير والأعراش والقبائل، وذلك لتجنب الاتصال بالأهالي، لأنه في الغالب كان القايد يعينون من الأتراك أو الكراغلة.<sup>3</sup> ولم يكن تعيين البايات والقايد على رأس الأولوية إلا بعد ثبوت مشاركتهم في الحروب وتأدية ذلك الواجب على أكمل وجه، فكانت التعيينات تتم باقتراح من البايلرباي<sup>4</sup> كذلك الذي تقدم به صالح باشا بخصوص تعيين القايد حسن على رأس بجاية بد فتحها عام 1555، وهو اللواء الذي قدر محصول ضرائبه بثلاثمائة أوقجة<sup>5</sup>.

كانت السلطة تعين القايد لإدارة شؤون المدن، وكانت تضع تحت تصرفهم حامية من العسكر لفرض النظام وتمثيل الدولة في هذه المدينة. وكان القايد برتبة آغا يساعده مفتي وقاضي مالكي للنظر في المنازعات التي كانت تحدث بين السكان من حين لآخر<sup>6</sup> وكان يقيم في قصر اللؤلؤة<sup>7</sup> بعد إعادة

<sup>1</sup> de Grammont: op, cit, p20.

<sup>2</sup> لمزيد من الإطلاع على موضوع القايد راجع، السعيد شريدي: تطور وظيفة القايد في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف د. أحمد صاري، جامعة الأمر عبد القادر لعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2006.

<sup>3</sup> ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص 234.

<sup>4</sup> عمر حرفوش: الإدارة الجزائرية في العهد العثماني 1518- 1830 مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009/2008 ص13.

<sup>5</sup> الأرشيف الوطني الجزائري، 01، دفتر مهم رقم 2، حكم رقم 565.

<sup>6</sup> Féraud: «Notes sur Bougie...», p 296.

<sup>7</sup> التمرغوني: المصدر نفسه 16.

## الفصل الثاني:----- السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

لأن الإسبان قاموا بتهديده<sup>1</sup> وعلاوة على الوظائف التي سبق ذكرها كان قايد بجاية يشرف على سير الخدمات الاجتماعية داخل المدينة كمرقبة الأسواق والسهر على توفير الأمن في الشوارع والطرق والأماكن العامة، كما كان يعمل على تنفيذ الأوامر والتعليمات التي ترد من السلطة العليا، ويشرف كذلك على نقابات الحرفيين وعلى تحقيق العدالة بالاستعانة بمجلس أعيان المدينة وال<sup>2</sup>. ويبدو أن بعض القياد الذين تداولوا على بجاية كانوا محبين للشيخ الدينيين والعلماء، حيث تحدث الورتلاني في رحلته عن استقباله لما زار بجاية من طرف القايد التركي والمفتي والقاضي<sup>3</sup>.

وتحدث هايدو وظيفة القايد فقال أنه ذلك الحاكم الذي يسير شؤون المدينة والمناطق التابعة لها، ومن مهامه كذلك التحكم في مساحات شاسعة من الأراضي الأمر الذي يحول القايد إلى أغنياء، ولم يكن القايد يعينون حسب معيار الكفاءة أو التفاني في العمل بقدر ما يراعى في تعيينهم قدرة القايد على ترضية الباشا وكان نصب القايد يباع ويشترى تبعا للمنطقة التي سيحكمها وغد وكثرة قبائلها وسكانها وهو ما يعني أن حجم الضرائب المستخلصة به يكون كبيرا، ويعين القايد مدى الحياة أو لبضع سنين<sup>4</sup>. أما فايسات فيحدد مهام القايد فيما يلي: هو قايد الشرطة الذي يقبض على المخالفين، الحكم بين المتخاصمين في حدود منطقتهم، ويحمي الطرق والمسالك ويسهر على توفير الأمن بها، يرأس عملية توزيع الأراضي على الفلاحين، ويراقب الشيوخ ويشرف على رؤساء الفرق التابعة مباشرة للقبيلة ويساعد مبعوثي الباي أو الداي في جرد الأشخاص وممتلكاتهم من أجل استخلاص الضرائب، و يقوم بقيادة القوات العسكرية وجمعها للسير لمعاينة الممتنعين عن دفع الضرائب أو المتمردين وإحضارهم للسلطة بمساعدة الشيوخ ورؤساء القبائل الذين يخضعون لمنطقة. ويراقب القبائل التي تكون تحت سلطته، كما يؤدي القايد دور القاضي في القضايا العامة كما

<sup>1</sup> يرانشفيق: المرجع السابق، ص 419.

<sup>2</sup> أحمد توفيق المدني: عثمان باشا ص 158.

<sup>3</sup> الورتلاني: المصدر السابق، ص 194.

<sup>4</sup> Haedo: Topographie, p61.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

في القضايا الجنائية والسياسية حيث يفرض الغرامات على المخافين والجناة علاوة على إشرافه المبادلات التجارية و راقب الأسواق في المناطق التابعة لنفوذه كما سبقت الإشارة إليه.<sup>1</sup>

ولما كان سكان منطقة بجاية يدينون إلا لشيخ القبائل، أو المرابطين، إذ كان الشيخ يمثل سكان القبيلة تمثيلا حقيقيا لأنهم هم من يختارونه لهذه المهمة فكان عليه القيام بالمهمة على أكمل وجه وكان طاعته والإذعان لأوامره التي هي في الواقع أوامر الجماعة، فإن القايد الذي كان يعين للإشراف على شؤون بجاية كان عليه الحرص على نسج علاقات طيبة مع المرابطين وشيوخ القبائل لأنهم هم الواسطة بين السلطنة والسكان.<sup>2</sup>

ونظرا لصعوبة منطقة بجاية طبيعيا كان الدايات في حالات قيام حركات التمرد أو الثورات يبطون في توجيه الأوامر لبايات كل من التيطري وقسنطينة لتجهيز الفرق العسكرية والتوجه إلى القبائل للقضاء على القبائل المتمردة. كان يأتي جيش بالملك الشرق من جهة الشرق ويأتي جيش بايالك التيطري من جهة الجنوب، لتطويق المنطقة.<sup>3</sup> وذلك خشية أن يمتد التمرد إلى مناطق أخرى.

وكان القياد خلال القرن السادس عشر يتمتعون بصلاحيات إدارية واسعة، وكانوا يعوضون تعيينهم في مناصبهم بدفع حقوق السلطان وكانوا يعينون لمدة طويلة أو مدى الحياة<sup>4</sup>، ونظرا لأهمية بعض المدن الجزائرية مثل جيجل وبجاية فقد كان الدايات شخصيا يقوم بتعيين القياد لحكمها.<sup>5</sup> ولم يكن القايد يقيم بالبرج المخصص للمراقبة، بل خصص له بيت بالقرب من البرج الذي لا يذهب إليه إلا في ساعات العمل، وكانت الأبراج تحتوي على الطابق السفلي الذي كان يخصص لتخزين مواد التموين كالقمح والشعير والزيت بالإضافة إلى البارود. كما كان البرج يحتوي كذلك على كان يوضع فيه الأسرى. أما أصحاب المظالم فكانوا يقفون في ساحة البرج مع شاوشين وكانوا يلقون شكواويهم على القايد الذي عادة ما يكون في الأعلى، مع القاضي والمفتي الحنفيين،

<sup>1</sup> Eugène Vayssettes: **Histoire de Constantine...**, p34.

<sup>2</sup> Said Boulifa: op, cit, p344.

<sup>3</sup> Said Boulifa: Ibid, p256.

<sup>4</sup> Haedo : **Topographie et Histoire générale...**, p61.

<sup>5</sup> أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، ص56.

## الفصل الثاني:----- السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

كان يقيم في قصر اللؤلؤة<sup>1</sup> وكان يباشر سلطاته على كل المناطق المحيطة ببجاية من مسجد المدينة حسبما أورد الفارس دارفيو<sup>2</sup>. وتدعمه حاميه من العسكر لا تتعدى مائة وحمسون وكان دور هذه المتمثل في دعم المحلة أثناء خروجها لاستخلاص الضرائب من الأرياف ومراقبة تحركات القبائل الجبلية وكذا ضمان الأمن في الطرقات.<sup>3</sup> كان القايد يسهر على حماية المرسى والمدينة من الأخطار الخارجية وهذا ما أورده التمرغوتي في قوله: "يتزل بها (يقصد ببجاية) متولي تلك الناحية من التراك يمنع المرسى من العدو"<sup>4</sup>. وكان يحتوي الطابق الأول على مقر حكم القايد وغرف لإيواء الشواش والخواجات والقهواجي، ومن مهام القايد علاوة على الإشراف على شؤون المدينة تفقد السوق الذي كان يقام خارج سور المدينة كل يوم خميس، بجانبه، وكان يرافقه فارسين في أهبة تليق بمقامه وعدد من الجنود المسلحين بالبنادق ومجموعة العازفين على الموسيقى، وكان جنود الحامية ون له الحماية أثناء قدومه إلى السوق ومكوثه به ثم مغادرته وقد تميزت سياسة الأتراك خارج مدينة بجاية بعدم التدخل في شؤون القبائل وتنظيماتها طالما استمرت في دفع ما عليها من ضرائب، ولا يكون التدخل إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك.<sup>5</sup>

وكانت المراسلات الرسمية بين قايد بجاية والحكام الأتراك بمدينة الجزائر في شكل رسائل وتقارير عن الوضع بالمنطقة، ففي رسالة مؤرخة بتاريخ 1242 / 1826م بعث بها رجب آغا النوبة في بجاية إلى وكيل الخرج يخبره فيها عن وفاة قايد بجاية.<sup>6</sup> وهنا يحق للمرء أن يتساءل عن اهرة تعيين القياد والشيوخ التي كان الاعتقاد السائد أنها من اختصاص البايات، إلا أن بعض الوثائق المتعلقة بالفترة الاخيرة من الحكم العثماني تحتوي على تعيينات كان يقوم بها البشوات، حيث يذكر

<sup>1</sup> محمد بن علي التمرغوتي: النفحة المسكية في السفارة التركية، الطبعة الحجرية، د. ت. ص 14.

<sup>2</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p239.

<sup>3</sup> أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري، ص 56.

<sup>4</sup> التمرغوتي: المصدر نفسه، 16

<sup>5</sup> N. Robin : « Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie », R.A, T. XVII, pp203.

<sup>6</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3207، ورقة رقم 171.



## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

شويتام أرزقي شويتام بهذا الصدد تعيين قايد بجاية الذي حمل توقيع الداى محمد عثمان باشا مؤرخ في 1785/1200، علما أن الناحية كانت تابعة لبايلك الشرق.<sup>1</sup>

### ب- نظام الح في بجاية:

كان البشوات يعينون قواد الحاميات العسكرية الموزعة على المدن في الإيالة التي تعرف من الجنود الذين يحملون رتبة بلوك باشي، ويعرف بأغا النوبة، وكان البلوك باشي ير إلى رتبة وهي أعلى رتبة حسب الأقدمية تعدل رتبة ضابط سامي، فكان الياياباشي يحق له بالعضوية في الديوان وكان الباشا يختار من بينهم لتكليفه بمهام دبلوماسية داخل وخارج الإيالة كان بإمكان الياياباشي قيادة الحملات العسكرية التي كانت تخرج كل ستة أشهر لتدعيم الحاميات الموزعة على الإيالة ومساعدتها في مهمة استخلاص الضرائب،<sup>2</sup> وهذه المهام والوظائف تجعل من رتبة ياياباشي رتبة مهمة وذات مكانة لائقة في الجيش.

وتعتبر النوبة من الجنود الانكشارية التي يتعين على عناصرها الالتزام بأمنيتها لحراسة المدينة، حيث كانت توزع على الأبراج والحصون، ولا ينبغي لها مغادرة مناصبها مهما كان الحال، وكانت تتغير مرة خلال السنة عند بداية موسم الح ، و تضم في صفوفها فرقتين واحدة مخصصة والأخرى للطوبجية وقد لاحظ شو أنها كانت تتألف من ثلاث فرق<sup>3</sup>، وأورد ابن ميمون الجزائري قوله: " تقيم في بجاية كما في غيرها من المدن الجزائرية إبان العهد العثماني حامية عسكرية تسمى النوبة وفي ربيع كل سنة تغادر الحامية مكان حراستها وتخلقها حامية أخرى"<sup>4</sup>.

والجدير بالذكر أن الحكام الأتراك الأوائل اعتمدوا في الجيش القوة الإنكشارية التي أرسلها السلطان سليم الأول إلى الجزائر لتدعيم مركز خير الدين هذه القوة هي التي النواة الحقيقية للجيش الجزائري لفترة طويلة من الزمن، وقد استحدث الأتراك نظاما عسكريا يسمى النوبة،

<sup>1</sup> أرزقي شويتام : المجتمع الجزائري، ص ص 60-61.

<sup>2</sup> خليفة حماش: المرجع السابق، ص 103.

<sup>3</sup> Pierre Dan : op, cit, p83.

<sup>4</sup> محمد بن ميمون: المصدر السابق، ص 37. أنظر كذلك:

de Tassy : op, cit, p127.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

لحراسة المدن المهمة الساحلية والداخلية، هذه النوبة تشكل القاعدة الأساسية للنظام العسكري والعسكري في إيالة الجزائر. ولما أصبحت بجاية خاضعة للحكم العثماني، تمت بها على غرار المدن الجزائرية الأخرى، تراوح عدد أفرادها بين 400 و600 جندي، ثم تناقص هذا العدد وأصبح في نهاية الحكم العثماني تراوح بين 150 إلى 250 موزعين على الحصون الثلاثة الرئيسية في المدينة وهم حصن القصبه وحصن موسى وحصن عبد القادر، وقدر الرحالة الفرنسي بيسونال عدد جنود هذه الحامية ب 200 زار بجاية 1725 وحضر استبدال جنود النوبة<sup>1</sup> وعشية الاحتلال الفرنسي عام 1830 انخفض العدد إلى 60

أرت إليه التقارير الفرنسية، دون أن تفيدنا تلك التقارير ولا المصادر التي تحدثت عن بجاية في أواخر العهد العثماني بأسباب خفض السلطة لعدد جنود الحامية في بجاية، على الرغم من أهمية المدينة والميناء، وخطورة الوضع الخارجي. ومن المرجح أن الحادثة الخيرية التي تم بموجبها القضاء على الجيش الانكشاري على يد السلطان محمود الثاني (1808-1839م)<sup>2</sup> بعد أن تحول إلى آفة، فلم يعد هناك من الجنود ما يكفي لإرسال أعداد منهم إلى بجاية وغيرها من الحاميات.

وحسب ما أورد أوكايتان وفيدرمان لم تكن بجاية في أواخر عهد الدايات تحتوي سوى على صغيرة تتألف من 48 تناوبون على حراسة هذه المدينة، في الوقت الذي كان يحرس مدينة الجزائر نوبة تتألف من 15 سفرة (240) و كان يحرس 10 سفرات (160).<sup>3</sup> و يساعد قائد بجاية مجلس من أعيان المدينة بالإضافة إلى القاضي والمفتي والحامية العسكرية لحراسة المدينة والميناء<sup>4</sup> من أي خطر خارجي حسبما أورد التمرغوطي.<sup>1</sup> وكانت الحامية

<sup>1</sup> Peyssonnel et Desfontaines : op cit, pp464-465.

<sup>2</sup> لمزيد من التفاصيل حول الموضوع يُنظر، مجموعة من المؤرخين الأتراك: الدولة العثمانية تاريخ و حضارة يلماز: المدخل إلى التاريخ التركي.

عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها.

علي الصلاحي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط .

: تاريخ الدولة العلية العثمانية.

<sup>3</sup> Aucapitaine et H. Federmann : «Notices sur l'histoire de l'administration du Beylik de Titeri», RA, 1865, pp 281-282.

<sup>4</sup> Féraud: « Histoires des villes... », pp212-213.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

تستبدل بحامية أخرى مرتين في السنة، الأولى في بداية الخريف، والأخرى في بداية الربيع، ولم تكن هذه العملية تقتصر على بجاية فقط بل كانت تشمل كل المدن كجيجل وقسنطينة وغيرها، إذ يذكر بيسونال أنه في يوم 12 سبتمبر من عام 1725م انطلقت سفينة من نوع الكرافال صوب بجاية مجهزة بعشرة مدافع بقيادة العليج البندقي محمد ريس، وكان بيسونال على متن هذه السفينة و 8 أيام وصل إلى ميناء بجاية ويصف المدينة بقوله: "ومدينة بجاية تحتوي على ميناء جميل واستراتيجي وآمن، وهي الآن في حالة يرثى لها لا أثر للقصور الجميلة التي كانت تزدان بها قديما، وهي مئات البيوت وبعض الشوارع، مبنية بالآجر والطين ومغطاة بالقرميد المستدير والحدائق والمثمرة، ولا شيء يدل على أن المدينة يوما ذات ن كبير سوى بقايا السور الكبير الذي لا يزال يحيط بها، وتعتمد دفاعات المدينة على ثلاثة قلاع) بما برج سيدي عبد القادر، وحصن موسى والقصبه) تشتمل كل واحدة منها على 20<sup>2</sup>.

وكانت الحامية تغادر مكانها مع حلول فصل الربيع لتخلفها حامية أخرى وهكذا دواليك، هل هذا العدد من الجنود الأتراك كافيا لحماية مدينة بهذا الحجم والأهمية؟ أو لفرض السلطة العثمانية في المدينة ونواحيها؟ تفيد بعض المصادر والمراجع أن هذا العدد لم يكن كافيا، حيث أشار شوفالييه دارفيو، أن جنود هذه الحامية لم يكونوا يجرأون على مغادرة المدينة في أعداد قليلة لأن السكان المجاورين سيمزقونهم إربا إربا فلا وجود للسلام بين الطرفين إلا أيام السوق الأسبوعي إذ كان السوق الذي كان ينعقد كل يوم خميس عند أحد أبواب المدينة مكانا للهدنة على الأقل حتى وقت الظهر، و السوق بدأ أعمال النهب والسرقه بين المتسوقين.<sup>3</sup> وذكر شو أن هذا العدد القليل بأي حال إيقاف هذه القبائل الشرسة.<sup>4</sup>

وأشار فيرو إلى أنه في أواخر العهد العثماني تناقصت الأهمية العسكرية للمدينة ولم تعد تضم أكثر من 60 كان يقودهم آغا النوبة الذي كان 28 جنديا في

<sup>1</sup> التمغروطي: المصدر السابق، ص16.

<sup>2</sup> Peyssonnel et Desfontaines :op, cit, pp464-465.

<sup>3</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p239.

Nil Robin : «Notes sur l'organisation militaire...», p134.

<sup>4</sup> Shaw: op, cit, p179.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

حصن القصبة، وقائد برتبة بلوك باشي<sup>1</sup> ومعه 16 كان يتحصن في حصن موسى، والكاهية ومعه 16 جنديا وكان يتحصن في حصن عبد القادر (برج البحر) ولم شيء قائم يدل على المدينة العظيم؛ من بنايات وعمران، سوى سور المدينة والآثار القديمة والحجارة المتناثرة هنا وهناك.<sup>2</sup> وأورد صاحب دفتر تشريفات أن بجاية حامية عسكرية تتألف من ثلاث سفرات وهو ما يساوي أربعة وأربعين جنديا<sup>3</sup>، أما دوفولكس فقد ذكر أن عدد جنود هذه الحامية يتراوح بين 55 و80. والمخلة التي كانت تتجه نحو بجاية 20 ولم يحق لأفراد هذه الحامية مغادرة أماكنهم مهما كانت الظروف، وتدعم الحامية بفرقة البومبجية والطوبجية، وتكون الحامية تحت قيادة آغا النوبة الذي يكون تحت خدمة الباي ويرافقه في خرجاته الميدانية أو في حملاته.<sup>4</sup>

و نعتقد أنه المرجح أن قلة عدد جنود حامية بجاية - رغم أهميتها ورغم الخطر الخارجي المحدق بها- يرجع إلى استراتيجية الحكام الأتراك، التي ارتكزت على حكم شيوخ القبائل المحليين، وكذا على المرابطين، وكذلك حرصا على عدم استفزاز سكان هذه المنطقة المعروفين بعدائهم لأية سلطة أجنبية.

ويدعي فيرو أن سكان بجاية تحت السلطنة العثمانية كانوا في حالة بائسة، بعد أن فقدوا نشاطهم التجاري الذي اعتادوا عليه مع الأمم الأوروبية منذ القدم، ولم يفك عنهم عزلتهم سوى التبادل التجاري مع القبائل الجبلية المحيطة حيث كانوا يسوقون ما فاض عنهم من إنتاجهم الفلاحي والصناعي في سوق بجاية، وكان تجارهم المتجولون يجوبون المدن والأرياف لبيع منتجاتهم المحلية، كانوا يقومون بالنشاط البحري على متن سفن الفلوك التي وايجتفظون بها.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> بلوك باشي: ضابط في الجيش.

<sup>2</sup> T. de la Branerrais : **Relation de l'expédition de Bougie, 16 octobre 1833, les archives du génie militaire, service historique de l'armée de terre, p81.**

<sup>3</sup> أحمد توفيق المدني: عثمان باشا، ص 158.

<sup>4</sup> Albert Devoux : **Daftar Taschrifat**, imp, du gouvernement, Alger, 1852, p47.

<sup>5</sup> Féraud: « Histoire de Bougie... », p213.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

ومن الملاحظات التي يجب تسجيلها أن السكان الذين غادورا بجاية عقب سقوطها في يد الإسبان لم يعد منهم بعد تحريرها سوى عدد قليل، ولا نملك من المعلومات والمعطيات الكافية تمكننا من تفسير السبب، إلا ما ذكره مولود قايد حول ودة بعض العائلات البجائية وتفضيل البعض الآخر الاستقرار قرب المدينة، في قبيلتي مزاية وبني سعود، ويذكر أن عائلة بل أهم العائلات التي عادت إلى بجاية.<sup>1</sup>

ونعتقد أن 45 سنة من الاحتلال هي مدة كافية لجعل السكان يستقرون في المناطق التي لجأوا إليها، ومن ثمة لم تعد كل العائلات إلى بجاية بعد تحريرها. ومما لاشك فيه أن الأتراك لم يتركوا المدينة خراب بعد تحريرها، فحسب مولود شرع الجميع أتراك وقبائل في إعادة بناء وتعمير المدينة تحت إشراف حاكمها التركي الذي عين مسؤولا على كل شارع من شوارع المدينة، وعادت الحياة إلى المؤسسات الدينية والتعليمية، فالمسجد الذي حوله الإسبان إلى كاتدرائية عاد إلى وظيفته الأصلية، وقام السكان بخلص من كل الرسوم والتمائيل المسيحية التي كانت بداخله يرميها في البحر.<sup>2</sup> ورغم أن بجاية فقدت مكانتها إلا أنها حافظت على ما يبدو على جمالها وهذا ما نلمسه مما سجله الشيخ عبد الكريم الفقون أثناء زيارتها حيث أعجب بما ومنظرها الطبيعي الخلاب فنظم قصيدة شعرية مطلعها:

دع الع راق وبغ داد وشامهما فالناصرية وما أن مثلها بل

بر وبحر وم وج للعيون به مسبارح بان عنها المهم والن

حيث اله وى والهواء الطلق مجتمع حيث الغابى والمنى والعيشة الرغد<sup>3</sup>

وكان تشييد المؤسسات الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس كان يقع على عاتق السلطة التي عملت على بناء عدة جوامع كجامع سيدي الصوفي وجامع سيدي الموهوب والجامع الأعظم ولا شك أنها أمرت بترميم المؤسسات التي طالتها التخريب والتي حول الإسبان بعضها إلى

<sup>1</sup> Mouloud Gaid: **Les Beni-Yala...**, p 45.

<sup>2</sup> Mouloud Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p89.

<sup>3</sup> أنظر نص القصيدة كاملا في، مولاي بلحميسي: «بجاية في حدائق الكتب» مجلة الأصالة ع 17-18

1973، ص 97-106.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

كنائس وبنائات لاستخدامها لأغراض مختلفة، وخرّبوا البعض الآخر، وعلدا ذلك فقد كانت المدينة شبه مهجورة حسب شهادة الرحالين الأوروبيين الذين حلوا بها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ووقفوا على واقعها، ومنهم الفارس دارفيو<sup>1</sup> والرحالة الأنجليزي طوماس شو في العشرينيات من القرن الثامن عشر،<sup>2</sup> والرحالة الفرنسي بيسونال الذي زارها في نفس الفترة الأخيرة.<sup>3</sup>

### ج- دفاعات المدينة وتحصيناتها:

كان على السلطنة العثمانية بعد فتح بجاية أن تحرص على تعزيز دفاعاتها، ذلك أن موقعها الاستراتيجي جعل منها عرضة لغزوات الدول الأوروبية، ومن أجل ذلك أولى الحكام الأتراك اهتماما كبيرا لتحصينها، فالحصانة الطبيعية لا تكفي وحدها لصد أي خطر أجنبي، فحرصوا على تنصيب بطاريات في الحصون والأبراج التي وجدوها في المدينة وعملوا على زيادة تحصيناتها وتعزيز قدراتها الدفاعية.

وأما بخصوص السور المحفقد و العقيد، لومير Le colonel Lemerancier مدير التحصينات، عشية احتلال بجاية في تقريره الذي كتبه في 12 نوفمبر 1833 : " البقايا الأكثر وضوحا لهذه المدينة العظيمة هي الأطلال التي تحيط بها من كل جانب، وكذلك جدار طويل ذو أبراج عالية، والتي تمتد من البحر إلى أعلى قمة الجبل حيث يوجد ضريح مرابطة وراية وفي القمة شيد برج حصين طبيعيا. ويشكل في الواقع هذا الجدار الذي يبلغ ط 2300 متر، خطا دفاعيا ممتازا بالنسبة لنا لنا بالتحصن به وبمراقبة المنطقة المحيطة بنا والسيطرة عليها حتى رأس كربون (رأس الفحم) وفي الوقت الحالي لا يوجد للمدينة سور كامل البناء فما تبقى منه لا يتعدى 300 متر مجتمعا".<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Le Chevalier d'Arvieux: op, cit, p238.

في الواقع لقد سبق الأب الترينيتاري الفرنسي بيار داب le père Pierre Dan هؤلاء في زيارة بجاية وسجل الملاحظات ذاتها سنة 1648.

<sup>2</sup> Shaw: op, cit, p178.

<sup>3</sup> Peyssonnel: op, cit, p325.

<sup>4</sup> Seffadj:op, cit, p113.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

ويعتبر باب البحر الذي يقع قرب البحر كما يدل عليه اسمه، أحد أهم بوابات المدينة ويسمى كذلك باب السيرازين *Porte Sirasines*، كما توجد أبواب أخرى مثل باب اللوز، باب البر ويقع في الجهة الجنوبية للمدينة، باب أمسيون<sup>1</sup> في الجهة الجنوبية الغربية، ويؤدي إلى جبل وراية<sup>2</sup>. القصبة المبنى الأكثر أهمية في بجاية مقر حكم الملوك والأمراء الذين تعاقبوا على حكم بجاية، من حماديين و موحديين وإسبان وأتراك، و يقابلها في أعلى المدينة برج موسى<sup>3</sup>، ثم الباب المرقوم. و يأتي برج عبد القادر في المركز الثالث بعد كل من القصبة وبرج موسى الذي شيد على أنقاض قصر الكوكب. ويعتبر برج سيدي عبد القادر (برج البحر) من أهم الحصون في بجاية ويحتمل أن يكون بفائه قد تم على يد الحماديين بالنظر لموقعه الهام وهو يقع في الجنوب الشرقي وقد استعمل في بنائه بقايا الآثار الرومانية، وهو البرج الوحيد الذي وجدته الإسبان عند احتلالهم بجاية قاموا بتعزيزه وزيادة تحصيناته حتى أضحي من أهم حصونهم في المدينة، وكان منصبا 20 مدفعا، وقد صمد لمدة 5 أيام تحت ضربات صالح رايس عام 1555.<sup>4</sup>

إن الموقع الممتاز الذي يحتله هذا البرج وبقائه صامدا رغم جعل الكثير من الكتاب الذين زاروه يسجلون ملاحظاتهم وإعجابهم ومنهم الرحالة الإنجليزي شو والفارس دارفيو والأرشيدوق أوتريش لويس دو هابسبورغ، وغيرهم، ولا يزال هذا البرج يحظى باحترام البجائيين وتقديسهم لأنه يمثل أحد الأولياء الصالحين، ويُعتقد أن سيدي عبد القادر النجار كان صانع السفن وعُدَّ بعد وفاته حاميا رجال البحرية.<sup>5</sup> ومن المرجح أن الفرنسيين هم من أطلق عليه هذا الال نسبة للولي سيدي عبد القادر النجار نجل المرابط الشهير سيدي محمد أمقران، الذي سبقت الإشارة إليه، وهو يحتل موقعا استراتيجيا يمكن مراقبة حركة السفن في البحر من خلاله، وقد لعب دروا هاما

<sup>1</sup> كلمة أمازيغية تعني العقبة.

<sup>2</sup> Jean Morizot : *les Kabyles : propos d'un témoin*, C. H. E. A. M, Paris, 1985, p17.

<sup>3</sup> حول الآن إلى متحف للمدينة.

<sup>4</sup> لمزيد من المعلومات حول صالح رايس راجع ، ناصر الدين سعيدوني: « رسالة من أعيان مدينة قسنطينة... » المرجع السابق ، ص ص 11-38.

<sup>5</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p247.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

في الدفاع<sup>1</sup> المدينة منذ تشييده، وقد تفتن بيدرو نافارو الذي احتل بجاية عام 1510 إلى مكانة هذا البرج وأهميته فأمر بالعناية به وزيادة تحصيناته، ويعتقد سكان بجاية أن الولي سيدي عبد القادر أحد الحراس مدينة بجاية التسعة والتسعين، وهو من يوفر الحماية للمدينة من جهة البحر، وعند وفاة هذا المرابط قام سكان بجاية ببناء ضريح له فوق الحصن المذكور واتخذوه مزارا لهم<sup>2</sup>، ويضم البرج صهريج وأنفاق تحته من المحتمل أن الإسبان هم الذين قاموا ببنائها أو ترميمها<sup>3</sup>. وقد أشار شارل فيرو في تقريره عن المراكز الثقافية في بجاية عام 1849 إلى وجود زاوية سيدي عبد القادر في حالة خراب<sup>4</sup>.

ويمثل برج موسى (حصن الإمبراطور) الحصن الثالث المهم، والذي بناه الإسبان على أنقاض قصر النجمة، وحصنوه ووسعوه وخضع للتعديلات والترميمات خلال العهد العثماني، مما أهدم وتخرب وتلف، وكان يحرسه 16 جنديا وبلوكباشي وبه 4 مدافع، حول الفرنسيون اسمه إلى حصن بارال Barral Fort نسبة إلى أحد قادتهم الذي قتل في معارك احتلال المدينة<sup>5</sup>.

ويعد برج الأبواق الذي شيد قرب ضريح سيدي المليح، أحد الأبراج الـ ٥ على الوجود التركي في بجاية، فقد شيد لمراقبة البحر من جهة مرسى سيدي يحيى في الجهة الغربية للمدينة، ومن أجل تعزيز دفاعات المدينة من جهة أخرى كان يستخدم محطة للرصد من قبل الأتراك، وذلك بفضل موقعه الاستراتيجي على الخليج، وكان بمثابة جرس التنبيه طريق دق الأبواق في حالة الاقتحام في عرض البحر، وبهذه الطريقة يكون أمام الحامية والسكان وقت كافي للاستعداد لملاقاة العدو وصد الهجمات البحرية. وكان هذا الحصن مزود ببطارية تتكون من 6 بأربعة مدافع من العيار الكبير، وشيد هذا الحصن بالحجارة ويرتفع عن الأرض بأربعة أمتار، و 40 مترا. وعرضه 8 أمتار<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> مطبوعات جمعية جيهيماب، بجاية، 2006.

<sup>2</sup> Chevalier d'Arvieux: op, cit, p77.

<sup>3</sup> Louis de Habsbourg Autiche : **Bougie, la perle de l'Afrique du nord**, p57 .

<sup>4</sup> Féraud : « Histoire de Bougie... », p211.

<sup>5</sup> Ibid, p212.

<sup>6</sup> Féraud: « Notes sur Bougie... », p301.

<sup>7</sup> Seffadj: Ibid, p114.



## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

وأكد وجود هذه الحصون مصدر فرنسي حيث جاء فيه أن بجاية بنيت على سفح جبل تتوفر على ميناء جميل وبها تحصينات دفاعية تتألف من ثلاثة قصور مسلحة بمدافع ويصب بالقرب منها وادي كبير، تشتهر بالصناعة الحديدية وتصدير الزيت والشمع<sup>1</sup>.

ونظراً لأهمية مدينة بجاية ومينائها الذي كان ملجأ وملاذا لأسطول الإيالة طول العهد العثماني، فقد أولى الحكام الأتراك العناية الكبيرة بتحصينها، والحرص على ترميم ما يلحق به العطب أو التخريب، فعلاوة على السور القديم الذي كان يحيط بالمدينة، عملت السلطنة على زيادة تحصيناته من خلال تزويده بالأبراج والمدافع، لإيقاف أية محاولة لغزو المدينة أو قصفها.

وفي إطار تحصين المدينة ت السلطنة بتنصيب البطاريات عند كل برج وحصن، فنصبوا بطارية سيدي حسين بين المرسى والقصبة وهي منخفضة الارتفاع نصبت على صخر يبلغ علوه 18 متراً، طوله 42 متر وعرضه 10 أمتار، وبها فتحتان بعرض مترين واحدة في اتجاه المرسى والأخرى في اتجاه الجون، وتحتوي البطارية على 4 مدافع تتكفل بالدفاع عن مرسى المدينة ومنع سفن الأعداء من الاقتراب من المرسى<sup>2</sup>. وبطارية سيدي مرسم التي تقع شمال برج عبد القادر وهي من أكبر وأقوى البطاريات وشكلها مربع وتحتوي خندق تحت الأرض بأوي 50 رجلاً<sup>3</sup>، وهي مزودة بإحدى بإحدى عشرة مدفعا موجهين نحو المرسى وشاطئ سيدي يحيى، ويوجد مدفعان آخران في الجهة الخلفية للدفاع عن المدينة و تعزيز دفاعات برج عبد القادر، وقد حول الفرنسيون بعدما استولوا بجاية هذه البطارية إلى سجن<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> R.B : Description de l'état d'Alger, de ses dépendances, de ses villes principales, de ses ports, p256.

<sup>2</sup> S.H.A.T, Article8, Section1, Carton1, n°3, Bougie, colonel Lemercier, Rapport sur la place de Bougie, 12 sept 1833.

<sup>3</sup> Seffadj: op, cit, p114.

<sup>4</sup> S.H.D, (A.T) : Ibid.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

والإضافة إلى التحصينات والأبراج والبطاريات التي حرص الحكام الأتراك على تشييدها، عكس تشييدهم للمساجد والجوامع وتشجيعهم للزوايا وحماتها ورعايتها توجههم الديني في الإيالة

### 3- الأطماع الأوروبية في الاستيلاء على بجاية:

إن موقع بجاية ومينائها الحصين أثار اهتمام وشغل الدول الأوروبية القوية وأسأل لعابها، لا سيما أنها لم تكن الحراسة عليها مشددة، فقد رأينا كيف كان رد فعل الإمبراطور شارل الخامس حين نزل بها بعد هزيمته في مدينة الجزائر سنة 1541، حيث عبر عن أسفه لأنهم لم يوجه حملته إلى بجاية،<sup>2</sup> كما عبر الملك لفرنسي لويس الرابع عشر عن أسفه وندمه كذلك لأنه لم يوجه حملة جيغل سنة 1664 إلى بجاية بعدما علم أنها غير محروسة جيدا<sup>3</sup> وفي الواقع لم يكن الإسبان والفرنسيين وحدهم من تفتن للموقع الاستراتيجي لبجاية ونواحيها، بل شاركهم الأنجليز كذلك حيث لم تكن تقل أهمية بالنسبة لهم عن مضيق جبل طارق أو مالطة<sup>4</sup>، وسجل الرحالين الأوروبيين الذين نزلوا بها على اختلاف فتراتهم إعجابهم وافتنائهم بموقعها بدءاً بالفارس المالطي لانفريدوتشي (1584) والأب الفرنسي دان (1649) والفارس دارفيو (1674)، والفلامينغ أولفر دابر (1676)، والأنجليزي طوماس (1720).

إن أطماع الدول الأوروبية في الجزائر لم تتوقف طوال فترة الحكم العثماني، فكانت هذه الدول تشن الغارة تلو الأخرى على مدينة الجزائر مقر الحكم المركزي ودار الجهاد، التي أخذت حظ الأسد من هذه الغارات، كما تعرضت مدن الإيالة الأخرى لغارات بحرية استهدفت الاستيلاء عليها واحتلالها، ومنها بجاية التي لم تكن حاميتها العسكرية تتجاوز المائتان جندي في أحسن الأحوال.

<sup>1</sup> Kamel Filali : Le rapport de Charles Féraud sur la situation des lieux de culte à Béjaia, 1848, la mairie de béjaia, Colloque International” Mouvement Intellectuel et Chemins de Vérité, Béjaia le 17et 18 septembre 2003.

<sup>2</sup> Nedjma Abdelfettah Lalmi: op, cit, p64.

<sup>3</sup> Ernest Watbled:«Expédition de Duc de Beaufort contre Djidjli 1664», in RA, n° : 17, 1873. p218.

<sup>4</sup> Carrette : op, cit, p25.

-الحملة العسكرية البحرية على بجاية:

إن أهمية موقع بجاية وحيوية وإستراتيجية مينائها والمناطق الجبلية الشديدة الوعورة التي تحمي ظهر المدينة جعلت مختلف الدول الأوروبية تتطلع إلى احتلالها بغية الاستفادة من موقعها الهام ومن إمكاناتها الاقتصادية المعتبرة، فلم تكن الحكومات الفرنسية وحدها الطامعة في بجاية بل هناك أمم أخرى منافسة لها كإنجلترا وإسبانيا على وجه التحديد.<sup>1</sup>

إن موقع مدينة بجاية واحتوائها على ميناء حصين من شأن من يسيطر عليه الهيمنة على الطرق التجارية التي تربط الحوض الشرقي للمتوسط بحوضه الغربي، وقد جعل هذا الموقع الممتاز المدينة هدفا للحملة والمحاولات العديدة لبعض الدول الأوروبية منذ أن انتزعتها صالح رابيس من الاحتلال الأسباني، وذلك بغرض احتلالها واتخاذها نقطة الانطلاق للسيطرة على كامل شواطئ الشمال الإفريقي،<sup>2</sup> فكان احتلال المدينة يشكل في حقيقة الأمر حلم الأوروبيين وأحد أهم مخططاتهم الاستعمارية لا سيما في ظل التنافس الحاد والمسعور بين الدول القوية حينذاك.

والظاهر أن الإسبان كانوا لا يزالون يتطلعون إلى استعادة مركز بجاية الحيوي حيث تشير المصادر إلى أنهم لم يفقدوا اتصالاتهم مع أمراء كوكو آملين في مساعدتهم على الإطاحة بالحكم العثماني في الجزائر مستعملين كافة الأساليب الإغرائية، وكمثال على ذلك نجدهم يدبرون مؤامرة للإنزال في ميناء أزفون الذي بجاية و مدينة الجزائر، في سنة 1603م، و بطل هذه المؤامرة الأب ماثيو le père Mathieu الذي كان أسيرا في مملكة كوكو، اتفق مع أحد أفراد الأسرة الحاكمة ويدعى عبد الله بن القاضي على أن يقدم لهم يد المساعدة عند تمكنهم من التزول في منطقة أزفون التابعة لمملكة كوكو فقدمت السفن الإسبانية اربعة من نوع الغالير Gallère ونزل من 80 كان الأب ماثيو دليلهم وبقي الآخرون في البحر وما أن نزل الجنود إلى البر حتى انقض عليهم السكان الجبليون الذين يبدو أنهم علموا بالمؤامرة كانوا في انتظارهم أبادوهم كلهم ولم يتمكن رفاقهم الذين مكثوا في البحر من إنقاذهم، فكانت كارثة على الحكومة الإسبانية<sup>3</sup>، وقد

<sup>1</sup> BB<sup>7</sup>-8 : affaires étrangères n° : 09, Projet de compagnie Royale d'exploitation agricole et commerciale d'Algérie, par Iluleil – 1830- 1831, p11.

<sup>2</sup> BB<sup>7</sup>-8 : affaires étrangères n° : 09, op, cit, p12.

<sup>3</sup> Dapper: op, cit, p245.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

جعلت هذه الكارثة الإسبان يدركون أن منطقة القبائل ليس للبيع وأن الرجل القبائلي لا يبيع ذمته بالذهب الإسباني ولا بالوعود الإسبانية<sup>1</sup>

وقد أشار الأب دان في كتابه الذي طبع سنة 1648 إلى الأطماع الأوروبية في بجاية بسبب موقعها الحصين ل: " ويحرص المدينة في الوقت الحالي حامية عسكرية تتألف من 500 جندي انكشاري لحماية وللدفاع عن الميناء الذي كان هدفا لمحاولات عديدة للاستيلاء عليه من طرف السفن المسيحية نظرا لأهميته وبالخصوص خلال فصل الشتاء"<sup>2</sup>. ويبدو أن عدد جنود حامية بجاية قد تقلص مع مرور الوقت حيث لاحظ الرحالة طوماس شو أثناء زيارته لها أن العثمانيون عندما تمكنوا من انتزاعها من الإسبان جعلوا بها حامية عسكرية تتألف من ثلاثة فرق من المشاة لحمايتها، وهذا العدد الضعيف من الجند الانكشارية المشاة جعل المدينة محاصرة باستمرار من طرف سكان جبل وراية وتوجة والقبائل الأخرى المجاورة.<sup>3</sup>

وكان الملك الفرنسي لويس الرابع عشر يخطط لغزو الجزائر ليتمركز بأحد موانئها الاستراتيجية فيتمكن من مراقبة تحركات الأسطول الجزائري ضد المراكب الفرنسية، فكان مترددا بين احتلال إحدى المدينتين جيغل أو بجاية، فاختار تنظيم حملة لاحتلال مدينة .<sup>4</sup> ويعتقد الكاتب إرنست واتبلد أن الحملة الفرنسية 1664 خطأ فادحا لا يغتفر، إذ كان من الأجدد توجيه تلك الحملة لاحتلال بجاية ذات الموقع الاستراتيجي والميناء التجاري والعسكري اللذان لهما في كل البلاد البربرية، كانت فرنسا ستحني أرباحا طائلة لو وجهت أسطولها الحربي صوب بجاية، فضلا عن الموقع الحصين يمكن مراقبة الطريق بين أوروبا وإفريقيا، ويمثل الميناء مرسى مثاليا خاصة في فصل الشتاء، ويذكر نفس الكاتب أن الفرنسيين توقفوا لفترة قرب ميناء بجاية في طريقهم إلى جيغل، وحين وجدوا إمكانية الاستيلاء على المدينة بسهولة اقترحوا على قائد الحملة الكونت دو بوفورت تغيير الخطة لكنه رفض بحجة احترام أوامر أسياده في باريس، كما أخبرهم أن

Adrien Berbrugger: op, cit, p108

أنظر كذلك،

<sup>1</sup> Said Boulifa: op, cit, p212.

<sup>2</sup> Pierre Dan : op, cit, P 50.

<sup>3</sup> Shaw: op, cit, p179.

<sup>4</sup> محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص16.

## الفصل الثاني:----- السلطنة العثمانية في بجاية ونواحيها

فكرة احتلال بجاية رفضت من طرف المجلس الملكي، غير أن هذا القائد سرعان ما شعر بالندم والحسرة عندما علم أن الحامية التركية ببجاية قد قضى عليها الطاعون وكان بإمكانه اقتحام المدينة والاستيلاء عليها دون مقاومة،<sup>1</sup> ويذكر كل من روزي وكاريت أن الملك لويس الرابع عشر عبر عن أسفه لأنه لم وجه الحملة الفرنسية لاحتلال بجاية بدلا من جيغل<sup>2</sup> وتجدد الإشارة هنا إلى مساهمة سكان منطقة بجاية في التصدي لحملة دوفوفورت على مدينة جيغل و طرد الفرنسيين منها، حيث يخبرنا شارل فيرو في كتابه تاريخ مدينة جيغل: " أن الإعلان عن عملية إنزال مسحيين في جيغل جذب كل سكان السلسلة الجبلية الممتدة من بجاية إلى جبل إيدوغ بعناية وكثيرا ما لاحظت أثناء معاركنا مع القبائل (1840-1860) سيوفا طويلة بين أيديهم منقوشة عليها حرس ملكي في جميع المناطق وأن أجزاء من مدافع قلعة بني عباس تعود إلى الفرنسيين الذين تركوها بجيغل سنة 1664 وهذا دليل آخر على أن السكان شاركوا في المعركة. كما عثر الضابط " بيان " في مسجد سيدي الجودي بـ بني يعلى في نواحي بني ورتيلان على أدوات حربية تعود إلى مخلفات معركة جيغل وأن سكان تلك المنطقة شاركوا فيها و في قاعة الغنائم التابعة لفرع قسنطينة تم إيداع الكثير من الأسلحة التي انتزعت من العدو (المقاومون للاحتلال الفرنسي ) أثناء حملات جيوشنا تعود إلى مخلفات

3

ويبدو أن أطماع فرنسا في بجاية ونواحيها لم تتوقف رغم إحقاقها في جيغل، ذلك ما يدل عليه التقرير الهام والمفصل الذي قدمه الفارس دار جاء فيه قوله: " أن يمكن لفرنسا القضاء على القرصنة الجزائرية التي ما فتئت تلحق أضرارا بليغة بالسفن المسيحية عموما والفرنسية على وجه الخصوص، فقدم هذا الفارس خطة تقضي بالهجوم على أضعف نقطة في الإيالة وهي بجاية" سم زيارته لها 1674 بالوقوف على تحصيناتها ودفاعاتها التي رأى أنها أضعف من أن تتصدى لحملة بحرية فرنسية، وسلم خطة للهجوم على هذه المدينة إلى ملك البرتغال، بغية القضاء على قوة

<sup>1</sup> Ernest Watbled: op, cit, pp218-219.

<sup>2</sup> Rozet et Carette: *L'Algérie*, imp, Firmin Didot frères, Paris, 1850, p49.

<sup>3</sup> علي خنوف: السلطنة في الأرياف الشمالية لبابلك الشرق " نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي " بعة العناصر ، الأبيار ، الجزائر ، 1999 ، ص ص 62-63.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

إيالة الجزائر وتخطيمها.<sup>1</sup> ويبدو أن محاولات الدول الأوروبية في القضاء على قوة الإيالة لم تتوقف طوال فترة الحكم العثماني، كانت هذه الدول تتحين الفرص المناسبة للقيام بغارات بحرية للقضاء على القرصنة الجزائرية.

والواقع أنه لم تكن فرنسا الوحيدة التي كانت تدرك أهمية بجاية وموقعها الاستراتيجي ما أورد كل من روزي وكاريت، بل كانت إنجلترا، وكانت تعتبرها لا تقل أهمية واستراتيجية عن مضيق جبل طارق تتطلع هي الأخرى إلى احتلاله متى سمحت لها الفرصة.<sup>2</sup> عام 1662 أفرصة الضائقة التي كانت تعاني منها الإيالة من صراع على السلطة،<sup>3</sup> بينما كان الأميرال الإنجليزي يطارد سفن جزائرية في البحر المتوسط ولما وصل إلى علم أن مدينة الجزائر تعرضت لعاصفة هوجاء تسببت في تدمير المدينة وتخطيم جزء من القرصنة، فأراد أن يغتنم هذه الفرصة، إضافة لتواجد الأسطول الهولندي والفرنسي على المدينة، فقام بمهاجمة ميناء بجاية في أوائل شهر أبريل من سنة 1662 بقيادة القائد فانتاغو Vantago وساندوفيش Sanduvis وقصفوه بالمدفعية الثقيلة وتمكنوا من الإيلاء على أربعة سفن كانت راسية بالميناء واقتادوا إلى مدينة الجزائر، وفي الوقت الذي كان الأسطول الهولندي قرب مدينة الجزائر أعتقد الأميرال الإنجليزي أن جاء لمهاجمة الجزائر<sup>4</sup> وأنه سيقضي على الأسطول الجزائري لا محالة، ولم يكن الأميرال الإنجليزي على ما يبدو يعلم أن الهولنديين كانوا حينها منشغلين بالتفاوض مع شعبان آ (1661-1665) انتهت بإبرام معاهدة صلح وصداقة مع مملكة هولندا<sup>5</sup> لمدة ثمانية عشر شهرا، ولما اتضح الأمر للأبجيز أصيبوا بخيبة أمل كبيرة وه يشاهدون الأسطول الجزائري

<sup>1</sup> Moulay Belhamissi : **Histoire de la Marine algérienne...**, p28.

<sup>2</sup> Rozet et Carette: **L'Algérie...**, p4.

<sup>3</sup> كان يحكم الإيالة شعبان آغا 1661-1665، في عهد الأعوات الذي تميز بالاضطرابات وعدم الاستقرار، وهو أقصر عهد لم يدم سوى 10 سنوات (1659-1671م).

<sup>4</sup> عزيز سامح إلترا: المرجع السابق، ص 391.

<sup>5</sup> عقدت أول معاهدة سلم بين الجزائر وهولندا بين سنتي 1622 و1624، أنظر عبد الرحمان الجليلي:

المرجع نفسه، ص ص 123-124.

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

يدخل الميناء بأمان. وبعد حصار فاشل وجد هذا الأميرال نفسه مجبرا على طلب عقد الهدنة مع الحكومة الجزائرية فكان له ذلك وفق الشروط التي وضعها شعبان آغا سنة 1663.<sup>1</sup>

وفي آذار (مارس) 1671م (1082) بعد تسع سنوات على الحملة السابقة، أعاد الأنجليز الكرة حيث أسطوله بجاية بقيادة الأميرال إ. سبراغ E. Spragg

حرق إثنتي عشرة سفينة كانت محتمية بالميناء تحت ضربات مدافع أبراجها.<sup>2</sup> وذكر المؤرخ الأمريكي جون وولف أن هذا الأميرال وجد في الميناء المذكور أسطول يتكون من سبعة سفن من أجود أنواع الإيالة، وتمكن من إضرام النار فيها، واستطاع أحد الأرقاء الهولنديين أن يسبح إلى هذا

الأسطول فوجد نحو ثلاثة آلاف ومائة رجل قدام حثفهم، وأخبر كذلك أن صناديق الجراحة التهمتها النيران وهو ما يعني أن الناجين أن يبقوا طويلا على قيد الحياة بسبب حروقهم

الخطورة، وذكر أيضا أنه لما وصلت الأخبار السيئة إلى مدينة الجزائر تسببت في حدوث ثورة<sup>3</sup> علي آغا (1665-1671).<sup>4</sup> وكانت هذه السفن تشكل ثلث القوة البحرية للإيالة حينئذ

حسب تقدير مؤرخ أمريكي<sup>5</sup>. نفس الأسطول في نفس السنة ميناء مدينة الجزائر وتمكن من إحراق ثلاثة مراكب أيضا.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> أمين محرز: الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص ص 105-106.

<sup>2</sup> عزيز سامح إلترا: المرجع السابق، ص 398.

de Grammont: op, cit, p186.

<sup>3</sup> جون وولف: المرجع السابق، ص ص 328-329.

<sup>4</sup> يقول عبد الرحمان الجيلالي تأمر أعضاء الديوان على اغتيال الآغا الحاج علي فنفذوا فيه الحكم يوم 14 جمادى

الثانية 1082 / 1671/10/19/ وتمكن بعد ذلك الرياس من الاستيلاء على الحكم وقاموا بتعيين الحاكم الحاج محمد التريكي بلقب الداوي مفتحاً بذلك نظام الدايات الذي استمر حتى الحملة الفرنسية سنة 1830

أنظر عبد الرحمان الجيلالي: المرجع نفسه، ص ص 166-167.

<sup>5</sup> المرجع نفسه، ص 142.

<sup>6</sup> محمد بن ميمون الجزائري: المصدر نفسه، ص 18. أنظر كذلك،

## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

وفي سنة 1830 قدمت سفينة إلى ميناء بجاية بناء على ماجاء في رسالة بعث بها قايد بجاية الحاج خليل إلى الداي حسين باشا مؤرخة بتاريخ 1246 / 1830 يخبره فيها أن الترميمات في الأبراج والطباين قد تمت وأن خبر قدوم سفينة أنجليزية إلى بجاية قد وصلهم وأخبره أن الأنجليز سيكفونون أدللا. لكن الرسالة لا تفيدنا معلومات كافية عن أسبب قدوم هذه السفينة التي يفهم من نص الرسالة أنها جاءت لشن هجوم على المدينة، و المحتمل أن تكون سفينة تجارية قصدت ميناء بجاية لأن ميناء مدينة الجزائر كانت تفرض عليه فرنسا الحصار البحري منذ سنة 1827 عقب تأزم العلاقات بسبب حادثة المروحة.<sup>2</sup>

إن هذه الهجمات التي كانت تنظمها الدول الأوروبية ضد الجزائر من حين لآخر تترجم في الحقيقة الصراع القوي بين أساطيل هذه الدول التي كانت دوما تسعى لتأمين الطرق التجارية في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من جهة، وكانت تسعى جاهدة لتعطيم القوة الجزائرية وبالتالي التخلص من هيمنة القراصنة الجزائريين ومن الضرائب الثقيلة التي كانت هذه الدول الجزائرية مقابل حماية سفنها التجارية.

لقد كان على الحكومة الجزائرية أن تقوم بتعويض هذه الخسائر التي تكبد الأسطول البحري بأسرع ما يمكن، لأن قوة الإيالة ومكانتها الدولية مرهونة بقوة الأسطول، فأبى ضعف في الأسطول ستكون عواقبه وخيمة على الإيالة لا محالة كما وقع في أوائل القرن التاسع عشر.

ومهما يكن من أمر فإن بجاية كما يقول أبو القاسم سعد الله ورغم الة التاريخية التي إلا أنها لم تتمتع خلال العهد العثماني لا بإمكاناتها السابقة ولا بوضع جديد خاص، وقد حل بها المهاجرون الأندلسيون كسائر المدن الجزائرية الساحلية الأخرى، والذين استفادت المدينة من تواجدهم بما كما سبقت الإشارة إليه، ولكن يبدو أن الاحتلال الإسباني قد حطم حاضرها

Eugène Plantet: **Correspondences des Rois d'Alger avec la cour de France 1579-1833**, T, I, Pris, 1889, p67.

<sup>1</sup> الأرشيف الوطني الجزائري، سجلات بيت البايك، ملف 3205، وثيقة رقم 102.

<sup>2</sup> حول الحصار البحري على مدينة الجزائر راجع، ناصر الدين سعيدوني: الحصار البحري أنظر كذلك:

Moulay Belhamissi : « les grands dossiers de l'histoire, le blocus d'Alger (1827-1830) ». p11.



## الفصل الثاني:-----السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

ومستقبلها، ذلك أن العائلات البجائية الكبيرة احتفت أو كادت تحتفي خلال العهد المذكور، ورغم تلك الظروف إلا أن المدينة من جهة أخرى ظلت تحتفظ بمكانتها التجارية والعلمية بالنسبة لسكان زواوة الذين كانوا يقصدونها للتجارة، حيث كانت بالنسبة لهم العاصمة السياسية والاقتصادية وحاضرة للعلم، كما كانوا يتوجهون انطلاقاً منها إلى قسنطينة طلباً للعلم<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830 ج 2 ص 174.

# الفصل الثالث: السكان وبيئتهم

## الاجتماعية والثقافية والصحية

المبحث الأول: أصل سكان بجاية ونواحيها

المبحث الثاني: الفئات الاجتماعية

المبحث الثالث: نشاطات السكان

المبحث الرابع: المؤسسات الثقافية والدينية ودورها في بجاية

ونواحيها

المبحث الخامس: الأحوال الصحية في بجاية ونواحيها

### المبحث الأول: أصل سكان بجاية ونواحيها

قبل الخوض في موضوع علاقة السلطنة العثمانية في بجاية خلال العهد العثماني مع السكان وعلاقة سكان هذه المنطقة وجب علينا البحث في أصل السكان وتركيبهم ونشاطهم والعلاقات بين السكان الحضر وسكان الفضاء الريفي، وكذا علاقة القبائل ببعضها البعض.

ينحدر سكان منطقة القبائل حسب ابن خلدون من القبيلة الكبيرة صنهاجة التي تفرعت عنها قبيلتان: وهما زواوة التي فضل سكانها الاستقرار في المنطقة الممتدة من جزائر بني مزغنة إلى خليج بجاية الغربي، في حين استقر سكان قبيلة زواوة في المنطقة الواقعة بين بجاية وتادلس (دلس) واختيار هذه المنطقة صعبة التصاريح كان بغرض التحصن بما من الأعداء، حيث سهولة الاحتماء والدفاع.<sup>1</sup> وبهذا تكون حدود قبيلة كتامة من بجاية غربا إلى القل شرقا، وتمتد حتى جبال الأوراس جنوبا، ومن أهم مدنها إقجان وسطيف وبغاية ونقاوس، وبلزمة وميلة وقسنطينة وسكيكدة وجيجل.<sup>2</sup> ويميل المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلى اعتبار الأمازيغ كنعانيين من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، فالكنعانيون ليسوا عربا، وليسوا من أبناء سام.<sup>3</sup>

سكان بجاية ونواحيها من قبيلة زواوة البربرية حسب من كلام ابن خلدون الذي ذكر أن زواوة بطن من بطون كتامة، وهي من أكبر بطون البربر ومواطنهم من بجاية إلى تادلس في جبال شاهقة وأوعار متسمة، ولهم بطون وشعوب كثيرة، ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة، وقال ابن خلدون عن الزواوة إذا تنازعت قوتان بالمغرب أمرا من الأمور فإن الأغ والفوز لجانب الزواوة، والنصر حليفهم والإقدام دينهم والثبات شأنهم.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق، ص 345.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 346.

راجع كذلك:

Gaid : Histoire de Béjaia...

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 347.

<sup>4</sup> أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة تعليق سهيل الخالدي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2005 ص 95.

### 1- التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد:

يسود المنطقة المحيطة ببجاية النظام القبلي الذي كان سائدا منذ القدم والذي تدعمه بالتعاليم الإسلامية، واستمر العمل به في ظل الحكم العثماني، ولم يكن هذا النظام يختلف عما كان سائدا في مناطق أخرى كزواوة وغيرها،<sup>1</sup> وهو يقوم أساسا على حكم الجماعة،<sup>2</sup> حيث عمل الأتراك على احترامه واستمراره، ودعموه بالتحالف مع المرابطين، وشيوخ القبائل الذين كانوا يمثلون السكان،<sup>3</sup> ويحكم سكان هذه المنطقة إلى قوانين عرفية قديمة أساسها العدالة والمساواة بين الجميع فلا تمايز بين الناس حيث يخضع الجميع لقانون واحد يضمن للجميع حريته وحقوقه كما كان على الفرد واجبات عليه القيام بها، إنه نظام جمهوري ديمقراطي في اختيار القائد أو الشيخ أو رئيس القبيلة.<sup>4</sup>

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحكام الأتراك منذ إلحاق الجزائر بسلطة الباب العالي حافظوا على التركيبة السياسية في الإقليم، حيث تركوا الحكم للزعامات المحلية، واحتفظوا هم بالحكم في المدن الكبرى كمدينة الجزائر وقسنطينة والمدينة وغيرها، أما في الأرياف والبوادي فكانت السلطة الفعلية بيد شيوخ القبائل، وزعماء العشائر والمرابطين رؤساء الزوايا وأصحاب الطرق الصوفية.<sup>5</sup> وفي هذا السياق يقول لو روي le Roy " منطقة بجاية بأنظمة جمهورية حقيقية يسودها القانون ويتمتع الجميع بالمساواة، ولا مجال للفردية فيها إذ الأفضلية في القوانين العرفية التي تحكم السكان للجماعة على حساب الفرد".<sup>6</sup>

ونظام الجماعة هذا رغم بدائيته، وبساطته، إلا أنه ساد في الأرياف الجزائرية لعدة قرون وهو نظام عريق ومتجذر في المنطقة، إذ تمتد جذوره العريقة إلى ما قبل الفتح الإسلامي بحقبة

<sup>1</sup> أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري..، ص58.

<sup>2</sup> لمعلومات أكثر حول تجمعات راجع، حسين بن شيخ آت ملويا: المرجع السابق، ص 54 وما بعدها.

<sup>3</sup> Pierre Hacoun Compredon : **Etude sur l'évolution des coutumes Kabyles**, Alger, J. Garbonel, 1921, p39.

<sup>4</sup> Jean le Roy : op, cit, pp2-3.

<sup>5</sup> Boulifa: op, cit, p55.

<sup>6</sup> Jean le Roy : Ibid, p210.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وهناك عدة أسباب وراء تجذر هذا النظام أهمها، سيطرة الغزاة المتعاقبين على السهول و الأحواض الخصبة، وفرار السكان الأصليين إلى الجبال وعلى الأخص في العهدين الروماني و الوندالي. <sup>1</sup> و كانت الجماعة تَنْتَحِبُ مرة في السنة من يرأسها ويسمى أمقران "الكبير" أو أمغار "الشيخ"، على يد جمعية عامة يحضرها ممثلون عن كل سكان القرية أو القبيلة، ولم تكن مدة صلاحيته تتجاوز السنة وهي قابلة للتجديد، وتختار الجماعة ممثلها في مجلس العرش، ومن الطبيعي أن تكون هناك شروطاً لاختيار هذا العضو، كرجاحة العقل والشخصية القوية و سداد الرأي، والعلم والتحلي بالصفات الفاضلة، وهناك بعض الأسر كانت تحتكر الرعامة في القبيلة التي يمكنها ان توسع نفوذها إلى مجموعة من القبائل والاعراش، كاسرة بن القاضي وأسرة المقرانيين وبن علي الشريف وأورابح وغيرها من الأسر الكبيرة التي كانت تبسط نفوذها على السكان، وكانت مد قوتها من ثرائها، أو من نسبها الشريف، ولعل الغرض من تشكيل هذا المجلس هو لتحقيق المصلحة العامة، كالمصالحة وفض النزاعات بين القرى، أو لدراسة مسألة دينية أو اتخاذ موقف سياسي اتجاه السلطة أو حدث سياسي هام.<sup>2</sup>

وكان السكان في كل قرية يخضعون إلى العادات والتقاليد في تنظيم شؤونهم والعلاقات فالقانون العرفي إذن يمثل القوانين المتعارف وهي تشكل القانون المدني والقانون الجنائي والقانون الإداري والعسكري، وتنفيذ الأحكام كان صارماً.<sup>3</sup> رسخت في وسط المجتمع في بحاية ونواحيها عادات وتقاليد منذ القدم، توارثتها الأجيال أبا عن جد وتجددهم يحرصون على استمرارها، ومن ذلك عادة الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، والاحتفال بيوم السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر)، وكذا الاحتفالات بالعيدين الأضحى والفطر.

وعلى الرغم من أن المصادر التي بحوزتنا لا تفيدنا بمعلومات وافرة عن ظاهرة الاحتفال د الدينية في هذه المنطقة، لكن يمكن الاعتماد على المصادر اللاحقة لأن الاحتفال بهذه الأعياد تواصل واستمر خلال الفترة الاستعمارية، فالسكان كانوا يولون لهذه الأعياد العناية

<sup>1</sup> علي خنوف: المرجع السابق، ص 14 .

<sup>2</sup> محمد أرزقي فراذ: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل، الجزائر، 2006، ص 169.

<sup>3</sup> حسين بن شيخ آث ملويا: المرجع السابق، ص 56.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

والاهتمام، فلم يكونوا يفوتون فرصة الاحتفال بها،<sup>1</sup> ولم تكن مظاهر الاحتفال تقتصر على بحاية ومناطقها فقط، بل كانت تشمل كل البلاد الإسلامية.

ويأتي الاحتفال بـ المولد النبوي الشريف في مقدمة الاحتفالات الدينية والفردية، حيث كان يُولي له السكان العناية الكبيرة والاهتمام لما لها من قدسية ومكانة في نفوسهم، وذلك من خلال الإعداد والتحضير لهذه المناسبة، وما يميز الاحتفال بهذا اليوم هو حرص السكان على إشراك الأولياء والصالحين في طقوسه.<sup>2</sup> وفي "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" لابن عمار وصف لجانب من الاحتفالات التي كانت تعرفها مدن الجزائر خلال العهد العثماني ونحسب أن هذا الوصف ينسحب على مدينة بحاية وقراها المشهورة بكثرة زواياها وأضرحتها، وما تسميتها بمكة الصغيرة لدليل على تمسك سكانها وعلى رأسهم علمائها وطلابها بأهداب الدين الإسلامي ول ابن عمار: " هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر، حرسها الله من الفتن وأحاطها من الدوائر، أنه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة، وعليه المعمول إلى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات يلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرأونها بالأصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجالس المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظيمة، من المساجد والمكاتب والمزارات وهم في أكمل زينة وأجمل زي وأحسن شارات تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام واحتفالاً بمولده عليه الصلاة والسلام".<sup>3</sup>

<sup>1</sup> A.Prignet : **A travers l'Algérie (province de Constantine et Kabylie)**, Paris, 1914, p166.

<sup>2</sup> Nedjma Abd el fettah Lalmi : **la Ville, l'urbanité et l'autochtonie, analyse de représentations dans les discoure sur Béjaia**, université de Béjaia, 2000, p256 et ,et suites.

<sup>3</sup> ابن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، الجزائر، 1904، ص 27.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

كان استقبال شهر الصيام وعيد الفطر من أبرز المظاهر الاحتفالية في الجزائر عامة وفي بجاية ومناطقها بصفة خاصة، حيث كان ويولي السكان لهذا الشهر الفضيل الاهتمام الأكبر من بين أشهر السنة الأخرى، فنجدهم يستعدون لاستقباله بأيام قبل حلوله، وقد أورد الكاتب جون لو روي أن الاحتفالات بعيد الفطر كانت تبدأ عادة من اليوم 22 إلى 25 من شهر رمضان، إذ روى له بعض السكان، أن المدينة كانت تعرف تجمع حشد كبير من الزوار الذين كانوا يترحون من المناطق الجبلية المجاورة يصل عددهم إلى 20 ألف زائر مختلف الفئات رجالا ونساء وأطفالا، كانوا يأتون للمشاركة في الاحتفال وإقامة الصلاة بالمدينة المقدسة حيث كانت هناك عين يتوضأون من وقت العشاء إلى الفجر في ليلة السابع والعشرين ولم يبق من أثر لهذه العين سوى الساحة التي لاتزال تحتفظ بتسمية " وعشرين" إلى يومنا هذا. وكانوا يؤدون الصلاة جماعة عند سفح جبل خليفة،<sup>1</sup> وقد استمر هذا التقليد حتى العهد الفرنسي حسب ما أشار أحد الكتاب الفرنسيين.<sup>2</sup>

ويصف لنا فيرو هذا المشهد الاحتفالي بنوع من الإعجاب في قوله: "وجه جموع الناس إلى المساجد والزوايا وزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، حاملين المشاعل في أيديهم في وكان الإعلان عن نهاية شهر الصيام و دخول عيد الفطر يتم بإطلاق قذيفة من مدفع القصبه الكبير، فيتردد دوي المدفع في كل حي فتضاء المدينة بالأنوار، وعند كل مسجد وقبة كل ضريح وزاوية مع النسوة وهن يرددن المدائح الدينية، وتُشعل الشموع والبخور، و الأماكن المقصودة بالزيارة سيدي محمد أمقران، وسيدي التواتي، وسيدي يحي، وسيدي حيث يوجد منبع يسميه السكان "بير السلام" يعتقدون أن الاغتسال به يمحو الذنوب يشفي الأسقام، و سيدي عبد الحق الإشبيلي وغيرهم من أولياء المدينة و ها، ويقوم هذا الحشد من المحتفلين بعد صلاة العيد بالصعود والترول إلى أمسيون لزيارة يما —ورايا وهم يلوحون بالأعلام المختلفة الألوان والتي يكون عددها مثل عدد الحشد وهو مشهد

<sup>1</sup> Jean le Roy : op, cit, p63.

<sup>2</sup> F. Biziou: **Bougie, Monographie, Productions, Commerce , Industrie, Minéralogie**, Imp, Comité Agricole de l'Arrondissement de Bougie, Bougie, 1900, p 17.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

رائع.<sup>1</sup> وحتى الأطفال كانوا يشاركون في هذه الطقوس حيث يلعبون ويشعلون النار داخل علب صغيرة يوثقونها بخيط ويحركونها في الهواء دائري، فتبدو الشعلة للعيان كأنها دائرة من النار، ولا تزال هذه اللعبة منتشرة إلى يومنا هذا في بعض المناطق.<sup>2</sup>

ومن أبرز العلماء الذين ترددوا على بجاية ودرسوا في معاهدها وجوامعها في ذلك العصر سيدي محمد بن عبد الرحمان الأزهري<sup>3</sup> (بوقبرين) مؤسس الطريقة الرحمانية في الجزائر أنه كان صوم رمضان في بجاية، عادة علماء زواوة، وهو تؤكد رواية الشيخ الجعدي الذي يقول: "...و مجالس العلم والوعظ، وكان اليوم الـ رمضان بها.<sup>4</sup> وكان الشيخ الحسين الورتلاني<sup>5</sup> من أبرز العلماء الذين حذو حذو علماء زواوة الدينيين فكان يقضي هو الآخر شهر رمضان من كل عام في بجاية كما قال هو عن نفسه في رحلته، فذاع صيته واشتهر أمره وكثر زواره حيث كانوا يأتوه من كل الجهات للنهل من علمه والاعتراف من معارفه.<sup>6</sup>

ومن خلال تردد علماء زواوة على بجاية على عادة الأجداد يمكن أن نستنتج أن الحياة الثقافية فيها كانت مزدهرة، وهذا ما نلمسه من حديث الورتلاني عن زيارته لها

<sup>1</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p.144

<sup>2</sup> Féraud: op, cit, p226.

<sup>3</sup> هو محمد بن عبد الرحمان الجزولي لأزهري، من أشهر المرابطين في الجزائر، يُشتهر بلقب بوقبرين لمزيد من التفاصيل يُنظر، Rinn: **Marabouts et Khouans...**، وكذلك أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1. و عبد المنعم قاسمي الحسني: الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى الحرب العالمية الأولى، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008-2009.

<sup>4</sup> محمد الجعدي: الشيخ الأزهري مخطوط الوطنية، ورقة 2.

<sup>5</sup> على الرغم من الزيارات السنوية المتكررة التي أشار إليها الورتلاني لبجاية في رحلته إلا أنه لم يعطنا صورة واضحة وجليّة عن أحوال بجاية ونواحيها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا واكتفى بذكر أولياتها وزيارة الأضرحة بها، فلو اهتم بتدوين ما رأت عيناه وشاهدت لأمكنه أن يزودنا بمعلومات قيمة وذات فائدة كبيرة ورة عن بجاية في العهد العثماني.

<sup>6</sup> أنظر الورتلاني: المصدر السابق، ص 19.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

يقول: "...بعد ذلك عرض لي أمر أوجب لي السفر لوادي بجاية فلما ذهبت إلى الوادي سمع بي جماعة من العلامة الفاضل قاضيها تلميذنا سيدي أبو القاسم نجل الكامل سيدي إبراهيم والفقير المفتي سيدي محمد والمعظم الأجل قائدها أحمد السطمبولي محب الخير وأهله وكان والده السطمبولي تاب على أيدينا رحمه الله أمين، ووصلت إلى أولاد سيدي محمد أمقران في محلهم إذ هم أنسابي... وكنت كل عام أصوم رمضان في بجاية ناويا للرباط مع تعليمي الطلبة راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم حقق الله رجائي بمنه وكرمه ، وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة وتوجهت إلى زيارة الشيخ سيدي أحمد بن معمر الوالي الكامل والليث الفاضل لما كنت نسمعه أن من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها والعياذ بالله تعالى.."<sup>1</sup>.

ويعرف عن الورتلاني ولعه زيارة أضرحة الأولياء والصالحين فما من بلدة زارها إلا وكان للأضرحة نصيب في زيارته كما ذكر في رحلته حيث يقول: "...وبعد ذلك دخلت بجاية وزرت الشيخ سيدي الصوفي ولم أحفظ من أمره شيئا إلا أن أهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم وأنه من أهل التصريف في بجاية نفعنا الله به أمين، ثم توجهت لزيارة خلوة الشيخ عبد القادر، وخلوة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي الكائنتين في برج اللؤلؤة... وزرت الجامع الأعظم القديم القريب من تلك الخلوة، ومن البرج المذكور الذي كان فيه تسعون مفتيا إذ قال الشيخ أبو علي المسيلي، دخلت بجاية فوجدت فيها تسعة وتسعين مفتيا أي في الجامع الأعظم وكان كل واحد لا يعرف أبا علي من أي ناحية كان، ثم بعد ذلك توجهت إلى الشيخ عبد الحق الإشبيلي ويقال له اليماني ويقال له أيضا البجائي وهو الذي ألف العاقبة وقبره خارج باب المرسى القديم طريق أبي زكرياء الزواوي"<sup>2</sup>.

<sup>2</sup> الورتلاني: المصدر نفسه، ص25.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكان السكان يربطون أفراح بزيارة أضرحة الأولياء، وكانوا يقيمونها بهذه الأضرحة من خلال إشعال الشموع والبخور، وبما كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية<sup>1</sup>.

و بخصوص العادات والتقاليد نكاد نجد ا كبرا بين عادات سكان بجاية ونواحيها وباقي مناطق الإيالة الجزائرية عموما، فحياة الرجل القبائلي على العموم تمتاز بالبساطة، فهو يملك عادة ثورين وحمار فالثوران كانا يستخدمان في الحرثة والحمار يستخدم في وحمل الأثقال وفي ال كان يقتني البندقية التي تعتبر شيء مقدس عند سكان القبائل والعرب عامة، ويلاحظ أن السلاح الناري أصبح في متناول السكان بداية من القرن الثامن عشر حسب ما أشار إليه جون وولف،<sup>2</sup> وفي الظروف العسيرة يضطر إلى بيع الثورين والحمار، لكنه لا يمكنه يتخلى عن البندقية مهما ساءت الأحوال. فهي كثر ثمين لا يمكن التفريط به.<sup>3</sup>

وكان سكان القبائل سُنيون على المذهب المالكي، منذ اعتناقهم الدين الإسلامي.<sup>4</sup> وتتميز منطقتهم بكثرة الطرق الصوفية والزوايا التي كانت تهتم بتحفيظ القرآن والسنة الشريفة للأجيال، ومن خصائصهم المحافظة على صلة الرحم والنسب والصهر، ومن عاداتهم عدم التزوج من إماء سود وعدم تزويج بناتهم من أجنبي حفاظا على نسلهم، ولا تسمع كلمة فحش بين أعضاء الأسرة والأقارب والأنساب، وإذا كان أحدهم مع المرأة فيكون محترما فلا يؤذى ولا يسمع من الكلام ما لا يرضيه.<sup>5</sup>

ويذكر النقيب كاريت أن سكان بجاية وقبائلها كانوا عميورين على حريتهم، محبوبون للعمل والتفاني فيه، ميالون إلى الاستقرار.<sup>6</sup> ولعل من الخصائص التي ظل السكان متمسكين بها ظاهرة

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدوني: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، نشر في:

-international congress on learning and education in the Ottoman world, Istanbul, 12-15 April, 1999, p 28.

<sup>2</sup> جون وولف: المرجع السابق، ص 390.

<sup>3</sup> Rozet et Carette: op, cit, p 56.

<sup>4</sup> Nedjma A. Lalmi : **la ville, l'urbanité...**, p253.

<sup>5</sup> أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص 108.

<sup>6</sup> Carette: **la grande Kabylie...**, p 67.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الحفاظ على الشرف والثأر، حيث يسود قانون محلي ينص على أن القاتل يجب أن يُقتل، ويظل الثأر يُطارده مهما غادر القبيلة أو القرية أو الدشرة، وإذا قُتل الأب وترك ولد صغير في السن تحتفظ والدته باسم القاتل حتى يكبر الولد فتسلمه البندقية، وترسله للثأر من قاتل أبيه، أما إذا ترك بنتا فإن الوالدة تزوجه لمن يثأر لوالد الطفلة.<sup>1</sup> ويظل العار يلحق بالإبن مدى الحياة إن هو لم يثأر . وقد أشار الأسير الألماني إلى ذلك في قوله: " وكان سكان القبائل عندما يصادقون أحدا فان صداقتهم تتسم بالصدق والوفاء، وفي الإمكان الاعتماد على ما يعدون به، وهم يبنذون الخبث والنفاق، ولكنهم يصبحون شديدا العدا حين يثأرون،"<sup>2</sup> وهي عادة جاهلية لا تمت بصلة للدين الإسلامي، وتعتبر نقطة سوداء في سلوك السكان بهذه المناطق. ولا شك أن العلماء والمرابطين نبذوا هذا التقليد.

و تنتشر بين السكان الكثير من مظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي نذكر منها من عادة حميدة تقام عند نضج الثمار، حيث كان يُستدعى كل أصحاب المزارع والحقول إلى مسجد القرية ويُقسم الجميع تقدم معونات للفقراء من الثمار حين يقطفونها، ومن يمتنع عن القسم تُفرض عليه دفع الخطية (غرامة )، ويتم إعداد قائمة بأسماء الفقراء في القرية حيث يتناوب الملاك على إعالة حتى تنتهي فترة جني المحصول وتكرر العملية عند جني المحاصيل الأخرى.<sup>3</sup> ولعل من الصفات التي كان يتحلى بها السكان كما أورد أبو يعلى الزواوي في " أنهم ون بشدة الحياء والحفاظة على العرض والصبر على الشدائد واحتمال المكاره، والكد والجد في سبيل الأسرة والحياة الأهلية والجماعية والعصبية"<sup>4</sup>، وقد أشار ابن خلدون قبله إلى هذه الصفات في مقدمته الشهيرة حين قال عنهم: "وأما تخلقهم بفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه مرفاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء بين الخلق، من عز الجوار وحماية التريل ورعي الذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره والثبات في الشدائد، وحسن الملكة والإصغاء في العيون، والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير،

<sup>1</sup> M. Mauroy : op, cit, p391.

<sup>2</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 145.

<sup>3</sup> M. Mauroy : Ibid, p387.

<sup>4</sup> أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص104.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وتوقير الدين وحمل الكل وكسب المعدوم، وإكرام الضيف والإعانة على النواذب، وعلو المهمة وإبابة للضميم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملوك وبيع النفوس نمن الله في نصر دينه.<sup>1</sup> وقد أورد ليون الإفريقي بعض صفات البربر المقيمين في نواحي بجاية فذكر أنهم غيورون أقوياء سابقون للحير يرتدون كلهم تقريبا لباسا مناسبا.<sup>2</sup>

وجاء كلام بيليسي دو رينو يؤكد مقاله الرحالين المعاصرين لجيئ الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مثل ليون الإفريقي و مرمول ، حول بعض طباع السكان، حيث يقول إن سكان بجاية ونواحيها يميلون إلى الاستقلال وعدم الخضوع لأية سلطة،<sup>3</sup> وهم محصنون في الجبال الوعرة، ومستعدون للدفاع عن حريتهم بكل طاقاتهم، وكانوا بطبعهم متمردون ينقادون بسهولة لكل تائر وكانوا مستقلين في العهد العثماني.<sup>4</sup>

وفيما يتعلق بمكانة العلماء والشيوخ الدينيين في وسط المجتمع فقد ذكر أبو يعلى الزواوي : "ومن محاسنهم الانقياد للعلماء والشرفاء و المرابطين والصالحين، يحترمونهم ويطيعونهم ويخدمونهم خدمة صالحة جليلة، ويلتزمون لهم بالعطايا من أرزاقهم وأمواهم عن طيب نفس رجاء رضائهم وبركاتهم، وطلبوا لدعواتهم لهم بالخير والصلاح".<sup>5</sup> وتحدث عنهم سيمون بفايفر في : "وهم يجلون شيوخهم، بصفتهم آباؤهم وقضاهم، ولا يعترفون بغير سيادتهم، فلا يبالون بالباي أو الداى". ومن صفاتهم "الصراحة وحسن العهد، إذا قالوا أو بايعوا أو عاهدوا وفوا، فلا حيانة ولا غدر، ولا خداع".<sup>6</sup> وكانوا يطعمون البائس الفقير ويكرمون الضيف خاصة إن كان

<sup>1</sup> عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق ص 644.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 101.

<sup>3</sup> Filippo pananti: op, cit, p154.

<sup>4</sup> Pélissier de Reynaud: **Annales algériennes**, T1, librairie Bastide, Paris, octobre 1954, p 4.

أنظر كذلك:

A. Temimi: op, cit, p55.

<sup>5</sup> أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص 105.

أنظر كذلك، حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 109.

<sup>6</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 141.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

أجنيبا، ويخضعون للتحكيم مهما كان حكمه، ويحسون ترتيب الكلام عند الخصام دعوى وجواب، وإن كانوا كثيرين في القضية فلا يتكلم إلا إثنان واحد عن كل فريق، وليس فيهم شيء من عيب أعراب إفريقية الذين يتكلمون في الخصام كلهم دفعة واحدة فتكثر الفوضى حتى لا يكاد الحكم يفقه شيئا من قولهم.<sup>1</sup> وكانوا يشتهرون بالأعاج خاصة للنظر في شأن من شؤونهم الدنيوية أو الدينية، فلا يتأخرون عن الجماعة، ولهم قوانين شرعية وأخرى وضعية لا يتهاون بها أحد، ويلتزم الجميع لحكم وقرار هذه الجماعة ولا يجيد عنها إلا ولحق به العار". وفي أثناء الحروب كانوا "نازون بالروح العسكرية القتالية والخدمة الجندية من أجل قضية تخص القبيلة أو حلف القبائل، فعرفوا في ميادين القتال بالشجاعة والبسالة من أجل قضاياهم العادلة، متمسكون بحريتهم غيورين على سيادتهم، فعند خروجهم للقتال كان يتقدمهم شيخ القبيلة، وينطلقون بعد الاستعداد والقسم على المضي قدما حتى تحقيق الهدف وعدم التقهقر،<sup>2</sup> وكانت زغاريد النسوة وتشجيعاتهن تصاحب خروج المقاتلين الذين يأتمرون بأوامر<sup>3</sup>. فكانوا لا يتراجعون في ساحة الوغى، إما الأمانة أو المذنبون ذلك عندهم عار والعار أكبر من النار حسب تقاليدهم.<sup>4</sup> وقد اعترفت فرنسا لهم بهذا الفضل، وبهذه الخصال، إذ واجهت مقاومة شرسة في محاولاتها التوغل إلى منطقتهم بالقوة. ولعل قوتهم وشجاعتهم جعلت الأتراك يستعينون بهم في ترسيخ وجودهم في الجزائر بصفة عامة وفي منطقة بجاية بصفة خاصة. وكان عداؤهم للأجانب بسبب نزعتهم الاستعمارية فقد روى الرحالة الألماني هينشترائت (J.E Hebenstreit) أنه تعرض هو ومن كان معه إلى الاعتداء على يد السكان في بجاية، بسبب أن السكان كانوا يعتقدون أن كل الأجانب المسيحيين ما هم إلا جواسيس، جاؤوا إلى هذه البلاد ليئتهدوا الطريق لحكوماتهم لتسهيل عملية

<sup>1</sup> أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص 106.

<sup>2</sup> Gean de la Fay et autres: **Relation en forme de Journal d'un Voyage pour Rédemption des Captifs au Royaume de Maroc et d'Alger, pendant les années 1723, 1724, 1725**, Édition : L. Sevestre, Paris, 1726, p269.

<sup>3</sup> Jean le Roy : op, cit, p63.

<sup>4</sup> أبو يعلى الزواوي: المرجع السابق، ص 108.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الغزو، ولم يكونوا يُصدّقون أنهم جاؤوا لأغراض علمية أو سياحية.<sup>1</sup> ولنا مثال في قصة العالم الفلكي الفرنسي فرانسوا أراغو الذي أجبرته الظروف للمكوث في بجاية لعدة أيام فكان لا يستطيع مغادرة سور المدينة بسبب الروح العدائية للسكان ضد كل رومي، وسعود لهذا العالم في الفصل الرابع من البحث.<sup>2</sup>

وذكر لو روي أنهم كانوا يحبون أكل اللحم ولهم عادة تمثل كل سكان الدشرة أو القرية من تذوق هذه المادة العزيزة على النفوس، تمثل في القيام بتقسيم لحم بقرة أو عجل أو أي حيوان يتعرض لحادث يجعل منه عديم الفائدة، فيقسمونه إلى قطع صغيرة ثم يوزعونه على سكان القرية أو القبيلة أو الدشرة، ويسميها السكان في لغتهم البربرية "تيمشروط" أو "الوزيعة" عند العرب، وهي مناسبة طيبة للسكان ولا سيما منهم الفقراء كما تعد فرصة للذين يحبون الشغب وإثارة المشاكل، حيث يقومون بالاحتجاج على كمية اللحم التي يحصلون عليها مما كان يتسبب في حدوث فوضى ومناوشات يصطنعها هؤلاء المشاغبون، لا تتوقف إلا بتدخل وجهاء القرية أو مرابطها.<sup>3</sup>

وتعتبر التوزيع أكثر أشكال التضامن القبلي والقروي شهرة وهي كثيرا ما تجد الفرصة في الظهور في أملاك الأوقاف وفي مواسم جني الغلات الزراعية ويلاحظ أن الأب أو الأخ الأكبر هو من يمثل أفراد أسرته في الأعمال التي تقام في القرية وفي الاحتفالات وكذا الاجتماعات التي تعقد من أجل القيام بعمل جماعي كوضع أساس بيت أو تصليح الطرقات أو الزوايا أو العيون وغيرها من الاعمال التي كانت من مسؤولية السكان في ظل غياب تكفل الدولة في الأرياف بهذه المهمة.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> هو رحالة وطبيب ألماني وصل إلى مدينة الجزائر ومناطق عديدة منها قسنطينة وبجاية عام 1732، أرسله أوغست الثاني أمير سكسونيا وملك بولونيا فيما بعد، إلى البلاد البربرية ليحلب له المزيد من أعاجيب الطيور والحيوانات الإفريقية. مجموعة الحيوانات، وقد تنقل هذا الرحالة في إيلات الجزائر وتونس وطرابلس. لمزيد من المعلومات راجع

<sup>2</sup> François Arago : op, cit, p7.

<sup>3</sup> le Roy: op, cit, p63.

<sup>4</sup> محمد : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في للجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

### المبحث الثاني: الفئات الاجتماعية:

يقول مولود قايد أن مدينة بجاية خلال العهد العثماني شكلت تنوع إثني فعلاوة على سكان القبائل يوجد الأندلسيون والأتراك والكراغلة وكان التعايش والانسجام يميز العلاقات الاجتماعية بين مختلف الفئات ترجم بالمصاهرة، وكانت اللغة القبائلية هلى اللغة الجامعة إذ تعلمها الكل وأصبحت اللغة الأم حتى بالنسبة لأولئك الذين كانوا يجهلونها<sup>1</sup>.

وكانت بجاية تحت الحكم العثماني ملجأ وملاذ الأتراك المتقاعدون مدنيين أو عسكريين، كما كانت منفى لفئة المعارضين والمشايخين وحتى الكراغلة، هذه الفئات التي كانت مصدر إزعاج فكانت السلطة تقوم بالحكم بالنفي إلى بجاية لكل من يثير المشاكل في مدينة الجزائر أو يتحول إلى مصدر قلق وإزعاج للسلطة، وقد امتد الأمر أحيانا إلى البشوات الذين كان عزله ويُخشى إثارهم المشاكل ولم تكن للسلطة رغبة في قتلهم، كما حدث للداي حسين الشريف (1705-1707) الذي قام الداي محمد بقطاش باشا بنفيه إلى بجاية 1707

القارب الذي كان على متنه تعرض لحادث قرب ميناء تامقوت في نواحي أزفون (غرب بجاية) وكان هذا الميناء تحت نفوذ إمارة كوكو، فاقتاده السكان القبائليين إلى مقر الإمارة بعد أن انتزعه من الأتراك، وبقي في إمارة كوكو حتى توفي ودفن في المنطقة<sup>2</sup>. وكانت معاهد بجاية وناحيتها وزواياها لعلماء وطلاب العلم، فضلا عن التجار وأصحاب الحرف.

ورغم أن سكان بجاية حسب مولود قايد كانوا لا يزوجون بناقهم لغير البربر إلا أن حالة التعايش والتسامح بين مختلف الفئات الاجتماعية كانت ظاهرة متميزة في المدينة، دون حدوث أية مشاكل<sup>3</sup>. وكان سكان بجاية يتألفون بالدرجة الأولى من القبائل البربر، والعرب والأندلسيين والأتراك والكراغلة واليهود والطائفة المسيحية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p.74

<sup>2</sup> Albert Devoux: « Enlèvement d'un Pacha par les Kabiles », **RA**, n°13, 1869, p 462.

<sup>3</sup> Naima Mahindad: **op, cit**, p59.

<sup>4</sup> Gaid : **Ibid**, p76.

1- البربر:

كان البربر يشكلون أغلبية سكان مدينة بجاية، أما في النواحي فكل السكان بربر أمازيغ،  
لغة واحدة هي اللغة الأمازيغية، ويتوزعون في شكل قبائل وأعراش، ويخضعون كما  
سبقت الإشارة إلى نظام الجماعة الذي ينظم شؤونهم المختلفة، حرص الأتراك على احترامه.<sup>1</sup>

وكانوا يختارون الأماكن الأكثر مناعة في وضعيات دفاعية عند قمم الجبال لإقامة القرى دون أن  
يضطروا إلى إحاطتها بالأسوار أو بالخنادق كما كان شائعا وقتئذ.<sup>2</sup> "وكانوا يضعون وشما في  
خدمهم يمثل صليبا أسود". حسبما أورد ليون الإفريقي<sup>3</sup> ونجد الكلام نفسه يردده المؤرخ  
الإسباني مرمول الذي يقول: "وسكانه من زاوارة ممن ينقشون وشم الصلبان في أيديهم، وهم قوم  
يتميزون بالإقدام، ولكن تبلغ بهم الشراسة حد التقاتل فيما بينهم لأنفاه الأسباب، وجباهم الوعرة  
مانعة لمن يريدهم بعسف أو بضرر، فلا تجدهم يدينون بالطاعة لغير رئيس يتفقون على تقديمه، وفي  
هؤلاء البربر كثير من الفرسان الذين يتقنون القتال ببنادق البارود، وهم لا يعلفون إلا قليلا من  
الخيال لأن أرضهم محجرة قليلة الخصب".<sup>4</sup>

إن إشارة كل من ليون الإفريقي ومرمول إلى الوشم الذي كان السكان يحملونه لا علاقة  
بالصليب كما يدعي الكتاب الفرنسيين، مما قد يوحي بأن له بعد مسيحي، والحقيقة أنه لا علاقة  
له بالمسيحية وإنما هو شكل اعتاد السكان على وضعه، وإلى عهد متأخر كان يستخدم في الوشم  
في مناطق عديدة من القطر الجزائري.

وسجلت المرأة حضورها القوي في الحياة اليومية لسكان بجاية ومناطقها، خلافا لما يشاع  
من أن المجتمع الجزائري هو مجتمع الرجل، فإن المرأة قد لعبت فيه دورا أساسيا في الميدان  
الاقتصادي والاجتماعي وحتى السياسي والثقافي، فالمرأة الريفية كانت تقوم بمعظم الأعمال التي

<sup>1</sup> Alain Mahé : op, cit, p127.

Gaid : les Berbères dans l'histoire..., p21.

<sup>2</sup> le Roy : op, cit, p35.

<sup>3</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 101.

<sup>4</sup> مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص 384.



## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

هي غالبا من اختصاص الرجل، ومن ذلك الحرث والسقي وعلف الحيوانات وغيرها، وكانت بالطبع تربي الأولاد وتقوم بأعباء المنزل، كما كانت تنتج ملابس الأسرة من برانيس وقنادير ومناديل، بالإضافة إلى نسج الزرابي والحياك وغيرها من وسائل التجارة. ومن جهة أخرى كانت المرأة الريفية تشترك في الحروب مثل علجية بنت بوعكاز.<sup>1</sup> فكانت تتميز بالنشاط والحيوية فتجدها تعمل وتكد طوال النهار في طحن الحبوب بواسطة طاحونة حجرية يدوية، كما تقوم بأعمال في الحقل وتجمع الحطب وتخلب الماء.<sup>2</sup> والبربر متوسطو القامة هزيلبي الجسم ولكنهم ذوو بنية قوية وجميلة، وملابحهم حادة إلا أنها ليست قبيحة، أنوفهم ليست مفرطحة كأنوف العرب، ولون وجوههم وأجسادهم نحاسيا، ولحاهم أقوى من لحي العرب.<sup>3</sup>

### 2- فئة الأندلسيين:

بدأت هجرة الأندلسيين إلى بجاية مبكرة، تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي حسب ما ذكر برنشفي، حيث كانت بجاية تمثل إحدى المحطات البحرية بالنسبة للمهاجرين الأندلسيين، الذين كانوا توافدون عليها فرادى وجماعات، بعد أن أجلتهم سياسة الاسترجاع الإسبانية، وازداد تدفقهم بعد سقوط غرناطة سنة 1492م<sup>4</sup> غرار المدن المغاربية الأخرى التي لجأ إليها المهاجرون الأندلسيون الفارون من جحيم دواوين القشتيش<sup>5</sup> وكانوا يفضلون الاستقرار خارج المدينة، في أمكنة تسمح لهم بممارسة زراعة البقول التي هي من اختصاصهم استنادا إلى ما ذكره، الذي يضيف أنهم لم يكونوا يرغبون في الاندماج مع السكان.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 155.

<sup>2</sup> de Paradis : op, cit, p227.

<sup>3</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 145.

<sup>4</sup> 4 رويبر برانشفيك: المرجع السابق، ص 417.

<sup>5</sup> حول تفاصيل مأساة الأندلسيين أنظر، لوي كاردياك: «الموريسكيون»، ترجمة وتقديم عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، عدد 23- 24 نوفمبر 1981، ص ص 215- 288، وعدد 25 - 26، جوان 1980، ص ص 65- 97، وعدد 27- 28، ديسمبر 1982، ص ص 277 - 300.

<sup>6</sup> رويبر برانشفيك: المرجع السابق، ص 417.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكانت المهجرات الأولى تضم خاصة فئة العلماء، والفقهاء الذين وجدوا المساعدة، من الأمراء الحفصيين للاستقرار بها، إذ تذهب بعض المصادر، إلى أن الأمير فارس بن عبد العزيز الحفصي حرص على تخصيص المؤونة اللازمة، والمدد الكافي تشجيعاً لهم على الوقوف في وجه النصارى.<sup>1</sup> وكانت لهجرة الأندلسيين إلى بجاية نتائج طيبة على جميع الأصعدة، إذ تجمع كل الدراسات أهمهم أثروا البلاد التي قصدوها واستقروا بها، بما كانوا يملكون من مناهج تعليمية، ومهارات في مجال الزراعة، وكذا في السقي والبستنة، كما كانت لهم إسهامات في ميدان الصناعة، والتجارة، وفي مجال الغزو البحري ساهموا في تطوير ميناء بجاية وجعلوا منه أكبر قاعدة تنطلق منها غارات الجهاد ضد السواحل الأوروبية<sup>2</sup>. كما لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط أسطول الدولة الحفصية أيام السلطان أبي العباس أحمد<sup>3</sup> وتطوير فعاليته في مواجهة الأساطيل البحرية بغرب الم<sup>4</sup>.

وقد سبق تواجدهم في الجزائر الفترة العثمانية، إذ ارتبط تواجدهم بمأساتهم في الأندلس على يد المسيحيين، ووجد فيهم عروج وخير الدين خير معين لهم في حملاتهم البحرية على السواحل الإسبانية انتقاماً م ، بالإضافة إلى الزعماء الدينيين المحليين الذين استطاعوا تعبئة

<sup>1</sup> ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس : محمد الشمام، الطبعة 3 المكتبة العتيقة، 1967، ص 153.

<sup>2</sup> ابراهيم جدلة: المرجع السابق، ص33.

<sup>3</sup> محمد حجي: الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ 2، مطبعة فضالة، الرباط، 1977، ص ص 86-87.

<sup>3</sup> عبد الله عنان: «مدرسة بجاية الأندلسية وأثرها في إحياء العلوم بالمغرب الأوسط» مجلة الأصالة، ع 13 1973 ( )، ص193.

<sup>4</sup> ابراهيم جدلة: المرجع السابق، ص34.

أنظر كلثك، عبد الكريم كرم: تاريخ الدولة السعدية، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، 1972 ص292. تقلا عن محمد أمطاط: الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 - 1962 مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2008.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الجماهير للقتال، وحملوا لواء الجهاد.<sup>1</sup> ثم تضاعف وجودهم بعد حملات الطرد الجماعي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، حيث هاجروا في شكل جماعات تحمل حقد مشترك كبير وعداء اتجاه الإسبان.

وقد تبوأ الأندلسيون مكانة اجتماعية مرموقة في المدن الجزائرية التي استقروا بها، أورد المنور مروش أن الأنجليزي نايت Nith الذي كان أسيرا في مدينة الجزائر لمدة 7 سنوات في العقد الثالث من القرن 17م، ذكر أن الأتراك ليس لهم سوى حكم صوري في الجزائر، لأن ملكية الأراضي والسفن كانت بيد الأندلسيين، وكانوا طوروا في الجزائر تقنيات البناء، والمغارس، حيث أدخلوا للبلاد زراعة القطن، والكتان والحريز، كما كانوا بارعين في تزيين القصور والحدائق، والتحصينات الدفاعية، وطوروا شبكات الري وتصريف المياه القذرة، ومدوا قنوات الصرف وجلب المياه، كما كانوا ماهرين في بعض الصناعات، كصناعة الشواشي والمنسوجات الحريرية فضلا عن الصناعات الحربية كالأسلحة وبناء السفن.<sup>2</sup>

ونظرا للمكانة التي حظي بها المهاجرون الأندلسيون اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا فقد احتكروا المناصب الفقهية والعلمية في المدن الكبرى التي استقروا بها كمدينة الجزائر. وبجاية في أواخر العهد الحفصي، ويفهم من كلام ابراهيم جدلة أن بجاية كانت منطقة عبور للأندلسيين في انتقالهم إلى تونس عاصمة بني حفص فاستفادت كثيرا من تواجدهم بها، إذ كثيرا ما كانوا يستقرون بها مدة من الزمن قبل أن يواصلوا رحلتهم إلى <sup>3</sup> وهذا ما يؤكد العمرى في قوله: "أنها (يقصد بجاية) ثانية تونس في الرتبة والحال.. ولها رفق كثير بمدخل السفن من البحر."<sup>4</sup>

<sup>1</sup> عبد الله عنان: المرجع نفسه، ص 193.

<sup>2</sup> المنور مروش: دراسات في تاريخ الجزائر العثماني- العملة الأسعار والمداخيل، ج 1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009. ص. 287-288.

<sup>3</sup> ابراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 34.

<sup>4</sup> العمرى: وصف افريقية والأندلس...، ص 9.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكانت حاضرة بجاية قبلة للمهاجرين الأندلسيين منذ تأسيسهم الأولى، فقد أحصى الغبريني 33 عالما أندلسيا عاشوا في بجاية، وبنوا طريقة تعليمهم في المدينة،<sup>1</sup> كما أن تأثيرهم في الجوانب الأخرى كان ملموسا في الصنائع والتجارة والعمارة والزراعة والسقي والفنون.

ولقد أسهم المهاجرون الأندلسيون في مختلف جوانب الحياة في المدن الجزائرية التي لجأوا إليها بعد مأساة طردهم من الأندلس، وفي هذا الإطار يقول ابن خلدون: «وأما أهل الأندلس فقد افترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة الممتونية، إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأمر الدولة»<sup>2</sup>.

وازداد الازدهار الثقافي والفكري العمراني والصناعي الذي كانت تعرفه المدينة، بالوجود الأندلسي، ولم يتوقف تدفق المهاجرين الأندلسيين بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان عام 1510 بل تواصلت الهجرة فيما بعد وذلك على إثر قرار الطرد الجماعي الذي استهدف المسلمين في سنتي 1609 و1611 حيث استقرت أعداد كبيرة من الأسر الموريسكية الوافدة في معظم المدن الساحلية الجزائرية، ومنها دلس، وأزفون و بجاية.<sup>3</sup> خاصة وأن هؤلاء يحملون أفكارا، وثقافة مختلفة عن أفكار وثقافة السكان المحليين، وهو عامل ساهم، في بروز أنشطة جديدة، يتضح ذلك من خلال الموشحات الفنية التي اشتهرت بها مدينة بجاية، والتي لاتزال دالة على ذلك التأثير إلى الآن، من خلال الفن الأندلسي.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أبو العباس الغبريني: المصدر السابق، ص7.

<sup>2</sup> عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الفكر، بيروت، 2002، ص401.

<sup>3</sup> ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، م، و، ك الجزائر، 1984 ص 132. وللتوسع أكثر حول العلماء الذين استقروا ببجاية، أنظر:

مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط: 2، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1981، ص48-51.

<sup>4</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 89.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وليس الغريب أن يحدث المهاجرون الأندلسيون تطورا كبيرا في الإيالة الجزائرية باعتبارهم أصحاب حضارة راقية، وهذا ما يؤكد حمدان خوجة حين ذكر أن وجودهم في الجزائر ساعد على تنظيم الحكومة وعلى التقدم الحضاري في مختلف المجالات.<sup>1</sup>

ويبدو أن التسامح الديني والإثني الذي ميز بجاية منذ زمن بعيد استمر خلال العهد العثماني حيث تعززت المدينة بوفود المهاجرين الأندلسيين عليها بعد ثورتهم على الإسبان عام 1573 ثم بعد قرار الطرد النهائي سنة 1609 بالإضافة إلى العناصر الإسبانية التي قبلت بالبقاء في بجاية بعد استرجاعها على يد صالح رايس، والعناصر التركية التي امتزج بعضها مع السكان فتمحضت عنها فئة جديدة على المجتمع البجائي، تمثلت في فئة الكراغلة فضلا عن العرب والبربر الذين كانوا يشكلون غالبية سكان المدينة محتفظين بلغتهم الأمازيغية التي تعلمتها باقي الفئات التي عاشت في وئام وانسجام وتوافق حتى الغزو الفرنسي للمدينة عام 1833.

والظاهر أن رابطة الدين لعبت دورها بقوة في المنطقة من خلال هذه الفئة، التي سرعان ما تفاعلت مع السكان، الذين رحبوا بهم واستقبلوهم، فاندجحت هذه العناصر في الوسط السكاني الجديد، وأصبحت تستعمل لغات مختلفة خاصة منها الأمازيغية.<sup>2</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن بجاية من المحطات الأولى التي استقبلت المهاجرين الأندلسيين عندما اشتدت وطأة المسيحيين عليهم في إسبانيا، حيث كانت هجرة أهل بلنسية الشهيرة، هجرة كثيفة نحو تونس الحفصية، وبجاية كما خرجت عائلات كثيرة من تونس واستقرت أولا: بمدينة القل وتادلس "دلس" حاليا ومنها إلى فحص الجزائر متيجة أيام اشتداد الحملات الصليبية الإسبانية على بجاية وبونة والقالة ودلس. هذه الهجرات كانت بطريقة أو بأخرى تتم نحو جزائر الثعالب منذ أيام المرابطين والموحدين ثم أسسوا مدينة القليعة فيما بعد. وقد رحب حكام هذه البلدان بقدوم الأندلسيين وقدموا لهم تسهيلات للاستقرار لحاجتهم إلى خبرتهم الزراعية خاصة والحرفية عامة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 109.

<sup>2</sup> Gaid: op, cit, p34.

<sup>3</sup> محمد الأمين بلغيث: الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة، منتدى فيض القلم، يوم

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وقد تدهورت الهجرات الأندلسية الأولى كما ذهب إلى ذلك جل المؤرخين الجزائريين بأنها هجرات أسر وجبهة وأعلام أندلسية بارزة كان لها الأثر الكبير في جميع الميادين العلمية والاقتصادية وقد استقطبتهم بجاية الناصرية والحفصية بصورة بارزة<sup>1</sup>. ووجب علينا التذكير بأن تدفق المهاجرين الأندلسيين نحو المدن الجزائرية لم يتوقف، ففي مطلع القرن السابع عشر الميلادي تحولت البلاد المغاربية إلى ملاذ حقيقي للاجئين الموريسكيين (مسلمين ويهود)، بعد قرار الطرد الجماعي الذي صدر في عهد الملك فيليب الثالث منذ 1609م، فساهموا جميعا في نقل علوم ومعارف كثيرة كانت نادرة في المنطقة، كعلم القراءات، والطب والموسيقى والترجمة وغيرها من الفنون والمعارف والعلوم.<sup>2</sup>

### 3- فئة اليهود:

يعود تواجد اليهود في بجاية إلى العهد الحمادي، حيث تسبب سقوط القيروان في أيدي الهلاليين في هجرة اليهود إلى قلعة بني حماد بالمعاضيد، ومن القلعة انتقلوا إلى بجاية مع الناصر بن علناس، وكان نشاطهم يقوم أساسا على التجارة.

وخلال القرن السادس عشر ازداد تدفق اليهود على المغرب الأوسط، بعد الحملة المضادة لهم في إسبانيا، فلجأت أعداد كبيرة منهم إلى مدينة الجزائر، وبدرجة أقل إلى بجاية<sup>3</sup> وكان عدد منهم لجأوا إلى بجاية مع المهاجرين الأندلسيين التي وجدوا فيها ملاذهم<sup>4</sup>، حيث تعرضوا هم كذلك للاضطهاد على يد المسيحيين الكاثوليك في إسبانيا، وقد سمحت لهم خيرتهم في التجارة والمهارات التي كانوا يتمتعون بها في بعض الصناعات كصناعة الحلبي وأجوهرات وعملهم في الصرف أدى إلى

<sup>1</sup> سيدي موسى محمد الشريف: مدينة بجاية الناصرية، (دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية) الدكتور محمد الأمين بلغيث. الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع. 2007.

<sup>3</sup> Dominique Valérian: op, cit, pp492-493.

<sup>4</sup> André Noushi, André Prinan, Yves Lacoste: **l'Algérie passé et présent**, Éd, sociales Villeneuve-Saint-Georges, 1960, p178.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

اغتنائهم وتمكنهم ومن تكوين ثروات طائلة، وكانوا يتمتعون بالجاه والمال، لغتهم منحدره من الإسبانية متأثرة بالعبرية تعرف باللادينو، ويعتبرون هم من السفردم أو اليهود الغربيين<sup>1</sup>.

ويذكر مرمول أنهم غادروا مدينة بجاية مكرهين ولجأوا إلى القبائل المحلية وكانوا يشتغلون في الصياغة ويذكر أن الفرنسيين بعد احتلالهم المنطقة عثروا عليهم وسط السكان وقال أن هذه المعلومات زوده ها كبير الأخبار الكاتب كوهين أو كاهن<sup>2</sup> وكانت أسرة ابن ميمونة من أشهر الأسر اليهودية التي كانت تحظى في بجاية بمكانة اقتصادية هامة<sup>3</sup> وكان كبير الطائفة اليهودية في بجاية الحاخام أبراهام بن حقون<sup>4</sup>.

وعلى الرغم من المساعدات والدعم الذي كان اليهود يقدمونه للإسبان للاستيلاء على سواحل المغرب الأوسط إلا أن معاملة الإسبان لهم كانت تتغير عندما لا يكونوا في حاجة إليهم، فقد عوملوا معاملة سيئة في بجاية بعد احتلالها عام 1510 فقد صودرت أملاكهم وفرضت عليهم ضرائب باهظة، كما تعرض الكثير منهم إلى عقوبة السجن و عرض بعضهم للبيع في الأسواق كعبيد. وخلال تواجد الإمبراطور شارل الخامس في بجاية بعد هزيمته أمام مدينة الجزائر أمر بسجنهم وتغريمهم وبحرق عدد كبير من كتبهم وذلك عندما رأهم يتجولون في المدينة بكل<sup>5</sup>.

وتشير بعض المصادر إلى وجود لقب بكرمي في بجاية حيث كان اليهود يتمتعون بنفوذ كبير،<sup>6</sup> إذ كانوا يعملون في مصلحة الكراست مما جعلهم يتحكمون إلى حد بعيد في الترسانة

<sup>1</sup> عز الدين قودا: «تعديل ميثاق جامعة الدول العربية» مجلة البحوث والدراسات العربية، ع 3، القاهرة، 1972، ص 38.

<sup>2</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p255.

<sup>3</sup> محمد العربي بن سماعيل: « دور يهوذا بن دران في دبلوماسية الأمير عبد القادر » المجلة التاريخية المغربية، ع 17-18 1980، ص ص 6-7.

<sup>4</sup> Ab Cahen : « les Juifs de l'Algérie et de Touggourt », in **recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la Provence de Constantine**, t10, 1866, p70.

<sup>5</sup> Ibid, p5.

<sup>6</sup> وداد بيلامي: المرجع السابق، ص 102.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الحرية الجزائرية بسبب تحكمهم في مصدر الأخشاب التي كانت دار صناعة السفن لا غنى لها<sup>1</sup>. و غي أن نشير إلى أن يهود بجاية على غرار يهود مدينة الجزائر تمتعوا بالحرية في ممارسة نشاطهم التجاري، وبالنفوذ الكبير على مستوى سدة الحكم حيث تمكنوا من انتزاع امتياز مصلحة الكراست من شيوخ ومرابطي المنطقة في أواخر لعهد العثماني، وذلك الداى مصطفى (1798-1805) بل ضريبة يدفعونها له مما أدى إلى تزايد نفوذهم، كما كانوا احتكروا تصدير مادتي الحبوب والجلود، وعندما ساءت العلاقات بين حكومة الجزائر وأجلترا عام 1824، أمر الداى حسين وكيل اليهود بمدينة القالة بكري بمنح الفرنسيين محلاتهم، وقد أدى تراجع نشاط اليهود لة ونواحيها إلى توجيههم إلى مدن أخرى منها بجاية التي كانوا قد حصلوا فيها على امتياز احتكار التجارة بها عهد علي داي (1710-1718)<sup>2</sup>.

### 4- الأتراك والكراغلة:

لقد تبوأ الأتراك كما هو معروف في إيالة الجزائر مكانة مرموقة واستحوذوا على مقاليد الحكم طوال العهد العثماني، ثم يليهم الكراغلة في المكانة والرتبة، وكان هؤلاء موزعين في مدن الإيالة ومن بين هذه المدن مدينة بجاية، إذ يبقى وان قلنا أن صالح ريس ترك بها حامية من الجنود الأتراك لحمايتها برئاسة قائد وكيف تعاملت مع السكان؟

جاء في جدول وضعية المؤسسات الفرنسية في الجزائر اعتمادا على أحد سجلات البايك 464 كرغلي موزعين على حاميات عنابة وزمورة وبجاية<sup>3</sup>. والظاهر أن موقع بجاية الذي تحاصره القبائل أصبح منفي السلطة فكانت تنفي إليها الأشخاص المشاغبين وغير المرغوب فيهم عقابا لهم، مثلما وقع في شهر ماي 1629 حين تم نفي عدد من الشخصيات المهمة من الكراغلة إلى بجاية، وتمت مصادرة كل أملاكهم بمدينة الجزائر، وذلك بعد فشل ثورة الكراغلة في العام نفسه، حيث

<sup>1</sup> محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، (1792 - 1830م)، ط2، م و ك، الجزائر،

1984، ص، 275.

<sup>2</sup> Alain Mahé : op, cit, p156.

<sup>3</sup> Ministre de la guerre : T.S.E.F, 1838, p190.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

قامت حكومة الأتراك بإبعاد 150 من أبرز عناصرهم الذين كانوا يعملون في قصر الباشا إلى بجاية، حيث أصبحوا مجرد جنود في الحامية المتواجدة بالمدينة، وكان من نتائج تلك الثورة الفاشلة القيام بحملة استهدفت فئة الكراغلة في مدينة الجزائر وبجاية شملت حتى المؤيدين لهذه الفئة، وقد تفرق الكراغلة المبعدين من مدينة الجزائر في منطقة القبائل فاستقر بعضهم بالقرب من واد الزيتون مشكلين قبيلة الزواتنة، واستقر البعض الآخر في جبال زاووة حيث دخلوا تحت حماية مملكة كوكو، ولجأ بعضهم كذلك إلى منطقة زمورة، متحالفين مع القبائل الذين كانوا يعلنون التمرد والثورة على الحكم التركي من حين لآخر<sup>1</sup>. و ه من المناسب الإشارة إلى أسرة كرمان كواحدة من بقايا فئة الكراغلة التي غادرت بجاية عقب احتلالها من طرف القوات الفرنسية عام 1836 وحملت لقب بلبحاوي بدلا من كرامان، بالإضافة إلى عائلات وأسر أخرى كأسرة بلقايد<sup>2</sup>.

5- 1 :

كانت بجاية قبل الاحتلال الإسباني تعج بالمسيحيين التجار والدبلوماسيين كذا رجال الدين، وذلك بحكم العلاقات الراقية التي كانت تجمع بجاية بمختلف الأمم الأوروبية خلال العهدين الحمادي والحفصي<sup>3</sup>، ثم ارتبط تواجدهم واستقرارهم المسيحيين فيها بالاحتلال الإسباني، حيث أشار بعض الكتاب إلى فرار الجنود الإسبان من بجاية بسبب تردي الأوضاع بها ولجوءهم إلى القبائل المجاورة، وأشار هايدو إلى أن سلطان قلعة بني عباس كان يحسن استقبالهم ويقبل انخراطهم في صفوف جيشه<sup>4</sup>.

إن تواجد المسيحيين في منطقة القبائل كان مرتكزا على مدينة بجاية قبل تخريبها من قبل الإسبان، أما بعد احتلالها، فقد تراجع تواجدهم بشكل كبير وملفت للانتباه، وذلك نتيجة فقدان

<sup>1</sup> Pierre Boyer :« le problème Kouloughli dans la Régence d'Alger», in **revue de l'occident musulman et de la méditerranée**, n°8, 1970, P83.

<sup>2</sup> Kamel Filali : les Kouloughlis : essai d'une fusion ethnique d'origine Ottomane dans l'identité Algérienne, Annales U.R.A.M.A, vol 3 1999, p82.

<sup>3</sup> رويبر برانشفيك: المرجع نفسه، ص 417.

<sup>4</sup> Haedo : op, cit, p.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

المدينة لدورها الثقافي والإقتصادي.<sup>1</sup> وبعد تحريرها من قبل صالح رايس في 13 ذي القعدة 962 / 28 سبتمبر 1555م.<sup>2</sup> منع الأتراك العثمانيون دخول الأوروبيين إليها إلا في حالات

يقول سلفاتور دو هابسبورغ لا أحد فكر في مصير حوالي ستمائة أسير إسباني في بجاية بعد تحريرها على يد صالح رايس عام 1555م، حيث اضطروا إلى الاندماج في وسط السكان بدليل وجود عائلات تحمل ألقاب مثل بونايطيرو وماجور ولونغو وغيرها وجدت في بجاية خلال الفترة الاستعمارية يعتقد لويس سلفاتور أنهم من بقايا الإسبان.<sup>4</sup>

ويشير مولود قايد إلى تواجد عناصر من السود استقدمتهم السلطة من الجنوب كقوات عسكرية وقم البايات بتوطينهم قرب أقبو وهناك اندمجوا في المجتمع عن طريق المصاهرة، ولمساعدتهم على الاستقرار بالمنطقة منحت لهم أراضي لخدمتها، وبعد نهاية الحكم العثماني تفرقوا على الأسر المحلية الكبيرة وعملوا كخدم، مثل أسرة ابن علي الشريف التي أنزلتهم في شلاطة حيث كانوا يسهرون على خدمة الزاوية، وأورابح الذين أسكنوهم في فناية لدى قبيلة آيت تامزالت، ووأسرة محمد أو شعبان في تغيلت أو مريان، ومحمد أو شلال الذي أسكنهم في الفلاي لدى قبيلة بني وغلبيس، وحملوا تسميات مازالت متداولة في المنطقة من قبيل أبركان وأكلي، بركان، لكحل، ولد عبيد.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2006، ج 01، ص 18-19.

<sup>2</sup> Fray Diego de Haedo : **Histoire des rois...**, pp 92-95.

<sup>3</sup> هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا ترجمة أو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر 1973 ص 113.

<sup>4</sup> Louis Salvator de Habsbourg: **Bougie la perle de l'Afrique du nord**, trad, de l'anglais par Viviane de Jambert, éd, de l'Harmattan, Paris, 1999. p65.

<sup>5</sup> Gaid: **Histoire de Béjaia...**, p56.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكانت كل هذه الفئات الاجتماعية تتعايش فيما بينها واللغة السائدة هي اللغة القبائلية هي لغة التفاهم والتواصل بين هذه الفئات غير المتجانسة إثنيا، لكن يبدو أن للدين المشترك دور في حدوث هذا التعايش والتجانس بالإضافة إلى المصلحة المشتركة.<sup>1</sup>

### المبحث الثا : نشاطات السكان

تعتبر منطقة القبائل عامة والقبائل الصغرى خاصة من المناطق المكتظة بالسكان في الجزائر، على الرغم من صعوبة تضاريسها، وافتقارها إلى الأراضي الزراعية الواسعة الخصبة، وندرة الثروات الطبيعية بما. إلا أن ظاهرة ارتفاع الكثافة السكانية، في هذه المنطقة واضحة، نتيجة عوامل تاريخية، وسياسية قديمة.<sup>2</sup> لقد فضل سكان منطقة القبائل الاستقرار والاستيطان في حوض الصومام حيث تيسر موارد العيش على ضفتيه.

وقد أجمعت المصادر التاريخية على أن الرجل القبائلي بصفة عامة يتميز بالحيوية والنشاط وحب العمل والتفاني فيه، فهو لا يحب أن يكون عالة على الآخرين، وهذه الخصال متجذرة في السكان منذ القدم، ولعل صعوبة المنطقة من مناخ وتضاريس، وعزلتها خلال العهد العثماني، وصعوبة المسالك والدروب، وانعدام وسائل المواصلات، كلها عوامل ساهمت في تنشيط إنسان المنطقة، وجعلته يتأقلم مع البيئة، بل ويعمل جاهدا على تسخيرها واستغلالها لصالحه، فمارس نشاطات متنوعة من فلاحية وصناعة وتجارة مثل باقي الشعوب.

### 1- النشاط الفلاحي

كانت الأرض تمثل أساس الثروة عند السكان إلى جانب تربية الماشية والتجارة التي كانت تعتمد على التكامل بين السكان الجبليين سكان الهضاب العليا، وكثيرا ما كان هذا الاقتصاد يضطرب عند حدوث اصطدامات بين الأتراك والسكان فتتلف المزروعات عادة، أو في المواسم

<sup>1</sup> Ibid : p76.

<sup>2</sup> Anonyme: **La Kabylie. Recherches et observations sur cette riche contrée de l'Algérie. Par un colon établi à Bougie, Maistrasse et Wiart, 1846, imprimeur de. Maistrasse et wiart, imprimeur, Paris, 1846, p 65.**

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الفلاحية الرديئة فتكثر المجاعات والتزاعات ويحل الخراب.<sup>1</sup> ومن ثمة فإن الفلاح السمة الغالبة على نشاطات السكان في المنطقة، إذ تعتبر مورد الرئيسي وكانوا لا يفرطون في أي شبر لاستغلاله، حيث أرضهم جبلية ذات تضاريس وعرة وهي قليلة المساحات الزراعية، إذ بهم الجبال الشاهقة كما أورد ليون الإفريقي ل: "تكاذ دولة بجاية تكون كلها مؤلفة من جبال شاهقة وعرة ذات غابات وعيون كثيرة، وهي محاطة بالغابات التي يوجد بها الكثير من الأسود والقرودة، وسكانها يستغلون ما يملكون من أراضي، وكانوا مغمورون بالثمار إذ يحيطون بالمدينة بعدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار لا سيما من جهة الباب المؤدي إلى ناحية الشرق"<sup>2</sup>. ونفس الكلام أورده بيار دافيتي حين قال: "على الرغم من أن منطقة بجاية لا أراضي صالحة لزراعة الحبوب بسبب تضاريسها الجبلية التي تغطيها الغابات والأحراش، إلا أن جبالها غنية بالأشجار المثمرة، إذ تحيط بها حقول مختلف أنواع الثمار."<sup>3</sup>

وكان السكان ماهرين في غراسة مختلف أنواع الأشجار الزيتون والتين والزيتون والبرتقال والليمون.<sup>4</sup> بالإضافة إلى المشمش والإجاص والرمان والخروب<sup>5</sup> والجوز واللوز والخوخ<sup>6</sup>. وهذا ما يؤكد شوفالييه دارفيو (le Chevalier d'Arvieux) الذي نزل بجاية يوم 6 سبتمبر 1674م، حيث أن المناطق المحاورة بجاية غنية بإنتاج الحبوب والعب والحوامض والزيت والمراعي.<sup>7</sup> وعلاوة على المحاصيل السابقة الذكر، ي السكان بعض المحاصيل الزراعية الصناعية كالكتان وحيوط القنب والقطن<sup>8</sup> التي لا شك أن المهاجرين الأندلسيين هم من جلبها معهم حين نزحوا إلى السواحل الجزائرية كما هو معروف. و كانوا يعتنون كذلك بزراعة

<sup>1</sup> Pièrre d'Avity: op, cit, p 192.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر ال، ص 50.

<sup>3</sup> Pièrre d'Avity : Ibid, p192.

أنظر كذلك، ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص 360.

<sup>4</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 101.

<sup>5</sup> وليم شالر: المصدر السابق، ص 37.

<sup>6</sup> Dominique Valérian : op, cit, pp197-199.

<sup>7</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p241. m

<sup>8</sup> Dominique Valérian : Ibid, 202.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

مختلف أنواع الخضروات مستغلين في ذلك وفرة الموارد المائية، حيث كانت الوديان الجارية تنحدر بغزارة من المرتفعات لتصب في البحر.<sup>1</sup> وأما الأراضي الأخرى التي كان يصعب زراعتها تستغل في تربية الحيوانات وتربية النحل، و كانوا يزرعون القمح والشعير والذرة والحبوب الأخرى كالقول في المناطق السهلية المحاذية للأودية والمجاري المائية.<sup>2</sup>

وكان المنتج متنوع وتربية المواشي كانت تمارس على نطاق واسع، وتجدر الإشارة هنا إلى أن السكان كانوا يعتمدون في الفلاحي على وسائلهم الخاصة حيث كانت الأدوات المستعملة من صنع أيديهم، وكانت تاجم الضرورية، وكان يوجه منها جزء كبير للتسويق داخل مدن الإيالة وحتى إلى الخارج.<sup>3</sup> كما تعد المناطق الواقعة على ضفتي نهر الصومام من الأعلى إلى المصب أكثر نشاطا وإنتاجا، وهو ما يفسر تركز السكان بشكل ملحوظ حول هذه المنطقة.<sup>4</sup>

وتعتبر زراعة الزيتون من أكثر الزراعات التي تستحوذ على نشاط سكان المنطقة والتي تمثل عمود النشاط الفلاحي، ويكثر هذا النوع من الأشجار حول حوض الصومام، وتنتشر هذه الزراعة كذلك في الحقول والبساتين التي تحيط بالمدينة وعند منحدر جبل قوراية،<sup>5</sup> كما أشاد الرحالة الفرنسي بيسونال بالمهارة التي يمتاز بها سكان بجاية والمناطق المحيطة بها في زراعة الزيتون وتحصيله<sup>6</sup>، يذكر أحد المعمرين بهذا الصدد أن الفرنسيين عند استيلائهم على مدينة بجاية وما

<sup>1</sup> محمد سي يوسف: مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي (ثورة بوعغلة) دار الأمل، تيزي وزو، 2000، ص 14.

<sup>2</sup> يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا، ج 1، ص 53.

<sup>3</sup> محمد سي يوسف: المرجع نفسه، ص 14.

<sup>4</sup> موسى لقبال: «مميزات بجاية»، ص 4.

<sup>5</sup> Dominique Valérian : op, cit, pp197-199.

<sup>6</sup> Peyssonnel et Desfontaines: op, cit, p295.

أنظر كذلك:

Franck Laurent: **le voyage en Algérie**, Ed, Robert Laffont, Paris, 2008, p75.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

جاورها، وجدوا لدى السكان أعداد هائلة من طاحونات الزيت والقمح،<sup>1</sup> وهو ما يوحي بازدهار زراعة وطحن الزيتون من جهة، وكذا ارتفاع الكثافة السكانية من جهة ثانية. وكان إنتاج التين كبيرا كذلك إذ يقترن بإنتاج الزيتون، تيمنا بالآية الكريمة ﴿والتين والزيتون﴾<sup>2</sup> بالإضافة إلى زراعة الحوامض و تربية المواشي والنحل، ويعد الزيت من أهم المنتجات التي تشتهر بها منطقة القبائل، حيث كانت بجاية تستقبل كميات كبيرة من هذه المادة تأتيها من قبائل المنطقة بلغت عام 1834 خلال سنة أشهر رغم حالة الحرب التي كانت تمر بها المنطقة 60 ألف قلة<sup>3</sup> من الزيت أي حوالي مليون لتر.<sup>4</sup>

وكانت الفلاحة في بجاية ونواحيها كغيرها من مناطق الإيالة تقوم أساسا على الطرق البدائية والأدوات التي كان يصنعها الحدادون، تعتمد في الحراثة على الحيوانات كالثيران والبغال والحمير، وكانت تعتمد على الجهد العضلي للإنسان باستخدام الفأس في المناطق المنحدرة، وتتم عمليات الحصاد كما جرت العادة في كل مناطق الإيالة بواسطة المنجل اليدوي وعملية الدرس باستخدام الحيوانات، وأما عملية تخصيب التربة فكانت تتم من خلال حرق الأعشاب المتبقية بعد الحصاد، وترك بعض التبن في الحقول والقيام بالحراثة، كما كان السكان يستعملون فضلات المواشي لتخصيب التربة، وإعطاء فرصة للأرض للراحة بتركها بدون زراعة لسنة ثم فلاحتها في السنة المقبلة.<sup>5</sup>

والحقيقة التي يتفق حولها الكثير من الكتاب والمؤرخين الذين اهتموا بتاريخ منطقة القبائل لا سيما من الفرنسيين وهي أن الرجل القبائلي مهما كانت مكانته الاجتماعية، فهو يعمل على

<sup>1</sup> Anonyme : op, cit, p 67.

<sup>2</sup> الآية 1 من سورة التين.

<sup>3</sup> القلة تسع 16 لتر من الزيت. أنظر:

Pierre Boyer : « l'évolution démographique des Populations musulmanes du département d'Alger », 1830-1848, R .A,

<sup>4</sup> Gentil de Bussy: **Etablissement des français dans la régence d'Alger**, Paris, 1834, t2, p 253.

<sup>5</sup> يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 517.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

استغلال الموارد الطبيعية المختلفة المتوفرة حتى يتمكن من تحدي الطبيعة وتعويض نقص الأراضي الصالحة للزراعة.<sup>1</sup> كما أن اعتدال مناخ المنطقة وكميات الأمطار المعتبرة والثلوج التي تتلقاها خلال موسم التساقط ساعد<sup>2</sup> إلى حد كبير، السكان القبائليين في العمل في القطاع الفلاحي، لتوفير ما يحتاجونه من محاصيل زراعية غذائية ضرورية. ولهذا ارتبط القبائلي بصفة عامة بأرضه، واستغلها بما استغلال، فأعطت إنتاجا وفيرا، حيث تؤكد كثير من الكتابات أن السكان لم يحققوا الاكتفاء الذاتي فحسب بل كانوا يزودون المناطق والمدن القريبة والبعيدة بهذه المنتوجات.<sup>3</sup> وذلك رغم قلة المساحات الزراعية الواسعة، لكن الاستغلال الجيد للأراضي، وإتقان الفلاح لفنون الحراثة، جعل المنطقة تنتج أنواعا شتى من مختلف المنتوجات كالحبوب مثل: القمح، والشعير، والجلبانة، والبشنة، والفلول والعدس وكذلك أنواعا من الفواكه والخضر المختلفة.<sup>4</sup>

ولما كانت الحاجة الماسة إلى بعض المواشي لاستخدامها في الحياة اليومية، أولى السكان العناية بتربية المواشي من ماعز وأغنام وأبقار تتأقلم مع الطبيعة الجبلية، حيث أشار ليون الإفريقي إلى ذلك حينما قال: " وتسكن هذه الجبال (يقصد جبال بجاية) قبائل غنية نبيلة وكريمة، تملك عددا كبيرا من الماعز<sup>5</sup> والبقر<sup>6</sup>، إذ كانوا يستعملون الثيران في حراثة الأرض والحمير والبغال في حمل الأمتعة والتنقل.<sup>7</sup> وأما عن الثروة النباتية فما من ملاحظ إلا وسجل غنى المنطقة بالثروة الخشبية علاوة على توفرها على نباتات نادرة تستخدم في العلاج.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> Rozet et Caréte : op, cit, p28.

<sup>2</sup> Alain Mahé: op, cit, pp21 – 23.

<sup>3</sup> Marmol: op, cit, p16.

<sup>4</sup> A. Prigent : **à travers l'Algérie (Province de Constantine et Kabylie,** librairie Hachette, Paris, 1914, p166.

<sup>5</sup> Pierre d'Avity: op, cit, p192.

<sup>6</sup> أنظر ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص406.

<sup>7</sup> Franck Laurent: op, cit, p75.

<sup>8</sup> Dominique Valérian: op, cit, pp197-199.

### 2- الصناعة: مقوماتها وأنواعها

يأتي النشاط الصناعي في المنطقة في الدرجة الثانية بعد النشاط الفلاحي بل هو في الواقع فالطبيعة القاسية جعلت سكان المنطقة مجبرين على التأقلم معها والسعي لتسخير الطبيعة وما احتوت عليه من ثروات عن طريق استغلالها بأبسط الطرق والإمكانات التي كانت لديهم، فكانت صعوبة الطبيعة وقساوتها دافعا ومحفزا لهم لمحاكاة شعوب أخرى احتكوا بها بطريقة أو بأخرى، أو بالمحافظة على مهن توارثوها عن الآباء والأجداد وعملوا على تطويرها، فبرعوا في بعض الصناعات وحققوا الاكتفاء الذاتي وتجاوزوه في بعض الأحيان إلى التصدير.

ويمكننا أن نؤكد على استمرار النشاط الصناعي في بجاية ونواحيها بالنظر لماضيها العريق في هذا المجال، على الرغم من النكبة التي تعرضت لها على يد الإسبان سنة 1510م كما مر بنا ، والآثار السلبية التي تركها هذا الاحتلال، إلا أن السكان حافظوا على نشاطهم الصناعي ومارسوه في الجبال وفي المدينة بعد العودة إليها عقب تحريرها على يد العثمانيين.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الصناعات كانت من اختصاص الدولة كصناعة السفن والأسلحة الثقيلة، ومطاحن الدقيق والمحاجر التي كانت تمثل سند قوة الدولة ودعاماتها<sup>1</sup> أما الصناعات الأخرى فقد كانت حرة غير مقيدة، وعلى الخصوص في المناطق الريفية البعيدة عن مراقبة السلطة، وقد عرف عن سكان بجاية ونواحيها مهارتهم في الصنائع وقدرتهم على استغلال الثروات الطبيعية المتوفرة في منطقتهم كالحديد والجبس والحجارة والخشب وغيرها بشهادة الرحالين والملاحظين المعاصرين لهذه الفترة، وللوقوف على وضعية الصناعة في المنطقة لا بد لنا أن نتطرق إلى مقوماتها ثم التعرف على أنواعها والدور الذي لعبته في اقتصاد الجزائر عامة والمنطقة اقتصاديا واجتماعيا.

مقومات الصناعة تتمثل في ثلاثة عناصر رئيسية وهي المواد الطبيعية، اليد العاملة وسائل الإنتاج. وهي مقومات تتوفر عليها بجاية ومناطق ساعد السكان على القيام بالنشاط الـ وتتمثل هذه العناصر في: وفرة ثروة كبيرة من أشجار الزيتون مما جعل صناعة زيت

<sup>1</sup> Merad Boudia Abdelhamid: **la Formation algérienne précoloniale**, essai d'analyse historique, O.P.U, Alger, 1981, p183-184.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الزيتون تحتل مكانة مرموقة في اقتصاد المنطقة، فكانت تزود الإيالة بهذه المادة وتوجه كميات منها إلى التصدير، كما تشتهر المنطقة بوفرة إنتاج التين الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد زيت الزيتون.<sup>1</sup>

وتتوفر المنطقة على مادتي الحديد والزنك، فالحديد لا يمكن للسكان الاستغناء عنه، فهو المادة الخام التي كانوا ون في كثير من صناعاتهم الحرفية حيث أشار إلى وجودهما العديد من الكتاب والمؤرخين والجغرافيين والرحالين العرب والأوروبيين، كالإدريسي وليون الإفريقي<sup>2</sup>، و الرحالة الأنجليزي طوماس شو أن قبائل منطقة بجاية، كانوا يقومون باستخراج الحديد وتحويله إلى قضبان صغيرة، ثم يحملونه إلى أسواق بجاية ومدينة الجزائر<sup>3</sup>، ث أوغستان برنار وجود حقول الحديد جنوب بجاية وفي جبال البايور<sup>4</sup>، وتكلم فيرو عن وجود مناجم لاستخراج الحديد قرب بجاية في المكان الواقع بين قبيلتي برباشة التي تبعد عن بجاية ب 70 كلم، و بني سليمان على بعد 86<sup>5</sup> وبالإضافة إلى استخدام الحديد في الصناعات الحديدية المتنوعة، كان يستخدم كذلك في صناعة الأسلحة بناء على ما ذكر روزي<sup>6</sup>، وأضاف ستيفان غزال إلى القول أن سكان هذه المنط كانوا يستخرجون الرصاص من منطقة تدعى خنقة كاف التوت، ومنجم جبل الخلوف<sup>7</sup>، وكانوا يصنعون سبائك من الحديد تستعمل كعملة في بجاية وضواحيها، كما كانت تضرب فيها نقود من الفضة كذلك<sup>8</sup>. وقد تحدثت مصادر أوروبية عديدة بإلحاح عن انتشار صناعة النقود المزيفة في منطقة المذكورة<sup>9</sup>

<sup>1</sup> Daumas: op, cit, p59.

<sup>2</sup> Dominique Valérian: op, cit, p207.

أنظر كذلك، الإدريسي: المصدر السابق، ص208. وليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 355 .

<sup>3</sup> Boutin:op, cit, p208.

<sup>4</sup> Augustin Bernard: **Géographie universelle**, TXI, Afrique du nord, pp211-266.

<sup>5</sup> Féraud: « Histoire de Bougie... », p40.

<sup>6</sup> Rozet et Carette:op, cit, p30.

<sup>7</sup> Stéphane Gsel: op, cit, p12.

<sup>8</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 102.

<sup>9</sup> كل كتب الرحالين والأسرى يؤكدون هذه الحقيقة، من هايديو ومرمول مروراً بالأب دان والفارس دارفيو وشو ودو طاسي وفونتور دي بارادي وحتى حمدان خوجة ووليم شالر.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

هذا وتتوفر نواحي بجاية على مواد خام أخرى تزود مختلف الصناعات كالجبس والآجر والفخار والطين والحجارة والخشب، مما ساعد على انتشار الصناعة الفخارية و القرميد، والحجارة ذات الصلابة والمتانة التي كانت تستعمل في صناعة المطاحن، وكذا في البناء<sup>1</sup> هذا بالإضافة إلى مواد أخرى تستغل في بعض الصناعات اليدوية الحرفية مثل النباتات والحشائش التي كانت تستغل في صناعة الحصير والحبال و السلال، وتسقيف المنازل وغيرها. ويم ننا الاستنتاج أن الإنسان القبائلي كان يتقن صناعة كل شيء يحتاجه للاستخدامات اليومية الضرورية.

وتعد الثروة الغابية المتوفرة في المنطقة مصدر هام كانت تزود به الإيالة لاستخدامه في صناعة السفن<sup>2</sup> بمختلف الأحجام والأنواع، وكذا تستخدم في ورشات البناء وغيرها من الأغراض. وتحديث مصادره عن وجود معدن النحاس والجبس بالقرب من بجاية وأشارت الوثائق التجارية عن الشب البجائي دون أن تبين لنا مصدر وجوده.<sup>3</sup>

وعلاوة على المواد السابقة الذكر تشكل المواد الحيوانية المتوفرة، من جلود وأصواف وشعر الماعز وألبان وأجبان مواد لمختلف الصناعات التي كان الصناع يتقنونها نت متوفرة كذلك وكان يعوض النقص عن طريق جلبها من أسواق الهضاب العليا، تربية النحل تزود السكان بمادتي العسل والشمع الذان كانا يصدران بكميات كبيرة نحو مدن الإيالة الأخرى ونحو الخارج عن طريق تجار الشركة الملكية الإفريقية بالقالة.<sup>4</sup> ولقد لعبت الطبيعة الجبلية، دورا بارزا في سلوك المواطن بالمنطقة، حيث جعلت منه يمتاز بالنشاط والحيوية، وهذا ما عبر عنه القنصل الأمريكي وليم شالر في وصفه سكان قبائل بجاية في قوله: "هم شعب أبيض لهم قامة ... وهم قوم نشطون يتسمون بالحيوية و الآداب في المعاملة، وذوو مزاج لائق."<sup>5</sup> و

<sup>1</sup> M. Mauroy : op cit, p386.

<sup>2</sup> نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 65.

<sup>3</sup> Dominique Valérian : op, cit, p207.

<sup>4</sup> Alain Mahé : op, cit, p157.

<sup>5</sup> وليم شالر: المصدر السابق، ص 113.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

روززي وكاريت هذا القول حين ذكرا أنهما لم يعثرا على الإطلاق على منطقة يعتني سكانها بحب الاستقرار وممارسة فنون الزراعة والفلاحة والصنائع وإتقانها والتفاني في العمل مثل سكان المنطقة المحيطة بهجاية وبالخصوص القبائل المستوطنة على ضفتي وادي الصومام<sup>1</sup>.

والأمر نفسه نجده عند دوماس حينما ذكر أنهم يتميزون به وباشتغالهم بالنشاطات الإقتصادية المتنوعة، إذ يعتبر منطقة القبائل الأكثر تصنيعا في كل الإيالة<sup>2</sup>. ويشاطر جون لو روي الكتاب الذين سبق ذكرهم حيث فقد ذكر أن سكان هذه المنطقة يمتازون بالذكاء والنشاط والحيوية، فهم يشتركون في هذه الخصائص مع سكان منطقة القبائل الكبرى، حيث يتفاني الرجل القبائلي عامة في عمله، ولا يعتبره عقابا أو إنقاصا من قيمته، فيقوم بنفسه بالأشغال كما تشترك معه زوجته<sup>3</sup>.

أما الوسائل التي كان السكان يستخدمونها في مختلف الصناعات وفي تحويل المواد الخام المتوفرة لديهم فهي أدوات ووسائل تقليدية بسيطة هي في الغالب من صنع أيديهم، ونظرا لبدائية وسائل الإنتاج فالإنتاج لم يكن وفيرا كما تفتقر بعض المنتوجات إلى الدقة والإتقان، علاوة على الجهد العضلي الذي تتطلبه الكثير من الصناعات وكان الصناع يستعينون في ذلك بتسخير الحيوانات لذلك من حمير وبغال وحيول وثيران، كما استخدموا مياه الأودية<sup>4</sup>.

بعد استعراضنا مقومات الصناعة المتوفرة في بجاية خلال الفترة المدروسة من ثروات طبيعية متنوعة ويد عاملة ماهرة ووسائل يدوية بسيطة سوف نحاول الآن أن نقف على أنواع الصناعات التي كان السكان يمارسونها وسنبداً مع أهم صناعة منتشرة في المنطقة وهي صناعة زيت الزيتون.

<sup>1</sup> Rozet et Carette : *l'Algérie*, Firmin Didot frères Ed, Paris, 1850, p51.

أنظر كذلك:

A. Prigent: op, cit, p166.

<sup>2</sup> R.B : *description de l'état d'Alger, de ses dépendances, de ses villes principales, de ses ports*, l'imprimerie de Perret, Metz, 1830, p11.

<sup>3</sup> Jean le Roy : op, cit, p239.

<sup>4</sup> Rozet et Carette : *Ibid*, p52.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

### أ- صناعة السفن:

تعتبر من الصناعات الاستراتيجية والأساسية حيث تميز العصر الحديث بميمنة النشاط البحري والقرصنة، ولذلك أولى الحكام الأتراك لهذه الصناعة العناية الفائقة.

تشير الكثير من المصادر إلى وجود دار لصناعة السفن في بجاية قبل الاحتلال الإسباني، لا سيما في العهد الموحدوي والحمادي والحفصي، إلا أن الاحتلال الإسباني دمر المدينة وقضى على كل رموزها ومؤسساتها، وعلى الرغم من ذلك احتفظ سكان بجاية ببعض الصناعات تحت الحكم العثماني فكانوا يصنعون بعض أنواع السفن مثل الشالوب والترتان والبريك والشباك والغليوطة<sup>1</sup> والغالير (القوادس) والأغربة<sup>2</sup>.

يذكر المؤرخون أن مدينة بجاية كانت تحتوي على دار لصناعة السفن قبل مجيء الأتراك إليها تسمى دار الصناعة<sup>3</sup>، حيث يقول عنها الإدريسي: "وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل، والمراكب والسفن والحراي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران"<sup>4</sup>. ثم جاء البحارة التركي بيري رايس في أواخر القرن الخامس عشر ليشير إلى ثراء منطقة بجاية بالأخشاب وقال أن البحائيين يستقدمون الخشب من هذه المنطقة في السفن<sup>5</sup>، وهذا دليل على استمرار هذه الصناعة منذ عهد مومت. وأكد وجود هذه الصناعة زارها الرحالة الأمريكي مردوخاي نوا (نوح) الذي زار بجاية في عام 1813 حين قال

<sup>1</sup> Mouloud Gaid : l'Algérie sous les Turcs..., p189.

<sup>2</sup> المنور مروش: المرجع السابق، ص71.

<sup>3</sup> Salim Khouache: **Chronologie de la ville de Béjaia**. www. http. htm, 27/11/2008.

<sup>4</sup> الشريف الإدريسي: المصدر السابق ص63.

أنظر كذلك،

Paul Masson: **Histoire des établissements français dans l'Afrique Barbaresque, (1560-1793), Algérie, Tunis, Tripolitaine, Maroc**, Librairie Hachette, Paris, 1903.

<sup>5</sup> Piri Reis : tr. Mantran, op, cit, p165.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

أهم لم تكن وقتها ذات أهمية كبيرة، ولكنها لا تزال تحتفظ على بعض الآثار الدالة على تاريخها العريق ولاحظ موقعها الاستراتيجي ومينائها الحصين الآمن واعتبره الأحسن في مملكة الجزائر، وقال أنها كانت بما بعض الصناعات كصناعة السفن التي كانت تعتمد على خشب المنطقة، وصناعة الحديد الذي كان يجلب إليها من الجبال المجاورة<sup>1</sup>، وبناء على ما ذكر نور الدين عبد القادر فإن الأتراك كانوا يجلبون الخشب لصناعة مراكبهم من الغابات التي كان سكان هذه المدينة يستغلونها من قبل.<sup>2</sup>

وكانت هذه المناطق الغاية تكتسي أهمية بالغة لدى السلطة العثمانية التي لا ندري متى التفتت إليها؟، حيث تتوفر على ثروة خشبية هائلة ومتنوعة جعلت الاتصالات بين قائدها (بجاية) والحكام الأتراك في مدينة الجزائر لا تنقطع، منذ الشروع في استغلال هذه الثروة، ولا سيما بعد ازدياد الأوروبي على الإيالة منذ مطلع القرن الـ18م، ومن الأمثلة على هذه الاتصالات نذكر الرسالة التي بعث بها أحمد خوجة بن فرحات مرابط الكراسته في بجاية، إلى إبراهيم وكيل الحرج في مدينة الجزائر مؤرخة في أوائل ذو القعدة دون ذكر السنة يخبره بأنه قام بإرسال الأخشاب المطلوبة إلى مدينة الجزائر، كما يخبره بأنه قام بمساعدة الحاج خليل وكيل الزيت في شراء كميات الزيت الذي طلب منه من بجاية، وإرسالها مع نفس الأسطول الذي كان ينقل الأخشاب.<sup>3</sup> وفي تاريخ معاير أرسل نفس الوكيل وهو أحمد خوجة بن فرحات مرابط مصلحة الكراسته إلى إبراهيم وكيل الحرج في أوائل شهر شوال دون ذكر السنة، يخبره بأنه قام بشراء كميات الزيت الذي طلب منه وقام بإرساله مع كميات الأخشاب المطلوبة كذلك إلى مدينة الجزائر.<sup>4</sup> وفي رسالة أخرى مؤرخة في أواخر شهر محرم دون ذكر السنة، أرسلها أحمد خوجة إلى

<sup>1</sup> Mordecai Manuel Noah: **Travels in England, France, Spain, and the Barbary States in the Years 1813-14 and 15** by New York: Kirk and Mercein, 1819, p369.

<sup>2</sup> نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 65.

<sup>3</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 6.

<sup>4</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 8.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

إبراهيم وكيل الحرج، يخبره فيها بوصول رسالته إليه، كما يخبره أنه أرسل بعض البضائع إلى مدينة الجزائر على متن السفن، و يعلمه كذلك بتواجد سفينة تابعة لدولة أجنبية قرب ميناء بجاية.<sup>1</sup>

وفي 12 رجب 1240 (1 مارس 1825م) أرسل إبراهيم وكيل الحرج رسالة إلى مصطفى رايس قايد بجاية يلومه فيها على تقصيره في أداء المهمة التي كلف بها، فيرد عليه قايد بجاية برسالة أخرى يبرر فيها تأخر وصوله إلى مدينة الجزائر بسبب صعوبة الملاحة وتقل البضائع التي كانت تحملها السفن.<sup>2</sup> فهذه الرسائل تبين بوضوح مدى حرص السلطة على ضمان تدفق مادة الخشب إلى مدينة الجزائر نظرا لارتباطها بقوة او ضعف الأسطول الجزائري.

### ب- الأسلحة:

يعود تاريخ صناعة الأسلحة في بجاية إلى عهود سابقة حيث كان الاهتمام بصناعتها والعناية به ضرورة حتمية اقتضاها موقع بجاية البحري وعلاقتها الواسعة مع مختلف الأمم الأوروبية من جهة، وكذا الروح العسكرية والسياق نحو التسليح والغزو التي كانت سائدة خلال فترة العصور الوسطى والحديثة. ولم يكتف حكام بجاية منذ العصر الحمادي مرورا بالموحدين ثم الحفصيين، بتحسين المدينة فقط، بل أسسوا دار لصناعة الأسلحة والسفن، حيث ساعدهم على ذلك توفر المادة الخام لهذه الصناعات بالمنطقة، من ثروة خشبية (أشجار البلوط والدفلة والبندق) والتي كان سكان القبائل يصنعون منها الفحم الخشبي المستخدم في صناعة البارود، وكانوا يستخدمون كذلك معدن الحديد المتوفر وغيره مما تتطلبه الصناعة الحربية.<sup>3</sup> فقد اشتهرت قبائل زواوة بصناعة البنادق، في حين اشتهرت بني عباس بصناعة السيوف والخناجر والرماح.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 9.

<sup>2</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 17.

<sup>3</sup> لخضر درياش: المدفعية الجزائرية خلال العهد العثماني ذكره ماجستير، ص38.

<sup>4</sup> Daumas: op, cit, p147.

Carette: op, cit, p267.

Abd elhamid Merad Boudia: op, cit, p186.

ج- الصناعة الحرفية:

كانت منتشرة في المنطقة كما في باقي مناطق الإيالة، ومن العوامل التي ساعدت على انتشارها ورواجها افتقار المنطقة إلى المساحات الزراعية السهلية إذ الطبيعة الجبلية لا تسمح بذلك، فانصرف السكان نحو ممارسة النشاط الحرفي، لتغطية الحاجات الضرورية التي تتطلبها الحياة اليومية لا سيما الفلاحية منها، كما لعب السوق الكبير الذي كان يعقد خارج سور المدينة كل يوم خميس<sup>1</sup> دورا كبيرا في الترويج للإنتاج الحرفي، حيث كان سكان القرى الجبلية يجربون على التسوق للتزود بمختلف السلع والبضائع ونحو ذلك، وما يميزها أنها تنتشر في الأرياف حيث كانت كل قبيلة تختص في نوع واحد من الصناعة وتشتهر به وكانت بارعة فيه، وكان الحرفيون والصناعون المادة الخام المتوفرة في منطقتهم كالحجارة والخشب والآجر والطين والحديد، وكانوا يستوردون مواد خام أخرى من جهات ومناطق الإيالة<sup>2</sup>، فالحرفي كان عليه التردد على أسواق الإيالة بحثا عن المادة الخام والأدوات التي كانت تصنع محليا، لكي يضمن استمرار مصدر قوته من جهة، واستمرار حرفته في النشاط من جهة أخرى، فهذه الحرف عادة ما تكون وراثية في الأسرة، يتوجب على الحرفي المحافظة عليها والعمل على تطويرها.

وقد لاحظ طوماس شو أعمال الشغب والمناوشات التي كانت تحدث أيام السوق بين السكان، حيث كان المشاغبون يفتعلون الشجار فتعم الفوضى والمناوشات، وتكثر السرقات بين السكان، وهنا يبرز دور مرابط المدينة الذي لم يكن يكف عن توجيه النصح والإرشاد للسكان وكان يتدخل لفض النزاع ويحث على الابتعاد عن العنف والفوضى، ويفهم من حديثه أن الوسائل والأدوات الفلاحية المنتجة محليا كانت من بين السلع المعروضة للبيع، علاوة عن الزيت والتين والشمع التي كانت تصدر إلى أوروبا<sup>3</sup>.

فصناعة الحلبي والمجوهرات كانت تشتهر بما قبيلة بني يني، فيما كانت قبيلة فليسة تشتهر بصناعة الأسلحة البيضاء، وقبيلة بني عربة تشغل بصناعة النقود المزيفة التي كانت متداولة في

<sup>1</sup> Dapper : op, cit, p184.

<sup>2</sup> يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا، ج1، ص 53.

<sup>3</sup> Shaw: op, cit, p179.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

أسواق الإيالة رغم الرقابة الشديدة التي كانت تفرضها السلطة التركية، أما قبيلة بني عباس فكانت تختص في صناعة الأسلحة بما فيها المدافع والبنادق التي كانت تمتاز أذرعها بالصلاية وتصدر إلى السكاكين والسيوف والرماح والدروع، والأغطية والألبسة والأفرشة والبرانس، بالإضافة إلى لوازم الفروسية من لُحْم وسُرُوج وغيرها، وكانت قبائل زواوة تختص في صناعة القرميد والآلات الزراعية والصناديق الخشبية والأواني والأدوات المطبخية الخشبية وخلايا النحل، التي كانوا بارعين فيها،<sup>2</sup> كما كانوا يجيدون صناعة المطاحن الحجرية الخاصة بعصر الزيتون إذ الحجارة متوفرة.<sup>3</sup> وتجدر الإشارة إلى أن الرجل القبائلي مولع باقتناء الأسلحة كما يذكر دوماس فهو تقليد راسخ لدى السكان منذ عصور غابرة.

### د- الصناعة الحديدية:

كانت قبائل بجاية تشتهر بإنتاج مادة الحديد التي يستخدمونها في صناعة الأدوات الفلاحية، كما يصنعون الأدوات الحديدية الفولاذية وكان يستخدم الحديد في صناعة الآلات المستخدمة في النشاط الفلاح من فؤوس ومناجل ولوازم الحرثة و الألواح المستخدمة في الحياكة، وكانت منتشرة في كل قرية ودشرة نظرا للحاجة الضرورية لاستخدامها، فضلا عن صناعة الآلات الخاصة بالنسيج التي كانت تتقنها كل العائلات تقريبا، وتعد صناعة الزيت الصناعة الرئيسية في المنطقة مع تخفيف التين الذي توجه كميات كبيرة منه إلى التصدير.<sup>4</sup> وقد أشار المؤرخ مردوخاي نوا إلى وجود بعض الصناعات الحديدية في بجاية وقال أن الحديد كان يجلب إليها من الجبال الجاورة.<sup>5</sup>

أنظر كذلك

<sup>1</sup> M. Mauroy : Ibid, p388.

<sup>2</sup> Pierre Boyer: op, cit, p62.

<sup>3</sup> M. Mauroy : op cit, p386.

<sup>4</sup> Dumas et Fabar: op, cit, p26.

Jean le Roy : op, cit, p18.

M. Mauroy : op cit, p386.

<sup>5</sup> Mordecai Manuel Noah: op, cit, P369.

أنظر كذلك:



- الشمع:

أخذت صناعة الشموع في بجاية ونواحيها حصة الأسد من بين الصناعات التي كانت منتشرة منذ أقدم العهود، ولا تتعجب من قيام الأوروبيين بإطلاق اسم شمعة Bougie .

حيث اشتهرت بجاية منذ العصور الوسطى بإنتاجها لمادة الشمع التي كانت تصدر إلى أوروبا لاستخدامها في الإنارة وبالخصوص في الكنائس، ويكمن السبب وراء ازدهار الذي عرفته هذه الصناعة إلى توفر المنطقة على خلايا النحل مما يوفر مادة الشمع التي كانت تصدر بكميات كبيرة نحو أوروبا<sup>1</sup>.

وعلاوة على مختلف أنواع الصناعات التي سبق ذكرها يقوم السكان في بجاية ونواحيها من القبائل بصناعة العديد من المنتجات التي يستخدمونها في حياتهم اليومية مثل السلال التي تستعمل لقطف وحمل الثمار، ويحسون القرميد ويصنعون الطلاء وزيت الوقود باستخدام زيت الزيتون.

ويعرف السكان المحيطين بالمدينة استخدام مادة الكلس لكنهم لا يستعملونه سوى في تبييض المساجد وقباب أضرحة الأولياء أما في بيوتهم فيستخدمون الجبس حيث يوجد منجم قرب قبيلة بني مسعود أين يستخرج منه بكميات كبيرة<sup>2</sup> كما يصنعون الصابون الأسود باستخدام زيت الزيتون ومزجه ببعض النباتات ورماد نبات الدفلة الوردية، علاوة على صناعة الحصير والأفرشة باستخدام أوراق النخيل القصيرة، ويصنعون الحبال باستخدام الصوف وشعر الماعز<sup>3</sup>.

و- الصناعة النسيجية

تعتبر صناعة النسيج من أقدم الصناعات في منطقة القبائل، حيث تعتمد على المواد الخام المتوفرة في المنطقة، من صوف وكتان وحرير وقطن وقنب، ويعتبر ليون الإفريقي من أكثر المصادر التي تحدثت عن الصناعة النسيجية في بجاية بالتفصيل إذ يقول: "وينبت هناك الكتان والقنب

<sup>1</sup> Dominique Valérian : op, cit, p378.

<sup>2</sup> M. Mauroy :op, cit, p385.

<sup>3</sup> Daumas : op, cit, p58.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

بكثرة، وتصنع منهما كميات كبيرة من القماش وكله خشن".<sup>1</sup> وكان السكان يصنعون الأقمشة من كل الأنواع باستخدام الكتان والقنب اللذان يزرعان بالمنطقة.<sup>2</sup>

كما تتميز النسوة بمهارتهن في نسج الأفرشة والأغطية والزراي والحصير والملابس الصوفية.<sup>3</sup> كما أهن بارعات في صناعة الحلبي باستخدام النحاس الذي يمزجونه بالزنك.

وبما أن الأراضي الفلاحية محدودة في المنطقة فإن الرجال يضطرون إلى البحث عن العمل في المدن الكبرى كمدينة الجزائر أو قسنطينة حيث يقومون بتأجير سواعدهم مقابل أجره معينة فكانوا يشتغلون في مختلف الورشات ومنهم من يمتهن التجارة متجولا في الأسواق الأسبوعية لكي يتمكن من إعالة أسرته.<sup>4</sup>

ويشكل إنتاج وبيع زيت الزيتون العنصر الفعال والأساسي الذي طبع العلاقة بين السلطة العثمانية وسكان بجاية وقبائلها، إذ يعتبر الزيت المادة الأساسية في المنطقة بالإضافة إلى التين المجفف، ويحتل زيت الزيتون المرتبة الثانية في الاستهلاك في أغلب مناطق الإيالة الجزائرية بعد الحبوب، ويستعمل في الطبخ والإنارة وصناعة الصابون<sup>5</sup>، وكانت السلطة العثمانية تزود بكميات هائلة من الزيت من قبائل بجاية وناحيتها حيث تحدث المصادر أن هذه القبائل كانت تدفع الضرائب المفروضة عليها في شكل زيت وتين مجفف<sup>6</sup>. وكان الزيت يستخدم بكثرة في إنارة المصايح في البيوت والمساجد. وبالإضافة إلى الصناعات السابقة الذكر توجد الصناعة الجلدية في

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 50.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 407.

<sup>3</sup> Daumas et Fabar : **la Grande Kabylie Etudes Historiques**, Librairie centrale de la Méditerranéen, Alger, 1847, p133.

<sup>4</sup> Paul Bert : **Lettres de Kabylie. La politique algérienne**, Alphonse Lemerre Ed, Paris, 1885, p43.

<sup>5</sup> المنور مروش: المرجع السابق، ص 96.

<sup>6</sup> محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية، ص 97.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

مدينة بجاية ونواحيها، وقد شجع على هذه الصناعة توافر مادة الجلود واهتمام السكان بتربية المواشي<sup>1</sup>.

### ز- الصناعة الفخارية:

تعتبر صناعة الفخار من أقدم وأكثر الصناعات انتشارا لارتباطها بالحاجة اليومية لاستخداماتها في المأكّل والمشرب، وكان السكان بارعين فيها، وكانت هذه الصناعة في الغالب من اختصاص النسوة، ومن أهم المواد المصنوعة نجد في مقدمتها الصحن الكبيرة والصغيرة والجرار بأنواعها الكبيرة والصغيرة والكؤوس وكانوا يستعملون الزخرفة برسم أشكال هندسية مختلفة أو أوراق نباتية في غاية الدقة والجمال<sup>2</sup> بآلة حادة أو بمشط على الطين قبل أن يبسى، أما الرسم والزخرفة على الأواني فكانت تأتي في المرحلة الأخيرة وذلك بعد إخراج هذه الأواني من موقد النار<sup>2</sup>.

وإذا كنا لم نعثر على نصوص تاريخية أو كتابات تشير إلى وجود صناعة القرميد في بجاية ونواحيها، رغم من وجود إشارات في المصادر بوجود صناعة الفخار حيث يتوفر الصلصال الخام حول حوض الصومام<sup>3</sup> إلا أن نعتقد أنه من المؤكد أن السكان مارسوا هذه الصناعة نظرا للحاجة الماسة إليها من أجل تسقيف البيوت والمساجد. وتجدر الإشارة إلى أن السكان لا يزالون يمارسون هذه الصناعة في المنطقة إلى يومنا الحالي.

ولا بد من الاعتراف هنا أننا لا نملك معلومات دقيقة ومعطيات كافية حول فئة الحرفيين في مدينة بجاية هل كانت منظمة كما كان عليه الحال مثلا في مدينتي قسنطينة والجزائر؟ كمن الأمر المؤكد أن المدينة العديد من أصحاب الحرف طالما أنهم كانت عامرة بالسكان الحضر الذين تطعموا بالتواجد الأندلسيين المعروفين بإتقانهم الحرف والمهن ومهارتهم وبراعتهم فيها، وكان السكان الحضر بلا شك يلتقون أسبوعيا مع سكان الأرياف والبوادي من خلال السوق الأسبوعي

<sup>1</sup> Dominique Valérian : op, cit, p207.

<sup>2</sup> رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص275.

<sup>3</sup> Dominique Valérian : op, cit, p209.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الذي كان يقام قرب سور المدي<sup>1</sup> من جهة الشرق ليتبادلون السلع والمنتجات المتنوعة، فكانت كل مجموعة من المجموعتين تسوق فائض منتوجها المحلي، وكانت تلك الحرف منظمة في شكل نقابات ينتظم فيها كل الحرفيين كل حسب مجال عمله، وكان لهذا التنظيم فوائد كبيرة تعود على النظام واستقراره في هذه المدينة حيث سهل على الإدارة الاتصال بالأفراد في حالات الضرورة من خلال الاتصال بأمنائهم، علاوة على أن هذا النظام يوفر للدولة موردا اقتصاديا حيث كان كل صنف من الأصناف يدفع لخزينة الدولة مبلغا من المال يتفق عادة على الحماية المستقرة في المدينة، والمكلفة بالحراسة وفرض النظام في المدينة.<sup>2</sup>

### 3- التجارة

بحكم الموقع الجغرافي لبحاية وقبائلها وإطلالها على البحر مارس سكانها النشاط التجاري منذ القدم، وقد أشار الرحالين والجغرافيين القدماء إلى ذلك، واستمر السكان في نشاطهم التجاري خلال العهد العثماني، على الرغم من تقلصه وتراجعته. فالمؤرخ مرمول<sup>3</sup> دت عن التجارة في بجز ف : "ويبدو أن المدينة تمتعت لفترات طويلة بالسلم والأمان بفضل سياسة أميرها الرشيدة والذي كانت تربطه علاقات طيبة مع الجميع الأمر الذي انعكس على ازدهار التجارة، ولكن الضرر الذي ألحقه سكان بجزاية بالسفن الإسبانية عن طريق القرصنة جعل الملك فرديناندو يأ بارسال حملة عسكرية بقيادة بيدرو نافارو للاستيلاء عل<sup>3</sup>. " والأمر ذاته تحدث عنه ليون الإفريقي في قوله: "وكان أهل بجزاية على قدر عظيم من الغنى، يسلمون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا، ومن ثم كان سقوط المدينة وإرسال الكونت بيدرو نافارو لاحتلالها".<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أجمعت المصادر على أن الأسواق على العموم كانت تعقد خارج أسوار المدن، كما أشار ليون الإفريقي في مؤلفه وصف إفريقيا.

<sup>2</sup> ف. : قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة لوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص 87.

<sup>3</sup> Marmol : op, cit, p416.

<sup>4</sup> Gilbert Meynier : op, cit, p304.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وبناء على ذلك كانت وضعية سكان بجاية و نواحيها مريحة في أواخر العهد الحفصي رغم الصراع الذي كان قائما بين حاكم بجاية وأمير قسنطينة الذي سبقت الإشارة إليه، حيث ذكر أن التجارة في بجاية كانت مزدهرة، و أن تجار بجاية ونواحيها كانوا يلعبون دور الوسيط التجاري بين السودان الغربي ودول البحر الأبيض المتوسط ومنها الدول الأوروبية التي كانت تجارها مع بجاية واسعة منذ القدم<sup>1</sup>. وأشار المؤلف نفسه إلى أن أسواق بجاية كلها جميلة منسقة أحسن تنسيق<sup>2</sup>. ويقول فيرو: "وبالرغم من الانحطاط الذي أصاب المدينة إلا أن اسكان لم يعدموا الحيلة ولم يستكينوا للراحة فكانوا يحرون بسفنهم الصغيرة (من نوع الشباك والفلك) مع بداية الربيع تفاديا لعواصف الشتاء الهوجاء، حاملين البضائع التي اعتادوا تصديرها إلى مدن وموانئ الجزائر وهران وتونس وبونة تمثل تلك البضائع في زيت الزيتون والشموع والجلود والتين المجفف، وكانوا ويعودون محملين بالقماش ومواد كمالية والمحاصيل الموسمية، ولم يكن مسموح لهؤلاء بتسليح أنفسهم والقيام بالقرصنة التي هي من احتكار حكومة الأتراك"<sup>3</sup> وذكر بهذا الشأن الأسير الألماني سيمون بفايفر<sup>4</sup> أن سكان هذه المنطقة كانوا يبيعون فائض إنتاجهم إلى العرب أو للباي ويرسلون به إلى الجزائر، ويسوقون إليها كذلك الكثير من ا سل والشمع والصابون المصنوع من الزيت والرماد.<sup>5</sup> وعليه فالنشاط التجاري في بجاية ونواحيها يأتي في المركز الثالث بعد كل من الفلاحة والصناعة بمختلف أنواعها، فكان السكان يتعاطون التجارة بنوعيتها الداخلية المتمثلة في التردد على الأسواق اليومية والأسبوعية والموسمية المنتشرة في المنطقة وخارجها. حيث كان يقوم التبادل التجاري بين القبائل في ذه الأسواق بالتداول، حيث

<sup>1</sup> أمين الطي: المرجع السابق، ص 455.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 50.

<sup>3</sup> Féraud: « Histoire des villes... », p275

<sup>4</sup> هو طبيب وجراح ألماني كان أسير في مدينة الجزائر لمدة خمس سنوات أطلق سراحه عقب سقوط مدينة الجزائر سنة 1830.

<sup>5</sup> سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر، أبو العيد دودو، شركة دار الأمة، ط1 2008، ص ص 141-142.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

تبيع كل قبيلة الفائض من إنتاجها، وتتزود بالمنتجات التي لا تقوم أو ليس بإمكانها زراعتها في مناطقها، فيتحقق الاكتفاء الذاتي من خلال التبادل بالمنتجات.<sup>1</sup>

ويفيدنا ليون الإفريقي بمعلومات قيمة عن النشاط التجاري في المنطقة حيث يقول: "ويقيم هؤلاء الجلبليون فيما بينهم معارض وأسواق لا يوجد فيها غير البهائم والحبوب والصوف وقليل الأقمشة الجلوية من المدن المجاورة"<sup>2</sup>. ونظرا لأهمية الأسواق فقد خصصناها بالدراسة في العنصر التالي من هذا البحث.

وعلاوة على التجارة الداخلية كان للسكان كان نشاط خارجي يعتبر امتداد للجهود السابقة، حيث تخبرنا المصادر عن تردد التجار الجنوبيين والمارسيليين على مدينة بجاية خلال العهود الفترات الأولى للوجود العثماني<sup>3</sup>، إذ لم تكن تسمح الأرض الوعرة بزراعة القمح ولذلك كان سكان المنطقة يعتمدون على التجارة مع الأمم الأوروبية<sup>4</sup>، وكان نشاطهم يتمثل في تجارة الزيت والتين المجفف والجلود والشمع، لكن هذا النشاط لم يستمر طويلا حيث تراجع شيئا فشيئا بسبب سياسة الحكام الأتراك وطمعهم وجشعهم، ولم يحدث الركود التجاري في بجاية فقط بل تأثرت كل المدن الساحلية في الجزائر.<sup>5</sup>

وكانت العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر والدول الأوروبية خلال العهد العثماني من اختصاص يهود ليفورن ووكلاء من مارسيليا، حيث كان يقيم هؤلاء التجار اليهود في مدن عديدة في الجزائر والقالة وحصن فرنسا (Bastion de France)، وعناية وبجاية، ليقوموا بمهـ الشراء والبيع والتفاوض مع التجار المحليين ومع كبار رجال الدولة.<sup>6</sup>

وتشير الوثائق الأوروبية إلى أن بجاية كانت تصدر كميات معتبرة من مادة الخشب المستقدم من الجبال المجاورة، كما كانت تصدر كميات من التمور والتين المجفف، إلى مختلف

<sup>1</sup> Alan Mahé: op, cit, pp 26-27.

<sup>2</sup> ليون الإ : المصدر السابق، م 2، ص 46.

<sup>3</sup> Féraud: «Notes sur Bougie...», p 297.

<sup>4</sup> Marmol : op, cit, p416.

<sup>5</sup> Féraud: Ibid, p 297.

<sup>6</sup> Belhamissi: op, cit, p32.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الدويلات والإمارات الأوروبية كمايورقة وملاقا والبندقية وفرنسية<sup>1</sup> فقد جاء في أحد التقارير الفرنسية أثناء الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على الجزائر عقب حادثة المروحة وتوتر العلاقات بين البلدين، حيث شوهدت سفينة في ميناء بجاية أعتقد قبطان سفينة فرنسية أنها تعود لقرصنة جزائريين وبينما كان يتهيأ لقصفها علم أنها سفينة تجارية تابعة لمملكة توسكانيا. مما يدل على أن هذه المملكة كانت تحتفظ ببعض النشاط التجاري مع الإيالة، أو ربما منعها الحصار الفرنسي فلجأت لتفريغ حمولتها في ميناء بجاية.<sup>2</sup>

ولم تكن بجاية ومناطقها غنية بمادة الأحشاب المستعملة في بناء السفن فحسب بل كانت غنية ببعض المحاصيل الزراعية والتي كانت مدينة الجزائر وغيرها من المدن الرئيسية في الجزائر خلال العهد العثماني تنزود بها، وعلى ما يبدو فقد كان يشرف على كل محصول وكيل، فوكيل الزيت كان مكلفا بالتفاوض مع السكان في أسعار الزيت وشرائه ثم إرساله في السفن إلى مختلف المدن، ووكيل التين يقوم بمهامه في هذه المادة، ونفس الأمر مع وكيل الحبوب، ففي رسالة غير مؤرخة بعث بها القايد مصطفى وأحمد خوجة بن فرحات وكيل الكراست إلى إبراهيم وكيل الحرج بمدينة الجزائر، يخبره فيها بأنه قام بتسوية بعض المسائل التجارية مع بعض سكان القبائل وأن الحاج خليل وكيل الزيت قام بجمع كميات الزيت المطلوبة منه.<sup>3</sup>

وفي رسالة غير مؤرخة بعث بها أحمد خوجة بن فرحات إلى الوكيل المذكور بأنه أتمى تسوية بعض المسائل التجارية مع السكان والمتعلقة ببيع الزيت، كما تضمنت الرسالة تشديد الحراسة على بجاية.<sup>4</sup> مما يدل على حالة التوتر في العلاقات بين الإيالة والدول الأوروبية مع مع بداية القرن التاسع عشر. وفي رسالة أخرى غير مؤرخة أرسلها كاهية الديوان بجيجل

<sup>1</sup> Dominique Valérian : op, cit, p387.

<sup>2</sup> Moulay Belhamissi : « les grands dossiers de l'histoire, le blocus d'Alger (1827-1830)...».

في مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، ع 1، 1986، ص 9.

<sup>3</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 29.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ورقة رقم 34.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

إلى إبراهيم وكيل الحرج يخبره بتحطم سفينة محملة بالقمح كانت في طريقها إلى بجاية<sup>1</sup>، وبعث الحاج خليل وكيل الكراست في بجاية رسالة غير مؤرخة إلى يحي آغا العرب بشأن ترميم بعض الحصون<sup>2</sup>، وهذا يفند أقوال بعض الأوروبيين الذين زاروا بجاية وعلى رأسهم الرحالة الفرنسي بيسونال الذي يذكر أن الأتراك لم يكونوا يصلحون أي شيء<sup>3</sup>.

ومما لا شك فيه أن سكان بجاية قد مارسوا التجارة البحرية منذ القدم، بحكم المدينة المطل على البحر، فالغبريني يخبرنا أن القرصنة أو النشاط البحري كان مزدهرا ببجاية منذ أواخر العهد الموحد حيث بجاية "بلدة غزاة" وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواحل الجزائر الرومانية (يقصد الجزر الأوروبية) وغيرها وكان قراصنتها يثون الرعب في قلوب المسيحيين، وكانوا يسوقون السبي الذي بلغ درجة أصبح يباع بفضاوان من الروم بسوداء من الوحش<sup>4</sup>

ورغم أن ميناء بجاية فقد نشاطه نوعا ما خلال العثماني إلا أنه ظل يسجل بعض النشاطات التجارية مع الدول الأوروبية، من خلال تصدير واستيراد بعض المنتوجات، فونتيردي بارادي فإن ميناء بجاية كان ينقل حمولة أو حمولتين من زيت الزيتون إلى مدينة الجزائر، بالإضافة إلى كميات هائلة من التين المجفف الذي كانت قبائل بجاية تشتهر بإنتاجه<sup>5</sup> و في ذات السياق بربروجر أن أمراء كوكو كانت لهم علاقات تجارية هامة مع بعض الدول الأوروبية حيث كان مرسى الفحم بأزفون مسرحا للمبادلات بين الطرفين<sup>6</sup>. و يؤكد نفس الكلام المؤرخ

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ورقة رقم 47.

<sup>2</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3205، ورقة رقم 102.

<sup>3</sup> Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, p 325.

<sup>4</sup> الغبريني: المصدر السابق، ص23.

<sup>5</sup> *Venture de Paradis: Tunis et Alger au XVIIIe siècle*, édition sindbad, Paris, 1983., p126.

<sup>6</sup> Berbrugger: op, cit, p105.

أنظر كذلك

Pierre Dan: op, cit, p115.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الأمريكي جون وولف<sup>1</sup>. وذكر بوتان في تقريره أن بجاية كانت تصدر إلى مرسيليا ماحوسته 3000 كيلة من الزيت سنويا بالإضافة إلى كميات من الشمع.<sup>2</sup> وكان ثمن هذه البضائع يتسلمه الداى مسبقاً<sup>3</sup>، و زيت الزيتون الذي كانت تنتجه بجاية ومناطقها له سمعة طيبة في أوروبا، وهذا ما يؤكد الفتحصل الأمريكي وليم شالر الذي قال: " كانت بجاية ومناطقها الجبلية في الماضي أهم مستودع في الإيالة، والمناطق المجاورة ولكنها تتمتع بخصب نادر لإنتاج الزيتون، ولو نالت التشجيع الذي تستحقه لأصبحت مدينة ذات تجارة واسعة ومهمة".<sup>4</sup> وكانت الصوف البيضاء والبنية من ضمن السلع المصدرة انطلاقاً من ميناء بجاية إلى أوروبا حيث كانت مطلوبة في صناعة النسيج من أغطية وأفرشة وألبسة متنوعة.<sup>5</sup>

ويبدو أن سكان بجاية وناحيتها كانوا يمارسون حرفة صيد المرجان كذلك كما أشار إلى ذلك الرحالة الفرنسي ديفونتان الذي زار بجاية سنة 1784 حيث ذكر في حديثه عن صيد المرجان، أن سكان بجاية كانوا يمارسون حرفة صيد المرجان الذي كان متوفر في سواحل المنطقة.<sup>6</sup>

وبناء على ما ورد في إتفاقية امتياز صيد المرجان التي حصلت عليها فرنسا فإن نشاط الفرنسيين قد امتد حتى سواحل بجاية، فالإتفاقية المذكورة نصت على أن فرنسا تتمتع بامتياز صيد المرجان في السواحل الجزائرية الواقعة بين الرأس الأحمر وبجاية،<sup>7</sup> فمن المحتمل ان الفرنسيين كانوا يشترون هذه المادة الثمينة من الصيادين البجائيين.

<sup>1</sup> جون باتيست وولف: الجزائر وأوروبا (1830/1500)، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، م. و. ك، الجزائر، 1986، ص 297.

<sup>2</sup> Boutin:op, cit, p210.

<sup>3</sup> وداد بيلامي: النفوذ السياسي والإقتصادي ليهود الجزائر، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004، ر.غ. م، ص 69.

<sup>4</sup> وليام شالر: المصدر السابق، ص 37.

<sup>5</sup> Dominique Valérain : op, cit, pp 342-361.

<sup>6</sup> Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, p229.

<sup>7</sup> Belhamissi : **Histoire de la Marine...**, p115.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكانت منتوجات بجاية من شمع وجلود ذات سمعة طيبة في أوروبا حيث كان التجار يتنافسون على الحصول عليها منذ فترة طويلة ترجع إلى القرون الوسطى<sup>1</sup>. و يذكر بوايه بهذا الشأن أن منطقة القبائل تشتهر بتجارة زيت الزيتون الذي كانت تنتجه المنطقة بكثرة، بالإضافة إلى كميات التين المخفف حيث كانت القوافل المحملة لهذين المنتوجين لا تتوقف عن التردد على ميناء مدينة الجزائر حتى ألتصق في الذاكرة الشعبية اسم الزيتوني الذي كان يعرف به هذه المادة لدى السكان. وكانت بجاية مركز تجاري هام بالنسبة للأهالي على الرغم من إهمال السلطة العثمانية لها،<sup>2</sup> ولا شك أن تجارة هذين المحصولين كانت رائجة داخليا وخارجيا، وكانت مربحة.

### -الأسواق ومكانتها في حياة السكان:

أجمعت المصادر أن الإيالة الجزائرية عامة وبجاية ونواحيها كانت تنتشر فيها الأسواق، وكانت منظمة ومتنوعة، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الناس اليومية.<sup>3</sup> كما سجلت الحوليات تأكيدها على مكانة الأسواق لدى السكان، وتخصص الأسواق وفقا لمنتوجات المناطق المختلفة، ونشاط السكان بها،<sup>4</sup> وعلى الرغم من أن القبائل المحيطة ببجاية لم تكن كلها خاضعة للسلطة التركية، إلا أن حاجتها إلى التزود بالمواد الضرورية لتعيش كان يحتم عليها التردد على أسواق التل لبيع الفائض من الإنتاج من زيت الزيتون والتين المخفف على الخصوص، وبعض المصنوعات الحرفية التي يصنعونها بأنفسهم، وبالمقابل يتزودون بالحبوب ومواد أخرى ضرورية لبعض الصناعات كالجلود والصوفية.

وبما أن المنطقة فقيرة من حيث الأراضي الزراعية بحكم طبيعتها الجبلية القاسية ذكره، والكثافة السكانية المرتفعة نسبيا، فإن بعض سكان المنطقة من الرجال كانوا مجبرون على الذهاب إلى المناطق التلية لتأجير سواعدهم في العمل في الحقول كخماسين، أو عمال موسمين في البساتين والحدائق وورشات البناء في المدن الكبرى في مدينتي الجزائر وقسنطينة اللتان

<sup>1</sup> Eugène Ravbaud : «Histoire de Bougie...», in **Echo de Bougie**, 18/03/1928, p1.

<sup>2</sup> Boyer: op, cit, p62.

<sup>3</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 51.

<sup>4</sup> Gilbert Meynier : op, cit, P 215.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

كانتا الوجهة الأولى لهم، ومنهم من كانوا يضعون أنفسهم في خدمة السلطة<sup>1</sup>. وقد سبق لليون الإفريقي أن أشار إلى سكان جبال بجاية في قوله: "وكان السكان الجبليون يعيشون في فقر، لأن الأراضي الزراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا."<sup>2</sup>

وكان سكان القبائل التي كانت تتوفر بها الثروة الخشبية المعنية بمصلحة الكراست يشتغلون في هذه المصلحة التي وفرت لهم مصدر لقمة العيش، كانت سببا في تقبلهم للحكم العثماني، فكانوا يقومون بعملية التقطيع والفرز ثم نقل أحزمة الخشب بمختلف الوسائل إلى ميناء بجاية ووادي الزيتون بالقرب من مدينة أوقاس الحالية، مقابل مبالغ من المال متفق عليها مسبقا.<sup>3</sup>

وكان وزير الكراست تتمثل مهمته في تسجيل كل ما يتعلق بعملية تقطيع الأشجار ونقلها ودفع رواتب العمال الذين كانوا يقومون بهذه المهمة، وكان الأشجار بعد انقضاء فصل الشتاء، فبعد تعيين الأشجار يتم تقطيعها وجعلها في احزمة قم نقلها إلى المراسي الثلاثة وهي: زيامة المنصورية، ووادي الزيتون غرب رأس أوقاس، ووادي تازة في الجهة الغربية من مدينة جيجل، وكان وزير الكراست يستعين بمهندس متخصص ليقوم الأشجار المعنية بالتقطيع بوضع علامة عليها، ثم يأتي العمال ويقومون بعملهم.<sup>4</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن صناعة السفن عرفت انتعاشا كبيرا بعد معركة لبيانت عام 1571م حيث تمكنت الإيالة في عهد البايلر باي علج علي حسب دوغرامون من صناعة 240 من نوع الغالير، مجهزة أحسن تجهيز لتعويض الخسارة التي لحقت بالأسطول الجزائري في هذه المعركة الشهيرة في ظرف سنتين فقط، فلا شك أن مصلحة الكراست التي كانت تشتغل في بجاية ونواحيها، رغم سكوت المصادر قد لعبت دورا محوريا في تجديد قطع هذا الأسطول ومن المؤكد

<sup>1</sup> Boyer: « Contribution... », p47.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص 50.

<sup>3</sup> Féraud: « Histoire des villes... », p275.

<sup>4</sup> Féraud: « Exploitation des fôrêts de la Karasta... », in RA, p68.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

أن ذلك يكون قد عاد بالمنفعة على سكان المنطقة الذين كانوا يشتغلون بالمصلحة، التي أصبحت مصدر رزق لهم.<sup>1</sup>

المبحث الرابع: المؤسسات الثقافية والدينية ودورها في بجاية ونواحيها:

### 1-المؤسسات التعليمية:

يجمع مؤرخو وكتاب الفترة العثمانية في الجزائر، أن السلطة التركية لم تأخذ على عاتقها الإشراف على العملية التعليمية، بل تركت السكان هم من يقوم بهذه المهمة فكان التعليم حراً، وفي منطقة بجاية كغيرها من مناطق الإيالة كان الطالب يعتبر كرجل الدين وليس رجل العلم كما يذكر بوايه<sup>2</sup>. والأمر المؤكد أنه بعد أن كانت بجاية حاضرة للعلم والحضارة والنشاط الاقتصادي المتميز، قضى الاحتلال الإسباني على كل ذلك، حيث نتج عن هذا الاحتلال هجرة جماعية للسكان، كما سبقت الإشارة إليه، وكان قد لجأ الكثير من العلماء إلى منطقة بني يعلى وأسسوا هناك الزوايا والمدارس والمعاهد للتعليم ولنا مثال على ذلك في معهد بني يعلى الذي توارثت الإشراف عليه أسرة بن مصباح.<sup>3</sup> فامتدّت المؤسسات التعليمية والثقافية، كما امتدّت المؤسسات العمرانية والاقتصادية والدينية<sup>4</sup> وضاع مع الاحتلال التراث البجائي من تأليف العلماء ومخطوطاتهم وكتبهم حسب ما صرح به أحد سكان بجاية القدماء إلى النقيب دوماس<sup>5</sup>، ويذكر هانوطو و لوتورنو أن التواجد الإسباني في المنطقة، وعجز السلطة الحفصية عن الدفاع عن ممتلكاتها، أدى إلى انقسام منطقة القبائل إلى ثلاث ممالك أو إمارات، كانت الحدود بينها متعارف عليها، وهي مملكة كوكو وإمارة قلعة بن عباس وقبيلة بني جبار، وبخصوص

<sup>1</sup> de Grammont: op, cit, p106.

<sup>2</sup> Pierre Boyer : «contribution...», 70.

<sup>3</sup> المهدي البوعديلي: التعريف بالمخطوطات، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 135.

<sup>4</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 91.

<sup>5</sup> Eugène Daumas: *Mœurs et Coutumes de l'Algérie*, éd, ANEP, Alger, 2006, p 113.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

الموروث الحضاري لبجاية يقول أن العلماء والمشايخ نزحوا إلى المناطق الجبلية الحصينة حيث أسسوا زوايا ومعاهد فاقت شهرتها حدود الوطن،<sup>1</sup> وأما تراث بجاية فقد ضاع مع الاحتلال الإسباني<sup>2</sup> كمعهد تاموقرة وزاوية شلاطة التي أشاد بها عبد الكريم الفقون في منشور الهداية.<sup>3</sup> وهذا ما يؤكد مولود قايد في قوله أن سكان بجاية بعد الاحتلال الإسباني تفرقوا في جهات مختلفة، فمنهم من لجأ إلى قلعة بني عباس مثل الأمير عبد الرحمان بغرض تنظيم الصفوف ثم العودة لقتال الغزاة، ومنهم من لجأ إلى تونس، ومنهم من لجأ إلى إسبانيا واعتنق المسيحية، تحت حماية الإمبراطور شارلكان.<sup>4</sup>

وكانت اللغة العربية لغة الإدارة والتعليم والمعاملات لغة الكتابة عند العلماء والفقهاء وأصحاب الطرق الصوفية والزوايا هي اللغة، أما لغة التخاطب بين عامة السكان البربر، وكتب البعض من المتعلمين باللهجة البربرية ولكن بالحروف العربية، وذلك بغرض إيصال معلوماتهم وأفكارهم إلى قرائهم من البربر.<sup>5</sup>

و عرفت الجزائر كغيرها من البلدان العربية والإسلامية الركود العلمي والثقافي طوال فترة الوجود العثماني تقريبا، فإلى أي أسباب يعود هذا الركود؟ لقد أرجع بعضهم هذا الركود إلى طبيعة النظام العثماني بصفة عامة، والجزائري بصفة خاصة، التي اتسمت بالطابع العسكري والحروب والمواجهات المستمرة مع القوى والأمم المسيحية الأوروبية، حيث يقول غوستاف لوبون بهذا الصدد: "من المعروف عن الترك ولاسيما العثمانيون منهم، أنهم في أطوار حياتهم

<sup>1</sup> Hanoteau et Letourneaux: *La Kabylie et les coutumes Kabyles*, T1, Paris, 1893, p145.

<sup>3</sup> عبد الكريم الفقون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقدم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 134.

<sup>4</sup> Mouloud Gaid: op, cit, p67.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص292.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وأدوار حكمهم منذ عرفهم التاريخ ليسو بأمة حضارة مبدعة، فرغم طول بهذا القطر من أرض المغرب الإسلامي -الجزائر-، لم نر لهم مدينة أنشأوها أو أرضا مواتا أحصبوها.<sup>1</sup>

وقد كنت قد تطرقت في الفصل الأول إلى التخريب الذي تعرضت له مدينة بجاية على يد الإسبان، ولجوء جموع السكان إلى الجبال، وكان كثير من رجال العلم والثقافة قضوا نحبهم أثناء مقاومتهم للاحتلال، حسب شهادة المؤرخ أبو علي إبراهيم الميريني<sup>2</sup>، وكان انشغال السكان الذين بقوا على قيد الحياة الفرار والنجاة بأنفسهم، فلم يكن لديهم الوقت للتفكير في إنقاذ كتبهم ومخطوطاتهم، التي لا شك أنها أحرقت على يد الجنود الإسبان، وكان للجوءهم إلى الجبال دور في انتعاش النشاط العلمي والثقافي بهذه المناطق الجبلية الموحشة، وتجلّى ذلك واضحا في كثرة عدد الروايات التي انتشرت بسبب الاحتلال الإسباني.<sup>3</sup>

وقد سبقت الإشارة إلى الازدهار العلمي والحضاري الذي عرفته بجاية في عهود سابقة، غير أن هذا الازدهار لم يلبث أن توقف وانقطع جراء تعرضها للاحتلال الإسباني، وما نجم عنه من خراب العمران وتوقف دورها الحضاري. وبسقوط بجاية دخلت منطقة القبائل كلها مرحلة الانحطاط الفكري، ورغم استمرار المدارس القرآنية والزوايا في العطاء المعرفي، فغن غياب مركز تنوير تشع منه العلوم والمعارف، ويوفر فرصة للتحصيل العلمي المعمق قد جعلها تنحدر إلى درك الزوال، حتى صار مستواها المعرفي دون المتوسط، خاصة وان لسان العامة هو لسان أمازيغي، ولعل خير صورة تجلّى فيها تراجع المستوى التحصيلي، أهيلوب الشيخ الورتيلاني المنحط الذي وصفه الشيخ أبو يعلى الزواوي في قوله<sup>4</sup>: "ورحلة الشيخ سيدي الحسين هذه مفيدة من حيث الفوائد العلمية والجغرافية مشحونة بها، وأما من حيث العربية والإنشاء فإلى العامة أقرب منها

<sup>1</sup> غوستاف لوبون: تاريخ العرب نقلا عن عيد الرحمان الجليلي: المرجع السابق، ج3، ص518.

<sup>2</sup> Féraud: «Conquête de Bougie... », p234.

<sup>3</sup> Marmol: op, cit, p416.

<sup>4</sup> محمد أرزقي فراد: الفكر الإصلاحى في كتابات أبي يعلى الزواوي 1866-1952، مذكرة ماجستير،

جامعة الجزائر، 2005 ص ص 39-40.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

إلى الفصحى".<sup>1</sup> وبذلك أصبحت المعارف في منطقة القبائل "كحال تلك البحيرة التي انقطعت عنها منابع المياه، فتحوّلت بمرور الأيام إلى مستنقع يضر ولا ينفع، فهجر الناس تدريس المؤلفات وقل استنساخها، وتراجع التدريس في القرى وخاصة حواضر الأشراف والمرابطين، حتى انحسر في تحفيظ القرآن في الألواح فقط، والأخطر من ذلك أن زحف الجهل إلى الفئات المتعلمة تعد الأسر الشريفية توارث العلم والمعارف فانحرف الخلف إلى التباهي بآثر السلف، و تقديس الأفراد محل تقدير الأعمال وحتى صارت قبور العلماء وأولياء الله الصالحين مزارات للتبرك والتضرع والدعاء، وأعطت الدهماء ما لله لهذه الأموات، وصار الناس يؤدون اليمين الغليظة بأسمائهم، كما صارت قبلة للرجال والنساء على حد سواء كلما اعترضت سبيلهم مشكلة ما، كالجفاف والمرض والعقم، فيشد الجميع إليها الرحال لتقدم القرابين والندور في مواكب مهيبة".<sup>2</sup> فهذا عرض حال الواقع الثقافي في المنطقة خلال العهد العثماني.

و على الرغم من التدهور الذي عرفته بجاية بسبب الاحتلال السابق الذكر، إلا أنها بالنسبة لسكان منطقة القبائل ومدينة تشد إليها الرحال، سواء من طرف التجار، أو طلبة العلم والعلماء والمشايخ،<sup>3</sup> كما أنها احتفظت ببعض المؤسسات التعليمية والثقافية والدينية، حيث أدت عودة بعض السكان إليها بعد طرد الإسبان منها إلى انتعاشها، وهذا ما نلمسه من حديث الرحالة المغربي الزياني<sup>4</sup> الذي حل بها لم يفدنا بمعلومات وافية عنها واكتفى

<sup>1</sup> أبو يعلى الزواوي: الإسلام الصحيح، مطبعة المنار، القاهرة، 1926، ص 62.

<sup>2</sup> أحمد ساحي: أعلام من زواوة، مطبعة الثورة الإفريقية، د. ت، ص 85، نقلا عن محمد أرزقي فراد: الفكر الإصلاحى...، ص 40.

<sup>3</sup> Josseline Dakhli : la Grande Kabylie..., p15.

<sup>4</sup> هو أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني، ولد بفاس عام 1147 1743م وتوفي عام 1249 / 1833م، وهو رحالة مغربي زار الجزائر وسجل ملاحظاته عنها في كتاب له عنوانه الترجمانة الكبرى حققها عبد الكريم الفلالي عام 1967 وهي تتضمن معلومات هامة حول أوضاع الجزائر خلال القرن الثامن عشر.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

بالقول: "وخبر ما مررنا به من الجزائر إلى قسنطينة من المدن فكله خراب غير مدينة بجاية فقد أسست على عهد الروم وكذلك قسنطينة وعناية فلما فتحها المسلمون ( صالح رايس) بقيت بها المدارس ودرست بها العلوم".<sup>1</sup>

وأورد لوي سالفاتور أن بجاية تمتاز بتواجد عدد كبير من الأضرحة التي يزورها السكان ويقصدونها منها: مسجد سيدي الصوفي وضريح سيدي بومدين وضريح بما وراية عند قمة الجبل، وأختها لالا اليامنة وسيدي التواتي وسيدي عبد القادر حارس البحار وسيدي يحي وسيدي البتروني وسيدي عبد الحق حارس باب البنود<sup>2</sup> وكان التعليم منتشرًا في بجاية وقبائلها حيث أورد يعود لـ 1840 أن كل دشرة ( ) كان لها طالب يحسن اللغة العربية، وهو يقوم في الوقت نفسه بوظيفة إمام مسجد الدشرة، و يعلم الأطفال الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن الكريم، وكان بعض هؤلاء الطلبة قد حصلوا على مبادئ الفقه في الزوايا، وهم يحكمون بالصّح بين الناس أيضًا، و كان في كل قبيلة أماكن مخصصة للتعليم، وتكوين التلاميذ في المواد التي ذكرناها سابقًا، في أماكن عادة تكون قريبة من الزاوية التي فيها، أو كان فيها مرابط اشتهر بين الناس بالورع والتقوى، والدراسة مجانية، ومدتها غير محددة، والجميع المعلمون والتلاميذ، يعيشون من تبرعات وإحسان القبائل المجاورة، وأحيانًا من مداخيل مخصصة لهم بمقتضى الأوقاف التابعة للزاوية منذ عهد سالفه.

### أ- المساجد:

تشير المصادر المحلية والأجنبية إلى أن بجاية وقبائلها كانت عامرة بالمساجد والجوامع قبل العهد العثماني، فعشية الاحتلال الإسباني يخبرنا المؤرخ أبو علي إبراهيم المريني أنه كان في بجاية 72 مسجدًا<sup>3</sup>، وجامع وزاوية للتعليم<sup>4</sup> ويؤكد هذا القول كل من ليون الإفريقي<sup>5</sup> ومرمول الذي أضاف إلى القول أن بها مساجد كثيرة وعدد كبير من المدارس التي تدرس فيها مختلف

<sup>1</sup> الزباني: الترجمة الكبرى: نقلا عن مولاي بلحميسي، المرجع نفسه، ص 183.

<sup>2</sup> Louis Salvator de Habesbourg: op, cit, p20.

<sup>3</sup> Féraud: **Histoire des villes...**, p65.

<sup>4</sup> Ibid : p66.

<sup>5</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 360.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

العلوم<sup>1</sup> الدينية والقانون والفلسفة.<sup>2</sup> م يبق منهم عشية الاحتلال الفرنسي إلا 50 ومسجدا وزاوية حسب ما أورد كارات.<sup>3</sup> ولاحظ شوفاليه دارفيو وجود مسجد جامع في وسط المدينة وهو حسن البناء والمنظر بالقرب من مقر حاكم المدينة التركي وهو من إنجازات الأتراك.<sup>4</sup> ويعد الجامع الأعظم الذي بني بأمر من الداى مصطفى باشا عام 1794م من أكبر الجوامع في مدينة بجاية خلال العهد العثماني.

وكان بناء المساجد والحرص على الإنفاق عليها ظاهرة عثمانية ميزت الكثير من الحكام، إن أهمية ومكانة الإحسان في الشرع الإسلامي الذي يترجم التعبير عن الشكر لله عز وجل على عطاءاته لمخلوقاته، ويفسر الإحسان كجزء من واجب الصدقة الديني الذي يكافأ عليه يفعلهما، جعل الحكام يولون لهذا الجانب العناية الكبيرة والاهتمام من خلال بناء المساجد وسبل الخيرات وإيقاف الأموال على رعايتها وصيانتها، كما كانوا يتصدقون على الفقراء لا سيما في شهر رمضان حيث كانوا يقدمون وجبات مجانية للمحتاجين والفقراء طيلة هذا الشهر، إن الإيمان بأن الإحسان للغير يرضي الله ويجلب بركاته على صاحبه كان راسخا لدى الحكام العثمانيين فكانوا متحمسين للقيام به<sup>5</sup>

ويقدم لنا شارل فيرو وصفا دقيقا لهذا الجامع حيث يقول: " كان طول هذا المسجد 220 ذراعا وعرضه 150 ذراعا وله واجهة مزينة بسبعة عشر عقدا، وباب كبير على يمينه ويساره ألواح خشبية مزينة بكتابات رائعة الشكل وبجانب هذا الشكل الباب الرئيسي كان للمسجد 22 بابا أخرى أحدها يؤدي إلى بيت صلاة مخصصة للنساء، كان يجرس هذا الباب شيخ طاعن في السن، وداخل المسجد توجد 32 سارية من الرخام وقبة عظيمة، وكانت أرضية المسجد مفروشة بالرخام، وجدرانه مغطاة بالزليج وعليها آيات قرآنية، ومئذنة ارتفاعها يبلغ 60 ذراعا وضلع قاعدته المربعة 20 ذراعا<sup>6</sup>، وذكر أبو القاسم سعد الله أن الفرنسيين حولوا هذا الجامع التحفة إلى

<sup>1</sup> Marmol : op, cit, p416.

<sup>2</sup> Pierre d'Avity: op, cit, p191.

<sup>3</sup> Ibid : p67.

<sup>4</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p180.

<sup>5</sup> خليل إينالجت: المرجع السابق، ص68.

<sup>6</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p188.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

ثكنة عسكرية ثم إلى مستودع لمعداتهم العسكرية بعد استيلائهم على بجاية<sup>1</sup> ويعد جامع سيدي الصوفي أحد أهم بنايات التي شيدها الأتراك في بجاية تخليدا للولي المتصوف سيدي الصوفي.

ويوجد داخل سور المدينة العديد من الجوامع بعضها تقدم والبعض الآخر لا يزال قائما، ومن أهم وهناك جوامع ومساجد أخرى ان بعضا لا يزال قائما أثناء الاحتلال الفرنسي، وبعضها في حالة خراب كما أشار إلى ذلك شارل فيرو، ومن جملة تلك الجوامع ذكر: جامع سيدي الموهوب و الذي كان في حالة خراب، وجامع السوق وأما الزوايا فنذكر زاوية لالة وزاوية سيدي أحمد النجار، وزاوية بابا سفيان تسوري وزاوية سيدي الصادق ومن الأضرحة سيدي يحي أبو زكريا قرب الميناء، ضريح يما وراية وضريح سيدي المرجاني<sup>2</sup>.

ويذكر أن الإسبان ومن بعدهم الفرنسيين لما علموا أن المقاومة كان يقودها رجال الدين والمرابطين، كانوا ينتقمون منهم من خلال تخريب زواياهم وأضرحتهم<sup>3</sup>.

### ب- الزوايا

كانت الزوايا في مدينة بجاية منتشرة وكانت تقوم بمهمة التربية والتعليم، ولعل أبرز رجال العلم والتصوف في هذه المدينة الشيخ الولي سيدي محمد التواتي الذي ظلت زاويته تقوم بالنشاط التعليمي إلى غاية عام 1828م<sup>4</sup> ويبدو أنه خلال هذه الفترة وحتى في العهد العثماني كان لكل مدينة ولها يحميها من الأخطار الخارجية، حيث كان السكان في الجزائر عامة وبجاية خاصة، يعتقدون في قدرة الأولياء والمرابطين الخارقة، فهم في نظرهم ساهرون على حماية المدينة من الغزو، كما يعتقدون حسب ما أورد فيرو أن الخراب الذي لحق بجاية كان بسبب دعوة المرابط أبو جملين الذي دعا على سكانها إهازا<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> أبو القاسم يعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5 ص91.

<sup>2</sup> T. de la Branerrais : op, cit, p81.

<sup>3</sup> Nadjma A. F. Lalmi: op, cit, p67.

<sup>4</sup> Féraud: «Notes sur Bougie...», RA n°3, 1858, p295.

Féraud: Ibid, p 296.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

فكان سيدي محمد التواتي حامي مدينة بجاية، وكانت زاويته حسب شهادة بيرى رايس ملجأً للمجاهدين وغزاة البحر، فبعد أن توفي تمكن الأعداء من احتلالها، ومن غير المستبعد أن يكون هذا الولي هو من حرض سكان وهران على مقاومة الإسبان وطلب منهم الاستعانة بالاندلسيين لخبرتهم في مجال الحروب<sup>2</sup> وكانت هذه الزاوية تأوي إلى غاية عام 1828 أزيد من مئتي طالب، حسب فيرو، كان يتخرج منها القضاة والأئمة والأدباء، ولكن اعتداء مجموعة من الطلبة على فتاة تنحدر من عائلة نافذة في المدينة أدى إلى غلق الزاوية بأمر من الباشا حسين داي بعد أن اشتكى إليه السكان.<sup>3</sup>

وتنتشر في بجاية وضواحيها العديد من الزوايا والأضرحة والمساجد التي كانت ولا يزال بعضها مزارا للسكان إلى يومنا هذا، ومن أشهر تلك الزوايا والأضرحة بالإضافة إلى تلك التي سبق ذكرها نذكر سيدي الصوفي، و سيدي بومدين الغوث الذي عاش في بجاية مدة خمسة عشر عاما ثم توفي بتلمسان، وضريح سيدي البتروني، وضريح سيدي عبد الحق، وضريح سيدي محمد أمقران وضريح سيدي عبد القادر النجار الذي يعده السكان حارس البحار، وضريح سيدي يحي<sup>4</sup> الذي يقع غرب المدينة والذي سمي حليج سيدي يحي باسمه، وضريح سيدي عيسى الشبوكي وضريح سيدي عبد الحق الإشبيلي.<sup>5</sup>

و الزاوية مكان مقدس لدى الجميع، ولا أحد يجرؤ على انتهاك حرمتها، وأبرز هذه الزوايا في منطقة بجاية وحوض الصومام؛ هي زاوية شلاطة التي كانت تبعد مسافة يومين عن سوق بجاية، وهي تقع على الضفة اليسرى لوادي آقبو، وتسمى أيضا زاوية ابن علي الشريف، ولها سمعة

<sup>1</sup> Piri Reis: p159.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص466.

<sup>3</sup> Féraud: «Histoire de Béjaia », in l'Oued-Sahel, jeudi 4 Avril 1901, n°1564, p2.

<sup>4</sup> سيدي يحي وهو الفقيه المعروف بأبو زكريا يحي المتوفى ببجاية في عام 611 / 1215م، دفن في المكان الذي يحمل اسمه قرب شاطئ البحر وكان ضريحه مزارا للسكان، حتى قامت إدارة الميناء بإحراقه.

<sup>5</sup> Louis Salvator de Habsbourg : op, cit, p21.

أحمد توفيق المدني: عثمان باشا، ص 158.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

علمية تجاوزت حدود الوطن الجزائري؛ إذ كانت تأتيها الهدايا من فاس، وتونس، وإسطنبول.<sup>1</sup> وقد صنّفها سعيدوني في المركز الثالث من زوايا المنطقة من حيث الأهمية بعد زاوية عبد الرحمان اليلولي<sup>2</sup> بإيلولة بنواحي تيزي وزو، وزاوية ابن أبي داوود بتاسلنت<sup>3</sup>. وفي دراسة لهانوتو ولوتورنو منطقة القبائل ما يؤكد هذه الظاهرة، فقد قالوا إن كل فرد في المنطقة كان يعرف القراءة و الكتابة، وللسكان مدارس عامة، واعتزاز قوي بدعم هذه المدارس؛ إذ يرون في ذلك واجبا دينيا ونخوة خاصة، وكانت لغة التدريس هي اللغة العربية، والمواد كلها إسلامية، وهي تتبع المنهج الإسلامي، والتعليم في هذه المؤسسات كان يتم على مرحلتين: ابتدائي و ثانوي، وهناك بعض المدارس الخاصة بإشراف المرابطين، وهم يشرفون عليها بحماس ديني قوي، فهم يستقبلون العديد من الشباب، ويوفرون لهم المسكن، والمأكل، ويعلمونهم بحانا، وكان التعليم نفسه عموميا، وهذه الظاهرة كانت عامة، كما لاحظها مختلف الكتاب، ونعني ظاهرة انتشار الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن العظيم في المدن والأرياف على السواء، ضمن برنامج موحد يقوم على دراسة العلوم الإسلامية باللغة العربية.<sup>4</sup> أما الطور الثانوي فيحصلون عليه في المساجد الكبيرة بالدروس العامة المتطورة، أو بالهجرة في سبيل العلم إلى مناطق أو بلدان أخرى.<sup>5</sup>

وتعد المعمرات دينية القرآن و العلوم عموم، إنتشرت في البوادي القبائل الإحتلال الإسباني<sup>6</sup> وهي أحيانا الكتابيب القرآنية و أحيانا الزوايا غير الخلواتية<sup>7</sup> وكثيرا أزرت الرباط في الحرب،<sup>1</sup> وكانت لها أحباس و قوانين داخلية محكمة،

<sup>1</sup> محمد حرّاث: «عوامل انتشار الوعي الديني والقومي في منطقة زواوة» منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد 09 2012م، ص- ص 185 - 215.

<sup>2</sup> هي من أهم زوايا المنطقة وأقدمها لا تزال نشط وتحوّلت في الوقت الحالي إلى معهد لتحرير الأئمة.

<sup>3</sup> ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر العثماني، دويلات المغرب العثمانية، الجزائر، تونس، طرابلس،

المغرب، دار البصائر، الجزائر، 2003، ص142.

<sup>4</sup> Hanoteau et Letourneaux: op, cit, p122.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 122.

<sup>6</sup> المهدي البوعبدلي: الرباط و الفداء...، ص 26- 27.

<sup>7</sup> يحيى بوعزيز: أوضاع المؤسسات، ص 20.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

محكمة، وهو الفرق و الزاوية التي تخضع الطريقة أو مقدمها، وفي حدوث أي خلاف داخلي، يتولى قدماء المتخرجين الإصلاح، و إرجاع الأمور إلى نصابها<sup>2</sup> المعمرة تسير ذاتيا و ينقسمون إلى طبقات:

-القداشين: التلاميذ الصغار.

-الطلبة: وهم يفوقون القداشين وثقافة.

-المقدمون و الوكلاء و الشيوخ الكبار، وهي أعلى تسيير المؤسسة التي يرأسها الشيخ يساعده عدد كبار الطلبة و المقدمين و الوكلاء، وبالإضافة إلى التعليم تأوي المساكين و تقدم لهم المساعدات<sup>3</sup>.

وأثناء الاحتلال الفرنسي لم يبق من الزوايا يزاول النشاط الديني والثقافي سوى زاويتين حسب ما جاء في تقرير فرنسي يعود لهذه الفترة، وهما زاوية سيدي الصوفي، وزاوية سيدي سفيان، أما زاويتي سيدي التواتي وسيدي يحيى فقد قضى عليهما الفرنسيون حيث حولوا الأولى إلى ثكنة عسكرية، والثانية إلى مقر إدارة الميناء<sup>4</sup>.

ويبدو أن مدينة بجاية كانت تعرف الحركة العلمية والنشاط الثقافي كغيرها من المدن الجزائرية حينئذ، وهذا ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله في حديثه عن العالم يحيى الشاوي (1096 / 1685م) الذي ذكر أنه من المؤكد أن يكون قد زار بجاية ومعاهدها لأخذ العلم عن<sup>5</sup> كما لا يستبعد أن الرحالة الورتلاني يكون قد درس في بجاية حسب ما ذهبت إليه الباحثة في الأنثروبولوجيا نجمة عبد الفتاح العلمي<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> المهدي البوعبدلي: الرباط و الفداء ص 27.

<sup>2</sup> : المرجع السابق، ص 194.

<sup>3</sup> : المرجع نفسه، ص 194.

<sup>4</sup> Rapport sur les diverses questions posés par Mr le Gouverneur Général du 31 mai 1849, n° 1745, Maison Mairie de Béjaia, par Charles Féraud.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص 105.

<sup>6</sup> Nedjma Abd el fettah Lalmi: op, cit, p61.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وكانت بجاية عامرة بالعلماء والمراكز العلمية لكن الاحتلال الاسباني وما نتج عنه من تخريب دفع العلماء ورجال الفكر إلى الهجرة إلى المناطق الجبلية المنيعّة القريبة من بجاية حتى يتجنبوا الخطر الاسباني<sup>1</sup>. وهذا ما نلمسه في نص الرسالة التي بعث بها العالم سيدي عبد الرحمان الثعالبي من مدينة الجزائر إلى صديقه الشيخ سيدي محمد التواتي عالم ومرابط بجاية في أواخر القرن الخامس عشر، التي يحذره فيها من غزو خارجي وشيك وينصحه بترك المدينة وحمل كتبه ومخطوطاته لحمايتها من التلف والضياع<sup>2</sup>.

وفي نواحي بجاية ظلت زاوية الشيخ يحي العيادي في تاموقرة، نشطة يأتيها الطلبة من جهات القطر، وكان هذا الولي من أعلام مدينة بجاية ووجهائها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، كان زميلا لعبد الرحمان الثعالبي، وصديقا للشيخ محمد التواتي مرابط بجاية، وهو صاحب مؤلف الوظيفة الذي تناوله بالشرح كل من الحسين الورتلاني (1713-1779) والشيخ الخروبي الطرابلسي، ويذكر البعض وهو أمر لم تتأكد منه، أنه عندما تحسس الشيخ يحي العيادي بقدوم الغزو الإسباني للمدن الساحلية للمغرب الأوسط، كان قد استعد لهذا الأمر وفكر في الانسحاب واللجوء إلى المناطق الجبلية المنيعّة، وذلك لإنقاذ الحياة العلمية والثقافية، وضمان استمرارها، فلجأ إلى قرية تاموقرة حيث أسس زاوية لمزاولة التعليم بها<sup>3</sup>، ويذهب أحد الكتاب إلى القول أن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي هو من أرسل إلى الشيخ يحي العيادي يخبره بأمر خطر النصارى على المدن الساحلية، فانتقل إلى تاموقرة<sup>4</sup>. ت لهذا الولي زاوية في مدينة بجاية أم لا؟ لم نعثر لها على أثر في المصادر التي بحوزتنا، ومن المحتمل أن يكون الشيخ يحي من مدرسي زاوية سيدي التواتي، ويدعم قولنا هذا تلك الصداقة التي كانت تجمعهما، حيث استمرت المراسلات بينهما بعد استقرار الشيخ يحي العيادي بقرية تاموقرة<sup>5</sup>. والظاهر أن بجاية وناحيتها عرفت الانحطاط العلمي وهبوط في

<sup>1</sup> Djamil Aissani, Djamel eddine Mechehed : op, cit, p139.

<sup>2</sup> المنور مروش: القرصنة... ص 57.

راجع كذلك، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1.

<sup>3</sup> منشورات جمعية جيهيماب، جامعة بجاية، 2009.

<sup>4</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 234.

<sup>5</sup> الحسين الورتلاني: المصدر السابق، ص ص 9- 10.

## الفصل الثالث: - - - - - السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

المستوى التعليمي وكذا ضعف الإنتاج العلمي خلال القرن السادس عشر، ولا شك أن حالة عدم الاستقرار الذي عرفته إيالة الجزائر طوال فترة القرن السادس عشر الميلادي كانت السبب وراء الركود الفكري والثقافي الذي ميز الإيالة ككل حسبما أشار إليه أبو القاسم سعد الله.<sup>1</sup>

ومن هنا يمكننا أن نتساءل أين ذهبت المنشآت العمرانية لمدينة بجاية في العصر الحديث؟ أين ذهب علماؤها وأدباؤها وكتابها؟، ومما لا شك فيه أنه طالما كانت بجاية مركز إشعاع علمي وحضاري في الفترتين الحمادية والحفصية فمن الضروري أن تكون لها مكتبات زاخرة بكنوز الكتب و المخطوطات فأين ذهب كل ذلك؟

وكان السكان يعتقدون في كرامات الأولياء حتى بعد مماتهم ومن ذلك القصة التي أوردتها فيرو والتي سمعها من أفواه قدماء المدينة مفادها، أن ضريح المرابط سيدي محمد أمقران بقرية أمدان تعرض للإهمال والنسيان منذ مدة، مما الحق به أضرارا بليغة، فلما انتشر وباء الكوليرا الذي حصد العديد من الأرواح في القبائل المحيطة بوادي الساحل، ارتأى أحد أحفاد المرابط المذكور أن يستغل هذا الوباء للفت انتباه السكان إلى حالة الضريح المزرية والقيام بترميمه وإعادة الاهتمام به، إلى حيلة حيث ادعى أن المرابط زاره في منامه وأخبره أن الوباء سيستمر في المنطقة طالما الضريح مهمل، فأسرع السكان من كل جهة لترميم الضريح والقبة والاهتمام به لما شاع الخبر بينهم فتوقف الوباء حسب ما يذكر فيرو على يد هذا المرابط.<sup>2</sup> وفي السياق نفسه أورد ذات الكاتب سكان بجاية يعتقدون أن الانحطاط الذي عرفته بجاية خلال العهد العثماني بعد أن كانت حاضرة المغرب الأوسط يرجع إلى سببين رئيسيين: يتمثل السبب الأول في الاحتلال الإسباني الذي تسبب في خراب وإفقار السكان وإفقارها، والسبب الثاني يتمثل في دعوة سيدي بوجملين التي سبق الحديث عنها.<sup>3</sup>

هذا وقد شهدت بجاية تحت إدارة الأتراك، الانحطاط والتراجع في مكانتها الاقتصادية والحضارية، فأخذت مدينة الجزائر مكانتها وتطورت على حسابها تطورا عجيبا، فبينما كانت هذه

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 39 وما يليها.

<sup>2</sup> Féraud: « Notes sur Bougie... », p302.

<sup>3</sup> Ibid, p296-197.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

المدينة تتطور وتنمو، كانت بجاية تتراجع وتتقهقر حسب ما لاحظ برانشفيك<sup>1</sup>، فلم يعد سكان بجاية يقومون بالنشاط البحري الذي اعتادوا القيام به من قبل، وأصبحوا لا يملكون إلا حوالي عشرين سفينة من نوع الفلوك أو الشباك، كانوا يستعملونها في التجارة مع مدن تونس وهران الجزائر وعتابة، حيث كانت تجلب المنتجات الزراعية، وأما الحبوب فكانت تجلب من المناطق المجاورة للمدينة، وخلال موسم الشتاء كانت السفن تترك في الميناء، وكانت السفن تصنع في دار الصناعة عند أسفل القصبة<sup>2</sup>. ونجد نفس الملاحظة سجلها الرحالة الفرنسي بيسونال الذي زار بجاية وجدها في<sup>3</sup>

وعلى الرغم من أن السلطة العثمانية لم تهتم بالتعليم ولا بالثقافة سواء من حيث التمويل أو التوجيه والإشراف والتسيير<sup>4</sup> كما لم تكن لها سياسة ثقافية أو تعليمية خلال فترة تواجدتها بالجزائر<sup>5</sup>، إلا أن شهادة الرحالين والقناصل الأوروبيين كلها تؤكد أن عدد المتعلمين في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي كان يفوق عدد المتعلمين بفرنسا<sup>6</sup>، وأشاد بعضهم بالعناية التي كان السكان يولونها لتعليم أبنائهم، كما أشاروا أيضا إلى كثرة عدد المدارس والزوايا والمساجد التي كان يتم فيها التعليم، ولاحظ شو أن العثمانيين كان همهم الجري وراء الربح من خلال ممارسة التجارة والبحث عن الفرص المالية ومن ثمة لم يكن العلم يع<sup>7</sup>

وأما التعليم في بجاية المدينة فإنه لم يكن حظه أوفر من المدن الجزائرية الأخرى، على الرغم وعودة بعض النشاط لياة العلمية والثقافية، وإنهم لم تكن قوية كما كانت من قبل، حيث كان علماء وطلبة المنطقة يزاولون دراساتهم في الزوايا التي كانت منتشرة فيها، ثم

<sup>1</sup> روبر برانشفيك: المرجع السابق، ص 411.

<sup>2</sup> Louis Salvator de Habsbourg: op, cit, p41.

<sup>3</sup> Peyssonnel et Desfontaines : o, cit, p465.

<sup>4</sup> Marcel Emerit : «L'état intellectuelle et moral de l'Algérie en 1830», **Revue de l'histoire moderne et contemporaine**, t1, 1954, p

<sup>5</sup> حول الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني راجع، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي

ج 1-2.

de Paradis : op, cit, p145 .

<sup>6</sup> أنظر:

<sup>7</sup> Shaw : op, cit, p354.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

يهاجرون إلى تونس خاصة أو إلى المشرق لاتمام تعليمهم هناك ثم العودة، أو الاستقرار بهذه البلدان كما فعل البعض.<sup>1</sup>

وقد اشتهرت بجاية وناحيتها بعلماءها، الذين تجاوزت سمعتهم حدود الإيالة الجزائرية : محمد بن عبد العزيز المتناي البجائي (865- 930 1461-1524)، وهو لغوي أصولي منطقي فرضي، من فقهاء المالكية ولد في متنانة من أعمال بجاية ثم سكن بجاية وتعلم بها وبتونس ثم دخل القاهرة في طريقه إلى الحج وبها أجازه السخاوي.<sup>2</sup>

وأما العالم أحمد بن محمد الحاج البجائي التلمساني عاش في النصف الأول من القرن السادس عشر (العاشر الهجري)، وتقلد القضاء في بجاية، وقام بشرح قصيدة النفحات القدسية لأبي الحسن علي بن باديس التي يمدح فيها الولي عبد القادر الجيلاني، سماها "أنس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس" ولأحمد البجائي هذا تأليف أخرى في السيرة النبوية أهمها شرح الشقراطسية.<sup>3</sup> ويعد الشيخ سيدي محمد أمقران من مشاهير علماء وأولياء بجاية في القرن السدس قال الورثيلاي: "وأما سيدي محمد أمقران فكان من أكابر الأولياء وهو من القرن العاشر يعني آخره وأخذ من الحادي عشر وكراماته ظاهرة وأحواله باهرة فلا يحتاج " <sup>4</sup> ونظرا للدور الذي لعبه هذا المرابط في تأكيد السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها فإننا خصصناه بالدراسة في الفصل الرابع من هذا البحث.<sup>5</sup>

وكان أحمد بن ثابت البجائي الذي توفي سنة 1125 / 1736م من علماء بجاية حيث قال عنه الشيخ الحفناوي في مصنفه تعريف الخلف برجال السلف أنه فاضل وصوفي من آثاره "التفكر والاعتبار في فضل الصلاة على النبي المختار".<sup>6</sup> وأما علي بن محمد بن علي البجائي

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 415.

<sup>2</sup> أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ص212.

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص416.

<sup>4</sup> الورثيلاي: الرحلة، ص27.

<sup>5</sup> Ch. Féraud : « Histoire des villes... », p87.

<sup>6</sup> أبو القاسم الحفناوي: المد ، ص144.

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

كان كذلك من علماء بجاية وكان من مقرئيه ومؤدبائها، له تأليف عديدة ولكن لم يصل إلينا سوى كتاب في الفلك والحساب يحمل عنوان "تبصرة المبتدي وتذكرة المهتدي" كما يقول أبو القاسم سعد الله. وليست لدينا معلومات وافرة عن هذا العالم سوى أن الشيخ ابن علي الشريف صاحب زاوية<sup>1</sup> اعتمد عليه في تأليفه الموسوم "معالم الاستبصار وهو من جاء على ذكره.<sup>1</sup> فمن المحتمل أنه من علماء القرن السابع عشر. وأما اليلولي محمد السعيد بن علي الشريف(1238-1314 -1820-1897م)، الزواوي بلدا الشلاطي مولدا اليلولي صقعا، أبو الفضل باحث من الفقهاء له اشتغال بالتاريخ، أسس معهدا بشلاطة تخرج منه العديد من علماء زاوية والجنوب، من آثاره "الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار" و"التوسم والاستدلال على محاسن أخلاق النساء والرجال"، وودكر أبو القاسم سعد الله أن كتاب في<sup>1</sup> باللغة الأمازيغية<sup>2</sup>، وله تأليف أخرى في السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، والملوك والأمراء<sup>3</sup>.

ويستخلص من الكلام الذي جاء في وضعه الرائد شارل فيرو حول وضعية المؤسسات الثقافية في بجاية خلال القرن التاسع عشر، أنه في حالة سيئة للغاية، وأرجع

### 2- مؤسسات الأوقاف:

تعتبر الأوقاف من أهم المظاهر التي ميزت العهد العثماني في الجزائر، حيث كثرت وازداد انتشارها في هذا العهد وتنوعت، وكانت تشكل مصدر رئيسي للمؤسسات التعليمية والدينية، كما كان لها دور اجتماعي واقتصادي، ورغم وجود مؤسسة الأوقاف في بجاية خلال العهد العثماني، إلا أننا لم نعثر على كثير من الوثائق المتعلقة به، وذلك يعود إلى قلة عدد السكان في اعتقادنا، ففيرو يخبرنا أن المساجد كان ينفق عليها من عائدات المخازن التي كان يشرف عليها وكيل يتقاضى راتبه من عائداتها، أما الزوايا فكان يتم الإنفاق عليها من عائدات الأملاك الوقفية، وتبرعات المحسن

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 415.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص150.

<sup>3</sup> عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية،

بيروت، 1980، ص 356-357.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وصدقات الزوار، بالإضافة إلى أن بعض الزوايا كانت تحصل على نصيبها من زكاة العشور، وكانت الأراضي المحبوسة تقع في إقليم قبيلة مزاية، وقبيلة إغيل عزة وبني مسعود خارج أسوار المدينة.<sup>1</sup>

وتشير وثائق محفوظات سجل بيت المال في أكس أون بروفانس بفرنسا أن سكان بجاية كانوا يوقفون أملاكهم على فقراء مكة والمدينة وعلى الحرمين الشريفين، وقد عثرنا على وثائق عديدة لأشخاص أوقفوا أرض أو حقل في بلاد تسمى الياقوتة خارج مدينة بجاية ويبدو أنها حقل من حقول الأشجار المثمرة<sup>2</sup> وبناء على ماجاء في وثيقة فإن المهاجرين الأندلسيين كان لهم نصيب كذلك في أوقاف مدينة بجاية.<sup>3</sup> ومن الأمثلة على هذه الأوقاف نذكر: تحبيس الحاج محمد مقزول آغة الترك بن عيسى جميع الشطر الخاص به من جميع الرقعة الكائنة ب وادي الصغير خارج بلد بجاية، وتحبيس بلاد خارج بجاية تعرف بالياقوتة وتحبيس مسعود بن موسى بن قايد بجاية، و الحاج اسعيد بن بن عمار صالح البجاوي. وتحبيس بنت محمد بن سليمان مؤرخ في صفر عام 1233 / نوفمبر 1818م، أول بلاد في بجاية تعرف بالياقوتة بيد حسن بن علي. وتحبيس أولاد سيدي عبدي وموسى بن سيد محمد أمقران في عمارة ومعهما السيد محمد جمعي في أوائل شعبان عام 1237 (أفريل 1822م) وتحبيس محمد بلحاج علي البجاوي جميع ما على ملكه المحروسة بجاية داخلا وخارجا، وتحبيس محمد بن علي بن عبد الرحيم البجاوي بجميع ما على ملكه بتاريخ أواسط ذي الحجة عام 1237 / سبتمبر 1822م، نصف الدار ونصف اللجنة ونصف اللجنة الأخرى على أولاده أواسط رمضان عام 1240 / فبراير 1824م.

ولم تكن ظاهرة تحبيس الأموال والأملاك في بجاية كما في غيرها من مدن الإيالة الجزائرية حكرا على الرجل فقط، بل نجد النساء يراهن الرجال في هذا المجال حيث تشير الوثائق إلى أسماء ساء أوقفن أملاكهن على الزوايا ومراكز التعليم ومن ذلك تحبيس الولية أمينة بنت عمر البابوري

<sup>1</sup> Féraud: « Notes sur Bougie... », p302.

<sup>2</sup> ANOM, FR, 15MIOM/15.

<sup>3</sup> FR ANOM, 15MIOM33/ n°.1722-196.1721

## الفصل الثالث:----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

بجميع أملاكها داخل بجاية وخارجها، وكذلك تحبب فاطمة بنت الجمعي الانجشاري ثلاثة أرباع من دار داخل بجاية وبحومة الشيخ الربع الباقي دخل لملكه.

وعلى غرار مدن الإيالة الأخرى كان يشرف على مؤسسات الأوقاف موظف تقوم الدولة بتعيينه، لكي يشرف على تسيير شؤون هذه الأوقاف يُعرف بالناظر أو الوكيل، وكان دوره يتمثل في الإشراف على المخزن الذي إليه الفواكه المجففة والقمح والزيت<sup>1</sup> كان المقدم المشرف الأساسي إدارة الزاوية واستقبال الهدايا و الهبات التي كانت تمنح لها<sup>2</sup>.

### المبحث الخامس: الأحوال الصحية في بجاية ونواحيها

#### 1- تطور عدد سكان مدينة بجاية:

من الصعب جدا تتبع حركة تطور السكان في بجاية خلال العهد العثماني بسبب غياب الإحصائيات الدقيقة من جهة والظروف الخاصة التي مرت بها بجاية وقبائلها من أحداث وهجرات ، والأمر الأكيد الذي تجمع حوله المصادر أنها كانت عامرة بالسكان إبان العهد الحفصي حيث تشير مصادر إلى أن عدد سكان مدينة بجاية وحدها دون حساب فضائها الريفي في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بلغ عشرون ألف بيت أي حوالي مئة ألف نسمة، هذا العدد في بداية القرن السادس عشر الميلادي إلى 8 آلاف بيت أي حوالي 40 ألف حسب تقدير ليون الإفريقي<sup>3</sup>، وأثناء الاحتلال الإسباني استطاعت الحكومة تجهيز 8 آلاف مقاتل، وبعد الاحتلال الإسباني افقرت المدينة حيث هجرها السكان إلى المناطق الجبلية المجاورة، وبعضهم انتقل إلى المدن الكبرى كالجزائر وتونس وقسنطينة<sup>4</sup>.

ورغم عودة المدينة إلى حظيرة الدولة العثمانية سنة 1555م كما هو معلوم، إلا أن عدد ن السكان من فضلوا العودة إلى ديارهم من القبائل التي كانت تقطن بالقرب من المدينة.

<sup>1</sup> Delpeche : «La Zaouia de Sidi Ali...», p88

<sup>2</sup> Ibid, p87.

<sup>3</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص .

<sup>4</sup> Elie de la Primaudai : « Le commerce et la navigation de l'Algérie », R.A.C, 1860, voir annexe II, p 358.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وسجل لنا فيرو في تقرير وجهه إلى الحاكم العام مؤرخ في 31 ماي 1830 أن بجاية أهم المدن الجزائرية الأكثر كثافة خلال العهد العثماني وذكر أن عدد تراوح بين 15000 و17000، انخفض عشية سقوط بجاية إلى 2000 الفرار الجماعي للسكان من المدينة وانسحابهم إلى الجبال، للاحتماء بها، والاستعداد للمقاومة.<sup>1</sup> وحسب القنصل الأمريكي وليم شالر بلغ عدد سكان بجاية في أواخر العهد العثماني 2000 نسمة حيث يقول: "وعدد سكان بجاية في الوقت الحاضر لا يتجاوز ألفي نسمة".<sup>2</sup> ونفس العدد ورد في تقرير فرنسي، يعود إلى فترة احتلال بجاية الذي أضاف إلى أن سكان بجاية كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة.<sup>3</sup> ويؤكد نفس العدد تقرير فرنسي آخر حيث أورد "أنه في الوقت الحالي لا تضم المدينة 2000 60 . لا شيء قائم يدل على عظمة المدينة من بنايات وعمران، سوى سور المدينة والآثار القديمة وبقايا الحجارة المتناثرة هنا وهناك تدل على أن المدينة كان لها شأن كبير في الماضي".<sup>4</sup>

وقدر جوشر عدد سكان مدينة بجاية في مطلع القرن الثامن عشر بـ 3500 نسمة انخفض عددهم حسب إحصاء عام 1830 إلى 800<sup>5</sup> ومن الملاحظ أن مدينة بجاية ليست وحدها التي شهدت انخفاضا كبيرا في عدد السكان في هذه الفترة حسب نفس الكاتب، فقد انخفض عدد سكان مدينة الجزائر من 75000 نسمة في مطلع القرن الثامن عشر إلى 35000 ام 1830، وانخفض عدد سكان مدينة قسنطينة خلال نفس الفترة من 35000 إلى 15000 نسمة، ويرجع الكاتب نفسه أسباب هذا التراجع والتقهقر إلى وباء الطاعون الذي استفحل أمره خلال هذه الفترة، بالإضافة إلى الجماعات المميتة التي عرفتها الإيالة في هذه الفترة

<sup>1</sup> Raport sur les diverses questions posés par Mr le Gouverneur..., op, cit.

<sup>2</sup> وليام شالر: المصدر السابق، ص 37.

<sup>3</sup> F80/1671/1: **Rapport de Mr le compte Derlon à Mr le gouverneur général de possessions française dans le Nord de l'Afrique**, dater d'Alger le 1 Avril 1835, pp 22-23

<sup>4</sup> T. de la Branerrais: op, cit, p123.

<sup>5</sup> Juchereau D .S. D: **Considération statistiques historiques militaires politiques sur la régence d'Alger**, De Lannay, lib, Paris, 1831, p40.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

<sup>1</sup> . ولاحظ شوفالييه دارفيو تناقص عدد سكان بجاية وذكر أن عددهم يتراوح بين خمسمائة أو ستمائة نسمة، بالإضافة إلى الحامية التركية التي كانت تتألف من 150 <sup>2</sup> .  
أما قبيل الاحتلال الفرنسي فلم يكن بالمدينة سوى 200 بيت فإذا افترضنا أن عدد أفراد الأسرة الواحدة خمسة يصبح عدد السكان ألف نسمة فقط. <sup>3</sup> و قدر بوتان عدد سكان مدينة بجاية عشية الاحتلال بـ 3500 نسمة، واعتبر في تقريره السكان المحيطين ببجاية من أشرس وأخطر سكان إيالة الجزائر على الإطلاق، حيث ظلت المدينة محاصرة من طرف السكان بصفة تكاد تكون مستمرة. <sup>4</sup> إن هذا السقوط الحر في عدد السكان إلى هذا الحد يعبر في اعتقادنا عن أمرين: أولهما أن مدينة بجاية في مطلع القرن السادس عشر كانت عامرة مزدهرة نشطة التجارة والصناعة والبحرية، أما ثانيهما فيدل على هجرة جماعية مخيفة للسكان من المدينة إلى المناطق الجبلية المحيطة بها وهذا ما أكده مؤرخنا أبو علي إبراهيم المريني في مخطوطه حيث يذكر أن هجرة السكان شبهت بيوم الميعاد حتى سمي المكان الذي نزل به هؤلاء السكان ببني ميعاد <sup>5</sup> .

وفي سنة 1845 قدر نوشي عدد سكان ناحية بجاية بـ 91000 نسمة، وناحية قسنطينة بـ 281000 نسمة وناحية جيجل بـ 40000 نسمة لكنه لم يحدد لنا إقليم ناحية بجاية، وحدد نفس المؤرخ مساحة بجاية ونواحيها بـ 2093 <sup>2</sup> <sup>6</sup> وتقدم لنا تقارير المهندسين العسكريين في بجاية بعد احتلالها عام 1833 معلومات قيمة عن المدينة كما تقدم لنا وصفا دقيقا للعمارة وللمنازل، حيث قدرت تلك التقارير عدد بيوت العرب في المدينة بـ 1200 إلى 2000 <sup>7</sup> فإذا احتسبنا عدد أفراد البيت الواحد 5 أفراد فإن عدد السكان يبلغ 10 آلاف نسمة. <sup>7</sup>

<sup>1</sup> Juchereau: op, cit, p41.

<sup>2</sup> Chevalier d'Arvieux: op, cit, p238.

<sup>3</sup> Rozet et Carette : op, cit, p48

راجع كذلك:

Elie de la Primaudai : « Le commerce et », **R.A.C**, 1860, voir annexe II, p 358.

<sup>4</sup> Boutin: op, cit, p154.

<sup>5</sup> Charles Féraud: «Conquête de Bougie... » p58.

<sup>6</sup> André Noushi: **Enquête sur le niveau de vie dans le Constantinois**, p22.

<sup>7</sup> Article 8, Section 1, Carton 1, Trezel, 1833.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

نستنتج من خلال ماسبق أن بجاية شهدت تراجعاً كبيراً في عدد السكان ، بسبب الاحتلال الإسباني، الذي تسبب في قفر المدينة وضواحيها، واستقرار السكان في المناطق الجبلية المحيطة، فلم يبق في المدينة عشية الاحتلال الفرنسي سوى نحو ألفين نسمة.<sup>1</sup> ولا شك أن للكوارث الطبيعية والصحية وكذا تردّي الأوضاع الصحية في أواخر العهد العثماني في كامل مناطق الإيالة أثر سلبي على سكان المنطقة.<sup>2</sup>

وقد عرفت الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني موجات من الكوارث الطبيعية والصحية، انتشار الأوبئة والمجاعات وحدوث الزلازل، ولم تكن بجاية ونواحيها بعمالة الحال بمنأى عن هذه الكوارث، عرفت حدوث الكثير من الكوارث الطبيعية والجوية أرت المصادر إلى تعرض المدينة ونواحيها إلى وباء طاعون فتك بداية من سنة 1510 مروراً بسنة 1530 ثم 1535، حيث كان طاعون سنة 1511 يفتك بـ 100 جندي إسباني يومياً حسب ما أورد مرمول الذي أرجع ذلك إلى ازدحام الجنود داخل سور المدينة حيث بلغ عددهم خمسة عشر ألف جندي<sup>3</sup> وكان الوباء الذي اجتاح الجزائر في الفترة الممتدة من 1554 إلى 1566 أكثر فتكاً بالسكان ويطلق عليه في أدبيات المجتمع الجزائري بالحبوبة الكبرى أو الحبوبة القوية ففتك هذا الطاعون بعدد كبير من سكان المدن والأرياف ومنها بجاية.<sup>4</sup> وفي سنة 1664 عاد الطاعون بقوة ليضرب بجاية حيث قضى على 70 جندياً من الحامية التركية التي كانت تضم 100 جندي ، وتسبب الطاعون كذلك في هلاك عدد كبير من السكان الذين فروا إلى الجبال المجاورة، حسب دة أدلى بها أحد الأسرى الميورقيين استطاع أن ينجو بنفسه ليصل إلى مدينة جيجل عن طريق البر، فقدم معلومات دقيقة لقائد الحملة على جيجل، وأخبر كذلك بأن الجنود غادروا أماكنهم

<sup>1</sup> Elie de la Primaudai : « Le commerce et la navigation de l'Algérie », **Revue algérienne et coloniale**, 1860, voir annexe II, p 358.

<sup>2</sup> لمزيد من المعلومات حول الواقع الصحي في إيالة الجزائر إبان العهد العثماني أنظر، فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق.

<sup>3</sup> Marmol: op, cit, p416.

<sup>4</sup> فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص 97-98.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وتركوا المدافع الـ 32 دون حراسة<sup>1</sup>. وفي سنة 1753 وقع وباء فتاك في بجاية لا شك أنه خلف فادحة في الأرواح<sup>2</sup>

وحسب بعض الكتاب أهلك وباء الطاعون عام 1817 سكان مدينة بجاية،<sup>3</sup> الذين اضطروا إلى الهروب إلى قمم الجبال حسب مارشيك<sup>4</sup>، وتجدر الإشارة إلى أن الآراء متضاربة بشأن تاريخ وصول هذا الوباء إلى منطقة عنابة، وحول مصدره، لكن الآراء متفقة على قوته وفتكه حيث تشير بعض الكتابات إلى أنه منع الناس من العمل وزهدهم في الحياة، وفي قسنطينة كان يفتك بحوالي ثلاثين شخصا يوميا<sup>5</sup>. وفي سنة 1819 عاد الوباء من جديد إلى بجاية قادما إليها من مدينة الجزائر عن طريق تجار زيت الزيتون، ذهب ضحيته 9 أفراد من عائلة القايد اسماعيل، ولقي 15 جنديا من المحلة المكلفة باستخلاص الضريبة في المنطقة حتفهم، وسرعان ما انتشر في الضواحي وانتقل كذلك إلى حيجل، والملاحظ أن هذا الوباء تنتقل عدواه إلى بجاية كلما انتشر في منطقة بايلك الشرق الجزائري<sup>6</sup>. فلا شك أن للعمال الذين كانوا يعملون في مدن الشرق وكذا التجار المتحولين كان لهم دور في نقل العدوى إلى بجاية.

وفي رسالة من القنصل الفرنسي دوفال يشير إلى أن الطاعون توقف في مدينة الجزائر وكافة مناطق الإيالة ماعدا في بجاية حيث ألحق أضرارا بليغة بالسكان، مما أضر أعداد كبيرة منهم التروح إلى مدينة الجزائر هروبا من جحيم الطاعون الذي كان يفتك بهم بلا رحمة<sup>7</sup>. وأما الزلازل فلا توجد لدينا معلومات كافية عن تعرض بجاية لها طول العهد العثماني سوى ما جاء في أ المصادر من تعرض المدينة زلزال عام 1716 تخربت بسببه المدينة<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> Elie de la Primaudaie : op, cit, 76.

<sup>2</sup> de Grammont: op, cit, p 246.

<sup>3</sup> A-M, Perrot: **Alger, Esquisse Topographique et Historique**, Ed, Hachette, Paris, 1830, p26.

<sup>4</sup> Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, Alger, 1927, p121.

<sup>5</sup> Ibid, p177.

<sup>6</sup> فلة القشاعي: المرجع نفسه، ص 149.

<sup>7</sup> المرجع السابق، ص 153.

<sup>8</sup> ANOM, FR, 15MIOM/15, Article 8, Section 1, Carton 1, Trezel, 1833: Note sur la colonie d'Alger.



## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

و اعترافات العسكريين الأوائل الذين كانوا ضمن جيش الحملة التي تمكنت من الاستيلاء على بجاية ، أن هواء بجاية كان غير صحي بسبب انتشار البرك المستنقعات بالمنطقة، حيث عانى الفرنسيون من كثرة الأمراض لا سيما التيفويد وكانت الأمراض إحدى المشاكل التي واجهها الفرنسيون عند استيلائهم على المدينة، غير أنهم تمكنوا من التغلب على هذه المشكلة بقيامهم بردم البرك والمستنقعات التي كانت منتشرة قرب المدينة والتي كانت مصدر تلك الأمراض وفساد الجوز، وأكثروا من غرس الأشجار داخل المدينة وفي المناطق المجاورة، وشددوا الرقابة على اللحوم والقواكه تجنباً لانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة.<sup>1</sup>

### 2- المسكن:

تكمن روعة مدينة بجاية في منازلها المربعة والمتشابهة البناء وهي تشكل مدرج محاط بأشجار البرتقال والرمان والتين البربري، تنتشر في أرضية المدينة آثار تدل على أن للمدينة ماض عريق وحضارتها ضاربة في القدم.<sup>2</sup> ومن الطبيعي أن تختلف منازل الأغنياء والأثرياء عن منازل الفقراء والبسطاء من الناس، ففي الفضاء الريفي لكان السكان على غرار باقي سكان الإيالة يشيدون منازلهم باستخدام الحجارة والطين الممزوج بالتبن،<sup>3</sup> وهي مطلية بالجير والرمل.<sup>4</sup> وكان الفقراء يستعملون نبات الديس وأغصان الأشجار والقصب في تسقيف البيوت.<sup>5</sup> وكانت الجدران تغلف بفضلات الأبقار، كما كانت الأكواخ منتشرة في المنطقة، وحسب الكاتب الفرنسي جين لو روي كانت البيوت تغطي بالقرميد كما في كامل مناطق الإيالة، وتتميز باتساعها وتشابهاها،<sup>6</sup>

<sup>1</sup> رابح بونار: «بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين» الأصالة، ع 17-18، ص 66.

<sup>2</sup> Fernand Braudel, Ricard Robert: **Les Espagnols en Algérie, 1492-1792**, dans **Histoire et Historiens de l'Algérie**, Bulletin Hispanique, Année 1932, Vol, 34 N° 4, p347.

<sup>3</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 145.

<sup>4</sup> le Chevalier d'Arvieux : op, cit, p238.

<sup>5</sup> Hanoteau et Letourneaux : op, cit, p408.

<sup>6</sup> Jean le Roy : op, cit, p19.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

وأورد مرمول أن مباني بجاية على الطراز الموريسكي وهي بالغة الروعة، ويوجد بمحاذاة البحر قصر جميل يتكون من ثلاثة طوابق، أما مبانيها فهي جميلة<sup>1</sup>. ولاحظ الكاتب الإيطالي بيار دافيتي Pierre d'Avity، أن بيوت بجاية جميلة وتحيط بها الحدائق مما جعل منظرها خلاب، و قدر عددها بنحو ثمانية آلاف بيت، وأشار إلى أن سورها يتسع لأكثر من أربعة وعشرون ألف<sup>2</sup>، وأورد الأب دابر أن مدينة بجاية تتميز بشوارعها المتقنة البناء وهي منحدرتة تتبع انحدار الجبل.<sup>3</sup>

وسجل الرحالة التمغروني الذي حل ببجاية في طريقه إلى اسطنبول ملاحظته حول طريقة بناء البيوت في قوله: "وبناؤهم بالجلس وحده لا يبنون بالتراب، وعلى فرسخ منها الوادي الكبير يركبون فيه في السفن الصغار."<sup>4</sup> وذكر كل من هانوتو ولوتورنو أن الأغنياء يستعملون القرميد ويطلقون بيوتهم بالجير<sup>5</sup>. أما الخيمة فكانت مظهرا نادرا في هذه المنطقة، وكان يضم البيت الواحد علاوة على أفراد الأسرة البقرة والماعز والغنم والحمار.<sup>6</sup>

هذا و"يقوم المسكن الأصيل التقليدي في بلاد القبائل عموما على مقومات ومقاييس خاصة تمثل طبيعة الفكر الاقتصادي والاجتماعي وحتى التاريخي لدى الإنسان بالمنطقة، من اتخاذ المناطق المرتفعة و حواف الوديان والابتعاد عن المناطق الخاصة بالزراعة للمسكن، وكذا استعمال المادة المحلية في البناء، إضافة إلى ما يحمله المسكن أيضا من رموز ثقافية ذات الجذور العميقة في التاريخ الثقافي للمنطقة، والتي منها العناصر الزخرفية المتوفرة فيه، وهي صورة للتكافل والتعاون الاجتماعيين عند السكان، من خلال اشتراك الجميع في عملية البناء الكبرى، مما يدل على الترابط

<sup>1</sup> Marmol : op, cit, p416.

<sup>2</sup> Pierre d'Avity: op, cit, p 191.

<sup>3</sup> Dapper : op, cit, p184.

<sup>4</sup> التمغروني: النغمة المسكية، ص 15.

<sup>5</sup> Hanoteau et Letourneaux : op, cit, p408.

<sup>6</sup> Rozet et Carette: op, cit, p51.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

العضوي فيما بينهم وعلى النمطية الواحدة فيه، فهو يمثل عطر التاريخ ونكهته، ويجسد روح المجتمع منذ الأزل في المنطقة ككل"<sup>1</sup>.

وكانت البيوت مبنية في منحدر حسبما جاء في وصف ليون الإفريقي في قوله: "إلا أن المدينة كلها عقبات، بحيث أن الماشي لا يمكن أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل"، ولاحظ أن منازلها كانت جميلة "ودورها كلها جميلة"<sup>2</sup>، وتجمع التقارير في وصفها للمنازل على أنها متواضعة ومتشابهة في الشكل والحجم، حيث قدرت تلك التقارير عرض المنازل بين 3 و4 أمتار و طولها 6 أمتار، وغالبيتها تتكون من طابقين، ومغطاة بالقرميد الموضوع على قضبان خشبية وحصير من أغصان الأشجار وضعت في وضعيات متقاطعة، وبين القرميد والحصير توجد طبقة من الطين لمنع وصول الحرارة إلى داخل الغرف، والنوافذ قليلة العدد وضيقة، حيث سمح الثقوب الموجودة في الجدران بمرور الهواء وتسريه إلى داخل البيت، وكانت تحاط البيوت بحديقة زرعت فيها أشجار البرتقال والتين والرمان والليمون والورود، ويشكل الفناء منطقة عازلة بين البيت والشارع.<sup>3</sup>

وفي ذات الموضوع يقدم لنا النقيب توفى دو لابرانري Touffait De la Branerais مساعد الجنرال تريزل وصفا وافيا ودقيقا لشوارع ومنازل بجاية حيث يقول: " تقع بجاية عند منحدر جبل وهي تمتد من حصن عبد القادر غربا إلى القصبة شرقا، وبيوتها ضيقة ومنخفضة العلو، بنيت على طريقة سكان المنطقة، والبيت عبارة عن غرف عديدة تتصل بفناء واحد، وهي مغطاة وشوارعها على العموم ضيقة وملتوية ماعدا الشارع الرئيسي الذي يمتد من القصبة إلى حصن عبد القادر، ولولا البيوت غير المرتفعة لما وصلت إليها أشعة الشمس، وهي غير منتظمة وغير مرتبة. والحدايق المحيطة كانت مزروعة بأشجار الخروب و اللوز والرمان والبرتقال، والبيوت مزينة بالورود والأزهار، وروائح عطر الريحان والمسك تنبعث منها، يجد المرء راحته إلا

<sup>1</sup> محمد الطيب عقاب: المسكن التقليدي بالقبائل الصغرى، الملتقى الدولي الأول حول بجاية وجهاتها عبر

العصور، 1997. مطبوعات جمعية جهيماب، 1997.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص50.

<sup>3</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p238.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

تجواله وسط الحدائق الجميلة حيث الروائح العطرة . لكن للأسف الشديد كثير من الأشجار التي كانت تبسط بظلالها على المكان في أيام الحر قطعت في الأيام التي كانت المدينة تتعرض فيها للاعتداءات".<sup>1</sup>

### 3- المأكّل:

اشتهر القبائلي<sup>2</sup> وما بأن أكله كان يعتمد في الأساس على الكسرة المصنوعة من الدقيق القمح أو الشعير، والكسكسي وهي الأكلة التقليدية التي أصبحت غذاء قوميا يشترك فيه كل الجزائريين. وشراهم اليومي الماء والحليب واللبن. وورد في رحلة ليون الإفريقي أن غذاؤهم الرئيسي حبز الشعير، ولهم كمية عظيمة من الجوز والتين المجفف<sup>2</sup> المغموس في الزيت، حيث يعتبر الغذاء والدواء، و الكسرة المصنوعة من الفرينة الغذاء الأساسي للسكان علاوة على الكسكسي وهو طعامهم المفضل<sup>3</sup> حيث كانت الأغنياء يتناولونه باللحم،<sup>4</sup> أما العائلات الفقيرة والمتوسطة، فلا تتناوله سوى في أيام السوق والمناسبات الدينية، وكان يمزج بالزبدة أو زيت الزيتون، كما كان يمزج كذلك بالزبيب، وإذا لم يتوفر الزبيب يعوض بالسكر أو التمر.<sup>5</sup>

وكان الفلاح القبائلي يقوم ببيع الغلات الفلاحية في السوق ويشترى حاجاته من قهوة وسكر ومقننات أخرى.<sup>6</sup> كما يحب السكان لحم الحيوانات التي يصطادونها وهي كثيرة في بلادهم كالغزال والأرنب والإيل ومختلف أنواع الطيور.<sup>7</sup>

ومن أشهر أنواع الحلويات المتناولة لدى السكان حلوة الرفيس التي كانت تصنع بالدقيق والتمر والزبدة أو زيت الزيتون،<sup>8</sup> ومن الدقيق كانت النسوة تصنعن أكلة تعرف بالبعير، الذي

<sup>1</sup> de la Branerrais : op, cit, p35.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص101.

<sup>3</sup> سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 142.

<sup>4</sup> Gean de la Fay et autres : op, cit, p 248.

<sup>5</sup> Ibid : op, cit, p 248.

<sup>6</sup> Jean le Roy : op, cit, p96.

<sup>7</sup> سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 142.

<sup>8</sup> المصدر نفسه، ص 145.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

يطهى على الطاجين ويدهن بالزبدة أو زيت الزيتون والعسل.<sup>1</sup> وتعد الطمينة من الأكلات التي كانت تشتهر بها المنطقة وكانت تقدم في المناسبات والأعياد والمواسم الفلاحية سواء عند البدء في البذر أو في عملية جني الثمار. وكانوا يجففون من الفواكه واللحوم ما يحتاجون لسنة كاملة.<sup>2</sup>

ويعد السمك كذلك من بين الوجبات الغذائية المحببة لسكان المناطق الساحلية عامة وبجاية ونواحيها خاصة، فهذا ليون الإفريقي يخبرنا أن سكان بجاية لا يمارسون صيد السمك في واد الصومام لأنه متوفر لديهم في البحر،<sup>3</sup> ما يعطينا صورة عن نشاط السكان في الصيد، وتفضيل السكان سمك البحر لأنه أطيب وألذ. وأما الأواني التي يستعملونها في طعامهم فيصنعونها من الخشب والطين والفخار، كما يستخدمون الخشب المتوفر بكثرة في المنطقة في تشييد بيوتهم.<sup>4</sup>

وأما لباس سكان هذه المنطقة؛ فلا يختلف عن لباس سكان منطقة القبائل عموماً، كان لباس الرجل يتمثل في السروال والقميص و الجلاية ( ) وهو رداء خارجي له غطاء للرأس وذراعان قصيران،<sup>5</sup> بالإضافة إلى البرنوس والقندورة والشاشية المصنوعة من الصوف، وكان الرأس يغطي بعمامة أو شاشية مصنوعة من ال.<sup>6</sup>

ويذكر فونتور دي بارادي أن الأطفال كانوا يبقون عراة وحفاة حتى السن التاسعة أو العاشرة<sup>7</sup>، في فصل الصيف ويلبسون القندورة والجلاية في فصل الشتاء.<sup>8</sup> و أما لباس المرأة فكان الجبة والمنديل القطني، وقطعة القماش المشبكة بالدبايس<sup>9</sup> وكانت المرأة تستعمل مواد التجميل

<sup>1</sup> Abdelkader Djaghoul : **Elément d'Histoire Culturelle Algérienne**, colection patrimoine, ENAL, 1984, p 242.

<sup>2</sup> سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 145 .

<sup>3</sup> ليون الإفريقي: المصدر نفسه، ص336.

<sup>4</sup> Jean le Roy : op, cit, p18.

<sup>5</sup> أنظر دائرة المعارف الإسلامية، م7، ص56.

<sup>6</sup> Daumas: op, cit, p135.

<sup>7</sup> Venture de Paradis : op, cit, p226.

<sup>8</sup> Hanoteau et Letourneaux : op, cit, pp412-413.

<sup>9</sup> - حمدان خوجة: المصدر نفسه، ص79.

## الفصل الثالث: ----- السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

التي تتألف أساسا من الكحل للعينين والحناء، والوشم، ومواد الزينة من حلي فضية كالخلخال والمقياس والأقراط والخواتم.<sup>1</sup>

يمكننا أن نستنتج أن سكان بجاية ومناطقها استطاعوا أن يحافظوا على خصوصياتهم وعاداتهم وتقاليدهم على الرغم من اختلاطهم بالعرب، وتعاقب العديد من الإمارات، كما نستنتج أن الفئات الاجتماعية التي عاشت في بجاية التي كانت تتعايش فيما بينها في وفاق تام وهذا يرجع في اعتقادنا إلى طبيعة وموقع بجاية التجاري؛ الذي يقتضي التعامل مع الأجناس والشعوب، وذلك يتطلب نوع من الانفتاح والمرونة في التعامل.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>1</sup> Hanoteau et Letourneaux : op, cit, p413.

# الفصل الرابع: علاقة السكان بالسلطة

المبحث الأول: سياسة الحكام الأتراك في الجزائر

المبحث الثاني: الأسر النافذة في بجاية ونواحيها

المبحث الثالث: توتر العلاقات بين قبائل بجاية والسلطة في  
أواخر العهد العثماني

المبحث الرابع: الحملة الفرنسية على بجاية

المبحث الأول: سياسة الحكام الأتراك في الجزائر:

عرفنا في فصول سابقة أن الأتراك العثمانيين لما جاؤوا إلى الجزائر في مطلع القرن السادس عشر وجدوها تعاني من الانقسام والتمزق والتفرقة، فكانت تتكون من إمارات وسلطنات وقبائل وأعراش، فكيف تعاملت السلطة العثمانية بعد ضم الجزائر للباب العالي مع هذه الكيانات؟<sup>1</sup> و الإشارة إلى الاتصالات الأولية للأتراك العثمانيين (الإخوة بربروس) بسكان بجاية وناحياتها، وما نتج عنه من تكوين صداقة وتحالف قوامه المصلحة المشتركة والعدو المشترك، فقد مكنت هذه الاتصالات الأتراك العثمانيين من التعرف عن كثب على عادات وطبائع سكان المنطقة، ووقفوا على نقاط الضعف والقوة فيهم مما ساعد لا شك في رسم السياسة التي يتوجب عليهم اتباعها من أجل التعامل مع هذه القبائل، والسعي لانتزاع اعترافها بالحكم العثماني وخضوعها دون أن يخل ذلك بالصداقة والتحالف المبرم بين الطرفين.

ومن أجل ذلك وتفاديا للصدام مع هذه القبائل والأعراش التي ترك حرية التصرف و من ضرائب رمزية.<sup>2</sup> فلا شك أن الحكام العثمانيون عروج وخير الدين بربروس أدركوا أن سكان هذه الما ون باستقلالهم وحريتهم ومنتشبين بعاداتهم وتقاليدهم كما اقتنعوا كذلك أنه رغم العسكري عدّة وعتادًا، إلا أن السكان الجبليين كانوا محاربين أشداء ومتحصنين في الجبال الوعرة، وكانوا يؤازرون بعضهم البعض لمواجهة أي خطر خارجي يمكن أن يهدد استقرارهم، ويحد من سيادتهم واستقلالهم، يجعل من الصعب التغلب عليهم وإخضاعهم باستعمال القوة العسكرية، ولذلك أيقن هؤلاء الحكام أن الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من ولوج هذه الما هي الأسلوب السياسي السلمي، الذي يعتمد على المرونة والمهادنة، وكذا العمل على تفريق هذه القبائل حتى لا تتحد وفق مبدأ فرق تسد من خلال توظيف

<sup>1</sup> أنظر الفصل الأول، وراجع كذلك،

Haedo : **Histoire des Rois d'Alger....**

Tahar Oussedik : op, cit.

Berbrugger: **les Epoques militaires....**

<sup>2</sup> علي عنوف: المرجع السابق، ص 32.



## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

المال والهدايا، ومنح الامتيازات، وزرع الفتن وبدور التفرقة<sup>1</sup> مع المحافظة على خصوصيات السكان وعدم ال في شؤونه الداخلية باستثناء ما كان له علاقة بتعيين الشيوخ والقياد في بعض الأحيان.<sup>2</sup> وهناك سياسة أخرى نجح الأتراك في تنفيذها وحققوا بها أهدافهم في المنطقة التكاليف والخسائر، وهي توظيف المرابطين الذين كانوا يحظون بالاحترام والتقدير والكلمة المسموعة من طرف السكان وذلك من خلال العمل على والتقرب منهم من خلال استعمال الخطاب الديني وإغرا بالأموال والهدايا والامتيازات، كما سيأتي ذكره.<sup>3</sup>

وبالمزج بين السياسات السالفة الذكر أي أسلوب الترغيب والترهيب تمكن الأتراك دخول منطقة القبائل التي شيدوا بها بعض الأبراج والحصون وجعلوا بها حاميات، واتخذوها مقرات لحكم القياد بها، ودعموا تلك الحاميات الضعيفة العدد بفرق الزمول التي كانت في العادة تتألف من الفرسان الذين كانوا يتدخلون وقت الطلب للقضاء على القبائل المتمردة والممتعة.<sup>4</sup> انتهجوا أسلوب التعاون مع أبناء البلاد في تسيير شؤون الإدارة المحلية والإبقاء على الأسلوب الإداري القديم (نظام الجماعة)، كما أبقوا على ال دات المحلية ذات النفوذ في البلاد، وتدخل هذه السياسة في إطار إستراتيجية عثمانية عرفت لدى الباحثين ب "سياسة المحافظة على الوضع الراهن" وتعني عدم التدخل في الشؤون الداخلية للرعية، واحترام عاداتها الوضع وقوانينها العرفية، وعدم المساس بسيادة حكامها المحليين في مختلف الأقاليم. أي الاكتفاء بالتبعية الرسمية للسلطة المركزية، وكان دفع الضريبة هو رمز هذه التبعية. وقد اعتبر معظم الباحثين في التاريخ العثماني، ومنهم الباحثان "جب هاملتون" و"هارولد بوون" هذه السياسة "حجر الزاوية في الإدارة العثمانية والسبب الأول في استمرار نفوذ العثمانيين في البلاد العربية قرونا طويلة من الزمن".<sup>5</sup> وهو ما عبر عنه، قبل ذلك، حمدان خوجة بقوله عن الإدارة العثمانية في الجزائر: " نأكدت الحكومة التركية من أن قوة القبائل لا تُ ، وأيقنت أنها لن تتمكن

<sup>1</sup> Guin: « Note sur le Bey Mohamed dit El- Bey debbah», in, RA, n° 7, 1863, p29

<sup>2</sup> Marcel Emerit: « Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX<sup>e</sup> siècle», In, **Annales, Économies, Sociétés, Civilisations**. 21<sup>e</sup> année, N°. 1, 1966, p, p45.

<sup>3</sup> Guin : op, cit, p294.

<sup>4</sup> Guin : Ibid, p295.

<sup>5</sup> جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع، ص ص 98-99.

من إخضاعهم بحد السيف في كل الأحوال، وإنما باللطافة والتسامح والإدارة الحسنة التي أسفرت عن نتائج مرضية تتمثل في بقاء الحكومة مدة تزيد على ثلاثة قرون<sup>1</sup>. ولا شك أن الأتراك العثمانيين فضل كبير على سكان الإيالة تمثل تحرير السواحل من الاحتلال الإسباني، والوقوف في وجه الحملات الأوروبية، كما أنهم أدخلوا الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع إلى الجزائر وهذا ما يستخلص من كلام خير الدين في حديثه مع أعيان مدينة الجزائر عندما كان يرغب في المغادرة بسبب مقتل أخيه عروج قائلاً لهم "... إليكم لم يكن عندكم ولا مدفع، أما الآن فعندكم أكثر من أربعين".<sup>2</sup> كما أدخلوا نظام إداري محكم<sup>3</sup>، وبواسطة هذه الأسلحة والنظام الإداري تمكن خير الدين وخلفاؤه النفوذ العثماني في الإيالة التي كانت تسودها الفوضى السياسية ولا تملك نظاماً إدارياً يضمن استمراريتها.<sup>4</sup> التفوق العسكري عدة وتخطيطاً لعب دوراً لا يستهان به في التغلب على بعض الزعامات المتمردة في بداية العهد العثماني أمراء كوكو وقلعة بني عباس.<sup>5</sup> كان يكفي تواجد فرقة عسكرية صغيرة مجهزة بالمدفعية والبنادق لتفرض احترام السكان لها، وبالرغم من تمكن السكان من امتلاك الأسلحة النارية منذ القرن الثامن عشر، إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى التكتيك الحربي وكانوا يندفعون دون وضع خطة محكمة.<sup>6</sup>

#### 1- سياسة السلطة في بجاية ونواحيها:

وإذا كانت السلطة العثمانية قد نجحت في الولوج إلى منطقة القبائل الكبرى، وذلك بمساعدة أسرة ابن القاضي والمرابطين؛ والأسر الكبيرة الأخرى، وأقامت بها عدة أبراج للمراقبة كبرج بوغني وحمزة وتيزي وزو وبرج منايل، فإنها في مقابل ذلك وجدت صعوبة كبيرة في تنهاتها في

<sup>1</sup> حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 127.

<sup>2</sup> محمد دراج: مذكرات خير الدين...، ص 88.

<sup>3</sup> Cherif. M. H: «Introduction de l'étude des rapports de l'état et des communautés tribales du Maghreb à l'époque moderne et contemporaine», in: **le Monde Rural Maghrébin, communautés et stratification social, actes de congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb**, pp 167-287.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p187.

<sup>5</sup> Berbrugger: op, cit, p133.

<sup>6</sup> جون وولف: المرجع السابق، ص 328.

منطقة بجاية ونواحيها، فاكتفت بإقامة بعض الأبراج في مجانة وزمورة وبرج بوعريريج  
المثال كما أنها أيضا في إيجاد قبائل حليفة لها في المنطقة السابقة الذكر من فرق الزواوة  
والعراوة والزواتنة وعبيد شمال بقشطولة<sup>1</sup> وهو أمر لم تقدر على القيام به بنجاح في منطقة بجاية،  
فكان اعتمادها على المرابطين والأسر النافذة كبيرا، فكانت تلجأ إليهم في الظروف الصعبة، كي  
فرض سلطتها الإسمية فقط، وكان استخلاص الض  
ومن ثمة فقد لعب المرابط الشهير محمد أمقران دورا رئيسيا في بجاية ونواحيها حيث كان سند  
السلطة في هذه المنطقة وحامي الجنود الأتراك والقائد في مدينة بجاية، منذ منتصف القرن السابع عشر  
بلا منازع. ومع مطلع القرن الثامن عشر وجدت السلطة سندا آخر في منطقة حوض الصومام وهو  
مرابط شلاطة ابن علي الشريف وأسرته التي بات نفوذها يتعاضم باستمرار،<sup>2</sup> ارتبط  
بأسرة أورابح من قبيلة بني عبد الجبار القريبة من مدينة بجاية، والتي كان نفوذها على قبائل المنطقة  
كبيرا، إلا أن هذه الأسرة يبدو أنه لم يكن  
وأحيانا أخرى رد . كما حصل في الربع الأول من القرن التاسع عشر، حين أعلنت  
تمردا في كثير من المرات فكانت السلطة المركزية تكلف القائد يحي آغا<sup>3</sup> إاء على التمرد  
الاستعانة راب المنطقة وعلى رأسهم مرابط<sup>4</sup> ابن علي الشري ، كما سيأتي ذكره.

واعتمد الحكام الأتراك كذلك على أسلوب آخر تمثل في استعمال الأسواق كأسلوب  
لفرض السلطة يعتبر السوق عادة وتقليد راسخ في المجتمع الجزائري، وخاصة في الريف  
الحاجة ماسة إلى التزود بمختلف الحاجات اليومية للسكان، وكانت المنطقة تحتوي على العديد  
من الأسواق، حيث أحصى أحد الكتاب الفرنسيين في منطقة القبائل الصغرى في بداية الاحتلال

<sup>1</sup> Robin: *La grande Kabylie...*, p63.

<sup>2</sup> مؤسس زاوية شلاطة وهو من الأشراف ينحدر من المرابط المغربي الشهير سيدي عبد السلام بن مشيش، سيأتي  
التطرق إليه في هذا البحث.

<sup>3</sup> للإطلاع على ترجمة له أنظر، ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ص 361. أنظر

Joseph Nil Robin: «Note sur Yahia Agha...», RA, 1874, 59-75, 89-118.

<sup>4</sup> هي قرية صغيرة تقع شمال غرب مدينة آقبو.

الفرنسي حوالي ثلاثة عشر سوقا تعقد في أيام الأسبوع في مختلف أعراس المنطقة<sup>1</sup> وكان سوق الخميس الذي كان يعقد رج سور بجا ( 2 ) من أهم الأسواق في المنطقة حيث كان قصده عدد كبير من سكان القبائل المجاورة لبيع منتجاتهم الزراعية وشراء احتياجاتهم من القطن والخردوات وغيرها من المواد التي يحون<sup>2</sup>. ذلك أن بجاية ظلت بالنسبة لسكان منطقة القبائل الصغرى والكبرى حاضرة وعاصمة لها مكانتها الاقتصادية والثقافية والدينية كما سبق الحديث عنها في الفصل الثالث<sup>3</sup>. ولم يكن سوق بني عباس أهمية عن السوق المذكور سابقا، حيث يعتبر من أشهر الأسواق في المنطقة، بحكم موقعه الذي يربط منطقة القبائل بالهضاب والسهول العليا، والصحراء، فكان هذا السوق همزة وصل بين تجار أولاد نايل الذين يأتون لشراء الزيت، وبني ميزاب الذين كانوا يبيعون سلعهم إلى القبائل الترقية التي تقوم بإيصال تلك السلع إلى بلاد السودان<sup>4</sup>.

ولعل من الحقائق التي يجب التنبيه لها هي أن الحكام العثمانيين أدركوا تماما أهمية السوق بالنسبة للقبائل الجبلية وضرورته، إذ بات من المؤكد لديهم أنه مهما بلغت تلك القبائل من درجة تحقيقها للاكتفاء الذاتي إلا أن ارتباطها بالأسواق الأسبوعية يظل ارتباطا قويا حاجتها الضرورية والكمالية على التردد على الأسواق<sup>5</sup>. أيقنت أنه من الحكمة عدم خوض الحرب مع هذه القبائل، التي كان سكانها يمتنعون عن دفع الضرائب لاعتقادهم أنهم بعيدين عن أعين السلطة، لكنهم كانوا يجدون أنفسهم مجبرين على دفعها في الأاق من خلال الغرامة التي كانوا يدفعونها مقابل سلعهم الما و<sup>6</sup>. فبمجرد أن تتمرد القبيلة على السلطة وترفض الخضوع لها، تقوم هذه السلطة باتخاذ إجراءات فورية رغام على دفع المستحقات الضريبية هذه الإجراءات كمرحلة أولى في إعلان القبيلة خارجة على القانون في الأسواق التي يمكن أن يتردد عليها

<sup>1</sup> Alaine Mahé : op, cit, p36.

<sup>2</sup> Nedjma A. Lalmi : la Ville, l'urbanité ..., p256.

<sup>3</sup> Daumas: op, cit, p146.

<sup>4</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص343.

<sup>5</sup> ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ص 253.

<sup>6</sup> M.G: T.S.E.F, 1843, p400.

محمد سي يوسف: المرجع نفسه، ص20.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

أفرادها، ثم يقوم القائد المسؤول عن السوق سكان هذه القبيلة عند الم<sup>1</sup>، و<sup>1</sup> سراجهم حتى تسدد هذه القبيلة أو تلك ما عليها من أعباء ضريبية، وبهذه السياسة تحصل السلطة دون الدخول في مواجهات مع القبائل الممتنعة مما قد يؤدي إلى حسائر بشرية ومادية<sup>2</sup>.

ونظرا لأهمية العملية وحساسه كانت السلطة تفرض على الأسواق رقابة صارمة، إذ يعتبر نجاح القايد في إدارة السوق وضمائه السير الحسن له إحدى المهمات التي عليها يتوقف إن كان يستحق هذا المنصب أم لا، وعليه كان القياد يبذلون قصارى جهودهم للبرهنة على استحقاتهم فكان عليهم التعرف القبائل التي تتردد على السوق، ويعرفون كذلك المواد والسلع التي بيعت واشترت، ويعرف أحاديث السكان، وا<sup>3</sup> ون للقبض على أفراد القبيلة المتمردة ويقتادونهم إلى السجن كانوا ون مصادرة سلعهم وبضائعهم<sup>3</sup>. وقد أثبت هذا النوع من الأساليب نجاعته، حيث لا يلبث المطلوبون من طرف السلطة أن يترددوا على الأسواق فيتم القبض عليهم، ذلك أن السوق لم يكن مكان للبيع والشراء بالنسبة للسكان فقط، بل هو أكثر من ذلك فهو بمثابة مركز تشكل الرأي العام بالنسبة لهم. فالتردد إلى الأسواق كان ضرورة حتمية ظروف كل قبيلة<sup>4</sup>. في السوق كان يتم تبادل الآراء والتقاء الأقارب والأصدقاء، ومن أهداف التسوق كذلك استقصاء الأخبار وتتبع الأحداث في المنطقة<sup>5</sup> وكان اليراح<sup>6</sup> يعلم الناس بالأخبار الجديدة في المنطقة، تحل المنازعات ويعقد الاتفاق على الزواج، كما كان المكان المناسب

<sup>1</sup> Rinn : « le Royaume d'Alger.. », p4.

<sup>2</sup> Robin : « Note sur l'organisation militaire... », P204.

أنظر كذلك:

Alain Mahé: op, cit, p36.

<sup>3</sup> Robin: op, cit, p205.

<sup>4</sup> Boyer: «Contribution...», P48.

<sup>5</sup> Alain Mahé: op, cit, p36.

<sup>6</sup> اليراح هو شخص يكلفه صاحب المصلحة بإعلان خبر ما وإبلاغه للناس في يوم السوق، مقابل مبلغ من المال، ويشترط أن يكون محل ثقة بين الناس، فكان يعلن بصوت عال الفرمانات التي كانت تصدرها الدولة، كما كان يقوم بالإعلان عن الأفراح أو ضياع الحاجات.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

للترويج للإشاعات والدعاية ومنه تنطلق حركات التمرد والعصيان.<sup>1</sup> الأسواق و حضورها القوي في حياة السكان.<sup>2</sup> وكانت و تتعدى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية إلى التأثير في الحياة السياسية وفي علاقة السلطة بالسكان،<sup>3</sup> أدى وضع المنطقة وعزلتها وصعوبة ودورها إلى تحول السوق من الحاجة لاقتناء مختلف مواد التموين إلى عادة لا يمكن للسكان التفريط فيها أو التحلي عنها بسهولة، ومما كان يزيد أهمية أنها تلتقي فيها كل الفئات الاجتماعية من علماء وشيوخ وقياد ومرابطين وطلاب العلم، وذلك الاختلاط والاحتكاك من شأنه أن يؤدي إلى تبادل الآراء والأفكار وقد أدركت السلطة التركية أهمية وخطورة الأسواق الأسبوعية، نت تبث حواسيسها يتحسسون الأخبار فوجدت بذلك السلطة العثمانية السبيل لتعويض تلك الضرائب التي كانوا يمتنعون عن دفعها. ور قيمة هذه الضرائب - إذ لم تكن تتعدى كميات قليلة من الزيت والتين المجفف أو الحبوب - إلا أنها كانت تعتبر بالنسبة للسلطة رمز الاعتراف والتبعية.<sup>4</sup>

إذن لعب السوق خلال العهد العثماني في المناطق الجبلية الوعرة دورا إداريا وسياسيا علاوة على الدور الاقتصادي والاجتماعي، حيث استطاعت السلطة العثمانية أن تستغله بذكاء في فرض سيطرتها على السكان وكانت السلطة > على فرض النظام والمهدوء والاستقرار التحكم في الأسواق وإحكام مراقبته وكذا تأمين الطرقات عن طريق تكليف المرابطين بهذه المهمة، بالإضافة إلى الأبراج التي قامت بتنصيبها في النقاط الحساسة في الطرقات التي تربط دار السلطان بالباياليكات. وكثيرا ما حدث أن قبائل تتحدى الـ في النهاية تضطر لطلب العفو والأمان بوساطة مرابط، فلا تلبث أن وانصياعها، و السلطة أحيانا

<sup>1</sup> محمد سي يوسف: المرجع الـ ، ص19.

<sup>2</sup> Daumas : op, cit, p29.

أنظر كذلك، محمد سي يوسف: ومة منطقة القبائل، ص19.

<sup>3</sup> De Baudicour : op, cit, pp291-292.

<sup>4</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص52.

فرض عقوبات مالية شاقّة حتى تكون عبرة للقبائل الأخرى لا تفكر في التمرد والخروج عن الطاعة.<sup>1</sup>

ولما كانت السلطة تدرك هذه الخطورة أ الأسواق لرقابة شديدة وصارمة. ونظرا لأهمية السوق فقد شرعت بعض القبائل كما يذكر روبان قانون يمنع دخول السوق إلا على المشترين والباعة وذلك لقطع الطريق أمام أصحاب الفتن الذين كانوا يلجأون إلى الأسواق؛ من أجل الترويج للثورة أو التمرد وإعلان العصيان.<sup>2</sup>

والمواقع أنه لم تكن الأسواق وسيلة الضغط الوحيدة على هذه القبائل الممتنع كان هناك أسلوب آخر يتسم بنوع من الذكاء والدهاء والحيلة، يتمثل في الضغط على هذه القبائل - التي كان يصعب مواجهتها<sup>3</sup> في أغلب الأحيان بسبب تحصنها في الجبال المنيعه - والحرص على محها على الهدوء والاستقرار وضمان عدم اعتدائها على الحماية العسكرية المقيمة في بجاية، أو إقدامها على اعتراض سبيل المحلات العسكرية التي كانت تتحول في المنطقة في أوقات الجباية أو قيام هذه القبائل بالاعتداء على قبائل أخرى خاضعة للسلطة، وذلك عن طريق استعمال ورقة ضاغطة أثبتت الأحداث مدى فعاليتها، تمثلت في استعمال العمال القبائليين المنحدرين من جبال بجاية كرهائن، حيث كان هؤلاء يضطرون إلى الهجرة نحو المدن الكبيرة بحثا عن العمل كأجراء، لأن أرضهم ليست فلاحية ومواردهم شحيحة، كانت مدينة الجزائر وجهتهم الأولى<sup>4</sup> فكانوا يحون بجا كما هي العادة وفي مدينة الجزائر يكونون تحت رقابة الكاهية (رئيس الشرطة) وربما كان لوضعها الاقتصادي الصعب دور في دفعها إلى القيام بحركات تمرد وعصيان في المنطقة من حين لآخر فتارة يهاجمون القبائل المجاورة وتارة يهاجمون مدينة بجاية ويقومون بأعمال نهب وسلب ولا سيما في أواخر العهد العثماني حسب ما أورد فيروز وكانت قبيلة مزاية الأكثر

<sup>1</sup> محمد سي يوسف: مقاومة منطقة القبائل، ص 20.

<sup>2</sup> Robin: La Grande Kabylie..., p47.

<sup>3</sup> قامت السلطة في العديد من المرات بحملات تأديبية وعقابية في المناطق الجبلية ولكنها كانت تكلفها الكثير، وغالبا ما كانت تعود أدراجها دون أن تحقق أغراضها. مما جعلها تميل إلى الحلول السلمية.

<sup>4</sup> المنور مروش: العملة، الأسعار والمداخيل، ص 354.

إزعاجا للسلطة والسكان على حد سواء بحكم قربها من بجاية،<sup>1</sup> (سنتطرق لهذه القبيلة لاحقا)<sup>2</sup> كان قايد بجاية يسارع في إبلاغ الباشا  
القبائليين الذين ينحدرون من هذه الـ<sup>3</sup> و وضعهم كرهائن ويلحق بهم العقاب المطابق  
للمخالفات التي ارتكبتها بنو قومهم،<sup>4</sup> ونلاحظ هنا آلية من آليات الحكم العثماني بالمنطقة، وهذا  
الأسلوب يعتبر الوحيد الذي يمكن بواسطته ضمان الهدوء في هذه المناطق الموحشة. وبهذا الأسلوب  
كانت القبائل المشاغبة تجد نفسها مجبرة على التوقف عن التمرد وإثارة الشغب وتضطر إلى تقديم  
فروض الطاعة والولاء على أرواح بني قومهم.<sup>5</sup> ويروي لنا القنصل الأمريكي وليم شالر -  
باعتباره شاهد عيان - يروي لنا حول الموضوع سنعود إليه لاحقا.

ونود التنبيه إلى أن هذه السياسة في الواقع لم تُطبق على قبائل بجاية فقط، بل كان بايات  
قسنطينة كذلك يلجأون إليها في تعاملهم مع قبائل المنطقة الشرقية الممتدة من جيجل إلى القل التي  
كان سكانها يترددون بكثرة على مدينة قسنطينة حسبما أورد فيرو في تاريخ جيجل، وكانت هذه  
القبائل كثيرة التمرد والعصيان.<sup>6</sup> وذهب فيرو إلى القول أن قبيلة مزاية (امزايين) القبيلة الوحيدة  
من بين قبائل بجاية التي كانت تابعة مباشرة لسلطة البشوات بوساطة الـ التركي، أما القبائل  
الأخرى فكانت تـ باي قسنطينة.<sup>7</sup> ومن المحتمل أن السبب يعود إلى شراسة سكان هذه  
القبيلة بسبب فقرهم كما قلنا من قبل، ووجب التذكير أن منطقة نفوذ هذه القبيلة تمتد على طول

<sup>1</sup> Féraud: « Notes sur Bougie... », p298.

<sup>2</sup> Féraud: Ibid, p299.

<sup>3</sup> Louis Salvator: op, cit, p42.

<sup>4</sup> Charles Féraud : «Histoire de Bougie, l'avenir de Bougie» **I'Oued-Sahel**, 4  
Avril 1901, n°1564, p2.

<sup>5</sup> Robin : op, cit, pp203- 204.

راجع، وليم شالر: المصدر السابق، ص123 .

Alain Mahé: op, cit, p184.

<sup>6</sup> شارل فيرو: تاريخ جيجل: تر، عبد الحميد سرحان، دار الخلدو 2010، ص36.

<sup>7</sup> Féraud: «Histoire de Bougie...», p4.



الساحل الغربي له 24 كلم، وتتوغل نحو الجنوب ب18 كلم، وكان عدد سكانها قبل الاحتلال الفرنسي يبلغ حسب تقدير لوحة المؤسسات الفرنسية في الجزائر 5 آلاف<sup>1</sup>.

## 2- مكانة العلماء والمرابطين في وسط المجتمع:

العلماء والمرابطين خلال العهد العثماني بمكانة لا تفتقر ومحترمة لدى المجتمع الجزائري سواء في الريف أو في المدينة، والسبب يعود إلى الحضور الصوفي والروحي في الحياة اليومية لهذا المجتمع، وقد طغت ظاهرة الصالحين خلال هذا العهد، على جميع مظاهر الحياة، حيث أصبحت لهم مكانة كبيرة لدى العامة والخاصة، ويبدو أن الظاهرة تعتبر امتداد للعهد الحفصي، فقد لاحظ ليون الإفريقي أثناء تواجده بتونس أن "سكانها يتصفون بسذاجة كبيرة لأنهم يعظمون أقواما يسيرون في المدينة كالجنائين ويعتقدون أنهم من الأولياء الصالحين"<sup>2</sup>.

وكان السكان يقدسون العلماء والمرابطين ويجلونهم وهذا ما أجمعت عليه كل المصادر التي تناولت المجتمع الجزائري في العهد العثماني، ولم تكن في الواقع العلاقة بين شيوخ الزوايا والمرابطين والسكان هي علاقة حاكم بمحكوم، فهي أكبر من ذلك وأعمق، "لأنها علاقة روحية عميقة الجذور، فهؤلاء يمثلون في نظر السكان أولياء الله على الأرض، الحاملين لكلمته، والعاملين على مواصلة نشر دينه، والمثقفين لأبنائهم؛ لأن المراكز التعليمية الموجودة كانت بيدهم، وهي المرجع في كل القضايا الدينية، والروحية، وحتى الاجتماعية"<sup>3</sup> فسلطة الشيوخ لم تُفرض على السكان، بل السكان أنفسهم هم من اختاروها. وكان المرابط الولي يشكل قوة روحية وقوة عسكرية وسياسية واجتماعية في وسط السكان وحتى في علاقته بالسلطة سواء في حالة السلم أو الحرب، فقد كان شخصية محورية.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> T.S .E.F: op, cit, p176.

<sup>2</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ج2، ص 61- 62.

<sup>3</sup> محمد سي يوسف: «العامل الديني في مقاومة الاستعمار الفرنسي لبلاد القبائل إلى غاية «1857» مجلة رسالة المسجد. الجزائر: 2008 وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السنة السادسة، العدد الثامن، ص32.

<sup>4</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص535.

ونظرا للمكانة التي كان يحظى بها العلماء والمرابطون، يمكننا تفسير ارتباط الحكام العثمانيين بهذه الفئة، كل في منطقة نفوذه، وخاصة في الفترات التي تكون فيها السلطة ضعيفة ويخبرنا الرحالة الورتيلاني في هذا الصدد عن الضعف الذي كانت تعاني منه السلطة في عصره أي خلال القرن الثامن عشر الميلادي وأشار إلى فساد الجهاز الإداري والعسكري وانحراف النظام عن جادة الصواب، مما انعكس بالسلب على الوضع العام في الإيالة، حيث انتشرت الفوضى وكثرت الفتن والحروب بين القبائل والأعراش، وذكر كذلك أن السكان خاصة المتحصنون في الجبال استقلوا عن الحكم ولم يعد هناك من يستطيع التحكم فيهم، والفصل في خلافاتهم سوى العلماء والمرابطين.<sup>1</sup> ففي ظل هذا الضعف كانت الآمال معقودة على العلماء والصلحاء والمرابطين للحيلولة دون وقوع الاضطرابات التي من شأنها أن تضعف الدولة من الداخل، فتتجرأ الدول الطامعة المتربصة على اعتداءها على الإيالة.

ونلمس مما أورده الشيخ الورتيلاني في رحلته بأنه من المرابطين المشاهير الذين كان له نفوذ على السكان فكان لا يدخر جهدا في سبيل تحقيق الصلح بين المتنازعين والمتحاربين، أشار إلى ذلك بصريح العبارة في قول: "وحكم السلطان غير نافذ فيهم، إذ لا يقدر عليهم، وإن كانوا قريبين من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال، فلم يفد فيهم إلا همة الصالحين وأهل الخير، فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم، ويصلح حالهم ليرتفع ما فيهم من المعصية."<sup>2</sup>

وأورد في موضع آخر: "وذهبنا لقضاء حوائج المسلمين، فلما قضيناها من أمير مجانة وغيره من عرفاء بني عباس، ذهبنا لخل الولي سيدي بملول بن عاصم... فلما وصلنا إلى هذه الية فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم وردهم إلى محلهم لأنهم حرقوهم بالنار (وفي نسخة بالترك)<sup>3</sup> وأخذوهم وقتلوا منهم ثلاثين."<sup>4</sup> ويبدو أن الشيخ الورتيلاني أمراء كوكو

<sup>1</sup> مختار بن الطاهر فيلالي: رحلة الورتيلاني، - عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1978، ص99.

أنظر كذلك، الورتيلاني: المصدر السابق، ص8 وما يليها.

<sup>2</sup> الورتيلاني: المصدر نفسه، ص8.

<sup>3</sup> مختار بن الطاهر فيلالي: المرجع نفسه، ص100.

<sup>4</sup> الورتيلاني: المصدر نفسه، ص13.

وحسنة، وذلك ما نستشفه من خلال ذكره في رحلته أن محمد بن القاضي الشريف حج معه وتوفي بالبقاع المقدسة، وكان صديقا له، وهنا تساءل عن السر وراء تمكن الورتيلاني من كسب صداقة عدوين في آن واحد وهم أمراء بن القاضي والمقرانيين، ويبدو أن العلماء والمرابطين كانت سلطتهم ونفوذهم فوق كل الاعتبارات.<sup>1</sup> ويمكن الاستنتاج من كلام الورتيلاني أن الأمر يتعلق بأمير مجانة وبنو عباس محمد بن أحمد القندوز المقراني الذي ربما شن الحرب على هذه القرية بغرض إخضاعها، ونظرا لمكانته عند أمير مجانة قبل الصلح وعفا عنهم وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم مقابل إعلان خضوعهم.<sup>2</sup>

وعلى صعيد آخر؛ شكل الأولياء وأضرحتهم مصدر تجمع أفراد القبيلة الواحدة وقد يجمع عدة قبائل، ويعتبر الولي ظاهرة اجتماعية ودينية تقدم خدمات اجتماعية للسكان، فعند الزرع تقام طقوس قرب الضريح حتى يكون العام خصب، وبعد حصاد المحصول يوضع قرب الضريح لإبعاد اللصوص، كما يلعب الولي وضرجه دور التضامن في المجتمع حيث تقام عدة طقوس خلال السنة، منها الوعدة مثلا حيث يوزع الطعام على الجميع.<sup>3</sup> ولعل من الحقائق التي يجب التنبيه لها ذلك الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في الجزائر في ميادين وبهذا الشأن يقول الجيلالي صاري: "... وتدرجيا وانتظام احتلت الطرقية مكانة بارزة في الحياة اليومية، بل أصبحت في أماكن عدة وفي مناطق كثيرة المرجع الأول والأخير للجماهير."<sup>4</sup>

وكانت أضرحة الأولياء والمرابطين والزوايا محل تقديس من طرف السكان، فكانوا يترددون زيارتها، في المناسبات الدينية وأثناء النكبات وذلك من أجل التبرك أو الشفاء من مرض وغيرها من أهداف الزيارة، ولم تكن هذه الزيارات تقتصر على عامة الناس فقط، بل حتى العلماء والمتصوفة كانوا حريصين على زيارتها، أمثال الولي محمد بن عبد الرحمان الأزهري مؤسس الطريقة

<sup>1</sup> مختار فيلالي: المرجع نفسه، ص 100-101.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 100.

<sup>3</sup> لوسات فالانسي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830 ط 1، تر، من الفرنسية إلياس

مرفص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1980 ص ص 45-46.

<sup>4</sup> الجيلالي صاري: الدور التاريخي للطرقية بالمغرب العربي، محاضرة ملتقى الفكر الإسلامي 21

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الرحمانية في الجزائر حيث يذكر عبد الرحمان الجيلالي أنه استقر في بجاية في حوالي سنة 1183 / 1769م بعد عودته من أسفاره من الهند والسودان وغيرها من البلدان وكان ينشر الطريقة الخلوتية، ويمارس الوعظ ويلقي الدروس في جامع سيدي محمد أمقران، ولكنه لم إلى مدينة الجزائر، وهذا ما يؤكد الشيخ محمد الجعدي حين قال أن الشيخ بن عبد الرحمان كان يصوم شهر رمضان في بجاية وهي عادة علماء زاووة، وكان يعقد مجالس الوعظ والإرشاد في مساجدها، ويصلي بالناس، وكان حريصا على تفضية ليلة السابع والعشرين من رمضان<sup>2</sup>.

ولما كان المرابطون في العامة حمّة الشريعة أوامرهم<sup>3</sup> و احتلوا محترمة في المجتمع كانوا يستشارون في الكثير القضايا، وكانت زاوية المرابط للصلاة و الضيافة، و مقصدا مكان حتى خارج البلاد لأنها البديل الثقافة المتقدمة و الفوضى العارمة.<sup>4</sup> فالحملات الصليبية التي فجرت هذا البديل، الذي أحدث مدرسة للعلوم الدينية، للتحضير للجهاد و تجاوز التناقضات المعاشة<sup>5</sup> وانعدام الأمن، وهذا القرن 16م دور المرابط وشيخ الزاوية حساب الفقيه، وخاصة السلطة في المدينة، نشاط الفقهاء ينحصر في أمور العبادة و التعليم وبعض الوظائف، لتكرس الزوايا ببلاد القبائل و المناطق الريفية تراجع دور الفقيه، وقد وصل الأمر التعارض و التنافر الفقهاء و شيوخ الزوايا، قد استطاعت الزوايا من خلال السكان و الروحي و الثقافي ان يقوم الفقيه في فترة<sup>6</sup> فكان الزاوية أو المرابط يوجه

<sup>1</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج4، ص 50-51. - أنظر كذلك، يحيى بن يحيى بو عزيز: أعلام

الفكر و الثقافة في الجزائر الخروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1995، ج2، ص144.

<sup>2</sup> الشيخ محمد الجعدي : مناقب الشيخ الأزهري، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ورقة رقم2 المنعم قاسمي الحسيني: المرجع السابق، ص216.

<sup>3</sup> Mercier: *Etude sur la confrérie...*, p14.

<sup>4</sup> Rinn: *Marabouts et Khouans...*, p168

<sup>5</sup> Berque: *op.cit*, p48.

<sup>6</sup> سعيدوني: الزوايا في الجزائر العثمانية، ص16.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

يؤجّه أتباعه في أمور الدين و الشريعة و التصوّف، وقد تعدى ذلك حتى التكوين الحربي<sup>1</sup> أسندت الأمور القضائية، عكس ما كان جاري به العمل في المدينة التي<sup>2</sup> هذا إلى الدور البارز للمرابط في اختيار رئيس القبيلة.<sup>3</sup> و كان المرابطون و الأشراف في الحرم الاجتماعي،<sup>4</sup> و يحظون احترام و العماية طرف الأهالي حتى مماثلة<sup>5</sup> إلى درجة أن شاع الاعتقاد لدى الناس بقبول دعوة المرابطين الله، وأن سعادة الفرد أو رضى المرابط حتى وصل الأمر بهم إلى تقديم القرابين حتى أمنيتهم.<sup>6</sup> و تجلّى دور المرابطين في شرح و تفسير الأخلاق للأهالي و تعليمهم الصلاة و تعاليم الدين الإسلامي<sup>7</sup> و نشر الإسلام القبائل.<sup>8</sup> وقد أكسب هذا المرابط أو الزاوية اجتماعية اجتماعية و<sup>9</sup>.

ولقد المرابطون علاقات وطيدة السكان دورهم في الحياة الثقافية والاجتماعية<sup>10</sup> عملوا إعادة السلم إلى بلاد القبائل نفوذهم و حمايتهم<sup>11</sup> و في هذا السياق يقول حمدان : "أما السلم دائما المرابط<sup>12</sup> إضافة إلى إراقة الدماء و الإصلاح القبائل"<sup>13</sup> " سيدي بوقيرين الذي

<sup>1</sup> Ben Achenhou: **Connaissance du Maghreb, Notions d'Ethnographie d'histoire et de sociologie**, Ed Populaire de l'Armée, Alger, 1971-, p134.

<sup>2</sup> سعيدوني/ البوعبدلي: الجزائر في التاريخ ص 23 .

<sup>3</sup> Daumas: op, cit, p154.

<sup>4</sup> Boulifa : op, cit. p 228.

<sup>5</sup> Liorel: Op.cit, p451.

<sup>6</sup> حمدان : المصدر السابق، ص 57 .

<sup>7</sup> حمدان خوجة: ص 57

<sup>8</sup> Gzel: op. cit, p175

<sup>9</sup> عمار هلال: دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962 د. م. ج، الجزائر، 1994 ص 25.

<sup>10</sup> Mercier: **Etude sur la confrerie...**, p16.

<sup>11</sup> Boulifa: Ibid, p228.

<sup>12</sup> حمدان : المصدر السابق، ص 56

<sup>13</sup> Devoulx: Les édifices, p9.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

أصلح بين عرش آيت سعدان وعرش آيت اليوسي القبائل الكبرى،<sup>1</sup> إضافة إلى هذا كان المرابط يرافق القوافل<sup>2</sup> و اللصوص<sup>3</sup> وهذا ما يؤكد الشيخ عبد الكريم الفكون في ترجمته الموهوب بمولة، أنه كان لحماية القوافل التجارية التي تجوب المناطق المخوفة بعض أولاده أو طلبته وإن لم يجد من أر مركوبه - أي: را حلتة - فتمر القافلة محمية ولا بمسها أحد بأذى<sup>4</sup> حيث يقول: "كان يتردد مع القوافل والمسافرين، اجتازين ببلادهم لكي يأتمنوا من مكر ذلك الوطن، إذ هم لصوص، الغالب عليهم استيلاب القوافل والسافرين إلا أن يكون من أولادهم أحد".<sup>5</sup> فاعتماد السلط حماية المرابطين إذن كان إجراءً ضروريًا الحاميات التي لا يرافقها المرابط البحر، وفي هذا الشأن يقول حمدان : " الحامية التركية التي إلى بجاية بحيرة أن تكون المرابطين"<sup>6</sup> وكان المرابطون يتدخلون في الأسواق والسنهر على توفير الأمن بها، خلال هذا العمل فامتدت حتى الأسواق، و المعاملات التجارية.<sup>7</sup> إضافة إلى هذا اعتبر المرابطون كأطباء<sup>8</sup> علاج الأمراض، إما بالأعشاب أو اليد الرأس، هذا دون أن دورهم في

Mercier: Ibid, p15.

<sup>1</sup> Dermenghem: op.cit, p167.

<sup>2</sup> الله: المرجع نفسه ص 488

<sup>3</sup> Dermenghem: op.cit, p167.

<sup>4</sup> المهدي البوعبدلي: التعريف بالكتب والمخطوطات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 143.

<sup>5</sup> عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 201.

<sup>6</sup> حمدان : المصدر ص 88

<sup>7</sup> Trumelet Corneille: **Les Saints de l'Islam; légendes hagiologiques et croyances algériennes**, 1881, Didier & Cie, Paris, 1881, p50.

<sup>8</sup> A. A. B. Choib: « Les marabouts guérisseurs », in **R.A**, N°51, 1907, p253.

جمع الأموال لافتداء الأسرى المسلمين وهذا ١ الغزو المسيحي للسواحل الإفريقية<sup>1</sup> وهنا تبرز أهمية الدور الذي المرابطون في الحياة الاقتصادية و الثقافية بالأرياف، رغم أن وهب للقيام بأعمال الإسلام<sup>2</sup> كالسحر والشعوذة وإدعاء علم الغيب.<sup>3</sup>

### 3- العلماء والمرابطين بالسلطة:

لقد تميزت السياسة العامة للسلطة العثمانية في الجزائر بالتقرب من العلماء والمرابطين، وكان العلماء هم أنفسهم رجال الدين الفقهاء، وهذا ما لاحظته الأسير الألماني سيمون بفايفر الذي يقول أن الذي يحسن القراءة والكتابة عُذَّ عالما، وأما الذي يحفظ القرآن ويؤدي مناسك الحج فيصبح مرابطا؛ يلتف حوله الناس ويجلُّونه ويقدرُّونه، ويتقربون م<sup>4</sup> وقد عرف العثمانيون كيف يستثمروا في الوضع الديني الذي كان سائدا في الجزائر عند مجيئهم، فأظهروا الاحترام والتقدير لشيوخ الطرق الصوفية وأصحاب الزوايا المرابطين، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل أن المصادر تذكر لنا أن عروج راييس زار الشيخ أحمد بن يوسف الملياني المعروف بعدائه للزيانيين و ب بعض الروايات إلى أنه اتفق معه على عدة أمور<sup>5</sup>، وقد حذا أحياه خير الدين ذووه عندما زار الشيخ سدي الكبير مرابط البليدة في زاويته ويقال أنه وجدته في كوخ فبنى له مسجدا وبقربه فرنا وحماما لأتباعه الموريسكيين<sup>6</sup>. فسلوك عروج وخير الدين هذا يفسر بأكما أدركا جيدا أن مفتاح الجزائر بيد ولاء المرابطين، لما تميزوا به عن العامة بثقافتهم وتقواهم وبركتهم أو بنسبهم الشريف،<sup>1</sup> تبعهم الحكام

<sup>1</sup> Alfred Bel: **La religion musulmane en Barbarie du XIIème au XXème Siècle**, Gauthier, Paris, 1938, p379.

<sup>2</sup> Boyer : « La vie quotidienne... », p80.

<sup>3</sup> تحدث الشيخ عبد الكريم الفكون عن ممارسات بعض المرابطين وفضح أعمالهم وسلوكاتهم في مؤلفه منشور الهداية .

<sup>4</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 141.

<sup>5</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه ج 1، ص 470.

<sup>6</sup> عبد المنعم قاسمي: المرجع السابق، ص 193.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

فيما بعد واستغلوا هذا الأمر لصالحهم و أوا يتقربون منهم و يعتمدون عليهم في مد سيطرتهم و كسر شوكة كل من يقف في وجههم خاصة بعدما أعطوا لسيادتهم بالجزائر صبغة دينية.<sup>2</sup>

وقد تميزت منطقة القبائل خلال هذا العهد بكثرة الطرق الصوفية، والزوايا والمرابطين. وقد سبقت الإشارة إلى استشهاد عدد كبير من علماء بجاية وشيوخها أثناء الغزو الإسباني، حيث أخبرنا المريني أنهم كانوا يتقدمون الصفوف الأمامية، وتفرق الناجون في الجبال. إن تحالف السلطة المرابطين والزعماء الدينينلم يكن في الواقع وليد العهد العثماني ولم العثماني ن استحدث هذا التقليد أو هذه السياسة بل سبقهم إلى ذلك غيرهم، فالخفصين م كانوا بلا شك على علاقة طيبة مع المرابطين والزعماء الدينين في حكمهم لبجاية والأقاليم الريفية التابعة لها، ونورد مثلا على ذلك ما ورد عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني وهو قادري ال في أواخر القرن الخامس عشر تعرض إلى مطاردة سلطان تلمسان له بسبب الاختلاف في الطريقة فلجأ إلى بجاية واستقر بها حيث وفر له سلطانها الخفصي الحماية، وخلال العهد العثماني كان من مؤيدي الأتراك فحظي بعطفهم، ونال امتيازات خاصة له ولصالح الطريقة القادرية ومريديها، وكان الحكام الأتراك يستخدمون المرابطين لتسوية النزاعات بين الأهالي، ويسهرون على حماية النظام من ثورات وتمرد القبائل.<sup>3</sup>

وبعد ضم بجاية كانت السلطة تدرك جيدا أن قدراتها العسكرية والحربية؛ لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن تسمح لها بفرض سلطتها على المنطقة الجبلية المجاورة لهذه المدينة، ما لم تستند لحكم الشيوخ الدينين ورؤساء القبائل والأعراس، فقد كانت تدرك كذلك أنها ستكون في أمس الحاجة

<sup>1</sup> بعد النسب، عنصرا مهما اتخذ منه الكثير من المرابطين سبيلا للولوج إلى قلوب السكان، الذين كانوا يكونون الاحترام والتقديس والتبجيل، لكل من له علاقة بنسب الرسول "صلى الله عليه وسلم"، وفي هذا السياق يقول ألفرد بيل: "إن صفة الشريف في المغرب العربي صار لها سحر عند البربر وأصبح لقبها ما يلقب به رؤساء الطرق الصوفية، والصوفية العاديون يثبتها لهم أو يخلعها عنهم عن خطأ أو عن صواب ممن ترجموا لهم من مؤلفي كتب التراجم الصوفية وواضعي كتب الأنساب على مر العصور." ألفرد بيل: المصدر السابق، ص422.

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص469.

<sup>3</sup> Gaid: Histoire de Béjaia..., p68.



## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

للمقاتلين الشجعان من القبائليين والعرب، ومن هذا المنطلق رسمت سياسة عامة منذ البداية تقوم على التقرب من هذه الزعامات المحلية. بإحكام علاقات قوامها المصلحة المتبادلة و تستغل كل الأحداث العلاقات بين القبائل متوترة في أغلب الأحيان تتميز بالحروب والثورات المستمرة. كما أشارت إلى ذلك المصادر المعاصرة.<sup>1</sup> ومن المتعارف عليه أن أول أول تحالف للسلطنة مع علماء وشيوخ منطقة بجاية هو ذلك الذي جمع الإخوة بربروس؛ والعالم المتصوف ابن القاضي، الذي كان حسب الروايات أول من اتصل بهم،<sup>2</sup> فبدأت العلاقات بالود والتعاون بين الحكام الأتراك وفتة العلماء والمرابطين، رغم أن أبو القاسم سعد الله يرجع العلاقة بين العثمانيين وشيوخ بجاية إلى سنة 1491 حينما استضاف مرابط بجاية الشهير محمد التواتي في زاويته البحار التركي بيري ريس الذي أخبرنا في مذكراته أنه نزل في بجاية رفقة ه كمال ريس وهو قائد غزوة<sup>3</sup> ولجأ إلى زاوية المرابط المذكور، وكان يبلغ حينها من العمر 120 سنة وهو يحظى باحترام وتقدير الجميع، ويذكر أنه أكرمهما وأحسن ضيافتهما وأمضيا في زاو متواليين نزولا عند رغبة وتحت حمايته وطمعا في بركاته.<sup>4</sup> وذكر أن المقام طاب لهما في بجاية لإحسانهما بالأمن بسبب وجود المرابط سيدي التواتي الذي كان يحمي المدينة في اعتقادهما.<sup>5</sup> وعليه فقد رحب معظم المرابطين بالعثمانيين، كما كان هؤلاء يشعرون أن أقرب الناس إليهم هم المرابطون ورجال التصوف، وكانوا يطمئنون لهم ويجلونهم ويتبركون بهم وتقربوا منهم.<sup>6</sup> وكانوا يظهرن احتراما كبيرا للمرابطين والعلماء، حتى يكسبوا ثقة السكان، كما كانوا يتغاضون عن المخالفات التي كان يرتكبها المرابطون، ولا يلاحقون من يلجأ إلى زواياهم أو أضرحتهم.<sup>7</sup> ومن الأمثلة على حرص السلطة على التقرب من المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية قيام الداوي محمد عثمان باشا اء الشيخ الولي

<sup>1</sup> أنظر مرمول: المصدر السابق. وكذا Haedo: Histoire des Rois....

<sup>2</sup> أنظر الفصل الأول من هذا البحث.

<sup>3</sup> يبدو أن الإثنان كانا في إحدى غزواتهما على الشواطئ الإسبانية لإنقاذ المسلمين الأندلسيين.

<sup>4</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 469.

<sup>5</sup> Robert Mantran: Pérris Reis, op, cit, p164

<sup>6</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 469.

<sup>7</sup> de Grammont: Histoire d'Alger..., p234.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

محمد بن عبد الرحمان الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية في الجزائر للتدريس في جامع سيدي عبد الرحمان الثعالبي وهناك من يذكر أنه درس في جامع الحامة ، وقيل أن الداوي أحلى لما رأى من كراماته.<sup>1</sup> وكان هذا المرابط قد ذاع صيته في منطقة زواوة وكثر أتباعه الأمر الذي جعل السلطة ترتاب منه، فطلب منه الباشا المذكور القدوم إلى مدينة الجزائر لكي يكون تحت أعينه.<sup>2</sup>

وتوطدت العلاقات أكثر؛ وتطورت مع الأحداث المتسارعة التي عرفتھا المنطقة منذ سقوط الأندلس، ولجوء المهاجرين الأندلسيين إلى مدينة بجاية؛ وغيرها من المدن الجزائرية، فعرفت العلاقات الإنطلاقة الفعلية مباشرة بعد الاحتلال الإسباني لهذه المدينة، وذلك حين استنجد الشيخ أحمد بن القاضي، الناطق الرسمي باسم سكان بجاية ونواحيها بالإخوة بربروس كما سبق الذكر، حيث ذهب بعض الكتاب إلى أنه خاطب عروج في قوله "إن البلاد بقيت لك أو لأخيك أو للذئب".<sup>3</sup>

ولم يكن اعتناء الحكام العثمانيين الأوائل بأصحاب الطرق الصوفية والمرابطين وشيوخ الزوايا من أجل تحقيق أغراض سياسية فقط، بل كان يعكس توجههم الديني والروحي، إذ يعتبر الدين المبرر الأساسي لظهورهم في المشرق والمغرب كما يقول أبو القاسم سعد الله.<sup>4</sup> ويذكر بواييه Boyer أن تحالف الإخوة بربروس بالشيوخ الدينيين في منطقة القبائل ساعدهم على بسط نفوذهم بالمنطقة بدون صعوبات كبيرة، بل أن خير الدين وعروج ما كانا يسيطران على مدينة الجزائر لولا تحالفهما مع أمراء كوكو.<sup>5</sup> والواقع أن عروج وخير الدين لم يتحالفا مع أمراء كوكو فقط بل تحالفا كذلك مع أمير قلعة بني عباس بعد فسخ تحالفه مع الإسبان في بجاية كما تمت الإشارة إليه.

فكان المرابطون في الواقع يمثلون السند القوي للعثمانيين؛ باعتبارهم القوة الروحية المسيطرة على سكان الأريف، ذلك أن المرابطين كانوا حسب تعبير حمدان خوجة، "نعمة منّ بها الله على الحكم العثماني لفرض وجوده بالبلاد، إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسه

<sup>1</sup> الشيخ الجعدي: مناقب الأزهري، ورقة رقم 3.

<sup>2</sup> الجليلي: المرجع السابق، ص.

<sup>3</sup> عبد الرحمان الجليلي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 15.

<sup>4</sup> أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 465.

<sup>5</sup> Boyer: «Contribution..», p16.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

الخدوم ويمنعون إراقة الدماء"<sup>1</sup>، و أمام هذا الوضع ولاستفادة كل طرف من الآخر تكوّن ما يشبه الحلف بين المرابطين والسلطة، فكان البايات، زيادة على سكوهم على أعمال المرابطين مهما كانت مخلة بالأخلاق أو مضرّة بمصلحة الرعية<sup>2</sup> يخصّون هؤلاء بامتيازات مادية هامة تسجل في ظهائر رسمية تؤكد حقهم في هذه الامتيازات ووجوب احترام الموظفين والرعية لذلك<sup>3</sup>، بالإضافة إلى إعفائهم من الضرائب، واقتطاعهم الأراضي يستغلونها لصالحهم، كما فعل الداوي حسين مع مرابط شلاطة الذي سيأتي الحديث عنه.

وكثيرا ما كان البايات يحمّون وشيوخ الأسر الحاكمة مسؤولية حماية الأسر المرابطية التي تقطن في منطقة نفوذهم<sup>4</sup>. وفي مقابل هذه الامتيازات والرعاية من طرف البايات كان المرابطون يقدمون خدماتهم للحكام فكانوا خير سند لهم في تثبيت حكمهم وإخماد أي ثورة يمكن أن تهدد وجودهم في البايلاكات، كما كانت زاوية المرابط الملجأ الأول للباي في أوقات المحن، فكان الباي المخلوع أو الذي أراد الفرار من الحياة السياسية لمخاطرها، لا يجد ملجأ له وأسرته ومخبا لأمواله غير زوايا المرابطين لما كان لها من حصانة، وحرمة، وقد أوردت لنا المصادر التاريخية عددا من الأمثلة على ذلك، منها إلتجاء الباي "علي بن صالح" 1122 / 1710 م، إلى زاوية سيدي أحمد بن علي أمقران بمحانة وبقائه بها حتى وفاته<sup>5</sup>. ويذكر دو غرامون أنه لما قرر الديوان خلع مصطفى باشا أرسلوا رسولا إليه يخبره بأن مدة ولايته قد انتهت، وأن دايا آخر قد تعين مكانه، وأنه لا نجاة له إلا بالتوجه إلى قبة المرابط القريبة<sup>6</sup>. والواقع أن ظاهرة الإلتجاء إلى زوايا المرابطين لم تخص المسؤولين فقط، بل عمت أفراد الجيش الإنكشاري أنفسهم وهو ما أشار إليه الرحالة الحسن الوريلاي في قوله أن شيخ حنق سيدي ناجي، وهو شيخ أسرة ابن ناصر المرابطية، جاء إلى قافلة يطلب السماح لطائفة من

<sup>1</sup> حمدان : المصدر السابق، ص57.

<sup>2</sup> Charles Féraud: «Epoque del'Etablissement des Turcs à Constantine », in RA, 1866, pp195-196.

<sup>3</sup> لمزيد من المعلومات أنظر، عبد الكريم الفقون: منشور الهداية، صص 133-178.

<sup>4</sup> جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري.

<sup>5</sup> جميلة معاشي: الانكشارية والمجتمع ، ص102.

<sup>6</sup> ف. : المصدر السابق، ص49.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الجند الترك، فروا إليه من مدينة الجزائر، بالرحيل مع ركب الحج.<sup>1</sup> وقد استفاد العثمانيون استفادة كبيرة من المرباط لما كان له من دور في حل النزاعات الداخلية بين البايات والأسر الحاكمة تارة وبين هذه الأسر والقبائل المختلفة تارة أخرى، وقد لعب شيوخ خنقة سيدي ناجي على سبيل المثال دورا بارزا في حل النزاعات بين بايات تونس وبايات قسنطينة.<sup>2</sup> وأحيانا كان المرباط يتوسط لإيقاف القتال بين الإمارات المحلية والسلطة كما فعل ذلك المرباط الذي أشار إليه هايدو، أنه جنب وقوع مجزرة رهيبه؛ حينما التقى الجيش التركي، وجيش سلطان بني عباس، في إحدى المواجهات التي سيأتي الكلام عنها في حديثنا عن أسرة أولاد مقران لاحقا.

ونظرا لمكانة المرباطين والعلماء فقد كانت السلطة تعتمد عليهم في الشؤون الإدارية والقضائية في بجاية، فكانت تقوم بتعيين العلماء والشيوخ الدينيين في وظائف القضاء والإفتاء والكتاب.<sup>3</sup> وهذا ما لمسناه من خلال الرسالة التي بعث بها الداوي محمد عثمان تعود لسنة 1201 / 1787م إلى قائد بجاية وعلمائها وسكانها، نصت على تعيين محمد بن السيد الحسين قاضيا مالكيا على بلد بجاية.<sup>4</sup> وفي جمادى الثانية 1222 / 1807م، وقيام أحمد باشا (1805 - 1808م) بتعيين الشيخ الحسين بن محمد قاضيا مالكيا على بجاية خلفا لوالده.<sup>5</sup>

ولم تكن سياسة تقرب السلطة المركزية في الواقع من شيوخ وزعماء القبائل سياسة استحدثتها الأتراك العثمانيين في إيالة الجزائر، بل سبقهم إليها الزيانيون في تلمسان، والحفصيون في كل من قسنطينة وبجاية، فكانوا يحسنون إليهم ويكرمونهم ويخصونهم بالاستقبال، ويجزلون لهم العطاء، ويحرصون على إرضائهم بشتى الوسائل، لأنهم أعينهم على وعيائهم، ويمثلون سندا لهم في حكمهم على الرعية ويزودونهم بالمقاتلين في حال كانت السلطة في حاجة ماسة للقتال، وقد يسلطونهم على

<sup>1</sup> الورتلاني: المصدر السابق، ص 107.

<sup>2</sup> جميلة معاشي: المرجع نفسه، ص 103.

<sup>3</sup> Boyer: « Contribution... ». p27.

<sup>4</sup> الأرشيف الوطني الجزائري، ع 3206، الملف الثالث، ص 44.

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ورقة رقم 47.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

القبائل المتمردة والثائرة فيعملون على إخضاعها ومن ثمة فرض السلطة والنظام عليها دون الدخول معها في مواجهة دموية مباشرة.<sup>1</sup>

ومن هذا المنطلق كانت المنفعة متبادلة بين السلطة وشيوخ القبائل، فعلاوة على ما سبق ذكره يمكن للسلطة أن تلجأ إلى القبائل في حالة الشدة والأزمة كالتقضاء على المعارضة والمناوئين للحكم مثلا، أو لمواجهة خطر خارجي، فتعتمد على عصبية القبائل بالإضافة إلى الشيوخ الدينيين ورجال الطرق الصوفية القادرين على تعبئة الجماهير وإثارة الحماس الديني لجعلها مستعدة لخوض غمار الحرب. وقد جرت العادة أن يختار سكان القبيلة كبيرهم وقائدهم الذي يدعونه "أمغار" وهي كلمة تعني الشيخ، كما كانت تستعمل كلمة "أمقران" أو الكبير، وكان يتم اختياره بالإجماع أثناء جمعية عامة يحضرها ممثل عن كل أسرة في القبيلة، ويختار الشيخ في العادة لوقاره وحكمته وحلمه وحسن تديره.<sup>2</sup> وحتى سياسة فرق تسد التي اتهجها الحكام الأتراك لمد نفوذ السلطة في الأقاليم الريفية خاصة، ومن أجل تفريق القبائل ومنع قيام أي تحالف ضدها، هي سياسة قديمة اتبعتها الحفصيون والزيانيون قبلهم أثناء حكمهم للقبائل الريفية. فالأتراك العثمانيون والحالة هذه لم يأتوا بجديد، بل اتبعوا ما وجدوه قائما وسائدا على الساحة السياسية، فاستخدموا هذا الأسلوب بدكاء، إلى جانب أساليب أخرى كثيرة وهو سر طول بقائهم في حكم الإيالة.

وانطلاقا ووجب على الحكام العثمانيين اتباع استراتيجية حتمية للاستفادة من تلك المكانة والنفوذ في بسط سلطتهم على الجزائر، إذ يقول حمدان خوجة في هذا السياق: "أن خير الدين هو أول من سن هذه الطريقة، أول دخوله فقد شرح له بعض الأهالي طبائع هذا الشعب ونصحوه بأن يمنح المرابطين الثقة المطلقة، لأن ذلك يضمن الرعية ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن فرضوا أنفسهم هؤلاء المرابطين، وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات"<sup>3</sup>

وبالمقابل كان المرابطون يساهمون بدورهم في تسهيل حكم الأتراك من خلال حرصهم على استتباب الأمن، والسهر على المحافظة على الهدوء والاستقرار، ومن ثمة خضوع القبائل للسلطة دون

<sup>1</sup> Mercier : **Histoire de l'Afrique....** P245.

<sup>2</sup> عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج1، ص 281.

<sup>3</sup> حمدان خوجة: المرأة، ص11.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

الدخول معها في مجاهات عسكرية.<sup>1</sup> كانت العلاقة إذن بين السلطة والمرابطين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية تكمن في اقتسام الصلاحيات وتكامل المهام إذن، فقد وجد الحكام العثمانيين في هذه الفئة الاجتماعية خير معين لهم في حفظ الأمن والعمل على نشر الاستقرار وإقرار الهدوء، في وسط القبائل وخاصة توفير الحماية والعناية<sup>2</sup> للقوات العسكرية التي كانت تدفعها الظروف للولوج في مناطق ممتعة لحماية طرق المواصلات كان أحد أهم العوامل التي كانت السلطة تركز عليها في علاقاتها مع هذه الفئة. ويمكن أن نسوق مثالا الدور الذي لعبته أسرة ابن الشريف في زاوية شلاطة، حيث سمح لها مركزها الممتاز في المنطقة أ كان نفوذها يمتد من أقبو إلى بجاية، وكان الطريق السلطاني من دار السلطان وبجاية يمر عبر هذه المنطقة الأهلة بالسكان ذوي النشاط الفلاحي المزدهر.<sup>3</sup>

وفي الواقع هناك تداخل في علاقة السلطة العثمانية بالمرابطين، بين مصالح دينية وثقافية وأخرى تقوم سلطة الولي على البركة والولاء، وتحظى بقيمة رمزية وبفعالية على مستوى الممارسات الاجتماعية الماورائية<sup>4</sup>، حيث ترى لوسي مير أن لجوء الحكام الأتراك إلى المرابطين باعتبارهم الممثلين لثقافة المجتمع في ذلك الوقت، قائما على معرفتهم الدقيقة بأن العلاقات الضمنية للإسلام كدين والخلافة كسلطة، كانت تقوي مبدأ الإستقرار في مفهوم الدولة، ولم يكن اعتقادهم في الأولياء "إلا من باب طقوس العبور لتسهيل الوصول إلى أهداف سياسية"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> محفوظ رموم: المرجع نفسه، ص11.

<sup>2</sup> العناية وتعني الحماية التي يمنحها فرد نافذ أو قبيلة أو عرش ما لشخص أجنبي أو من أهل البلد، حيث لن يتعرض له أحد بسوء، وهي تعني الأمان الذي يمنحه شخص أو قبيلة لأحد المارين عبر تراب القبيلة، وكان الأتراك ينتقلون في منطقة القبائل وفق هذا التقليد، فلا تتحرك الفرق العسكرية إذا لم تحصل على عناية مرابطي أو شيوخ وزعماء القبائل التي يفترض على تلك الفرق المرور بأراضيها. لمزيد من التفاصيل أنظر، هانوتو ولوتورنو:

القبائل والأعراف القبائلية، تر إبراهيم سعدي، ج2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

<sup>3</sup> Mercier : **Histoire de l'Afrique...**, p23.

<sup>4</sup> محفوظ رموم: المرجع نفسه ، ص38.

<sup>5</sup> لوسي مير: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة علياء شكر وحسن الخولي، دار المعرفة، الإسكندرية، 1994 ص288.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن علاقة السلطة بالمرابطين في بجاية ونواحيها كانت المصلحة المتبادلة والخدمة، فلا نكاد نجد قضية يتدخل في حلها مرابط لصالح السلطة إلا وكانت متبوعة بامتيازات لضمان استمرار العلاقة المصلحية، ومن هذه الامتيازات نذكر، الإعفاء من الضرائب والمطالب المخزنية، بالإضافة إلى اقتطاعهم مساحات زراعية لاستغلالها وقد يطلبها المرابطون من السلطة كما فعل ابن علي الشريف مع الداوي حسين بعد أن تمكن من إخماد ثورة منطقة بجاية، فطلب لنفسه أراضي بمنطقة سطيف لفلاحتها لحسابه الخاص<sup>1</sup> وكان الحكام الأتراك يغدقون عليهم الهدايا والهبات،<sup>2</sup> وكانت بعض القبائل الخاضعة للحكم العثماني تفع الأعشار بعض المرابطين بأمر من العثمانيين<sup>3</sup>. وقد تذهب العلاقات إلى أبعد من ذلك كأن يمنح الداوي ختمه لأحد المرابطين لاستخدامه في حدود الإقليم الذي تنتشر فيه سمعته ونفوذه، مثلما فعل الداوي الحاج محمد باشا مع مرابط بجاية سيدي عبد القادر النجار ابن سيد محمد أمقران حسب ما أورده الفارس دارفيو<sup>4</sup>.

مما سبق يمكن القول أن تدخل المرابطين في حماية طرق المواصلات والأسواق بفضل عنايتهم، قد حقق الاستقرار والأمن للسكان، مما جعل القبائل والاعراش تتسابق للدول تحت عناية هذا المرابط أو ذاك، كما قدم كذلك للسلطة خدمات جليلة حيث وفر عنها التدخل العسكري من أجل فرض النظام، وما يتبع ذلك من مصاريف وخسائر كبيرة.

#### 4- علاقة السكان بسلطة القائد:

إن موقع منطقة بجاية الحصينة ونزعة التحررية لسكانها، ورفضهم الخضوع لأية سلطة، في جعل السلطة مجبرة على أن تختار في أغلب الأحيان أسلوب المرونة لانتزاع قدر قليل من الضرائب كرمز للتبعية، من أجل تعويض الضرائب التي لم تكن تؤديها قبائل كثيرة متمركزة في

<sup>1</sup> Robin: *La grande Kabylie*., p98.

<sup>2</sup> محفوظ رموم: الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519 - 1830)

دراسة تاريخية أنثروبولوجية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة، 2002، ص11.

<sup>3</sup> محمد سي يوسف: مقاومة منطقة القبائل، ص25.

<sup>4</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p236.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

المنطقة الجبلية الممتدة من جبال بابور إلى القل. وبما أن سكان بجاية ونواحيها على غرار سكان المناطق الأخرى، لا يدينون بالطاعة ولا يخضعون لغير شيوخهم، الذين كانوا يجلوهم ويطيعونهم، فقد لجأت السلطة إلى تقريب هؤلاء الشيوخ وتوظيف نفوذهم لصالحها، وقد رأينا كيف تمكن ابن القاضي من حشد آلاف المقاتلين لتقديم الدعم للأحويين عروج وخير الدين، سواء في محاولات تحرير بجاية، أو في ترسيخ الوجود العثماني في الإيالة. فالشيوخ الدينيين كانوا البديل عن السلطة التي عجزت عن الدفاع عنهم ضد العدو (السلطتين الزيانية والحفصية).<sup>1</sup>

وقد تميزت علاقة سكان بجاية ونواحيها بالحكام الأتراك بأنها علاقة طيبة كان يلعب فيها العلماء والمرابطون وشيوخ القبائل دور الوسيط، ويمكن تقسيمها إلى فترتين، فترة العلاقات الودية واستمرت لمدة طويلة تبدأ مع تحرير بجاية سنة 1555م إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر، حيث ساد التوتر لبعض الفترات ثم ساءت العلاقات مع مطلع القرن التاسع عشر،<sup>2</sup> وكانت تقوم العلاقة على الضريبة الرمزية التي كان السكان مطالبون بدفعها كرمز للولاء والتبعية والخضوع. فالعلاقات بين الطرفين كانت مرهونة بالضريبة من جهة؛ رغم أنها كانت رمزية، ورضا أو سخط المرابطين أو شيوخ القبائل على السلطة، وكان ذلك يتوقف على سياسة السلطة التي كانت الهدايا والعطايا أبرز مظا ووسائلها.<sup>3</sup>

منذ أن تحررت بجاية جعلت بها السلطة العثمانية حامية لا يتعدى عدد جنودها المئة جندي تقدير أغلب المصادر المصادر. ولذلك كان هذا العدد القليل لا يسمح لجنود هذه الحامية بالإبتعاد كثيرا عن أسوار المدينة، ولم تكن سلطة البايك تفرض إلا على قبيلة مزاية، القريبة من المدينة.<sup>4</sup> وعلاوة على الضريبة التي كانت مفروضة على السكان في هذه المنطقة، أضافت السلطة لها واجب آخر يتمثل في حق الضيافة حيث يكون القبيلة أو كبير الدوار أو الدشرة التي ر بها

<sup>1</sup> غزاوت عروج وخير الدين: ص32.

<sup>2</sup> ساهم سكان منطقة القبائل في الحملات التي نظمتها الجزائر ضد المغرب الأقصى كما لا تستبعد مشاركتهم كذلك في الحملة على الحفصيين بتونس والتي أدت إلى الإطاحة بحكمهم سنة 1574.

<sup>3</sup> Prigent. A: op, cit, p134.

<sup>4</sup> Féraud: «Notes sur Bougie...», p298.



المحلة ملزمه فنة جنود هذه المحلة يتم الطعام والمشرب لهم والسهر على راحتهم طول مدة كما يقوم بتقديم العلف للخيول وقد أشار الرحالة الفرنسي بيسونال إلى ذلك في رحلته إلى الجزائر ذكر أن الأعراش الخ ملزمة بجمع المستحقات الضريبية الشرعية والإضافية، وأقصى ما كانت تخضع له هذه الفئة من الأعراش هي ضريبة حق الضيافة التي كانت تحتم على الفلاح تحمل قساوة رجال المحلة الذين كانوا يقصدون أحسن خيمة ويطلبون أشهى الطعام وكان يتوجب عليه تقديم العلف للخيول، وإن أبدى الرفض فإنه يتعرض للضرب، دون أن يسمح له بالاحتجاج بل كان يتحمل منهم أبشع الإهانات والإذلال ولم يكن أمامه غير الصبر وانتظار ساعة رحيلهم عن القرية متمنيا عدم عودتهم.<sup>1</sup> ويروي لنا فيرو في ذات السياق أن سكان جبل بجاية ذبحوا كلبا ورموه من أعلى الجبل أمام المحلة التركية ونادى أحدهم بأعلى صوته بعدما رمى هذا الكلب قائلا هذا ما أعددنا لاستضافتكم، فكان ذلك إشارة منهم على العصيان.<sup>2</sup>

وفي ذات السياق يُخبرنا الرحالة الألماني هابنسترايت<sup>3</sup> - الذي زار الجزائر في عام 1732 وتحوّل في أرجائها- عن المحلة التي كان هو رفيقها حين خروجها للجباية في الأقاليم الريفية.<sup>4</sup> إذ يقول عن محلة باي قسنطينة التي عادة ما تكون بقيادة آغا تتحرك وتغير من موضعها يوميا، وكانت تبدي قسوة كبيرة اتجاه السكان لتمكينها من جمع الضرائب المفروضة على تلك القبائل، وكان الباي يخيم في وسط المحلة المتكونة من الفرق العسكرية التي كانت تتألف من المشاة الأتراك وهم من الحاميات المرابطة في المدن المعروفة بالنوبة، وفرسان العرب الذين يُعرفون برجال المخزن، يشاركون في الحملات الموجهة للجباية ومراقبة القبائل، وذكر أن الفرق المرافقة للباي هذه المرة ذات قدرة هائلة

<sup>1</sup> Peyssonnel et Desfontaines: op, cit, p322.

<sup>2</sup> Féraud: «Histoire des villes...», p255.

<sup>3</sup> قدم هذا العالم الرحالة إلى إيالة الجزائر في مهمته العلمية، حيث كلفه أغسطس الثاني ملك بولونيا ومنتخب سكسونيا، بالسفر إلى منطقة شمال إفريقيا بغية التعرف على حيوانات ونباتات المنطقة، وإفادته بالأبحاث العلمية في ذات التخصص.

<sup>4</sup> لمزيد من التفاصيل حول هذا الرحالة راجع، ناصر الدين سعيدوني: رحلة العالم الألماني ج. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

من ثمانية آلاف جندي ومائة فارس، رغم قتلها إلا أنها قادرة على كبح العرب  
وفي استطاعتها حوض الحرب عندما يتطلب الأمر ذلك!

والجدير بالذكر أن المحلة التي كانت تختص في جباية الضرائب  
قسطنطينة، ثم تنقلهم إلى فيلقين فيلق يسلك طريق الشمال نحو مناطق التل المتاحة للبحر، والآخر  
يجوب منطقة الهضاب العليا والتل الجنوبي.<sup>2</sup> و الضريبة إحدى أهم المظاهر الأساسية التي  
ميزت الحكم العثماني في الجزائر، وهي آلية من الآليات الهامة التي ارتكز عليها هذا الح ، وك  
تحدد بعدد الزوايجات أو الجابدات<sup>3</sup> التي يملكها كل فلاح، والزوريجة أو الجابدة هي وحدة  
قياس تمثل المساحة من الأرض التي يمكن للفلاح أن يحرثها بزواج من الثيران أو البغال خلال موسم  
فلاحي، وكانت الزوريجة الواحدة تقدر ضريبتها ب 10 كيلات من القمح أو الشعير<sup>4</sup>.

ونظرا لصعوبة تضاريس منطقة بجاية وميل قبائلها إلى الاستقلال وعدم الخضوع لأية سلطة  
سوى سلطة الشيوخ كما تقدم ذكره، لم كان لزاما على السلطة أن تحترم هذه الوضعية، التي  
تجبرها على الاستعانة بالمرابطين كما سبقت الإشارة، من أجل فرض السلطة والمساعدة في عملية  
استخلاص الضرائب في المنطقة، وكذا حماية مدينة بجاية ومينائها من أي غزو خارجي محتمل.<sup>5</sup> كان  
الباي يرسل في كل سنة محلة عسكرية صغيرة تتألف من 100 جندي مدعومة بالجيش وترافقه قبائل  
المخزن لجباية الضرائب من منطقة بجاية، كانت المحلة تستقر في إقليم مجانة وتشرع في عملية التحصيل  
في منطقة وادي الساحل مستعينة بالقبائل الحليفة والأسر المحلية الكبيرة ذات النفوذ في المنطقة، مث  
أسرة أورابح وأولاد سيدي الشريف وأولاد ممران الساكنين بقرية أمدان على مقربة من

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 79.

<sup>2</sup> محمد مكحلي: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827

<sup>3</sup> الجابدة هي مصطلح يطلق في الجزائر على المحراث الخشبي التقليدي الذي يجره ثوران أو بغلان  
يستعمل في حراثة الأرض. أنظر، ناصر الدين سعيدوني: النظام الضريبي، ص 87.

<sup>4</sup> خليفة حماش: المرجع السابق، ص ص 86-87.

<sup>5</sup> Berbrugger : op, cit, p56.

مدينة بجاية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من القبائل التي كانت تمتنع عن دفع المستحقات الضريبية،<sup>1</sup> ويجد الأتراك صعوبة كبيرة في انتزاع الضريبة منها بسبب تحصنها في الجبال.

ولصعوبة المهمة لم تكن السلطة تستطيع الاستغناء على خدمات المرابطين وكانت المفاوضات تتم بحسب عادة وتقليد لا ندري متى بدأ العمل به، فلما تصل المحلة إلى المنطقة كان السكان يصعدون إلى الجبل ويرسلون رابط للتفاوض مع قائد هذه المحلة بخصوص تحديد قيمة الضرائب التي دفعها، وعندما يتم الاتفاق على المبلغ المحدد يدفعه فتراجع المحلة بعد ذلك دون أن يقع الاحتكاك بين الطرفين. ويذكر الرحالة الفرنسي بيسونال أن باي قسنطينة كان يستعمل أسلوب التهديد بحرق المحاصيل وإتلافها للضغط على سكان المنطقة وحملهم على دفع ما عليهم من مستحقات ضريبية.<sup>2</sup> ولعل امتناع هذه القبائل عن دفع الالتزامات الضريبية بصفة منتظمة يعود إلى أنها كانت تفعل ذلك في العهد الحفصي ولذلك اعتادت على التمرد والعصيان، وكانت تفضل الحرية والاستقلال، فورثت هذه الوضعية خلال العهد العثماني، حيث كانت السلطة تواجه صعوبة كبيرة في إخضاعها مباشرة، أو انتزاع اعترافها.<sup>3</sup> والحقيقة أن اللجوء إلى استخدام القوة لانتزاع هذه الضريبة لم يكن يختص بالسلطة العثمانية فقط، بل سبقها إلى ذلك الحفصيون، حيث يذكر الباحث إبراهيم جدلة بهذا الشأن أن السلاطين الحفصيين كانوا يلجأون إلى استعمال القوة مع سكان المدن الحضريين، فما بالك بسكان البوادي والأرياف.<sup>4</sup> ويمكن أن نفهم من كلام جدلة أن استعمال القوة كان يتم نتيجة رفض السكان دفع هذه الضرائب.

وللإشارة كان يتم جمع الضرائب مرتين في السنة،<sup>5</sup> تنطلق محلة من الجيش -

20 (340 ي) وبضع مئات من فرسان المخزن - محيم الباي أو الخليفة المتواجد

<sup>1</sup> Féraud : « Notes sur Bougie.. », p 296.

<sup>2</sup> Peyssonnel et Défontaines : op, cit, p479.

<sup>3</sup> يبدو أن سكان المنطقة قد ذاقوا ذرعا من الحكم العثماني الذي كانوا ينظرون إليه على أنه نظام ضريبي، ذلك أن الأمير عبد القادر لما اتصل بشيوخ هذه المنطقة سنة 1839 من أجل استمالتهم إلى قضيته أحابوه بأنهم مستعدون للتعاون معه ما لم يفرض عليهم ضرائب.

<sup>4</sup> إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 296.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

عادة في منطقة سيدي مبارك ومجانة<sup>1</sup> في اتجاه منطقة وادي الساحل وقبائلها، فتعبر هذه المحلة اعتياديا منطقة القرقور وغبولة وجنان البايك، ثم ملاحه وصنهاجة وتخم في الأخير في سهل تبودة بالقرب من تيقلعت عند وادي الصومام. وكانت مح أخرى تنطلق من مدينة الجزائر ف التل الذي عبر مدينة "الثنية" ثم "برج منايل" و"برج سبا" و"بوغني" و"نغرغرت" و"جمعة الصهاريج" ثم "سيدي عيش" " " " "بجاية" ومنها إلى مدينة " ". ويتفرع عن هذا الطريق : أحدهما ينطلق من بجاية إلى "برج " و"قلعة بني عباس" والآخر من بجاية عبر سوق الاثنين إلى مدينة سطيف، التي بني بها برج علوه 20 و 30<sup>2</sup>. وللمراقبة وحراسة هذه الطرق المذكورة، شيدت بها السلطة مجموعة من الأبراج والحصون.

وكانت عملية تحصيل الضرائب في بجاية وضواحيها تتم كما في غيرها من المدن والأقاليم عبر ثلاث طرق: الطريقة الأولى وتمثل في توظيف رؤساء القبائل والمرابط كان القا بتحصيلها على القبائل الخاضعة لنفوذهم<sup>3</sup> والطريقة الثانية عن طريق تسيير المحلة التي جرت العادة أن تنطلق في موسم جني الثمار، فيتسارع شيوخ هذه القبائل إلى قائد هذه المحلة لدفع ما عليهم من مستحقات، وتمثل الطريقة الثالثة في القيام بالإغارة فجأة على السكان الممتنعين نتزع منهم باستعمال القوة.<sup>4</sup> وهذه الطريقة الأخيرة نادرا ما كانت تستعمل لصعوبة تضاريس منطقة بجاية، فكانت السلطة تستعمل الأسواق الأسبوعية والموسمية كوسيلة للضغط كما سبق الحديث عنها.

وكانت المحلة تقضي نحو خمسة أشهر وهي تجوب الأقاليم لجباية الضرائب، والواقع أن هذه الضرائب لا تمثل سوى جزءا يسيرا من موارد الدولة، ذلك بأن السكان كانوا كثيرا ما يمتنعون عن دفعها، وكثيرا ما كانت تتطلب الحملات الموجهة لقهروهم مصاريف أكثر مما كانت تحققه هذه الضرائب.<sup>5</sup> وعلى أية حال لم تكن السلطة تستطيع الاستغناء عن خدمات القبائل والأسر القوية

<sup>1</sup> سيدي مبارك تقع على الطريق المؤدي من سطيف إلى الجزائر العاصمة و تبعد عن مدينة سطيف ب 40 .

<sup>2</sup> سعيدوني: النظام الضريبي، ص136.

<sup>3</sup> عمر حرفوش : المرجع السابق، ص70.

<sup>4</sup> Claude Bontems: **Manuel des institutions des Algériennes de la domination Turque à l'indépendance**, T1, Ed Cujas, Paris, 1979, pp70-71.

<sup>5</sup> الميلي: المرجع السابق، ص129.

الحليفة، في مساعدة المحلات المكلفة بالجباية، كأسرة ابن علي الشريف شيخ زاوية شلاطة، وأسرة أورابح، وأولاد سي الشريف أمزيان، وأولاد سيدي محمد أمقران بأمدان. ولم تكن السلطة تفرض على القبائل بالمنطقة سوى مبلغ زهيد على قبائل معدودة، وعندما لا تكن السلطة واثقة من استمرار حالة الهدوء ولا تطمئن للقبائل التي يمكن أن تعبر أراضيها فإنها لا تخاطر وتسلك طرقا آخر عبر برج حمزة للوصول إلى مناطق وادي الساحل.<sup>1</sup> الأمر الذي يوحي لنا بأنه ليست كل قبائل المنطقة كانت خاضعة للحكم العثماني مباشرة.

ويمكن للسلطة أن المرابطين كجباة للضرائب أو رسميين وهو حدث في القبائل،<sup>2</sup> أولاد سيدي ال أمزيان وإ في نواحي أقبو و أحفاد سيدي محمد أمقران في بجاية وضواحيها هؤلاء المرابطون جباة للضرائب، التي كان " مرابطي بجاية " أو شمعة مرابطي بجاية<sup>3</sup> و أسرة الفكون التي كان لها الإشراف الضرائب الجباة ق الفواكه و الخضر في مدينة قسنطينة<sup>4</sup> أن الباي محمد الدباح و مرابطي أولاد سيدي أو ذوي النفوذ الكبير القبائل الكبرى فوض لهم جمع الضرائب<sup>5</sup> و هذا مراسيم لهم السلطة لمدى تأثيرهم الواسع و نفوذهم الكبير لدى السكان.<sup>6</sup> هذه المراسيم تجدد باستمرار حتى الحكام خلالها المحافظة على الأمن والاستقرار في المناطق الصعبة التضاريس وفي هذا استفاد المرابطون ماديا هذه الإمتيازات، الأمر الذي أدى إلى هذا الامتياز الذي يعود بالفائدة

<sup>1</sup> Féraud: «Notes sur Bougie...», p299.

<sup>2</sup> Boyer: «Contribution ...», p29 .- Merrad Boudia , op.cit ,p342

<sup>3</sup> Boyer: Ibid, pp 30-31.

<sup>4</sup> الله : الإسلام، ص57.

<sup>5</sup> Robin: « Le bey Mohamed Ben Ali E-debbah...», p361.

Saidouni: op.cit, P 397.

<sup>6</sup> Leila Babes: **Saints- tribus et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination turque**, Université d'Oran, Oran, S.D, P 14.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

ومن أذعن الكثير المرابطين لهذه السياسة، و أصبحوا توافق السلطة وتطوعوا حتى لإقناع القبائل الضرائب<sup>1</sup> و مرافقتها في حملاتها الجبائية<sup>2</sup> وأحاطتها يجري في الأرياف المعادية المركزية. ونظرا لبعد قبائل بجاية و بالجبال الوعرة كانت هذه القبائل في غالب الأحيان ترفض دفع الضريبة المفروضة عليها وقد قدر روسو المبلغ الذي هذه الـ تدفعه لخزينة البايلك بـ 213160 بوجو وكانت قيمة البوجو تساوي 18 أي ما يساوي 38448<sup>3</sup>.

وأجمعت المصادر المتوفرة لدينا أن سلطة الحكام العثمانيين على سكان نواحي بجاية كانت جاء في رسالة مؤرخة في 25 1690م أن سفينة كانت قادمة من المغربية، اضطرتها الرياح إلى التوجه إلى ميناء بجاية، وفور وصول الخبر إلى الداى شعبان (1688-1695م) أرسل إلى بجاية يأمره بمنع التموين عنها وجعلها تغادر الميناء بسرعة وفي حالة عدم انصياعها ومر عليه أن يطلق النار على كل من فيها، وى صاحب الرسالة نداء إلى القوى الأوروبية ضد الجزائر محذرا إياها من المخاطر التي يمكن أن تنعكس عليها إن لم تسارع في الإغارة على سواحل للقضاء على قرصنة يخبرها أن تقوم بتحذير كل السفن التجارية الأوروبية من خطر وقوعها بين أيدي القراصنة الجزائريين على ما يبدو لم تعد هذه السفينة إلى<sup>4</sup>.

وفي السياق ذاته رسالة أخرى مؤرخة في 16 1700 م من أحد القناصل الفرنسيين الحالة العامة في الجزائر حيث جاء فيها أن المنطقة الواقعة بين بجاية وجيجل لا تخضع ولا تدفع أي نوع من الضرائب، وأن القوات التركية لا تجرؤ على دخول هذه المنطقة،

<sup>1</sup> Boyer: op, cit, p 30.

<sup>2</sup> Mercier : op, cit, p323.

<sup>3</sup> أحمد سيساوي: النظام الإداري وبايلك الشرق 1791-1830، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة 1988/1987، ص123.

<sup>4</sup> Henri Delma de Grammont : **Correspondances des Consuls d'Alger**, (1690-1742), Adolphe Jourdan, Librairie-éd, Alger, 1890, pp, 15-16.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

إلى درجة أن السفن التي كانت تتحطم به يقوم السكان بتفكيكها والانتفاع بها دون أن تتمكن الحكومة من استرجاعها.<sup>1</sup>

وتؤكد هذه الأقوال رسالة أخرى مؤرخة في 18 ديسمبر 1701م أن سفينة من نوع البينك la Pinque<sup>2</sup> وهي ملك للسيد بارثليمي موران، كان على متنها مسافرين أتراك أقلعت من ميناء مرسيليا في شهر نوفمبر، قام الأتراك باغتيال صاحب السفينة والكاتب وقائد تركي وتركيان آخرون (أب وابنه) وقاموا برمي كل الوثائق والرسائل التي كانت بحوزتهم، في البحر، ثم اتجهوا بالسفينة نحو الشرق، لكن العناية الإلهية حسب ما يذكر صاحب الرسالة أبت إلا أن تفضح هذا العمل الإجرامي كي لا يفلت أصحابه من العقاب حيث اتجهت السفينة صوب ميناء بجاية رغم إرادة المعتدين، وعندما وصلت إلى الميناء المذكور تمكن الأغا التركي من إلقاء القبض على أحد المعتدين في حين فر الآخرون ولجأوا إلى مرابط المدينة الذي أعلم على الفور الداى، وكان هذا الأخير قد أرسل للبحث عنهم، يقول صاحب الرسالة "ونحن أرسلنا على الفور رسالة عن طريق البر وأخرى مع الأتراك على متن السفينة التي نقلت الأوامر بالقبض على الجرمين وإرسالهم إلى الداى أحياء أم أموات هذا الداى بقتلهم داخل قبة المرابط في حالة رفضهم الخروج وإرسال رؤوسهم إلى مدينة الجزائر<sup>3</sup> لتعلق على إحدى البوابات كما هي العادة وقتئذ."

وبناء على ما ورد في رسالة لقنصل فرنسي مؤرخة في 27 جوان 1716 فإن سان ميشال كانت بقيادة جون بيروني دي مارتيج Jean Birounet du Martigue رست قرب ميناء زيامة منصورية شرق بجاية حيث كان هذا الـان في مهمة تفاوض مع سكان المـ تجارة سلع معينة،<sup>4</sup> باغتتها السكان الجبليون بالهجوم عليها، وقتلوا قبطان السفينة و اقتادوا البقية كأسرى، يقول صاحب هذه الرسالة: "فترجيت الداى كي يتدخل شخصيا لإنقاذ الأسرى أعطاني وعدا بأنه سيبدل جهده لإطلاق سراحهم، كتب على الفور إلى بجاية طالبا

<sup>1</sup> Henri de Grammont : Ibid, p80.

<sup>2</sup> وهي نوع من قوارب التارتان ذات الحمولة الكبيرة كانت تستخدم في البحر المتوسط لمزيد من التفاصيل أنظر،

<http://fr.wikipedia.org/wiki/Pinque>

<sup>3</sup> de Grammont: **Histoire d'Alger...**, p91.

<sup>4</sup> هي مدينة ساحلية تقع غرب مدينة جيجل وتبعد عنها بحوالي 40 كلم، وتبعد عن بجاية بحوالي 55 .

منه بذل ما في وسعه لإنقاذ الرعايا الفرنسيين و ذ الاعتماد على مرابطي المنطقة بطبيعة الحال كما جرت العادة" ثم يقول: " أن الداى أخبيري سكان ذه القبائل وأن من دفع المال لتخليص الأسرى، فتمكن المرابط المذكور من تخليص سبعة مواطنين وأضطرت إلى تعويضه المال الذي دفعه لهم".<sup>1</sup> ومن هنا تتجلى لنا قيمة المرابط والأعمال التي كان يقوم بها في صالح السلطة، فبتدخله يمكنه أن يجنب وقوع حرب بين دولتين أو أكثر.

ويروي لنا لوجي دو طاسي قصة غرق سفينة فرنسية قرب بجاية، وكيف أن السكان الجيليون الذين كانوا يراقبونها من الجبل، هبوا لإنقاذ الركاب، فلم ينج من الغرق سوى ثلاثة أفراد مسيحيين عثر عليهم في حالة مزرية الجوع البرد الشديد فأحسنوا إليهم وأطعموهم، ثم اقتادوهم ذلك إلى مرابطهم في مقر إ فأرسل هذا المرابط لإعلام الداى فقام هو بإخبار بالحادثة، وأرسل ثلاثة فرسان لنقلهم إلى مدينة الجزائر بعد أن دفعوا للمرابط مبلغ زهيد من المال.<sup>2</sup> فهذه الأحداث على أن سكان منطقة بجاية لا يخضعون سوى لشيء وقد أشار الورتلاني إلى ذلك في حديثه عن منطقة القبائل الشرقية حيث ذكر أن السلطة فيها ضعيفة،<sup>3</sup> وهذا يدل على مكانة شيوخ القبائل ودورهم في الوساطة بين السكان والحكام الأتراك. وأشار الكاتب الإيطالي فيليبو بانانتي Filippo Pananti بهذا الصدد إلى أن السكان الجيليون في المنطقة الواقعة بين بجاية وجيجل كانوا يقومون بالاستيلاء على أي سفينة أوروبية تتعرض للغرق أو تحطيم بالقرب من الساحل وذلك للحصول على مبلغ الفدية.<sup>4</sup>

ورغم أن السلطة العليا كانت بيد القاد في بجاية وغيرها من المدن إلا أن شيوخ القبائل والزعماء الدينيين كانت لهم مكانتهم وكانت لهم سلطتهم وسط السكان،<sup>5</sup> وهذا ما لاحظته الفارس دارفيو أثناء تواجده ببجاية حيث ذكر أن القائد التركي يحكم المدينة بمساعدة مجلس من الأعيان<sup>6</sup>

<sup>1</sup> de Grammont: Ibid, p132.

<sup>2</sup> de Tassy: op, cit, p138.

<sup>3</sup> الورتلاني: المصدر السابق، ص 15.

<sup>4</sup> Filippo pananti: **Relation d'un séjour à Alger**, traduit de l'anglais par Obruat Illod Malé Partum, imp, de le Normant, Paris, 1907, p154.

<sup>5</sup> Temimi: op, cit, p51.

<sup>6</sup> Chevalier d'Arvieux: op, cit, p237.



## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

وكان القائد يستشيرهم في أمور قيادته، وإذا كانت سلطة القائد في البداية لم تتعدى تحصيل الضرائب إلا أنه بعد استقرار الأوضاع نسبياً أصبح هذا القائد يشرف حتى على السلطة القضائية والسياسية وذلك من خلال مراقبته للشيوخ التابعين له، ومن ثمة فقد كان قادراً على ممارسة صلاحيات سياسية وقضائية وعسكرية في إطار الإقليم التابع لحكمه<sup>1</sup>.

ويؤيد أحد الكتاب أن قبائل بجاية كانت خاضعة للسلطة بواسطة المرابطين، فلولاهم لما دفعت أي ضريبة للدولة، فقد كان السكان يدفعونها للمرابطين<sup>2</sup>. وكانت السلطة العثمانية تعفي المرابطين من دفع الضرائب وكانت تغدق عليهم بالعطايا والهدايا والامتيازات حتى تضمن العلاقة الطيبة معهم وولاءهم وإخلاصهم في خدمة مصالحها، ذلك لأن هؤلاء كانت علاقاتهم مع السكان قوية ونفوذهم عليهم كبير<sup>3</sup>. كان المرابطون يقومون بمهمة تأمين الطرق لمفرق العسكرية التي كانت تتصل بمدينة بجاية، حيث كان يمر أكفادور ومضائق حوض الصومام، صعبة للمرور، وكانت مهمة المرابط تنتهي عند دخول الفرقة العسكرية منطقة نفوذ مرابط آخر، وبهذه الطريقة كانت السلطة تحقق استفادتها من علاقاتها مع المرابطين وشيوخ الزوايا<sup>4</sup>.

### 5- مصلحة الكراست لتعاون بين السكان والسلطة

قد أولت السلطة العثمانية العناية الكبرى للأسطول البحري الذي يعتبر دعائمها الأساسية وحجر الزاوية في حكمها للإيالة، وذلك من خلال الحرص على تفوقه وتطور قطعه وتجهيزها، بالقدر الذي يضمن استمرارية هيمنته على البحر المتوسط، والوقوف في وجه الأساطيل الأوروبية وخطرها المحدق، وكان توجه الدولة العثمانية بحريا فكانت تعين لحكم الجزائر في بداية الأمر أكفأ رجال

<sup>1</sup> de Baudicour: p284.

<sup>2</sup> Anonyme: **La Kabylie**, de Maistrasse et wiart, Paris, imp, 1921p 49.

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص267.

<sup>4</sup> ناصر الدين سعيدوني: مؤسسة الزوايا، ص24.

البحرية، بدءا بخير الدين وحسن آغا ودرغوث رايس وصالح رايس والعلي، فهذا الأخير بالترسانة الحربية للإيالة قفزة نوعية خاصة بعد هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو 1571.<sup>1</sup>

ومن هذا المنطلق كان البحث على مصادر لتغذية صناعة السفن يشكل أحد أهم انشغالات الحكام في الإيالة، وقد ارتبطت صناعة السفن ارتباط وثيقا بالدور الذي لعبته غابات بجاية ومناطقها في قوة الأسطول الجزائري، وتحديد قطعه، ولما انتبه الحكام الأتراك إلى توفر منطقة بجاية على نوع رفيع من الأشجار المستعملة في صناعة السفن، أولوا لها اهتماما بالغا، حيث أسسوا بها مصلحة الكراست وأقاموا على مينائها مركز للماركاكج ورصيف خاص بشحن الأخشاب ونقلها إلى مدينة الجزائر لاستغلالها في مختلف أنواع الصناعات الخشبية وفي مقدمتها كما سبقت الإشارة صناعة السفن.<sup>2</sup>

وذلك ابتداء من القرن السابع عشر (17م) نفذت الثروة الخشبية التي كانت السلطة تعتمد من منطقة شرشال ونواحيها حول الحكام أنظارهم صوب غابات بجاية في بداية الأمر ثم<sup>3</sup> ومن أجل استغلال هذه الثروة الحيوية عقد الأتراك اتفاقيات مع الشخصيات المحلية التي تسيطر على تلك المناطق من أهل النفوذ الديني والجاه القبلي استفاد منها الطرن ولعبت العائلات الدينية خاصة دورا إيجابيا في هذا الشأن وذلك مقابل حصولها على امتيازات مادية، فكان المرابط محمد أمقران سلطان البلاد والكراست في بجاية- كما كان يعرف لدى سكان المنطقة- يشرف على عملية قطع الأشجار ونقلها إلى بجاية حيث تفرز وت شحن إلى مدينة الجزائر عن طريق البحر، دار صناعة السفن في باب الواد وأخرى في باب عزون.<sup>4</sup>

وكانت هذه العملية في الحقيقة تعود بالفائدة الكبيرة على السكان الجبليين الذين كانوا يجنون من ورائها الربح الوفير، في ظل الفقر الذي تعاني منه تربتهم وشدة انحدار أراضيها، حيث كانوا هم من

<sup>1</sup> لمزيد من المعلومات أنظر، حسن أميلي: «البحرية العثمانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خلال القرنين 16 و17م - الريادة إلى التبعية -» في: العثمانيون والعالم المتوسطي - مقاربات جديدة، الرحيم بن حادة وعبد الرحمن المودن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، 2003 ص91 وما بعدها.

<sup>2</sup> Belhamissi: les navires et les hommes...,

<sup>3</sup> Féraud: «Exploration des fôrets...», p68.

<sup>4</sup> مولاي بلحميسي: «صناعة السفن بالجزائر...» ص53.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

يقطع الأشجار ويقومون بتقطيعها وفرزها وربطها على شكل أحزمة بالحبال حتى يسهل حملها إلى الميناء، ولم تكن العملية بطبيعة الحال سهلة ميسورة بل كانت في غاية الصعوبة بسبب صعوبة المسالك وبدائية الوسائل المستعملة إذ كانت البغال والحمير الوسيلة الوحيدة للنقل<sup>1</sup>.

وبعد ذلك توسع نشاط المصلحة وأصبح يمتد إلى الغابات الممتدة من سطيف غربا إلى منطقة وادي الزناتي شرقا، وجعلت بحماية المركز الرئيسي لهذا النشاط، واشترك معها في الشحن مينا جيجل والقل<sup>2</sup> وكانت العملية تتم وفق قوانين وضوابط، حيث كانت السلطة تولى لها أهمية كبرى نظرا لأهميتها وضرورتها وحيويتها، فكان وكيل الحرج يتابع العملية بشكل مستمر وتواصل من مدينة الجزائر عن طريق تبادل الرسائل مع وكيل أو وزير الكراست المتواجد بعين المكان، فعلى سبيل المثال أرسل وكيل حجة الكراست في بجاية أحمد خوجة بن فرحات رسالة إلى إبراهيم وكيل الحرج في أوائل شوال دون ذكر السنة يخبره بأنه قام بشراء كميات الزيت التي طُوقام بإرساله طريق البحر مع كميات الأخشاب المطلوبة كذلك إلى مدينة الجزائر<sup>3</sup>. وأرسل نفس الوكيل رسالة أخرى مؤرخة في أواخر شهر محرم دون ذكر السنة إلى إبراهيم وكيل الحرج يخبره فيها بوصول رسالته إليه، كما يخبره أنه أرسل بعض البضائع إلى مدينة الجزائر على متن السفن، وبتواجد سفينة تابعة لدولة أجنبية قرب ميناء بجاية<sup>4</sup>.

وفي سنة 1750 اكتشف الحكام الأتراك منطقة أخرى غنية بأشجار الزان والذي لا يتوفر إلا في منطقة بني فوغال جنوب مدينة جيجل، ولكي يتسنى لهم استغلالها؛ كان عليهم أن يطلبوا من مرابط بجاية الشيخ المكي ابن الشيخ عبد القادر مرابط جيجل وهو نجل مرابط بجاية الشهير الشيخ سيد محمد أمقران، طلبوا منه التنقل من بجاية إلى جيجل وكلفه الداوي بالإشراف على مصلحة الكراست في هذه المنطقة، و حصل هذا المرابط على امتياز يخول له حق شراء جلود الفهود بالمنطقة دون

<sup>1</sup> Féraud : Ibid, p383.

<sup>2</sup> Belhamissi : op, cit, p49-50.

<sup>3</sup> أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 8.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ورقة رقم 9.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

سواه.<sup>1</sup> وحسب وثيقة مؤرخة في عام 1821 تحصل ابنه على امتياز يخول المراقبة والإشراف على تصدير الفحم الخشبي.

وكان يساعد وزير الكراست خوجة ( ) لا يفارقه تتمثل مهمته في تسجيل كل ما يتعلق بعملية تقطيع الأشجار ونقلها ودفع وراتب العمال الذين كانوا يقومون بهذه المهمة، وكان تقطيع الأشجار يكون بعد انقضاء فصل الشتاء، كان وزير الكراست شرف الأحشاب من 3 مراسي من مرسى زيامة منصورية، ومرسى وادي الزيتون الذي يقع غرب رأس أوقاس، ومرسى وادي تازة في الجهة الغربية من مدينة جيجل، وكان هذا الوزير يقوم بنفسه باختيار الأشجار التي سيتم تقطيعها وذلك بوضع علامة عليها.<sup>2</sup> ثم يأتي دور العمال يقومون بتقطيع الأشجار المؤشر إليها فقط.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحكام الأتراك كلفوا الزعماء المحليين والمرابطين بالوقوف على العملية كامتياز، وهؤلاء بدورهم كانوا يقومون بتكليف القبائل بالمشاركة في العملية كل قبيلة تعمل في إقليم الأراضي والغابات التابعة لمنطقة نفوذها، تفاديا لأي نزاع أو خلاف بين القبائل والأعراس فكانت منظمة تنظيمها محكما. وقد أشار شوفالي دارفيو إلى الثروة الغابية المتوفرة في غابات منطقة بجاية حيث يقول: "ويصب بالقرب من ميناء المدينة نهر يأتي من أماكن بعيدة الأحشاب التي تنقل على متن السفن إلى مدينة الجزائر لاستخدامها في تصنيع السفن، إن الاستيلاء على المدينة يحرم على هؤلاء الأتراك تصنيع السفن لأن الأحشاب التي تتوفر عليها غابات منطقة بجاية هي من النوع الجيد."<sup>3</sup> ولاحظ أسير نرويحي تواجد ثروة غابية معتبرة في المناطق الداخلية كانت الحكومة تجلب منها الأحشاب الخاصة بصناعة السفن.<sup>4</sup>

يمكن أن نستخلص الدور الذي لعبته مصلحة الكراست في الوفاق الذي كان يجمع سكان منطقة بجاية بالسلطة، رغم أنه كان قائما على المصلحة المتبادلة، كما يتبين لنا دور المرابطين في هذا

<sup>1</sup> Boyer : «Contribution...» p31.

<sup>2</sup> Boyer: op, cit, p 384.

<sup>3</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p238.

<sup>4</sup> Niels Moss: op, cit, p 92.

المجال، الذين لولاهم لما تمكنت السلطة من قطع شجرة واحدة من غابات المنطقة، وبلا شك كان لهذه المصلحة دور اجتماعي واقتصادي حيث وفرت مدخول مادي لكثير من الأسر في المنطقة.

### المبحث الثاني: الأسر النافذة في بجاية ونواحيها

لقد تقاسم النفوذ الروحي والمكانة الدينية في بجاية ونواحيها طوال العهد العثماني أسرتان كبيرتان هما أسرة منيدي محمد أمقران بالقرب من مدينة بجاية، وأسرة ابن علي الشريف في نواحي أقبو، كما تقاسمت النفوذ المادي والديني أسرتان كذلك وهما أسرة أورابح بقبيلة بني عبد الجبار أو الجبابرة وأسرة أولاد أمقران جنوب بجاية. وعليه قمنا بتقسيم هذه الأسر النافذة إلى قسمين الأ ذات النفوذ الروحي، والأسر ذات النفوذ المادي.

### 1- الأسر ذات النفوذ الروحي (المرابطين)

اعتمد الحكم العثماني في بجاية ونواحيها كما في باقي مناطق الإيالة على نفوذ ومكانة الأسر المرابطية في المنطقة، هذه الأسر كانت تحظى باحترام وتقديس السكان، سنتناول في هذا 1 أسرتين شهيرتين في المنطقة كان لهما الدور الرئيس في ترسيخ الحكم العثماني بها، وهما أسرتي سيدي محمد أمقران وابن علي الشريف.

ومن المتعارف عليه خلال العهد العثماني أن السكان كانوا في تنقلهم من منطقة لأخرى في بجاية وقبائلها كما في كامل تراب الإيالة يتم عن طريق الحصول على عناية وحماية مرابط من أشهر المرابطين في المنطقة، وهي جواز عبور السكان حيث يحظون بحماية هذا المرابط أو ذاك من مخاطر الطريق حيث قطاع الطرق كانوا يعترضون سبل المسافرين ويقومون بسلبهم أشياءهم وممتلكاتهم، بل حتى الاحتماء من اعتداء الأتراك، وكانت العناية تحترم حتى في حالة الحروب التي كانت تنشب من حين لآخر بين القبائل، لأسباب متنوعة، والذي ينقض العناية ولا يحترمها يصبح عرضة لقتال الجميع واستيائهم<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> Féraud: « Histoire des villes », 307-308.

وكان للمرابطين دور آخر علاوة على الأدوار السابقة الذكر وهو نقل جرايات الجند في الحاميات والأبراج التي كانت تنتشر في الأقاليم، وتؤكد ذلك إحدى رسائل باي قسنطينة أحمد القلي والتي جاء فيها قوله: "قد كلفنا سيدي أحمد المكي بالإشراف على كل أمورنا ونقل مرتبات حاميتنا في جيحل المحروسة"<sup>1</sup>.

و أن ال في بجاية ونواحيها على المرابط الشهير سيدي محمد أمقران وأبنائه وأحفاده، في توفير الأمن ونقل مرتبات الجند. و ن تكليف المرابطين بنقل جرايات الجند في الواقع، وكذا المساهمة في توفير الظروف الجيدة المكلفة بجاية الضرائب كان يعدُّ تشریف لهم وفي الوقت نفسه يقدمون خدمات جليلة للسلطة التي كان لها ولوج المناطق الجبلية الحصينة كمنطقة بجاية، ومن الأمثلة على ذلك الدعم الذي قدمه مرابطو قبائل أولاد سيدي علي أو موسى إلى باي التيطري محمد الدياح في التوغل داخل منطقة القبائل الكبرى وإحضاره قبيلة 1158 / 1754م<sup>2</sup>، كما قام مرابطو زاوية عابد الرحمان بوقبرين بإنقاذ حامية برج بوغني من حصار القبائل المحيطة، حيث قاموا بمرافقتهم حتى خرجوا من المنطقة بسلام.<sup>3</sup>

#### أ- أسرة محمد أمقران :

تعتبر أسرة سيدي محمد أمقران من أكثر الأسر ذات المكانة والنفوذ في بجاية، لدى السكان والأتراك على حد سواء، وينحدر هذا المرابط من أسرة المقرانيين سلاطين إمارة قلعة بني عباس وحكام مجانة، ويخبرنا فيرو أن سكان بني عباس قاموا باغتيال السلطان سيدي ناصر وهو آخر السلاطين بسبب إهماله شؤون الدولة وانصرافه إلى العبادة والزهد، فلما رأوا الدولة التي أسسها أسلافه بقوة السيف تنهار شيئا فشيئا أمام أعينهم، قرروا التخلص منه فاعتقلوه 1624م، وترك هذا السلطان ثلاثة أبناء، كان أكبرهم يدعى بتقة وهو الذي تزعم الأسرة المقرانية وأسس بمجانة المشيخة وعرف باسم سيدي بتقة، والإبن الثاني يدعى محمد أمقران الذي حمل اسم جده أمقران الذي

<sup>1</sup> م م و ج، وثائق عثمانية، قرار تعيين أحمد المكي على جيحل، الملف 3204، وثيقة رقم 39 / 1170 / 1756. نقلا عن أرزقي شوينام: المرجع نفسه، ص250.

<sup>2</sup> Robin: «le Bey Mohammed ed-Debbah», in, RA, n° 17, 1873, p267.

<sup>3</sup> Robin: la Grande Kabylie..., p88.

يقه السلطان عبد العزيز المغتال كما سيأتي الحديث عنه لاحقاً<sup>1</sup> وأما الإبن الثالث فقد انتقل إلى بجاية سرا؛ في بداية الأمر ثم لا ندري كيف انتقل إلى نواحي معسكر حيث كون فرع التمزنية هناك وظل بعيداً عن أسرته في بجاية، ومن المحتمل أن جنود الحشم هم الذين هربوه إلى هذه الناحية.<sup>2</sup> وفيما يتعلق بمحمد أمقران وهو الذي يهمننا هنا، حملته أمه العباسية حُ وهربت به إلى أهلها في قرية أمدان التابعة لقبيلة بني مسعود بمساعدة الحشم.<sup>3</sup> خشية أن يُقتل حتى لا يطالب بالثأر وباستعادة ملك أبيه،<sup>4</sup> وهناك نشأ وترعرع وتابع<sup>5</sup> في إحدى الزوايا ومن الأرجح أن يكون زاول دراسته في معاهد ومدارس بجاية كما هي التقاليد في عذا العصر، ولما كبر أصبح من مشاهير المرابطين في المنطقة، وقام بتأسيس زاوية للتعليم بهذه القرية، واشتهر في المنطقة باسم سيدي محمد أمقران، وقد استمد شهرته من تقواه وورعه والفضائل التي كان يتصف بها، وكذا انتسابه لأجداده أولاد مقران الشرفاء فتقرب منه قائد الحامية التركية ببجاية بناءً على تعليمات السلطة المركزية، وتبينت بينهما صداقة قوية استغلها القياد الأتراك في المدينة فيما بعد للاستفادة من مكانته وتأثيره الروحي على سكان بجاية<sup>6</sup> حيث كان هؤلاء من إلا مرابطينهم حسبما أورد دو غرامون،<sup>5</sup> فاستعانوا به في فرض سلطتهم على هذه القبائل، وكانت السلطة في الواقع تطبق هذه السياسة في كل مناطق الإيالة. ومما لا شك فيه أن هذا المرابط قد قدم خدمات طة العثمانية في تمكينها من حكم هذه المنطقة المستعصية.<sup>6</sup> ورغم مكانة هذا المرابط والدور الذي لعبته أسرته من بعده في تاريخ المنطقة فإننا لا نجد له ذكر في المصادر المحلية، فلا نملك تفسيراً لالس ل يعود إلى عدم العناية بالتاريخ في هذه الفترة كما أحرير بذلك الورتلاني؟

<sup>1</sup> لمزيد من التفاصيل حول الموضوع يُنظر، لخضر بوطبة: المرجع السابق.

<sup>2</sup> يُذكر أن عبد العزيز جلبهم معه من منطقة معسكر أثناء عودته من الحملة التي شارك فيها ضد ملك المغرب حوالي سنة 1554. وأصبحوا من حراسه الأوفياء، واستمروا في خدمة الأسرة المقرانية حتى الاحتلال الفرنسي. لمزيد من التفاصيل أنظر، لخضر بوطبة: المرجع السابق، ص 104 وما يليها.

<sup>3</sup> تقع على الضفة اليسرى لوادي الصومام، وتبعد بنحو 28 عن مدينة بجاية، أنظر الخريطة في قائمة لملاحق.

<sup>4</sup> Féraud : «Histoire des villes...», op, cit, 239.

<sup>5</sup> de Grammont : **Histoire d'Alger...**, p 206.

<sup>6</sup> Rinn: «le Royaume d'Alger...», p223.

ومهما يكمن من أمر فقد تطورت علاقات الصداقة بين هذا المرابط والسلطة، إلى عقد اتفاق أو تحالف سياسي في البداية ثم سرعان ما تحول إلى تحالف سياسي اقتصادي مصلحي عندما أسست السلطة المركزية مصلحة الكراست بغرض استغلال غابات المنطقة وأحشائها في صناعة السفن في الإيالة تحت إشراف وحمايته، فالسلطة امتيازات له ولأبنائه من بعده، ولما توفي ورث عنه أبنائه وأحفاده المكانة الدينية والورع والتقوى، ومن ثمة النفوذ المادي الذي كان يتمتع به والدهم.<sup>1</sup>

ولا شك أن أسرة محمد أمقران كانت تملك الأراضي والضيع والبساتين وأعداد كبيرة من المواشي والخدم الذين كانوا يسهرون على خدمتها كما كانت عادة الأسر المرابطية في هذا العهد. وكان أفراد أسرة محمد أمقران لمون مباشرة بسلطة الداى لم يكونوا إذن يخضعون لسلطة باي قسنطينة، وكانت هذه الامتيازات تتجدد من حين لآخر حيث قام الداى الحاج محمد بتعيين عبد القادر بن المرابط محمد أمقران رئيساً للفروع الثلاثة لأولاد برباشة<sup>2</sup> وكان يخضع مباشرة للداى ولا يجوز لأي كان التدخل في شؤونه باستثناء هذا الأخير بناء على ما ورد في نص الوثيقة<sup>3</sup>.

وكان عبد القادر هذا من مشاهير العلماء والمرابطين في المنطقة وكان يعرف لدى العامة سيدي عبد القادر النجار، وقيل أنه سمي بهذا الاسم لأنه كان يشتغل في السفن، وهو الذي كلفه الأتراك بأن يقوم بالإشراف على مصلحة الكراست بعد وفاة والده، حيث طلبوا منه الانتقال إلى منطقة<sup>4</sup> حتى يتسنى لهم استغلال غاباتها، وعلاوة على إشرافه على هذه المصلحة؛ كان السلطة وأهالي المنطقة في حالة حدوث سوء تفاهم، وكان الأتراك يلجأون إليه في حل النزاعات التي تنشأ من حين لآخر مع الأهالي لأنه كان مبعجلاً بينهم<sup>5</sup>.

ولفت هذا المرابط انتباه الرحالة الفرنسي شوفالبييه دارفييه أثناء تواجده في بجاية حيث وصفه في قوله: "كان يعيش في بجاية رجل متدين يحظى باحترام وتقديس وتوقير السكان المحليين

<sup>1</sup> Féraud : « Exploitation des forêts de la karasta dans la Kabylie oriental sous la domination Turque » in, **R.A**, n°: 13, 1868, p383.

<sup>2</sup> تقع جنوب مدينة بجاية وتبعد عنها ب49 .

<sup>3</sup> de Grammont : **Histoire d'Alger...**, p 207.

<sup>4</sup> تقع جنوب شرق مدينة بجاية وتبعد عنها ب70 .

<sup>5</sup> مطبوعات جمعية جيهيماب، بجاية، 2006.



## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

والأثرak على السواء يدعى الشيخ سيدي عبد القادر وكان يتميز بردائه الأبيض الناصع، ووجهه وكان أسمر اللون ونحيل الجسم وكان لا يتو الموعظ للناس الخصوص أيام السوق ويدعوهم للعيش في م والابتعاد عن المنازعات، والاعتداء على ممتلكات بعضهم البعض، والكف عن الشجار لأنفه الأسباب، وكان يتمتع هذا بسمعة واحترام كبيرين في بجاية بل حتى في مدينة الجزائر إلى درجة أن الداى كان بمنحه حاتم لاستعماله في التوقيع للناس على أوراق تعتبر بمثابة جوازات ور. <sup>1</sup> ويشير نفس الكاتب إلى أن كان سكان بجاية ونواحيها، كان عليهم المرور على هذا المرابط بغرض منحهم ورقة تحمل توقيعهم تعتبر حماية، حتى يأمنوا شر اللصوص وقطاع الطرق، الذين كانت تعج بهم الطرقات في هذا العهد. <sup>2</sup>

وقد استمرت العلاقات الودية التي جمعت السلطة الحاكمة آنذاك في بجاية ونواحيها بأسرة المرابط محمد أمقران، في عهد أبنائه وأحفاده، حيث ظلت الأسرة وفيه في تقديم خدماتها للسلطة، وكانت هذه الأخيرة وكما جرت العادة تقوم بمبادلتها التدير والاحترام والهدايا والامتيازات كمثل على ذلك نذكر الامتياز الذي منحه أحمد باي بن فرحات مؤرخ في منتصف جمادى الثانية 1110 الموافق ل 1698م والذي منح للسيد أحمد المكي حفيد سيدي محمد أمقران مرابط بجاية و ينص على احتكار صيد الفهود في منطقة <sup>3</sup> وكذلك حمل رواتب الجند الخاص بحماية جيحل، وهذا يبين مكانة المرابطين لدى السلطة العثمانية في الجزائر وإدراكها أن المرابط بإمكانه حماية الأموال والتنقل بها دون أن يعترض سبيله أحد، بينما تعجز فرقة عسكرية مسلحة عن ذلك بسبب كثرة اللصوص وقطاع الطرق من جهة والمناوئين للسلطة والناقمين عليها من جهة أخرى. <sup>4</sup>

وتمثل الثروة الغابية الغنية لمنطقة بجاية مظهر من مظاهر التعاون التقارب الذي حصه السلطة والأسر المرابطية، ذلك أن السلطة أيقنت أنه بدون مساعدة المرابطين لا يمكنها بأبي حال ومن الاحوال استغلال هذه الثروة التي كانت في أمس الحاجة إليها، وقد تمت مصادر عديدة غني

<sup>1</sup> Chevalier d'Arvieux : op, cit, p241.

<sup>2</sup> Ibid, pp236-237.

<sup>3</sup> كانت جلود النمر من مظاهر البذخ والترف في هذا العهد حيث كانت مطلوبة من الباشوات والبايات، فكان البايات يمنحونها إلى الباشوات، وكان الباشوات يرسلونها بدورهم كهدايا إلى السلاطين العثمانيين.

<sup>4</sup> Féraud: «Exploitation des fôrets...», p69.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

بجاية بالثروة الغابية فقد أشار إليها ليون الإفريقي<sup>1</sup> وذكر بوتان في تقريره للحكومة الفرنسية أن الغابات المحيطة ببجاية تتوفر على أنواع من الخشب الرفيع المستخدم في صناعة المراكب البحرية خاصة صناعة الألواح.<sup>2</sup> لا شك فيه أن خير الدين بربروس يكون قد تعرف على المنطقة الساحل جيدا واكتشف الثروات التي كانت تزخر بها بنظرته الثاقبة كبشار متمرس فكان أول من استغل غابات منطقة شرشمال وجيجل حسب ما يذكر السعيد بوليفة وذلك بمساعدة وعناية ابن القاضي الذي كان يوفر له الحماية.<sup>3</sup>

وقد لعبت أسرة المرابط محمد أمقران دور الوسيط إذن بين سكان بجاية ونواحيها والسلطة، ولا شك أنه كان مساعد قايد بجاية التركي في أداء واجباته ومهامه في هذه المدينة، وظلت الأسرة ودية للسلطة هما وبين السكان، كلما حدث سوء تفاهم كما سبقت الإشارة إلى حتى نهاية الحكم العثماني، ثم لم يقتصر نفوذ ودور الأسرة على منطقة بجاية فقط، بل امتد حتى منطقة عندما رغبت السلطة في استغلال غاباتها، وكذا استخدام النفوذ الروحي لهذه الأسرة في إخضاع سكان هذه المنطقة وولائهم، لما طلبت من سيدي المكي حفيد سيدي محمد أمقران إلا ل من بجاية إلى جيجل للإقامة بها، بغية الاستفادة من نفوذه في استغلال غابات المنطقة.<sup>4</sup>

ورغم ضريبة العبور التي فرضها سلاطين بني عباس على السلطة، أثناء عبور قوافلها مضائق البيبان، إلا أن هذه الأخيرة كانت مستفيدة من تحسين علاقتها مع هذه الإمارة، لكي تتجنب المرور عبر طريق الصحراء الشاق والذي لا يخلو من مخاطر، ورغم زوال إمارة بني عباس إلا أن سكان هذه المنطقة ظلوا يطالبون بهذه الضريبة ويهددون بقطع الطريق على السلطة من حين لآخر، فكانت تخضع لهم تارة، وتستعمل القوة لتأديبهم تارة أخرى واستمر الوضع كذلك حتى الاحتلال الفرنسي.

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص 167.

<sup>2</sup> Boutin: op, cit, p126.

<sup>3</sup> Boulifa : op, cit, p171.

<sup>4</sup> Féraud : «Histoire des villes...», p308.

ب- أسرة بن علي الشريف:

تعتبر أسرة ابن علي الشريف من الأسر المرابطية التي كانت تتمتع بمكانة ونفوذ كبيرين في منطقة حوض الصومام، خلال العهد العثماني، سواء لدى السكان أو السلطة على حد سواء. وذكر غوفيون سنة 1860م أن أسرة هذا المرابط كانت مع السلطة الدينية منذ سنة 1700<sup>1</sup> فرغ حداثة الأسرة إلا أنها استطاعت أن تفرض وحضورها القوي في منطقة تشتهر بكثرة الزوايا والطرق الصوفية والمرابطين، ولعل ذلك يعود إلى شخصية بن علي الشريف. الذي لا ندري بالتحديد من أين قدم إلى

في مطلع القرن الثامن عشر واستقر بها، ونال شهرة كبيرة وسمعة طيبة، ويُعتقد أنه المرابط المغربي الشهير الشريف مولاي عبد السلام بن مشيش<sup>2</sup>. تزوج سيدي ابن علي من ابنة مرابط إولة<sup>3</sup> سيدي موسى أو علي، والمنحدرين من هذه الأسرة هم من كانوا يشرفون على شؤون زاوية شلاطة حتى الاحتلال الفرنسي للمنطقة، ولما كان المرابطون يلعبون الدور الأساس في الحفاظ هدوء واستقرار السكان من خلال تدخلاتهم وسهرهم على سيادة الأمن والاستقرار وتجنب الخصومات والتراعات وظفت السلطة بذكاء هذه السلطة الروحية القوية فساهمت على سبيل المثال

<sup>1</sup> Marthe et Edmond Gouvion : **Kitab Aayane el Maghariba, Département de Constantine, Alger, 1920, p23.**

<sup>2</sup> هو عبد السلام بن مشيش العلمي 559 626 - 1228/ 1163 م، عالم متصوف عاش في زمن الخلافة الموحدية ولد بمنطقة بني عروس بالقرب من مدينة <sup>3</sup> وانتقل بعدها للعيش بجبل العلم قرب العرائش وهناك توفي حيث يوجد ضريحه ، يعد أحد أعلام الصوفية وأستاذ المتصوف أبي الحسن الشاذلي الطريقة الشاذلية.

لمزيد من المعلومات حول هذا المتصوف أنظر، عبد الحليم محمود: القطب الشهيد سيدي عبد السلام ابن ، عن سلسلة مطبوعات الشعب، مصر، د. ت.

<sup>3</sup>

بلية تقع في الضفة اليسرى لوادي الصومام تشتهر بزواياها الكثيرة، منها زاوية سيدي عبد الرحمان اليولي (1601-1676) حيث يوجد ضريحه، وتأسست هذه الزاوية على يد الشيخ المذكور سنة 1635م واستطاعت أن تنال شهرة كبيرة في المنطقة، وتحولت إلى معهد لتكوين الإطارات الديني . وهي الآن إحدى بلديات دائرة بوزقان ولاية تيزي وزو.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

في بناء وتشيد الزوايا وقباب الأضرحة مثل مساهمتها في بناء وتشيد زاوية سلاطة التي أصبح لها شأن كبير في المنطقة على جميع الأصعدة مع مرور الوقت، فساهم شيوخها في العمل على استقرار الحكم العثماني بالمنطقة<sup>1</sup> و تأسست الزاوية حسب بعض المصادر في حوالي سنة 1700 في قرب مدينة أقبو، وقيل أن شيوخها لم يكونوا يسمحون للطلاب الذي يتبع طريقة غير القادرية بالالتحاق بالزاوية فقد كانت قادرية الطريقة<sup>2</sup>.

وخلال العهد العثماني كان أفراد هذه العائلة الشهيرة على علاقة طيبة مع الأتراك وكانت تتمتع بسمعة طيبة ومكانة محترمة، حيث تعاونت مع الحكام الأتراك لكنها لم تخضع لهم. و زاوية سلاطة ومكانة مرموقة لدى سكان القبائل وحتى لدى سكان الهضاب العليا، وتشتهر بتخرجها الكثير من الأئمة والعلماء الدينيين الذين كانوا ينتشرون في كل البلاد بعد تخرجهم، وكانت تتميز بمكانة وشهرة عظيمة أصبح يضرب بها المثل بالمتخرجين منها في تحصيل العلم وسعة الإطلاع وغزارة المعلومات والقدرة على الفهم والاستنتاج<sup>3</sup>. وهذا ما يؤكد أبو القاسم الحفناوي الذي قال عنها: "في علمي من لم يقرأ القرآن في سلاطة ولم يتعلم الفقه في زاوية ابن أبي داوود في تاسلنت ولو قرأ وتعلم في غيرهما يعتبر عند الحين ناقص السر والدليل على هذا أن الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوه إلى إحدى الزاويتين"<sup>4</sup>.

وكان نفوذ الأسرة يشمل العديد من القبائل المستوطنة في أعالي ضفتي حوض الصومام المنحصنة في الجبال، وكانت هذه القبائل دين لها احترام والتقدير وتدفع لها قدر من الزكاة، بالإضافة إلى عدد آخر من القرى التي تزود الزاوية بالخدم 41 تزود

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص187.

<sup>2</sup> Djamil Aisani: «les soufismes au sein de mouvement intellectuelle à Béjaïa et sa région XI-XX siècles», Béjaïa 17-18 septembre 2003, p25.

<sup>3</sup> رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1931-1956، دراسة تربوية لشخصية الجزائر، ص 399.

<sup>4</sup> أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1903 ص1232.

عند الحاجة ب2800<sup>1</sup>. وقد لعبت أسرة ابن علي الشريف بشلاطة كغيرها من الأسر المرابطية في الجزائر في هذا العهد دور الوسيط بين السكان والسلطة العثمانية الحاكمة.

وعلاوة على الوظيفة الدينية والدور الديني والتعليمي الذي كان يقوم به هذا المرابط من خلال زاويته، كان يقوم بالدور السياسي كذلك، كما كان يُكلف بنقل جرايات الجند إلى المناطق والأبراج التي كانت تقيم بها الخاميات العسكرية. إن تكليف المرابط بهذه المهمة يعني تكليفه بجمع الضرائب من أ باسم السلطة المركزية فكان المرابط يساعد بقواته محلة الخليفة في عملية جباية الضرائب وبعد انتهاء العملية يترك له الخليفة، رجلاً من المحلة لمساعدته على جمع بعض الضرائب لحسابه الخاص، كما أسندت للمرابط مهمة حفظ الأمن بمنطقة نفوذه، فكان مسؤولاً على أمن القوافل المارة بالأراضي التابعة لسلطته، وخاصة أمن القوات العثمانية، حيث كان يرافق القافلة حتى لا تتعرض للنهب من طرف لصووس المنطقة، وفي حالة غيابه كان ينوبه أحد أبنائه وقد تكتفي القافلة، في حالة غياب أفراد الأسرة المرابطية برفع علامة من علامات المرابط لتضمن سلامتها.<sup>2</sup>

وإضافة الأسر المرابطية التي سبق الحديث عنها والتي كانت تستمد نفوذها ومكانتها من سلطتها الروحية والدينية، فقد اعتمدت السلطة العثمانية في تكريس النظام العثماني وترسيخه في منطقة بجاية وحوض الصومام، على الأسر الكبيرة المتنفذة ذات المكانة والنفوذ والسلطة المادية وقوة السيف في المنطقة، ومن بين هذه الأسر نجد أسرتين كبيرتين كان لهما الفضل في تمكين الحكام الأتراك من حكم المنطقة وهما أسرتي أولاد مقران سلاطين إمارة قلعة بني عباس ثم حكام مجانة، وأسرة أورابح.

### 2- الأسر ذات النفوذ المادي

إذا كانت الأسر المرابطية قد اعتمدت السلطة في تعاملها معها على نفوذها الديني والروحي لدى سكان المنطقة، فإنها اعتمدت مع هذه الأسر على النفوذ المادي وقوة السيف.

<sup>1</sup> Daumas et Fabar: op, cit, p141.

<sup>2</sup> عبد الكريم الفقون: المصدر السابق، ص201.

أ - أسرة أولاد مقران:

لقد لعب التحرش الإسباني بالسواحل الجزائرية مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي والرعب الذي رافق احتلالهم للعديد من المدن الساحلية كوهران والمرسى الكبير وبجاية دورا أساسيا في التحالف الذي جمع سكان منطقة القبائل بالإخوة ببروس ذلك التحالف المصلحي الذي مكن القبائل من صد الإسبان وإبعادهم عن منطقتهم وفي الوقت ذاته مكن الأتراك من بسط سيطرتهم ونفوذهم على الإيالة الجزائرية طوال مدة تزيد عن الثلاثة قرون<sup>1</sup>

وقد اختلف الكتاب والمؤرخون في تحديد تاريخ التحالف الذي جمع أسرة المقرانيين سلاطين إمارة قلعة بني عباس بالحكام الأتراك العثمانيين، فالمؤرخ الإسباني هايدو الذي عاصر تلك الأحداث يرجع أول تحالف بين سلطان بني عباس والحكام الأتراك إلى سنة 1529م، مستندا في ذلك إلى رسالة مؤرخة في نفس السنة بعث بها حاكم بجاية الإسباني إلى حكومته بمدريد، يبلغها عن تحالف ثلاثي خطير جمع بين خير الدين وزعيم بني عباس وابن القاضي أمير<sup>2</sup>، أما مواطنه مرمول فإنه يذهب إلى القول أن أول تحالف للأتراك مع زعيم بني عباس كان في عام 1550م حيث دعم سلطان بني عباس الجيش التركي بقوة قادها بنفسه في عهد حسن باشا بن خير الدين في حملته ضد المغرب الأقصى<sup>3</sup>، ويؤيده ببروجر في هذا الرأي<sup>4</sup>، في حين ذكر جوليان أول تحالف للأتراك مع سلطان بني عباس يعود إلى عام 1515 خير الدين دعم زعيم بني عباس، في محاولة بجاية لكنه أخفق.<sup>5</sup> غير أننا نستبعد قول هايدو لأن سلطان بني عباس - المؤرخين - شارك مع خير الدين في القضاء على ابن القاضي سنة 1527م بسبب انقلابه عليه<sup>6</sup> وتأمره

<sup>1</sup> Boulifa: op, cit, p82.

<sup>2</sup> Haedo: op, cit, p120.

<sup>3</sup> Marmol: op, cit, p425.

<sup>4</sup> Berbrugger: op, cit, p59.

<sup>5</sup> جوليان: تاريخ إفريقيا..، ص 254.

<sup>6</sup> يذكر ببروجر أن الخلاف بين خير الدين وابن القاضي بدأ بسبب مقتل عروج عام 1518م بتلمسان، حيث أتهم خير الدين ابن القاضي - الذي خرج مع عروج في حملته على تلمسان - بتخاذله في تقديم المساعدة لأخيه فيكون بذلك قد تسبب في مقتله، وبما أنه لا يزال في حاجة إلى تعاونه معه لم يظهر حقه وعدائه له، أنظر:

مع حاكم تونس الحفصي<sup>1</sup>، بعد أن كان حليفه، كما نستبعد القول الذي ذهب إليه مرمول<sup>2</sup> لأن التاريخ الذي ذكره بعيدا جدا عن الحقيقة، ونرجح قول جوليان، الذي يؤيده في الرأي عبد الرحمان الجيلالي ومولود قايد، وهي السنة نفسها التي خضع فيها هذا الزعيم للأتراك استنادا إلى ما أورده صاحب الغزوات.

و حسب هايدو فإن خير الدين قام بتجديد معاهدة تحالف وتعاون مع سلطان بني عباس 1529<sup>3</sup>. ورغم من سكوت المصادر المعاصرة عن محتوى هذه المعاهدة؛ إلا أننا لا نستبعد أن يكون عبد العزيز قد حصل على اعتراف خير الدين به كسيد على المنطقة التي كان يحكمها، وخاصة بعد تخلصهما من عدوهما المشترك ابن القاضي وذلك مقابل تقديم يد المساعدة له عندما يكون في حاجة إليها.

وقد استمرت علاقة الصداقة والود بين عبد العزيز وخير الدين حتى مغادرة هذا الأخير إيالة الجزائر إلى استانبول بعد استدعائه من طرف السلطان العثماني سليم الأول عام 1533 بقيادة الأسطول العثماني، فخلفه في حكم الإيالة مساعده حسن آغا، فكانت علاقته مع سلطان قلعة بني عباس ودية حسب ما تذكر المصادر<sup>4</sup>، وذهب مولود قايد إلى القول أن حسن آغا اعترف بسيادة السلطان عبد العزيز على المنطقة التي كانت تحت نفوذه، وذلك بعد تمكنه من صد الحملة الشهيرة التي شارل الخامس على مدينة الجزائر عام 1541م<sup>5</sup>، ويرجح أن ذلك الاعتراف كان مكافأة له

<sup>1</sup> أنظر نص الرسالة التي بعث بها حاكم تونس الحسن الحفصي، إلى ابن القاضي يحرضه على الانقلاب ضد حليفه خير الدين، ويطلب منه التحالف معه لطرد الأتراك من الجزائر، في: غزوات عروج وخير الدين، ص 40 وما يليها.  
<sup>2</sup> مرمول: المصدر السابق، ص .

الجيلالي: المرجع السابق، ص 40 وما يليها.

Gaid: Mokrani..., p67.

<sup>3</sup> Berbrugger: op, cit, p78

<sup>4</sup> Haedo: op. cit, p228.

<sup>5</sup> حول تفاصيل حملة شارل الخامس (1541م) يراجع:

Haedo: op, cit, p228. et suivantes

Berbrugger: op, cit, p47.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

على مشاركته في صد هذه الحملة كما يذكر مولود قايد، رغم سكوت المصادر عن هذه المشاركة.<sup>1</sup>

ويدعم هذا القول ما ذكره هايدو أن الحسين ابن القاضي أمير كوكو كان قد وعد الإمبراطور شارل الخامس بتقديم المساعدة له في مدينة الجزائر، ولكن انضمام هذا الأخير أدى إلى تقديمه تلك المساعدة في ميناء بجاية الذي انسحب إليه الملك شارل الخامس.<sup>2</sup> فقرر قرر حسن آغا معاينة الحسين ابن القاضي أمير كوكو،

1542 فطلب مساعدة السلطان عبد العزيز الذي دعمه بجيش من المقاتلين، فتمكن من القبض على ابن القاضي، أطلق سراحه وعفا عنه بعدما طلب الأمان واعترف بخضوعه وقبوله دفع ضريبة و مبلغ من المال وعدد من العجول والخرفان هذه الحملة، ولكي يضمن للبايلرباي التزامه بالاتفاق سلمه ابنه أحمد ر

<sup>3</sup> وبعد وفاة حسن آغا سنة 1544 خلفه بصفة مؤقتة الحاج بكير الشهرير.<sup>4</sup>

حتى وصل حسن بن خير الدين من اسطنبول فاستبشر الناس بقدومه نظرا لقراءة الدم التي كانت تربطه بالسكان كما سبقت الإشارة. ولم يكن في الواقع حسن آغا محبوبا من الأهالي فقط، بل كان يحظى باحترام الأتراك أيضا، وعليه فقد كانت علاقته بسلطان بني عباس طيبة وودية، وقد تجلى ذلك في الإبقاء على الميرم 1529. وقد ترجمت تلك العلاقة الودية بمشاركة عبد العزيز بجيشه إلى جانب هذا الباشا في حملته على تلمسان في أكتوبر 1545<sup>5</sup> ثم تبعها بمشاركته بنفسه على رأس 15 ألف في الحملة التي أرسلها حسن باشا ضد ملك المغرب مولاي

de Grammont : **Histoire d'Alger...**, p68 et suivantes

<sup>1</sup> Gaid: **Mokrani...**, p19.

<sup>2</sup> Haedo: op.cit, p230.

Berbrugger: op, cit, p78 A.

<sup>3</sup>Haedo : op.cit, p230.

أد :

أنظر كذلك:

Berbrugger: op, cit, p7.

<sup>4</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص85.

<sup>5</sup> عبد الرحمان الجيلالي : المرجع السابق، ص 84.



محمد المهدي (1544-1557م) الذي زحف بجيشه واستولى على تلمسان سنة 1550<sup>1</sup>، و أسند قيادة هذه الحملة إلى حسن قورصو<sup>2</sup>، و أبلى السلطان عبد العزيز البلاء الحسن في قتال المغاربة بناء على ملاحظة مرمول الذي أثنى على شجاعته ومهارته في القتال، وذكر أنه لولا الجيش التركي من العودة منتصرا وقبل عودة الجيش تم م تلمسان مولاي أحمد المتعاون الإسبان و ب مولاي الحسن وكان مولاي أحمد هذا هو من سبق أن نصبه حسن آغا على حكم تلمسان 1544.

مضى السلطان عبد العزيز إلى المغرب وهو لا يعلم أن هذه الحملة ستكون سببا في سوء علاقته بحسن باشا، حيث وقع خلاف بين السلطان المذكور والقائد حسن قورصو، وسبب هذا الخلاف حسب نفس المصدر هو تخاذل القائد التركي حسن قورصو في النيل من الأمير مولاي عبد القادر ابن سلطان فاس رغم تمكنه منه، فوبخه السلطان عبد العزيز وعنفه متهما إياه بالتواطؤ معه، وقام بقتله بنفسه وحمل رأسه إلى حسن باشا حيث علق عند باب عزون (أحد أبواب مدينة الجزائر) لعدة أيام<sup>3</sup>، ويبدو أن سلوك السلطان عبد العزيز مع حسن قورصو ترك أثرا سيئا في نفسيته، فأضمر له العدا، وعزم على الثأر منه، إذا أتاحت له الفرصة لذلك.<sup>4</sup>

ويخبرنا مرمول أن مشاركة سلطان بني عباس وجيشه في الحملة السابقة الذكر، سمحت الأتراك بالتعرف على قدرات جيشه وكفاءته في القتال، فبدأت مخاوفهم من تمردده عليهم وتوجيه قوته

<sup>1</sup> حول تفاصيل هذه الحملة يراجع:

Marmol: op, cit, p 425.1

أنظر أيضا:

Haedo: op.cit, p231.

de Grammont : **Histoire d'Alger...**, p79 et suivantes.

<sup>2</sup> أصله من كورسيكا، تقلد منصب الباشا بعد وفاة صالح رايس، وانتهى مصيره بقتله بسبب تمردده .

<sup>3</sup> Rinn : op, cit, p10.

Carette : op, cit, p456.

<sup>4</sup> Berbrugger: **Les époques militaires...**, p80.

المتزائدة لمحاربتهم كان حسن باشا حسب مرمول<sup>1</sup> يخشى من تعاضم قوة هذا الزعيم وخطره على الحكم العثماني في المنطقة التي ازداد عدد المتمردين بها، ففكر في التخلص منه وإخضاع إمارته، لكن استدعاه من طرف السلطان العثماني إلى استانبول في عام 1551م حال دون ذلك.<sup>2</sup>

وبعد مغادرة حسن باشا الجزائر إلى استانبول خلفه في الحكم القرصان صالح ريس (1552-1556)، وهو أحد أتباع عروج وخير الدين يعتبره دوغرامون من ألد أعداء الإسبان، وذكر أنه كان مولع بالقتال محبا للبطولات والنصر<sup>3</sup> وكان بملك من الخبرة ما يكفي لحكم الإيالة في هدوء وسلام، وقد سبق لنا الكلام عن إنجازاته في الفصول السابقة، فعزم منذ اعتلائه كرسي الحكم على فرض السلطة العثمانية من خلال إخضاع المتمردين، ومن هذا المنطلق كان عليه بن علاقاته مع الزعماء المحليين الأقوياء للاستعانة بقوتهم وخبرتهم ومعرفتهم بالبلاد.

وعلى أية حال تميزت الفترة الممتدة بين 1552م-1635م بتأرجح علاقات الط السلم والحرب حتى زوال إمارة بني عباس زواج الحكام الأتراك في تعاملهم مع سلاطين قلعة بني عباس بين أسلوبين: أسلوب التودد إليهم والتعامل معهم بالحسنى عندما كان يقتضي الأمر ذلك، وأسلوب المجاهدة العسكرية والقوة من أجل إخضاعهم للسلطة المركزية، في حالة لم يجد الأسلوب الأول النفع.

افتتح صالح ريس عهده بالقيام بحملة عسكرية ضد سلاطين بني جلاب في تقرت وورقلة<sup>4</sup> ووادي سوف والأغواط<sup>1</sup> في بداية شهر أكتوبر من عام 1552، وذلك بعد تمردهم ورفضهم دفع

<sup>1</sup> قيل أن حسن باشا لفت انتباهه براعة وشجاعة المقاتلين القبائليين في المعارك، ففكر في إدماجهم في الجيش، وجعل الجيش جزائري والتخلص من غطرسة وسطوة الانكشارية، غير أنه واجه مقاومة شرسة على يد الانكشارية فتبحر حلمه، حيث قام جنود الانكشارية بتكبيله بالأغلال وأرسلوه إلى السلطان بتهمة التدمير للانفصال. فلو نجح في إدماج السكان المحليين في الجيش لأسس لحكم الأهالي ولتغير تاريخ الجزائر في هذه الفترة.

<sup>2</sup> Marmol: op.cit, p425.

<sup>3</sup> de Grammont: **Histoire d'Alger....**, p82.

<sup>4</sup> كانت تقرت تحت حكم سلاطين بني جلاب، وكان يحكم ورقلة الإباضيين، لمزيد من المعلومات أنظر:

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الضريبة السنوية التي اعتادوا دفعها من قبل منذ عهد خير الدين باشا، وذلك يعني رفضهم الاعتراف بالسيادة التركية، معتقدين أن بعد المسافة سيحول بينهما كما يخبرنا هايدو<sup>2</sup>. ونظرا- صعوبة الحملة وخطورتها في الوقت نفسه، بسبب قساوة الطبيعة وبعد المسافة<sup>3</sup>، رأى صالح رايس أنه لا مناص من طلب مساعدة<sup>4</sup> ودعم سلطان بني عباس، فاستجاب عبد العزيز لطلبه، وخرج بنفسه على رأس جيش 1600 فارس و180 حامل بندقية من المشاة حسب مرمول<sup>5</sup>، في حين يذكر بربروجر أن عدد المشاة لم يكن يتعدى 120 مقاتل خصصهم السلطان عبد العزيز لجر المدافع التي حملها صالح رايس<sup>6</sup> أما دو غرامون<sup>7</sup> ذكر أن جيش عبد العزيز به 8000<sup>7</sup> ونفس العدد ذكره توفيق المدني<sup>8</sup>. وعلى الرغم من تطرق هايدو إلى هذه الحملة إلا أنه لم يشير إلى مشاركة سلطان بني عباس فيها رغم أهميتها، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن سر سكوته.

وبعد العودة من هذه الحملة عماد الخلاف بين سلطان بني عباس وصالح رايس، لم تتفق الآراء حول أسبابه الحقيقية، فمرمول كتب يقول أن صالح رايس خشي من تزايد نفوذ سلطان بني

---

أنظر كذلك: معاذ عمراي: أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ من بداية القرن ال19م إلى سنة 1962 مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، 2002-2003م، ص، 41 ومايلها.

<sup>1</sup> ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص 104.

<sup>2</sup> Haedo : op, cit, p27.

<sup>3</sup> Rozet et Carette: *L'Algérie, Etat tripolitaine* édition, Bouzlama, Tunis, 1980, p60.

<sup>4</sup> ربما لثقته في إمكانيات هذا الزعيم في تحقيق النصر، ولا نستبعد أن يكون من بين أهداف صالح رايس التخلص منه بإقحامه في مغامرة في عمق الصحراء.

<sup>5</sup> Marmol: op. cit, p425.

<sup>6</sup> Berbrugger: op, cit, p83.

<sup>7</sup> Grammont: op, cit, p82.

<sup>8</sup> أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 ش.و.ن.ت، الجزائر، بدون تاريخ، ص339.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

عباس وقوته، فخطط للتخلص . وأما مبارك الميلي فيذكر أن نشوة الانتصار جعلت صالح رايس السلطان عبد العزيز فلم يعطه ما يستحق من الغنائم فأعلن الثورة عليه<sup>1</sup> في حين يرى توفيق المدني أن أسباب الشقاق تتمثل في أن صالح رايس كان يرغب في إخضاع المنطقة التي كان يحكمها عبد العزيز، وفي الوقت نفسه كان عبد العزيز مصرا على استقلال منطقتة فأدى ذلك التشدد في المواقف إلى الاصطدام مجددا بين الطرفين،<sup>2</sup> وهو ما يؤكد سعيدوني مضيفا أن رفض البايبراي لطلب عبد العزيز لمد نفوذ سلطنته، اعتبره هذا الأخير إهانة له وإجحافا في حقه فأعلن الثورة عليه،<sup>3</sup> ويوافقه الرأي مولود قايد الذي يضيف أنهما اختلفا أيضا حول تقسيم الغنائم التي غنموها من تلك الحملة.<sup>4</sup> وأما بوليفة فيذكر أنه مما لا شك فيه أن عبد العزيز ا كثيرا من الحاميات العسكرية التي قامت السلطنة بتبها في برج ح و زمورة الا ان كانتا ن منطقة نفوذه في المسيلة وحمزة، مما جعله يشعر أن تنصيبها كان من أجل مراقبته والحد من نفوذه ويفهم من كلام بوليفة أن اتفاقا قد تم بين عبد العزيز و صالح رايس، بشأن مشاركته في حملته على بني جلاب، في مقابل فرض سيادته ونفوذه على منطقة الحضنة.<sup>5</sup>

ومهما يكن من أمر فقد تكاثفت الأسباب والعوامل في عودة التوتر بين عبد العزيز والسلطة العثمانية، ولا نستبعد أن تكون للدسيسة والمؤامرة يد في عودة التوتر، لأن القائد حسن قورصو لا يمكن أن ينسى سلطان بني عباس حملة المغرب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فلا نشك في أنه من دفع البايبراي إلى السعي للتخلص من زعيم بني عباس.

ولتنفيذ خطة القضاء على السلطان عبد العزيز، دعاه صالح رايس إلى قصره بمدينة الجزائر بحجة مناقشة مسألة السلم بينهما و أنزله بقصر الجنيينة، فلما علم قائده حسن قورصو بذلك أراد استغلال الفرصة في الثأر كتب رسالة إلى صالح رايس يخبره فيها بأنه علم من مصادر أكيدة أن مضيفه السلطان عبد العزيز يقوم بتحريض سكان المنطقة على الثورة ضد السلطنة فقرر التخلص

<sup>1</sup> Féraud: op, cit, p222.

<sup>2</sup> أحمد توفيق المدني: المرجع نفسه، ص339.

<sup>3</sup> ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 104.

<sup>4</sup> Marmol: op. cit, p426.

<sup>5</sup> Boulifa : op, cit, p80.

<sup>1</sup>ومن حسن حظ السلطان عبد العزيز أن أحد الرجال من عسكر زواوة<sup>2</sup> كان يعمل في قصر الجنيبة أخبره بأن صالح رايس يخطط فانسحب خلصة من مدينة الجزائر تحت جنح الليل مسرعا وفي طريقه اعترضت سبيله فرقة من جنود الإنكشارية لم تمكن من الفرار بعد قتالهم<sup>3</sup> وقام الأتراك حسب رواية هايدو بتوزيع المال على رجال من زواوة ، لكن هؤلاء رفضوا هذا العرض، ولم يكتفوا بالرفض فقط بل دافعوا تمكن السلطان عبد العزيز من النجاة بفضل مساعدتهم، فالتحق بالقلعة وبدأ يستعد للحرب.<sup>4</sup>

تاء عام 1552م خرج صالح رايس بنفسه على رأس جيش كبير للقضاء على سلطان بني عباس، الذي جمع قواته وكان في انتظاره في منحدر جبل بوي<sup>5</sup> لاستدراجه خارج القلعة حيث وقعت مع قتل خلالها أخيه الفضل، ولكن السلطان وجيشه كبد الجيش التركي خسائر كبيرة، مستفيدا من حصانة المنطقة ومعرفته بطبيعتها القاسية التي لم يتعود الأتراك على القتال معتمدا على أسلوب حرب العصابات، وقد زاد من صعوبات القوات التركية من الخسائر وحصانة القلعة، تساقط الثلوج مما أعاق تقدم الجيش، حينئذ أدرك صالح رايس استحالة الاستمرار في القتال واقتحام القلعة، فأمر الجيش بالتراجع و الانسحاب والعودة إلى مدينة الجزائر<sup>6</sup>. ويبدو أن غضب صالح رايس، جعله يعجل بالسير لقتال السلطان عبد العزيز، فجعله غضبه لا يقدر الخطأ الذي وقع فيه حين قرر مهاجمته في فصل الشتاء وهو وقت غير مناسب بالنظر لقساوة وصعوبة المنطقة، وهو عامل ساهم في فشله في حملته.

كانت هذه أول مواجهة عسكرية بين عبد العزيز سلطان بني عباس والأتراك برعاية صالح رايس شخصيا، حيث زادت هزيمة الأتراك من شهرة السلطان عبد العزيز لدى قبائل المنطقة، فجاءته

<sup>1</sup> Marmol: op, cit, p426.

<sup>2</sup> يذكر فيرو اعتمادا على رواية سكان بني عباس أن الأتراك قاموا بتوزيع المال على عسكر زواوة لاقتياله السلطان عبد العزيز، لكنهم رفضوا وانضموا إليه و ساعدوه على الفرار والعودة إلى القلعة، ثم تفرقوا في الجبال.

<sup>3</sup> Marmol: op. cit, p426.

<sup>4</sup> Haedo: op, cit, p272.

<sup>5</sup> هو جبل يقع على بعد نحو 7 كلم جنوب غرب القلعة.

<sup>6</sup> Marmol: op, cit, p426.

تعرض عليه التحالف معه والانضواء تحت لوائه، وذلك عندما أدركت أنه الرجل الوحيد القادر على مواجهة الأتراك كما يذكر مرمول،<sup>1</sup> ولكي يستمر في القتال عمل عبد العزيز على إعادة تنظيم أمور الإمارة وتلقيم الجيش، وقام بغزو عدة مناطق تابعة للحكم التركي، وتمكن من إخضاعها فازدادت إمارته قوة،<sup>2</sup> كما مد حدود إمارته حتى بلغت جبال البابور وخراطة شرقاً، ومرتفعات جرجرة شمالاً و بسكرة جنوباً.<sup>3</sup> ويذهب بعض المؤرخين إلى القول أن بعض المرابطين توسطوا سلطان بني عباس و ابن القاضي وتوصلوا إلى الاتفاق على محاربة الأتراك ، وبناءً على هذا الاتفاق يقوم السلطان عبد العزيز بحراسة منطقة البيان وحوض وادي الصومام فيما يقوم ابن القاضي بحراسة منطقة جرجرة،<sup>4</sup> ويذهب قداش إلى أبعد من ذلك حينما ذكر أن السلطان عبد العزيز دعم ذلك التحالف مع ابن القاضي بزواجه من ابنته.<sup>5</sup> لكننا لم نجد من يؤكد هذه المعلومة في المصادر المعاصرة، مما يجعل أمر تصديقها غير وارد.

وعلى أية حال لم يش فشل صالح ريس في إخضاع بني عباس من عزيمته، وفي نفس الوقت كان السلطان عبد العزيز يدرك جيداً أن البايبرهاي سيعاود الهجوم عليه، لتحرير ممر البيان من قبضته، لم تمض سنة على الحملة السابقة حتى أمر صالح ريس بيز حملة ثانية ضد سنة 1553م وأسند قيادتها هذه المرة لابنه محمد باي (الذي سيعتلي الحكم في الإ 1567-1568) فخرج هذا الأخير على رأس جيش يتألف 1000 جندي إنكشاري من المشاة مسلحين بالبنادق و1500 فارس بالإضافة إلى 6000<sup>6</sup>، وعند وصوله إلى المنطقة عسكر بجبل بوني للاستعداد للهجوم، لكن السلطان عبد العزيز كان يقظاً فدبر خطة محكمة تمثلت في التظاهر بالانسحاب وأثناء الليل باغت الجيش التركي بهجوم كاسح وعنيف ألحق به الهزيمة<sup>7</sup>، اضطر على

<sup>1</sup> Marmol: Ibid, p428.

<sup>2</sup> Berbrugger: op, cit, p83.

<sup>3</sup> Gaid: Mokrani, p9.

<sup>4</sup> Gaid: **les Berbères dans l'histoire...**, p32.

<sup>5</sup> Kaddache: op, cit, p53.

<sup>6</sup> (Sipahi) تعني الفارس، لمزيد من المعلومات يراجع: مجموعة من المؤلفين:

الموسوعة العسكرية، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص ص 762 - 764.

<sup>7</sup> Rinn: op. cit, p10.

إثرها محمد باي إلى الانسحاب مع ما تـ معه من الجند، ويذكر مرمول أنه لولا الجنود العرب لأباد عبد العزيز الجيش برمته.<sup>1</sup>

ويبدو أن صالح رايس كان مصرا على إخضاع سلطان بني عباس إذ لا يمكن أن يتركه لمى الطريق الذي يربط بايلك الشرق بمدينة الجزائر، وبالتالي يتحكم في الطريق بين الإيالة وتونس، وهو الأمر الذي ينتج عنه عدم خضوع هذه المنطقة للأتراك، وبالتالي يفقد السلطة الشرط الأساسي في استمرار نفوذها بي بايلك الشرق،<sup>2</sup> ورغم من الخسائر التي تكبدها جيشه في حملة متواليين أمر بإرسال حملة أخرى عام 1554، أسند قيادتها إلى العلجين سنان رايس ورمضان رايس بينما قاد هو حملة أخرى ضد السلطان المغربي تلبية لاستغاثة أبو حسون الوطاسي.<sup>3</sup> القائدان المذكوران صوب قلعة بني عباس وأرادا مباغته السلطان عبد العزيز، فوضعا بتغيير طريقهما إلى القلعة بني عباس وسلوكهما طريق الجنوب عبر المسيلة لتجنب المواجهة مع القبائل التابعة له من جهة،<sup>4</sup> ولتأديب القبائل المتنعة عن دفع الضرائب والخاضعة لسلطته من جهة أخرى، فكان عقاب الجيش التركي لتلك المناطق شديدا حسب ما تذكر المصادر.<sup>5</sup> وفي هذه الأثناء جمع السلطان عبد العزيز جيشه وخرج للقاء الجيش التركي عندما علم بقدمه، ووقعت شديدة بوادي اللحم قرب المسيلة أين أنزل السلطان عبد العزيز بالأتراك هزيمة نكراء، إلا القائدين المذكورين اللذان تمكنوا من الفرار، ووقع عدد كبير من المقاتلين العرب في الأسر، عفا عنهم السلطان عبد العزيز وقام بإدماجهم في صفوف جيشه، حسب رواية رمول وهايدو.<sup>6</sup> ومنذ هذه الهزيمة

<sup>1</sup> Marmol: op. cit, p427.

<sup>1</sup> فنجح في خلع السلطان السعدي، وأعاد تنصيب أبو حسون الوطاسي، على أن يعلن ولاءه للباب العالي، إلا أنه بمجرد عودة صالح رايس إلى مدينة الجزائر، تمكن السلطان السعدي المخلوغ من التغلب على خصمه أبو حسون و العودة مجددا إلى كرسي العرش.

<sup>2</sup> مبارك الميلي: المرجع السابق، ص 95.

<sup>4</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 87.

<sup>5</sup> Haedo: op, cit, p134.

<sup>6</sup> Marmol: op. cit, p427.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

فرض السلطان عبد العزيز على الأتراك دفع الضريبة أثناء ر مضيق البيان استمرت حتى نهاية الحكم العثماني.<sup>1</sup>

والظاهر أن حملة صالح راييس على بجاية سنة 1555 كما مر بنا قد أدت إلى حدوث وفاق مع سلطان بني عباس، الذي لم يفوت فرصة المشاركة في تحرير هذه المدينة، وعلى ما يبدو أن زعيم بني عباس كان يدرك أن نشوة انتصار صالح راييس في افتكاك بجاية ه غرورا وإصرارا على إخضاعه ات القلعة وحرص على إة الجيش، وعمل على استمالة المنطقة، وأورد دوغرامون أن ن يخطط تكوين مملكة مستقلة عن الأتراك تكون بجاية عاصمة لها 1557 ، ومن أجل ذلك اكتسب مدفعية ثقيلة وجهاز ذخيرة حربية كافية، وضم إلى جيشه عدد كبير من المرتزقة المسيحيين الفارين من أسر الأتراك.<sup>2</sup> لكنه عدل عن فكرته؛ عندما وصله خبر وفاة صالح راييس ومجيء حسن باشا بن خير الدين للحكم، وذلك إكراما للصدقة القديمة التي كانت<sup>3</sup> ، ولكننا نشك في أن تكون هذه الصدقة سببا كافيا يجعله يتراجع عن خطته في غزو بجاية والاستيلاء عليها، ومن المحتمل أن تكون الفكرة صحيحة لأن المصادر المعاصرة لم تحدد لنا الأسباب الحقيقية التي جعلت عبد العزيز يمتنع عن الاستيلاء على بجاية. فهل يعود ذلك إلى الاتفاق الذي عقده مع خير ا والذي ربما يكون قد نص على أن بجاية تظل تابعة للأتراك، وهو احتمال قوي إذ كانت السلطة العثمانية في الجزائر طوال فترة حكمها لأزيد من ثلاثة قرون ومراكب الإيالة في ميناء هذه المدينة بسبب حصانته طبيعيا، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن

<sup>1</sup> Ibid, p427.

أنظر كذلك:

Boulifa: op. cit, pp160-161.

<sup>2</sup> De Grammont: **Histoire d'Alger...**, p92.

<sup>3</sup> Marmol: Ibid, p427.

Rinn: op. cit, p11.



## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

يسمح الحكام الأتراك بالتفريط به، وكانوا سيعملون على استرجاعها في حالة ما تعرضت للغزو من أية جهة كانت.

ومهما يكن من أمر فقد عادت العلاقات الودية بين عبد العزيز والسلطة العثمانية، بعودة للمرة الثانية (1557-1567)<sup>1</sup> المصادر أن السلطان عبد العزيز أرسل ابنه مع هدايا ثمينة إلى مدينة الجزائر لتهنئة ايلرباي بمناسبة تنصيبه مجدداً على رأس إيالة، وذلك من أجل تجديد الصداقة والعلاقات الحسنة التي كانت تجمعهما<sup>2</sup> وبناء على رأي هايدو أن عبد العزيز لم ينس غدر البايبرباي السابق (صالح رايس) ومحاولته اغتياله، فلم يشأ أن يخاطر بحياته بالذهاب إلى مدينة الجزائر بنفسه ويستخلص من كلامه أنه لم يعد يثق في الأتراك.<sup>3</sup> ونسجل هنا ارتيابنا من كلام هايدو فمرمول الذي عاصر تلك الأحداث لم يشير إلى هذا الكلام، كما أننا لا نجد في تبرير هايدو سبباً معقولاً، فإذا كان هو قد خشي على نفسه غدر الأتراك كما يدعي هايدو، فكيف يرسل ابنه طالما لا يثق في الأتراك؟ وهل حياة ابنه ليست مهمة إلى هذا الحد .

و ل فإن البايبرباي حسن باشا استقبل ابن عبد العزيز وبادله بمدايا مماثلة، وبعث له برسالة تفيد بالسماح له باستخلاص الضرائب في منطقة المسيلة، وكذا الاستفادة من المدافع الثلاثة التي تركها صالح رايس بنفس المنطقة أثناء عودته من حملة الجنوب سنة 1552.<sup>4</sup> غير أن تلك العلاقات الودية بين الطرفين لم تدم طويلاً، فما لبث الخلاف أن عاد، وعادت معه الحرب والمواجهة

وقد تضاربت أقوال المؤرخين والكتاب حول الأسباب الحقيقية التي أدت إلى سوء العلاقات بين البايبرباي حسن باشا وسلطان بني عباس، فمرمول يذكر أن سبب عودة الخلاف يتمثل في قيام السلطان عبد العزيز بالإغارة على مناطق خاضعة لسلطة الأتراك، مما أثار غضب الباشا فأمر بتجهيز قوة عسكرية قادها بنفسه 1558 للانتقام منه وإخضاعه.<sup>5</sup> أما هايدو فيضيف لهذا

<sup>1</sup> Rinn: op. cit, p11.

<sup>2</sup> Marmol: op, cit, p428.

<sup>3</sup> Haedo: op. cit, p352.

<sup>4</sup> Marmol: Ibid, p427.

<sup>5</sup> Marmol: op. cit, p428.

السبب امتناع السلطان عبد العزيز عن دفع الضريبة ورفضه الخضوع لسلطة الاعتراف بحكمه، وقيامه بحريص قبائل المنطقة على الثورة والتمرد ضد الحكم التركي.<sup>1</sup>

ومهما يكن من اختلاف آراء المؤرخين حول أسباب عودة التوتر بين الطرفين المؤكد أن تكون للدسيسة والمؤامرة في قصر البايبرباي دور فيها، كما أن ابن القاضي العدو التقليدي لبني عباس كان دائما يسعى لإفساد العلاقة الودية بين الطرفين. وقد حاول حسن باشا التقرب من عبد العزيز والتفاهم معه وديا بعدما فشل في إخضاعه بالقوة، وطلب مصاهرته، لكنه رفض، حينئذ ابن القاضي حسب ما ذكر دوغرامون من أجل ضمان دعمه وتأييده في حربه مع سلطان بني عباس،<sup>2</sup> اعتداء هذا الأخير على المنطقة التي سبق ذكرها، قرر حسن باشا الانتقام منه فخرج بنفسه على رأس الجيش<sup>3</sup> ودعمه صهره وحليفه ابن القاضي بعدد من المقاتلين،<sup>4</sup> لكنه لم اقتحام القلعة كالعادة، واكتفى بتشييد برج في مجانة وترك به حامية عسكرية تتكون من 200 جندي، كما بنى برجا آخر في زمورة وترك به مثل العدد المذكور من الجنود،<sup>5</sup> يقول مرمول أن حسن باشا استخدم الأسرى لبناءهما<sup>6</sup> ثم قفل راجعا إلى مدينة الجزائر دون أن يتمكن من اقتحام القلعة بسبب ضعف الجيش، وفي طريقه لاحقة عبد العزيز وأخيه أحمد أمقران حتى برج حمزة فقتلوا نحو ثلاثمائة من جنوده.

ولم يكد حسن باشا يصل إلى مدينة الجزائر حتى وصلت الأخبار أن عبد العزيز قضى على الحامية التي تركها في مجانة، وأسر عدد كبير من الأتراك واستولى على مدافعها،<sup>7</sup> وتفرقت حامية برج زمورة بالجبال المجاورة عندما علمت بقدوم عبد العزيز.<sup>8</sup> وعقب ذلك رأى حسن باشا أن يغير من أسلوب تعامله مع هذا السلطان، وذلك بعد فشله في محاولات إخضاعه باستخدام القوة، كما

<sup>1</sup> Haedo: op. cit, p357.

<sup>2</sup> Ibid, p92.

<sup>3</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 378.

<sup>4</sup> de Grammont: Ibid, p92

<sup>5</sup> Rinn: op, cit, p11.

<sup>6</sup> مرمول: المصدر نفسه، ص 382.

<sup>7</sup> Marmol: op. cit, p 427.

<sup>8</sup> Berbrugger: op. cit, p83.

يذكر هايدو<sup>1</sup> فحاول التقرب منه واستمالته، بالحسنى فأرسل له الأموال والهدايا وأراد أن يدعم علاقته به عن طريق المصاهرة، فطلب ابنته للزواج، لكن اعتزاز عبد العزيز بنسبه الشريف كما يذكر بعض المؤرخين<sup>2</sup> جعله يرفض طلبه، لأنه خشي أن يتحول إلى تابع وخاضع للأتراك كما أنه كان يعتقد أن مصاهرة الباشا ستفقده استقلاله، وتحطم طموحاته في توسيع حدود مملكته.<sup>3</sup>

ومن الواضح أن أسلوب المهادنة الذي سلكه حسن باشا مع عبد العزيز لم يجد تجدد القتال بين الطرفين حين شن حسن باشا حملة أخرى 1559م في محاولة لإخضاع بني عباس بمساعدة ابن القاضي، فتمكن هذه المرة من اغتيال عبد العزيز فتوقف القتال لفترة قصيرة، أرسل أتباع عبد العزيز المعتال رسولا إلى حسن باشا للتفاوض حول شروط تسليم القلعة، وبينما كانت الموضات تجري احتاروا أحمد أمقران شقيق عبد العزيز؛ للإمارة، فرفض الاستسلام واصل المعركة انتقاما لمقتل أخيه، وعندما رأى الباشا عدم الجدوى من البقاء أن جيشه لم يكن له عهد بحرب العصابات وكان جيش القلعة معتاد على تضاريس المنطقة، حيث كانت فرقه تناوش وتختفي في الجبال، وكان يصعب على الأتراك الوصول إليها. ولعل الخير الذي وصله بخصوص استيلاء سلطان المغرب على تلمسان، بدعم من الملك الإسباني الذي كان يعد أرمادة لشن حملة على الجزائر،<sup>4</sup> وعود إلى مقر حكمه، مكثفيا بحمل رأس السلطان عبد العزيز<sup>5</sup> أمر بتعليقها على باب عزون عند مدخل المدينة.<sup>6</sup> واستمر التمرد بقيادة السلطان امركان حتى سنة 1561. حيث تم التوصل إلى هدنة بين الطرفين، اعترفت به السلطة سلطان على المنطقة التي كانت تحت نفوذه. ومن المؤكد أن أخبار هذا التمرد وصلت إلى مسامع الباب العالي، الذي على الأرجح أمر حسن باشا بإفهامه فورا للتفرغ لأطماع الإسبان في المنطقة، فاضطر إلى توقيع

<sup>1</sup> Haedo: op, cit, p374.

<sup>2</sup> Berbrugger: op, cit, p66.

<sup>3</sup> Boulifa: op. cit, p165.

<sup>4</sup> de grammont: **Histoire d'Alger...**, p92.

<sup>5</sup> Marmol: op. cit, p429.

<sup>6</sup> كان من عادات الحكام العثمانيين تعليق رؤوس الثوار والمتمردين عند إدى بوابات مدينة الجزائر، حيث وضعوا مخاطف لهذا الغرض، ولا ندري من سن هذه العادة، ولعله صالح رايس، واستمرت هذه العادة حتى الاحتلال الفرنسي.

الهدنة السابقة الذكر، والتي يبدو أنها كانت في صالح أحمد أمقران، حيث لم يلتزم فيها بدفع أية ضريبة  
أورد هايدو<sup>1</sup> ومن المرجح أن ذلك يرجع لقوة مركزه هذه المرة لأن حسن باشا هو من  
طلب الصلح، والظاهر أن خشي أن يؤدي إحقاقه في إحقاء إلى عودة الاضطرابات إلى الإيالة.<sup>2</sup>

وعلى الرغم من تلك المعاهدة فإن علاقة باشا الجزائر بسلطان قلعة بني عباس ظل يشوبها  
الحذر والحيطه من كلا الجانبين، لا سيما من جانب الأتراك الذين أحاطوا الإمارة بمجموعة من  
الأبراج والحصون كبرج حمزة (البويرة حاليا) وسور الغزلان والمسيلة وسطيف، وذلك بهدف تطويقها  
من كل الجهات، ومنع سلاطينها من محاولة مد حدودهم على حساب البايلك، إضافة إلى الحد من  
قوتهم وحماية الطريق الرئيسي الذي كان يربط مدينة الجزائر ببالك قسنطينة.<sup>3</sup>

وخلال فترة السلم التي أعقبت هذه المعاهدة والتي تميزت بتبادل الهدايا والتهاني بين الطرفين،  
قام السلطان أحمد أمقران باشا في محاولته لتحرير وهران من الاحتلال الإسباني  
1563<sup>4</sup> بجيش كبير قوامه 12 ألف<sup>5</sup>، ولم يكن على رأس هذا الجيش أحمد أمقران، ربما  
ربما بسبب تقدمه في السن<sup>6</sup> وعلى الرغم من أهمية هذا التحالف إلا أننا نستغرب سكوت المصادر  
المعاصرة مثل مرمول وهايدو عن الإشارة إليه. وكما شارك أحمد أمقران إلى جانب الجيش العثماني

<sup>1</sup> Haedo: op. cit, p358.

<sup>2</sup> عرفت الإيالة اضطرابات خطيرة بعد وفاة صالح راييس، تسبب فيها السلطان سليمان القانوني لأنه أمر حسن  
قورصو بالتراجع عن وهران بعدما أوشك على انتزاعها من الإسبان، والأمر الثاني تمثل في تعيين تشليي كرد علي  
على رأس الإيالة، مما أدى إلى سحق حسن قورصو الذي كان يتزعم البيولداش، وكان على ما يبدو يرى أنه أ  
بهذا المنصب فقام بمنعه من دخول مدينة الجزائر، لكن رياس البحر التفوا حول هذا البايلرباي، وقبضوا على حسن  
قورصو وقتلوه، ثم انتقم أحد رفاقه وهو القائد يوسف فقتل البايلرباي المذكور، ثم ما لبث أن توفي هو بالطاعون  
ولم يعد الاستقرار إلى الإيالة حتى تم تعيين حسن بن خير الدين.

<sup>3</sup> Marmol: op. cit, p429.

<sup>4</sup> لم يتمكن حسن باشا من تحرير المرسى الكبير في هذه المحاولة بسبب التفوق العسكري للحامية الإسبانية التي  
وصلتها الإمدادات من إسبانيا بقيادة القرصان أندري دوريا، لمزيد من التفاصيل أنظر:

Haedo: op. cit, p365.

<sup>5</sup> بد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص429.

<sup>6</sup> Ben Oudjit: op. cit, p271.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

في طرد الفرنسيين من جيجل سنة 1564، حيث حمل جيشه بعض المدافع التي تركها الفرنسيون إلى قلعة بني عباس، حسب رواية فايسات الذي ذكر أن الفرنسيين عثروا على تلك المدافع بعد استيلائهم على القلعة.<sup>1</sup> ثم استمرت علاقة الود بين الطرفين حتى مغادرة حسن باشا الإيالة إلى اسطنبول لقيادة الأسطول العثماني كوالده خير الدين، إلى أن توفي سنة 1570.<sup>2</sup> ويستخلص من كلام مرسية مشاركة جيش أحمد أمقران في الحملة التي قادها العلي (1568-1571) 1569م تأديب حاكم تونس الحفصي المتآمر مع الإسبان ذكر أنه أمده بـ 6 آلاف مقاتل انضموا إلى جيش البايبراي عند مروره ببناء بجاية بقيادة القائد حميدة.<sup>3</sup> ويُذكر أنه في هذه الحملة اتفق قواد الجيش التونسي سرا مع الأتراك على أن يفتحوا لهم أبواب المدينة دون علم سلاطهم الذي لاذ بالفرار لاجئا إلى إسبانيا تمكن العلي من إخضاع تونس ثم قفل راجعا إلى مدينة الجزائر.<sup>4</sup>

وفي عهد أحمد عرب باشا (1572-1574) ورمضان باشا (1574-1577) لم تسجل المصدر لنا أي خبر عن أحداث وقعت في المنطقة، مما يوحي لنا أن العلاقات بين بني عباس والسلطة، وفي عهد جعفر باشا اتسمت العلاقات بالود والتعاون، ودليل ذلك ما أورده هايدو أن أحمد أمقران أرسل ابنه إلى مدينة الجزائر محملا بهدايا ثمينة<sup>5</sup> (1580-1582) يوم 16 سبتمبر عام 1580 بمناسبة تعيينه على رأس الإيالة، كرمز لتجديد علاقة السلم والصداء<sup>6</sup> حافظ هذا الباشا على علاقته الحسنة مع زعيم بني عباس طوال فترة حكمه، فلا شك أنه كان يحترم استقلال الإمارة فلم تحدث أية مواجهات عسكرية في عهده.

<sup>1</sup> Vayssettes: op, cit, p.

<sup>2</sup> عبد الرحمان الجيلالي: المرجع نفسه، ص 94.

<sup>3</sup> Mercier : **Histoire de Constantine...**, p203.

<sup>4</sup> Mercier: Ibid, p204.

<sup>5</sup> -قدر بـ 400 بروجر قيمة تلك الهدايا بـ 2400 أوقية ذهبية أسبانية، وهي تعادل 19512 فرنكا بالإضافة إلى

400 بغير و 1000 خروف.

<sup>6</sup> Haedo: op. cit, p19.

(1592-1589)

غير أن علاقات السلم والصدافة تلك لم تستمر في عهد

ذلك بسبب امتناع أحمد أمقران عن دفع الضريبة السنوية، الأمر الذي اعتبره الباشا الجديد تمرد وعصيان على الحكم، فسار إليه على رأس جيش كبير عام 1590<sup>1</sup> لكنه لم يتمكن من اقتحام القلعة لأن السلطان أحمد أمقران قام بسد كل المسالك الضيقة المؤدية إليها باستخدام جذوع الأشجار والحجارة، وحاصر الباشا المنطقة لمدة شهرين بدون جدوى، ولولا تدخل أحد المرابطين المشاهير بالمنطقة -حسب ما يذكر هايدو -لحدثت كارثة بين الطرفين،<sup>2</sup> توصلا إلى إبرام صلح قبل أحمد أمقران بموجبه دفع غرامة مالية قدرها 30 ألف أوقية كتعويضات عن الخسائر التي لحقت بالجيش التركي، فعاد حضر باشا إلى العاصمة دون أن يتمكن من اقتحام القلعة.<sup>3</sup>

ويبدو أن أحمد أمقران لم يكن راضيا عن ذلك الصلح حيث يذكر دوغرامون أنه شن حملة في عام 1598 على مدينة الجزائر للاستيلاء عليها انتقاما من الأتراك، وتمكن من حصارها لمدة 11 يوما مغتتما فرصة الاضطرابات التي كانت تعرفها السلط في هذه الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار في الحكم وكثرة اغتياالات الحكام،<sup>4</sup> ومن حسن حظ الأتراك حسب ما ذكر ذات المؤرخ أن نقص التنظيم والمثونة في جيش أحمد أمقران، أرغمه على رفع الحصار والعودة إلى قلعته.<sup>5</sup>

وبالرغم من أهمية هذا الحدث وخطورته إلا أننا لم نجد تفسيرا لسكوت المصادر عن الإشارة إليه، ويمكننا القول أن هذه الحملة من أحمد أمقران تدل على قوته وجرأته في آن واحد، وقد أراد أن

<sup>1</sup> كان الجيش التركي يتكون من 12 ألف جندي انكشاري، و4 آلاف صباهي علاوة على 4 آلاف رجال المخزن، أما أحمد أمقران فقد علم بقوم الباشا عن طريق مراكز المراقبة التي أحاط بها مملكته، فكان في انتظاره على رأس جيش يتألف من 30 ألف مقاتل حسب ما ذكر هايدو. أنظر،

de Grammont: **Histoire d'Alger...**, pp 129-130.

<sup>2</sup> لم يذكر اسم هذا المرابط.

<sup>3</sup> Haedo: **Hitoire des Rois...**, pp108-109.

<sup>4</sup> de Grammont: **Ibid**, p131.

شهدت هذه الفترة بداية نظام حكم جديد في إيالة الجزائر هو حكم الباشوات، بداية من عام 995 / 1587م إلى عام 1069 / 1659م، وتتميزت الفترة الأولى من هذا العهد بالاضطراب وعدم الاستقرار حيث تداول على سدة الحكم عشر باشوات خلال ثلاثة وعشرون سنة، أي من سنة 1587 إلى 1607م.

<sup>5</sup> Ben Oudjit: **op. cit**, p289.

يبرهن للأتراك على أنه قادر على تهديدهم في عقر دارهم، وبالرغم من تراجعهم فإنه أحدث ارتباكاً وقلقاً في صفوف الجيش التركي. ثم استمر السلطان أمقران في رفضه دفع الضريبة للحكام الأتراك، فكان ذلك يتسبب في مواجهات دموية بين الطرفين، كحملة باي قسنطينة محمد بن فرحات ضد القلعة بأمر من حضر باشا عام 1592 الفاشلة.<sup>1</sup> كما وقعت المواجهات أيضاً في عهد شعبان باشا (1592-1595) الذي أراد إخضاع زعيم بني عباس، وتوسط هذه المرة للصلح بين المتقاتلين مرابط آخر من المنطقة، حيث وقع الطرفان اتفاق هدنة قبل السلطان أحمد أمقران دفع غرامة مالية،<sup>2</sup> وظل أحمد أمقران يرفض الخضوع للأتراك<sup>3</sup> لكنهم تمكنوا من اغتياله في إحدى المواجهات في حوالي عام 1600.<sup>4</sup>

وبعد مقتل السلطان أحمد أمقران، خلفه في الحكم حسب التقاليد ابنه سيدي ناصر، في حوالي 1624 الذي كان يميل إلى حياة الزهد والعبادة وأهمل شؤون الإمارة بناء على كلام فيرو، فتراجعت مكانة الإمارة في المنطقة، ولاحظ سكان القلعة أن الإمارة تنهاوى شيئاً فشيئاً فقرروا اغتياله إنقاذاً لها، فتسببت سياسته الخرقاء في مقتله 1635 بينما كان في رحلة صيد في الجنوب في رواية، وفي رواية أخرى خرج ليتفقد إنجازات الإمارة خارج القلعة.<sup>5</sup>

وعمقت هذا السلطان زالت إمارة بني عباس من الوجود، حيث لم ينتقل الحكم إلى أبنائه الذين اصغاروا، فترقوا في مناطق مختلفة، ولم يظهر لهم أثر، حتى كبر أحد أبنائه ويدعى بتقة الذي تولى رئاسة الأسرة في مجانة التي كبر فيها، ورفض العودة إلى قلعة بني عباس، كما رفض لقب السلطان وبدلته بلقب الشيخ، فتأسست مشيخة أسرة اولاد مقران في مجانة، وقد تأرجحت علاقات بصفة عامة مع السلطة بين الصراع والحرب تارة، والود والصدقة تارة أخرى، ولكن مع الضعف الذي شهدته الأسرة في أواخر الحكم العثماني بسبب الصراع بين شيوخها، والذي مزق عراها،

<sup>1</sup> Berbrugger: op. cit, p104.

<sup>2</sup> Gaid: Mokrani, p25.

<sup>3</sup> de Grammont: **Histoire d'Alger...**, p130.

<sup>4</sup> Rinn: op. cit, p12.

<sup>5</sup> Ben Oudjit: op. cit, p290.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

بتشجيع من السلطة أصبحت الأسرة لا تشكل خطراً على الحكام الأتراك، فكانوا حلفاء لهم في المنطقة حتى الاحتلال الفرنسي.<sup>1</sup>

وفي الأخير يمكن الاستنتاج أن إمارة بني عباس كانت إمارة قوية متمسكة باستقلالها وسيادتها، وهو ما كان يتسبب في حروبها مع السلطة، التي كانت تلجأ إلى مهادنتها كلما فشلت في التفاهم مع باستخدام القوة، كما يمكن التأكيد أن لجوء السلطة إلى أسلوب المهادنة وقبولها دفع ضريبة عبور مصيق البيان، لا يعني ضعف الدولة وعجزها عن إخضاع الإمارة، بقدر ما يعني توخي الحكمة والسياسة، لأن الدولة كانت تخشى أن تؤثر الأحداث الداخلية ما كانت تواجهه من صراع مع القوى الخارجية الممثلة في الدول الأوروبية والمغرب الأقصى، فأسلوب المهادنة ما هو في الواقع إلا استراتيجية حتمتها الظروف التي كانت تمر بها الدولة حينئذ، فالدولة التي قهرت أوروبا، وهيمنت على البحر المتوسط لا تعجزها قوة محلية في اعتقادنا.

### ب- أسرة أورابح :

تعتبر أسرة أورابح من أكبر الأسر النافذة في نواحي بجاية، التي اعتمدت عليها السلطة العثمانية في تثبيت حكمها في المنطقة، وهي تنتمي إلى قبيلة بني عبد الجبار (الجبارة) التي ظلت منذ زمن بعيد تحاول بسط نفوذها على منطقة حوض الصومام ، وحسب الرواية الشفوية التي نقلها لنا فيرو فإن الـ ور الأول لهذه القبيلة على مسرح الأحداث يعود إلى القرن الثامن عشر، استطاعت الأسرة أن تتحكم في العديد من قبائل المنطقة، وفي الشيخ رابح مؤسس حكم هذه الأسرة، وعُرف أولاده وأحفاده من بعده "أورابح" وهي تعني "أولاد رابح" وقد احتكرت هذه الأسرة الحكم في القبيلة إلى غاية الفترة الاستعمارية. والملاحظ أن فيرو لا يفيدنا بتاريخ ظهور هذه الأسرة، ويضيف أن شيوخ أورابح يعتقدون أنهم ينحدرون من قبيلة بني مهنة بنواحي سكيكدة، ثم نزحوا إلى منطقة حوض الصومام واستقروا بها.<sup>2</sup> وقد أشار ابن خلدون إلى وجود هذه القبيلة عام

<sup>1</sup> Vaysette: **Histoire de Constantine...**

Gaid: **Chronique des Beys...**, p19.

Féraud : «Histoire des villes... », p239.

<sup>2</sup> Féraud : op, cit, p308.



1327م<sup>1</sup> أورد المؤرخ الإسباني مرمول خلال القرن السادس عشر الميلادي، أنها ومحاربة، وذكر أنها كانت تملك جيش قوي ولا يخضع سكانها إلا لشيخ يختارونه بأنفسهم، وكان هذه القبيلة في حالة حرب مع إمارة بني عباس ومع إمارة كوكو ومع الأتراك كذلك،<sup>2</sup> دون أن يزودنا بمعلومات كافية عن سبب هذه الحروب، التي يبدو أنها في سبيل الدفاع عن منطقة نفوذها، أو ربما بسبب رغبتها في التوسع ومد النفوذ، لا سيما وأن استقرارها جبلية لا تحوي الكثير من الأراضي الفلاحية. حيث قال عنها نفس المؤرخ: "وأرض القبيلة حصينة يصعب على الأعداء اختراقها، وتبعد هذه الإمارة عن مدينة بجاية بحوالي 30 . وتستطيع هذه القبيلة تجنيد خمسة آلاف محارب في أربع ساعات."<sup>3</sup> ويفهم من كلام مرمول أن تواجد الأسرة كان لموجود العثماني في المنطقة.

وعلى أية حال لا توجد لدينا معلومات كثيرة عن الشيخ أورابح سوى ما ذكره فيرو على أنه أول من تقلد المشيخة في هذه القبيلة، ولما توفي ترك ولدان هما: سي ساعد وأمزيان اللذان حكما القبيلة على التوالي قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة، وكان ابن الشيخ ساعد أورابح أول شيخ يعين قائد على هذه القبيلة بعد سقوط بجاية في أيدي الفرنسيين.

من المتعارف عليه في الجزائر خلال العهد العثماني أن شيوخ وزعماء القبائل والأعراس كانوا يستمدون قوتهم ونفوذهم إما من القوة الروحية كأن يكون الشيخ من الأشراف أو يكون وليا أو شيخ زاوية أو طريقة صوفية، وإما يستمد مكانته من قوة دنيوية كأن تمتلك أسرته المساحات الشاسعة من الأراضي وعدد كبير من قطعان المواشي، وقد تعدد القبيلة بعدد مقاتليها ورجالها، فتدين له القبائل الأخرى والقرى والمداشر بالطاعة والخضوع، فإلى أي نوع كان تنتمي الشيخ أورابح ياترى؟.

أن أسرة أورابح كانت تستمد نفوذها من قوتها الحربية ومقاتليها الشجعان بناء على المعلومات التي أوردها مرمول، ولا شك أن الطبيعة القاسية والتضاريس الوعرة زادتها قوة ومناعة،

<sup>1</sup> ابن خلدون: المصدر السابق، ص 657.

<sup>2</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 412.

<sup>3</sup> مرمول: المصدر نفسه، ص 385.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

وهذا ما نستخلصه من حديث الأسير الألماني سيمون بفايفر عن سكانها بكونهم صيادون ماهرون، كانوا يصطادون رزقهم،<sup>1</sup> و يبدو أنها كانت تتمتع بنفوذ اقتصادي كبير وهو ما يُفهم كلام بيليسي أنها كانت تحتكر تجارة الأخشاب وكذا تجارة الشموع وزيت الزيتون في المنطقة ويذكر نفس الكاتب أن اقتصاد هذه القبيلة تعرض للشلل بسبب احتلال الفرنسيين مدينة الجزائر، حيث توقف النشاط التجاري بها، الأمر الذي دفع الشيخ ولد أورابح إلى الاشتراك مع شخصين آخرين أحدهما وكان يشغل منصب قايد المرسى و فرنسي يدعى حولي المرشح أن يكون من التجار، قام الثلاثة بالاتصال بالدوق دو روفيقو عارضين عليه الوضعية الممتازة لبحاية وما يمكن أن تقدمه من منتجات ل<sup>2</sup>.

وقد ارتكزت سياسة السلطنة العثمانية على دعم هذه الأسرة لها حيث كانت توفر لها الحماية أثناء عبور قواتها وتوغلها بالمنطقة خاصة في عملية جمع الضرائب، وتأديب القبائل الممتنعة والمتمردة، وبالمقابل كان شيوخ هذه الأسر يعفون من الضرائب ويحصلون على قسط منها تحت اسم العشور والزكاة<sup>3</sup>.

وتجمع المصادر أن ل منطقة بحاية تخضع لسُلطتين لا ثالث لهما هما: سلطة المرابط وهي سلطة دينية روحية، وسلطة دنيوية تستمد قوتها من النفوذ المالي والاقتصادي لزعيم القبيلة أو الأسرة أو للنسب الشريف. ويبدو أن الضعف الذي عرفته الإيالة الجزائرية مع مطلع القرن التاسع عشر قد ساعد بعض القبائل على التمرد، مثل قبيلة مزاية المعروفة بالتمرد والعصيان، التي كانت في هذه الفترة تحكم سيطرتها على المنطقة الممتدة من أقبو إلى سهل بحاية، وكانت فرقة من المقاتلين 100 فارس ل باستمرار في المنطقة المذكورة، وتقوم بأعمال النهب والسلب، مرابطو شلاطة يقاومون هذه القبائل لمدة سبع سنوات لإيقاف اعتداءاتها على القبائل دون جدوى فسكانها كانوا يعتمدون أسلوب الكر والفر وساعدتهم الطبيعة الوعرة على ذلك.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 141.

<sup>2</sup> Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, p464.

<sup>3</sup> Robin: «Note sur l'organisation militaires...», p205.

<sup>4</sup> Féraud : « Histoire des villes..», p155.

ونتيجة لضعف السلطة في هذه المنطقة، ضفتي وادي الصومام في حالة حرب فيما، رغم جهود المرابطين في تجنب الحروب والتراعات، كانت سهول تطلعت وتابودة المثال مسرحا لقتال عنيف بين أولاد عبد الجبار بزعامة أسرة أورابح، وأعدائهم التقليديين قبيلتي إفناين وبني وغيليس، وقد أدت هذه الحروب إلى حرمان سكان القبيلتين الأخيرتين من استغلال حقولهم ومزارعهم مما ألحق بسكانهما أضرارا بليغة.<sup>1</sup>

ويرجع سبب تعاون أسرة أورابح مع الفرنسيين بعدما كنت من ألد أعدائهم ومن أشد المقاومين لهم، حسب رواية فيرو، إلى الأضرار التي لحقت بالمنطقة بعد استيلاء الفرنسيين على بجاية، ولا سيما توقف مصلحة الكراست التي كانت تشكل مورد رزق للسكان، فضلا عن نشاط التجارة الذي كان يمارسه السكان في أسواق وميناء بجاية، فأمام الأضرار التي لحقت بالسكان فاض الشيخ أورابح الفرنسيين على التعاون معهم ورفع حصار القبائل المفروض على بجاية مقابل حرية ممارسة النشاطات الاقتصادية لسكان المنطقة.<sup>2</sup> والجدير بالذكر أنه كان من نتائج سقوط مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين عام 1830 ونهاية الحكم العثماني في الجزائر، انتشار الفوضى والاضطرابات في الإيالة الجزائرية، ففي بجاية سكان قبيلة مزاية حسب رواية فيرو الم وقاموا ال القائد التركي، ولم ي جنود الحامية أية مقاومة وتركوا الحصون الثلاثة التي كانوا يحرسونها ونجوا بأنفسهم، أفراد هذه القبيلة أنفسهم أسبدا على سكان بجا الذين أصبحوا رحم هذه ال وبات الفوضى والاضطرابات سيدة الموقف حيث كان سكان هذه القبيلة يأتون كل يوم الخميس إلى السوق وي لون في شوارع المدينة وأحيائها ويجرون السكان على استضافتهم، وكانوا يأخذون بالغصب كل ما يرغبون فيه من سع وأمتعة، وكانوا يختارون لقيادة المدينة يكون عادة ار الملاك والأثرياء. كان يحرض أشد الحرص على إشباع رغبات من عينوه وا يظلمون له طالما أطلق لهم العنان في التصرف بكل حرية في المدينة والقيام بالنهب والسلب ثروته يزيحونه ويختارون قائدا آخر ولم يكن حكم الق في الغالب دى الثلاثة أشهر واستمر الأمر على هذا النحو حتى تمكن الفرنسيون من احتلال المدينة

<sup>1</sup> Gaid : **Histoire de Béjaia...**, p67.

<sup>2</sup> Belhamissi: « les grands dossiers de l'histoire... », p10.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

على يد الجنرال تريزل عام 1833.<sup>1</sup> سكان بجاية الظلم والجور هذه القبيلة لم يلاقوه من الأتراك، فكانوا يأملون في من يخلصهم منهم.

ويذكر لو روي أن أحد شيوخ القبائل المحيطة ببجاية أخبره أن انتشار خبر الحملة الجزائر وسقوطها كان له وقع شديد على السكان الذين قرروا حمل السلاح لمحاربة الرومي والدفاع عن الأرض ضد الغزاة.<sup>2</sup>

### المبحث الثالث: توتر العلاقات بين قبائل بجاية والسلطة في أواخر العهد العثماني

عرفت إيالة الجزائر في أواخر العهد العثماني فترة حرجة في تاريخها، حيث كثرت الاضطرابات وحركات التمرد والعصيان والثورات الداخلية مما كان له سيء الأثر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي ازدادت تدهورا بعد تفشي الأوبئة والأمراض والتواتر سنوات الجفاف والجوائح، وتبعه انتشار ظاهرة اغتيال الحكام لاسيما البايات، كما ازدادت المؤامرات الدولية ضد قراصنة الجزائر<sup>3</sup> السلطة تعاني من عدم الاستقرار.

والظاهر أن الضعف الذي عرفته الإيالة الجزائرية على جميع الأصعدة مع بداية لقرن التاسع عشر قد أثر في علاقاتها مع السكان الجبلين الجاورين لبجاية، حيث يقص علينا الرحالة والعالم الفلكي الفرنسي فرانسوا أرا<sup>4</sup> Francois Arago الذي زار بجاية 1808 بنفسه في هذه المدينة حيث يقول: "عندما نزلت بميناء بجاية علمت باستحالة الإبحار من م إلى مدينة الجزائر على متن السفن الصغيرة التي تدعى صانداال خلال فترة الشتاء، فانتابني الفزع والحزن حيث لا احتمال البقاء في هذه المدينة الشبه المهجورة طول فصل الشتاء، وفي مساء ذلك اليوم أي اليوم الذي

<sup>1</sup> Féraud: « Histoire des villes... », p 298.

<sup>2</sup> Jean le Roy : op, cit, p61-62.

<sup>3</sup> Temimi: op, cit, p49.

<sup>4</sup> فرانسوا أراغ (1786-1853) وفلكي وسياسي جاء إلى الجزائر سنة 1808 م فرارا من

الحرب التي نشبت في أوروبا، له العديد من الإسهامات في العلوم الفيزيائية منها.

باريس، اشتراكه مع بيو بقياس دقيق لكثافة الهواء والغازات بأنواعها. وله نظريات في علم البصريات. و أصبح في عام 1848 وزيرا للحرب والبحرية في الحكومة المؤقتة، فألغى الرق في المستعمرات الفرنسية.

وصلت فيه إلى المدينة قمت بجولة قصيرة على ظهر السفينة وإذا بطلقة نار تصطدم بالقرب مني، مما زاد من قلقي وخوفي، فقررت حينها السفر إلى مدينة الجزائر عن طريق البر مهما كلفني الأمر، وفي يوم الغد ذهبت رفقة السيد برثيم Barthimo والقبطان سييرو كاليغيري le capitaine Spéro Caliguéri إلى قايد المدينة التركي لكي نعلمه عن رغبتنا الملحة في السفر عبر البر إلى مدينة الجزائر فصاح في وجوهنا مرتعبا قائلا : بصفتي مسؤولا على سلامتكم لن أسمح لكم بالسفر لأنكم ستلقون حتفكم في الطريق، عندها سيتقدم بشكوى ضدي إلى الداي فيأمر بقطع رأسي في الحال"، ويذكر هذا الكاتب أن القايد لم يسمح لهم بالسفر؛ إلا بعد أن كتبوا له تصريح بأنه ير مسؤول عن حياتهم وأنهم اختاروا السفر برا بإرادتهم وبالتالي لا يتحمل أية تبعات في حالة تعرض لمكروه في الطريق، وذكر أن مرابط قام بمرافقتهم حتى وصلوا إلى مدينة الجزائر مقابل مبلغ من المال قدره 20 ومعطف أحمر من النوع الرفيع.<sup>1</sup> ويخبرنا هذا الرحالة أن الفضل يرجع للمرابط وأتباه في إنقاذهم من القبائل المتمردة ومن الأسود، أثناء رحلتهم. ثم يواصل الرحالة الفرنسي أراغو وصفه لرحلته من بجاية إلى مدينة الجزائر عبر البر والمخاطر التي أعترضت سبيلهم في هذه الرحلة، حيث أنقذه المرابط ومن معه من القبائل المتمردة، ومن الأسود التي كانت تعيش بالمنطقة.<sup>2</sup>

إن هذه الشهادة لها دلالات في واقع الأمر، وتعبير عن واقع سياسي كانت تعيشه بجاية ومناطقها، فالطلقة النارية التي كادت أن تصيب الرحالة تدل على حالة التوتر التي كانت سائدة بين حكام بجاية والسكان المجاورين لها في هذه الفترة، كما أن منع قايد بجاية الجماعة المسيحية من السفر برا يدل كذلك على روح التمرد والتمسك بالاستقلالية وعدم الخضوع للحكام الأتراك من جانب القبائل المنتشرة على طول الطريق المؤدي إلى مدينة الجزائر، (الطريق السلطاني) ويدل مرافقة المرابط للقافلة وتوفير الحماية لها على تقدير السكان وتبجيلهم واحترامهم لرجال الدين، فلولا مرافقة هذا المرابط للقافلة لما وصل أراغو ورفقائه إلى مدينة الجزائر سالمين.

ويبدو أن متاعب الحكام الأتراك كانت تتزايد في الربع الأول من القرن التاسع عشر أعلن سكان قلعة بني عباس التمرد والعصيان وفرضوا حصارا خانقا على مدينة بجاية ومنعوا بذلك

<sup>1</sup> François Arago : **Histoire de ma jeunesse**, académie des sciences, 1854, p7.

<sup>2</sup> François Arago : op, cit, p8.

كل الاتصالات مع المدينة فكانت السلطة ترسل كالعادة القائد يحي آغا الذي تمكن مرة أخرى بحنكته ودهائه من القضاء على التمرد، وفك الحصار على بجاية، لكن الحظ لم يسعفه هذه المرة قبيلة مزاية التي كثيرا ما أزعجت الأتراك في بجاية، فلم يتمكن من الخروج من منطقتها إلا بصعوبة كبيرة.<sup>1</sup>

كما عرفت الإيالة الجزائرية في هذه الفترة كذلك، عدة صعوبات على مستوى نشاط القرصنة، يرجعه الكثير من المؤرخين إلى اختلال التوازن العسكري بين الدول الأوروبية التي مكنتها الثورة الصناعية من تعميق الفارق في القدرات الحربية البحرية، والدولة العثمانية بسبب أنها لم تواكب التطور الذي كان يحصل في أوروبا، وكان من نتائج ذلك، تراجع نشاط القرصنة ومن ثمة تقلص مداخل الدولة،<sup>2</sup> فلجأت السلطة إلى حل إجرائي تمثل في فرض مزيد من أنواع الضرائب على السكان، مما أثقل كاهلهم، فساد العلاقات بين السلطة والسكان التوتري، وكانت منطقة بجاية لا تختلف عن باقي المناطق، بل كانت أكثرها تمردا حيث شهدت حدوث العديد من حركات العصيان والتمرد والثورة على الحكم، احتجاجا على سياسته الضريبية.<sup>3</sup>

وقد جرت العادة عند قيام تمرد كبير في المنطقة أن الدايات كانوا يطلبون دعم كل من باي قسنطينة وباي التيطري، لتوجه إلى منطقة التمرد لفرض النظام وتأكيد الأمن والاستقرار والقضاء على التمرد قبل أن يستفحل أمره ومن ثمة تصعب مهمة السيطرة على الموقف.<sup>4</sup> وفي هذا الموضوع يخبرنا الرحالة فونتير دي بارادي أنه في السنوات الأولى من حكم محمد باشا (1766-1791م) قرر الديوان شن حملة عسكرية على قبائل بجاية لقضاء تمردها، وذكر أن هذه القبائل اعتادت على القيام بحركات تمرد وعصيان مغتمة حصانة المنطقة، ويبدو أن التمرد كان كبيرا وقو لبقوة الكبيرة التي جردها الباشا لإخماده حسب نفس المصدر، انطلقت هذه الحملة بقيادة الآغا على رأس قوة

<sup>1</sup> Gaid: *Histoire de Bejaia...*, p&43.

<sup>2</sup> Belhamissi: «les grands dossiers de l'histoire...», p11.

<sup>3</sup> أنظر ناصر الدين سعيدون: النظام المالي، ص 178.

كمال فيلاي: البايك نظام حكم في الجزائر العثمانية، مجلة الهجرة والرحلة، مخبر الأبحاث والدراسات

السوسيو تاريخية حول حركات الهجرة، جامع 2، أبريل 2014، ص ص 25-26.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p256.

تتألف من سبعة سناجق، من مدينة الجزائر ولحق به كل من باي التيطري وباي إلى قايد سباعو، ورغم محاصرة المنطقة لم تتمكن قوات الحكومة التوغل نحو الداخل بسبب حصانة المنطقة، وقد استغرقت هذه الحرب مدة سنتين تكبد خلالها الجيش التركي الخسائر. دون أن يتمكن من إخضاع السكان المتمردين، لما رأى الأتراك طول مدة الحصار دون فائدة، اضطروا إلى طلب التفاوض مع المتمردين بواسطة المرابطين ونبلاء المنطقة بغية التوصل إلى إبرام الصلح فلم يكن لهم بد من الموافقة الأساسي المتمثل في أن يختاروا بأنفسهم قائد ولا بد من الإشارة هنا إلى أن صعوبة المنطقة الجبلية بلغ مداها إلى أن الهارب من سلطات البايلك كان يلجأ إليها حيث يجد فيها الملاذ الآمن الذي لا يمكن أن يجده في مناطق أخرى.<sup>1</sup>

### 1- الصراع بين الأعراس والـ وموقف السلطة العثمانية

تميزت المنطقة المحيطة ببجاية، ثمة الحروب والصراعات التي كانت تقوم من حين لآخر بين القبائل لأي سبب وقد أشار مرمول إلى ذلك في حديثه عن سكان هذه المنطقة حيث وصفهم بأنهم أقوياء ونشطون، وغير متعودين على النظام ولذلك فهم لا يكفون عن القتال فيما بينهم<sup>2</sup>

لا شك أن شح الموارد في المنطقة كان أحد أهم الأسباب، ومن المؤكد أنها ساهمت في إضعافها،<sup>3</sup> وهو ما كانت السلطة ترغب فيه بطبيعة الحال، بلا شك تغذي هذه الصراعات والحروب وتستغلها لخدمة مصالحها، من خلال القضاء على القبائل التي كانت تخشى تعاضم قوتها، وبهذا الأسلوب تمكنت السلطة من ترسيخ نفوذها في المنطقة التي تحصن سكانها في الجبال. وهذا ما أكده ليون الإفريقي في: "جنوب سهل المتيجة عدد لا يحصى من الجبال

شديدة البأس متحررة من كل إتاوة، وافرة الغنى، واسعة الكرم، يملكون أراضي جيدة للزراعة، وكمية عظيمة من الماشية والخيل، وكثيرا ما تحارب هذه القبائل بعضها بعضا، حتى لا يستطيع أحد

<sup>1</sup> de Paradis: op, cit, p228.

<sup>2</sup> مرمول: المصدر السابق، ص 376.

<sup>3</sup> أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 28.

سواء من أهل البلد أو غريبا أن يمر فيها بسلام ما لم يكن مصحوبا بأحد الأولياء.<sup>1</sup> وفي وقت لم يكن فيه للسلطة العثمانية مصلحة في إقرار الهدوء وإرساء النظام ولا سيما بعد أن وجد بعض الحكام الأتراك في هذا الصراع العشائري، والتنازع القبلي فرصة للتدخل في شؤون الأعراش و القبائل وعاملا مساعدا لإبقاء نفوذهم بالجهات الجبلية التي يصعب السيطرة عليها.<sup>2</sup>

ورجع بربروجر برسر تفوق الأتراك على الأهالي إلى امتلاكهم أسلحة الأهالي، الذين كانت عدتهم السيف والرمح والخنجر في مقابل البندقية والمدفع، ولكن مع مرور السنين أخذ السكان القبائليين الدروس عن التخطيط الحربي وصناعة الأسلحة على يد المهتمين أصبحت السلطة تخشى الدخول معهم في مواجهة عسكرية وأضطرت في غالب الأحيان إلى الاعتراف لهم بسيادتهم على المناطق التي يـ ون<sup>3</sup>.

وهذا ما يؤكد مولود قايد في قوله: "وقد التفوق العسكري في العتاد الحربي للأتراك جليا، فهؤلاء يحاربون بسلاح فتاك يتمثل في المدافع والسلاح الناري، في حين كان المحاربون في منطقة القبائل سلاحهم الوحيد السيف والرمح والخنجر، إن هذا التفوق سمح للأتراك بالتجوال في البلاد للبحث عن المتمردين حتى في المناطق الأكثر صعوبة، لكنهم بالنهاية كانوا يردون ويلقون مقاومة<sup>4</sup>.

وفي الوقت الذي السلطة تغذي الصراعات والتزاعات بين القبائل والأعراش وفقا لمبدأ فرق تسد كانت حريصة على ربط علاقات ودية وطيبة مع الرجال الدينيين والعلماء من أجل دعم سياستهم وتمكينهم من القضاء على التمرد والعصيان والثورات أحيانا، والاعتراف بسلطتهم، إذ كانت سلطة المرابطين تفوق سلطة الباشوات أنفسهم، وكمثال على ذلك نورد القصة التي رواها أحد الكتاب الفرنسيين مفادها أن سفينة فرنسية تعرضت للغرق في ساحل قريب من بجاية ارتطامها بالصخور، فوق ركابها في الأسر لدى قبائل المنطقة، وكان من بين الأسرى زوجة الملك

<sup>1</sup> ليون الإفريقي: المصدر السابق، ص167.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني: الإنسان الأوراسي، ص 143.

<sup>3</sup> Berbrugger: op, cit, p46.

<sup>4</sup> Gaid: Les Berbères..., p10.



الفرنسي وابتها الأنسة دوبورك Melle de Bourk وكانت الزوجة المذكورة قد ماتت بعض ركاب السفينة، فلما بلغ الخبر مسامع باي قسنطينة أرسل على الفور إلى زعماء تلك القبائل أمرهم بإطلاق سراح الأسرى، وإن لم يمثلوا هددوا بالقدوم إليهم شخصيا على رأس قوة كبيرة لتأديبهم، فردوا عليه بأنهم لا يخشوه كما لا يخشوا قواته و قوات الباشا.<sup>1</sup>

وعندما وصلت رسا الأميرة دو بورك إلى القنصل الفرنسي بمدينة الجزائر السيد دوسالت تطلب منه التدخل لتخليصها الأسرى ولما أبلغ الداى بالخبر، قام هذا الأخير بتكليف مرابط من بجاية<sup>2</sup> نفوذ كبير في المنطقة للتوسط من أجل إطلاق سراح الأميرة ورفاقها<sup>3</sup> وكان العلاقات بين الإيالة وفرنسا حسنة، من حسن حظ هذه الأميرة لأن العادة جرت بأسر المسيحيين التابعين لدولة لا تربطها بالجزائر أية معاهدة سلم،<sup>4</sup> هذا المرابط على متن حصانه بجاية رفقة تركي وبعض الجنود إلى مقر مملكة كوكو أين كان الأسرى محتجزون وتجمسم مسيرة 5 أو 6 أيام مشيا<sup>5</sup> فتمكن من إطلاق سراح الأميرة ومن معها وعادوا كلهم إلى مدينة الجزائر عبر ميناء بجاية، وكان زعيم كوكو يرغب في الاحتفاظ بالأميرة لتزويجها لابنه البالغ من العمر 14 فلولا تدخل هذا المرابط لظل مصير هؤلاء الأسرى مجهولا، إذ كان سكان هذه القبائل يرغبون في الحصول على الفدية مقابل إطلاق سراحهم لا سيما وأنهم كانوا على يقين أن الحكومة الفرنسية ستدفع فدية الأميرة مهما كان ال<sup>6</sup>. إن هذه الشهادة الحية تكاد قوة هذه القبائل المحصنة بالجنال ورفضها الخضوع للسلطة العثمانية من جهة وتؤكد مكانة الشيوخ والمرابطين عند السكان والتجاء الحكام إلى قدراتهم في الأوقات الصعبة

<sup>1</sup> M.D. Avocat: **Histoire des naufrages ou recueil des relations intéressantes des naufrages**, 1789, p 138.

<sup>2</sup> من المرجح أنه أحد أبناء مرابط الشهير سيدي محمد أمقران، تفاصيل أكثر حول الموضوع أنظر شارل فيرو: تاريخ جيجل، ص ص 136-137.

<sup>3</sup> Laugier de Tassy : op, cit, pp157-158.

<sup>4</sup> Robin: **La grandr Kabylie...**, p106.

<sup>5</sup> شارل فيرو: تاريخ جيجل، ص 136.

<sup>6</sup> M.D. Avocat: op. cit, pp142-143.

قد تميزت الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بكثرة النزاعات والحروب بين أعراش وقبائل حوض الصومام كما يدعي فيرو الذي أكد أن هذه القبائل والأعراش كانت تحل نزاعاتها عمال السلاح وكانت تعيش في فوضى واضطراب، وفي حالة نادرة جدا كان المرابطون ينجحون في التوفيق بين القبائل المتنازعة ويحول تدخلهم دون إراقة الدماء، ولكن ميزة هذه القبائل أنها كانت تترك نزاعاتها وحروبها جانبا إذا تعلق الأمر بخاطر خارجي يهدد حريتهم واستقلالهم، ولم يتطلب أمر جمع القبائل عناء كبيرا فيكفي توجيه نداءات عنيفة لتجميع المقاتلين من كل القبائل.<sup>1</sup> وقد أشار الورتلاني إلى هذه الحروب في رحلته وقد سبق الكلام عن تدخلاته في المنطقة لإصلاح ذات البين فهل يمكن اعتباره أحد المصلحين ودعاة للسلم في هذه الفترة؟.

## 2- موقف الأسر الكبيرة في بجاية ونواحيها من ثورة ابن الأحرش:

تعتبر ثورة ابن الأحرش<sup>2</sup> من أكبر الثورات التي قامت ضد الحكم العثماني في الجزائر وأكثرها تهديدا لوجوده، كما تعتبر كذلك من أبرز الأحداث التي عرفت الإيالة الجزائرية في أواخر العهد العثماني، وقد أسالت هذه الثورة الكثير من الخير باعتبارها مظهر من مظاهر ضعف الحكم العثماني في الجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر، كما تعكس صورة العلاقة التي كانت تربط السلطة بالقبائل.

وحسب ما أوردته بعض المصادر فإن الثائر ابن الأحرش لما أخفق في السيطرة على الوضع في نواحي قسنطينة و<sup>3</sup> بسبب المقاومة الشرسة التي واجهها خاصة على يد سكان مدينة قسنطينة،

<sup>1</sup> Charles Féraud : « Histoire des villes... », p312.

<sup>2</sup> ترجم له ناصر الدين سعيدوني في معجم مشاهير المغاربة، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، ط 1 1996 ص ص 25-30، وط 2 2000، ص ص 16-22.

تناول الكثير من الكتاب و الباحثين والمؤرخين هذه الثورة بالدراسة والتحليل، نذكر منهم فاسيات والعنصري وفيرو ورين وناصر الدين سعيدوني وابن العطار وابن علي شغيب والزهار وغيرهم.

<sup>3</sup> يرجع فيرو سبب اندلاع هذه الثورة في نواحي جيجل إلى غياب السلطة الروحية التي كان يعتمد عليها الحكام الأتراك بعد وفاة المرابط الحاج المكي ابن سيدي عبد القادر الذي كان له نفوذ في جيجل ونواحيها وترك ولدان لا يسمح لهما سنهما بالتمتع بنفس المكانة والتأثير على السكان فعينت السلطة لهما وصيا حسب ما يذكر فيرو في تاريخ جيجل في الصفحة 145 وما يليها.

وجه أطماعه نحو بجاية ربما لإدراكه أهمية السيطرة على موقعها الممتاز لاستغلاله مستقبلا في حال نجاح الثورة في ربط علاقات مع الخارج لا سيما وأن أصابع الاتهام وجهها البعض إلى الأنجليز الذين أشار الكثير من المؤرخين إلى ضلوعهم في هذه الثورة، أو لاعتقاده سهولة تأليب سكان هذه المنطقة الناقمين والمتذمرين من السلطة وكذلك تلقيه الدعم من مرابط أولاد دراج ابن بركات. والجدير بالذكر أنه تمكن من هزيمة جيش عصمان باي الذي خرج للقضاء عليه في موقعة وادي الزهور الشهيرة، حيث قتل الباي، فعين مصطفى باشا الباي عبد الله 1804-1805 خلفا له وكلفه بملاحقة ابن الأحرش.<sup>1</sup>

وتذكر ذات المصادر أن الثائر ابن الأحرش تمكن من استمالة العديد من القبائل إلى صفه وألحق خسائر كبيرة بجيش الباي وحلفاءه أولاد مقران حكام، وزحف ناحية بجاية في محاولة جريئة بعدما أعاد تجميع قواته وتنظيمها، فهاجم بجاية في فيفري 1806 وأحكم رها، بمساعدة قبائل البابور والبيان، وفي الوقت ذاته أحكمت قبيلتي بني مسعود ومزاية الحصار على الحامية التركية داخل أسوار بجاية، ومنعت ابن الأحرش لم يتمكن من دخول المدينة كما كان بسبب حصانتها، فاضطر إلى التراجع والاب.<sup>2</sup>

وأمام خطورة الوضع جمع الباي عبد الله خووجه بن اسماعيل جميع قواته التي كانت متواجدة في القل وزمورة وقسنطينة ومسيلة وبويرة وعزم على القضاء على الثائر ابن الأحرش وتخليص بجاية من الحصار الذي ضربه عليها، كما وضع شيوخ أولاد مقران حكام بجاية<sup>3</sup> قواته تحت تصرف الباي المذكور للدفاع عن منطقة نفوذ الأسرة التي تمتد حتى بجاية، ودارت معارك ساخنة بين الطرفين كانت خسائر كليهما موجهة، ولكن تفوق الانكشارية في العتاد والتنظيم أحدث الفارق حيث كان النصر حليفهم، فاضطر ابن الأحرش إلى الانسحاب نحو منطقة بني وغليس ثم جبال

<sup>1</sup> صر الدين سعيدوني: الجزائر في العهد العثماني، ص 344.

<sup>2</sup> Boulifa: op, cit, p211.

Vayssette: op, cit, p67.

<sup>3</sup> كان يتقاسم حكم بجاية ثلاثة أسر هي أولاد الحاج، أولاد عبد السلام وأولاد ال ندوز، حيث قام أنجليز باي بتقسيم الحكم بين فروع الأسرة، لكي ينهي الصراع الذي كان قائما بين شيوخها.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الجرجرة حيث انظمت إليه بعض القبائل الناقمة على الحكام الأتراك. وتجددت المعارك في نواحي بجاية بين الطرفين.

إن حالة التمرد والثورة لم تقتصر على منطقة القبائل فحسب بل شملت جميع الشرق إلى درجة جعلت الباي يخرج بنفسه على رأس قوة كبيرة للقضاء على الثورة ولم يعد إلى قسنطينة إلا بعد عشرة أشهر،<sup>1</sup> وهو ما يدل على خطورة الوضع وإحساس الحكام الأتراك بهذه الخطورة في الوقت ذاته.

والواضح أن ابن الأحرش لم يضع خطة محكمة ولم يضع في حسابه قبائل المنطقة الحليفة لما أقدم على مهاجمة بجاية، حيث واجه خصوما أقوىاء في المنطقة، الخصم الأول تمثل في ابن علي الشريف التي كانت تربطها مع السلطة العثمانية علاقات ودية، والخصم الثاني أولاد مقران الموالين للسلطة كذلك،<sup>2</sup> ي شيوخ هذه الأسرة القوية للنائر ابن الأحرش في منطقة نفوذهم. وساهموا كثيرا في القضاء عليه وصرعه قرب جبل مغريس بالقرب سطيف، وإذا كان المقرانون قد هبوا للتصدي لـ ابن الأحرش باءبارهم حلفاء للسلطة العثمانية في منطقة مجانة ونواحيها، فقد تصدى ابن علي الشريف واستغل كل نفوذه في منطقة وادي الساحل ونجح في إفشال خطة ابن الأحرش في الاستيلاء على بجاية ونواحيها.<sup>32</sup>

إن فشل هذا الناصر في اقتحام بجاية واستيلاء عليها، يدل على وقوف سكان المدينة إلى جانب الحامية التركية بما والتي تشير كل الكتابات إلى أن عدد جنود تلك الحامية كان في حدود 80 أو 100 جندي أقصى تقدير، وهو عدد غير كاف على الإطلاق لمنع ابن الأحرش وجيشه - الذي كان عدده كبيرا- من الاستيلاء على المدينة في اعتقادنا. وتعتبر أسرة ابن علي الشريف العائلات المنتفذة التي ت ابن الأحرش الذي حاول أن يهيمن على المنطقة ويهيح السكان الانضمام إلى لإنجاح ثور التي لم تلق النجاح الذي كان يأمله في الجهة الشرقية من الإيالة.

<sup>1</sup> Gaid: **les Berbères dans l'histoire...**, p46.

<sup>2</sup> Gouvion: op, cit, p23.

<sup>3</sup> Mercier: **Histoire de Constantine...**, p318.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

ولا ندرى ما الدافع الذي كان وراء وقوف ابن علي الشريف هذا الموقف هل هذا راجع لدفاعه عن امتيازات والممتلكات التي كانت أ أم رغبة منه في البرهنة على ولائه وتبعيته للسلطة ولا سيما أن الأة كانت تتمتع بنفوذ وسلطة كبيرين على السكان في المنطقة؟ وعلى أية حال يمكن تفسير وقوف ابن علي الشريف إلى جانب السلطة في محنتها هذه للسبب المذكورين معاً، فتحالفه وتعاونه مع السلطة وكذا علاقته الوطيدة بما يلزمه أخلاقياً بالوقوف في صف السلطة، كما أن الخوف من زوال مكانته ونفوذه كان كذلك وراء إسراعه بتقديم كافة المساعدات لتطويق هذا التأثير المعاصر والقضاء عليه.

و الإشارة إلى أن ابن علي الشريف طلب مساعدات من باشا الجزائر للتصدي للتأثير ابن الأحرش، ومن غير المستبعد أن يكون قد وقع تعاون بين عائلة ابن علي الشريف وعائلة المقراني فالهدف يجمع ، وبالمقابل قامت السلطة المركزية وعلى رأسها الداى بمكافأة ابن علي الشريف من خلال إرسال الهدايا الثمينة منها أسدين مدربين وأحضر هذه الهدايا الرئيس حميدو<sup>1</sup> وتثبيت المكانة والاحترام الذي كانت تتمتع به العائلة والزواوية سواء لدى السكان أو لدى الحكام والأتراك.<sup>2</sup>

وتجدر الإشارة إلى أن قبيلة أولاد عطية في نواحي سكيكدة لعبت دوراً كبيراً في مقتل عثمان باي قسنطينة المعروف بالبباي سي محمد، والبباي الأعور حسب ما جاء في تقرير فرنسي يعود لسنة 1841 حيث قدمت هذه القبيلة مساعدات كبيرة للتأثير المعروف لدى الأهالي المنطقة بالبودالي، ويذكر التقرير أن المدعو عثمان بن عميرة من أولاد أعطية من أشرف المنطقة قام بقطع رأس البباي المذكور وتقديمه للتأثير الدرقاوي ان ا ش الذي فشل في اقتحام قسنطينة عاصمة الإقليم.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> أرسل الباشا الرايس حميدو على رأس قوة بحرية إلى جيحل وقام بقتل معاقل الشريف ابن الأحرش وأتباعه.

<sup>2</sup> ناصر لدين سعيدي: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية "نموذج بلاد القبائل".

<sup>3</sup> D. Luciani : « les Ouled-Athia de l'Oued Zhour », R. A, N° 33. 1889, Ed, O.P.U.Alger.P:296-311.

انظر كذلك:

3- حركات التمرد والعصيان:

وعلى الرغم من علاقات الود التي سبقت الإشارة إليها بين السلطة العثمانية وبعض القبائل والأسر المنتفذة في بجاية ونواحيها، مثل أسرة سيدي محمد أمقران، وأولاد أورابح، وأسرة ابن علي الشريف، إلا أن منطقة بجاية عرفت التوتر والاضطرابات في أواخر الحكم العثماني، والتي لا شك أن لها علاقة بحالة عدم الاستقرار التي عرفتها الإيالة، بسبب كثرة الكوارث الطبيعية والصحية، وهيمنة الطائفة اليهودية على الاقتصاد، وكذا الثورات وحركات التمرد كثورة ابن الأحرش التي سبق التطرق إليها، و ثورة الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب فلا شك أن لكل هذه الأحداث دور وتأثير في ثورة سكان بجاية ومناطقها، لا سيما وأن هذه الأسر كانت على علم ودراية بكل ما كان يحدث في الإيالة.

ففي العقد الثاني من القرن التاسع عشر أخذت ناعب السلطة العثمانية مع قبائل ناحية بجاية تتزايد بشكل ملفت للانتباه، ومع ذلك لا نجد المصادر المحلية تذكر هذه الأحداث على أهميتها بقليل من التفاصيل، واقتصرت على الإشارة أو التلميح فقط يخبرنا الزهار أن سكان قبيلة مزاية المتاخمة لمدينة بجاية نافقوا فقتلوا من العسكر عددا كبيرا فبعث الأغا إلى المرابط سيدي محي الدين بن سيدي علي بن مبارك فتوسط بين الطرفين ونجح في إبرام ال<sup>1</sup>. وأورد المصدر ذاته أنه في 1236 / 1820م قامت السلطة بصُلب رجال من جبل مزاية لأن أهل هذا الجبل قتلوا عسكريا ولم يقرروا على القتال، ولم يبينوه قبض على هؤلاء المتهمين وبعث لهم لكي يأتوا بالقاتل وإن لم يأتوا به فإنه سيأمر بقتلهم مكانه، فلما لم يمثلوا لأمره صلبهم جميعا في يوم واحد وذلك سنة 1237 / 1821م<sup>2</sup>. وقد أشار الأسير سيمون بفايفر إلى هذه الحادثة حين قال: "وحيث يكون

Edourad Solal : **Philippeville et sa région (1837-1870)**, Alger, Ed, la maison du livre.(s.d).p:27.

<sup>1</sup> أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1168-1246 1754-1830م، ص95.

<sup>2</sup> أحمد توفيق المدني: المصدر نفسه، ص111.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

القبائل في الحرب مع الأتراك، فإنهم يقتلون أغلب الأسرى الذين يقعون في أيديهم، وذلك ما كان يفعله الداي معهم، فكان يعلق العشرات منهم في الأشجار، أما بعضهم وخاصة الشباب منهم فكانوا يوضعون في الخدمة مع الأسرى المسيحيين".<sup>1</sup> ونلاحظ هنا أن الزهار لم يذكر لنا عدد هؤلاء الرجال ونجده يستعمل كلمة "نافقوا" ذات الدلالة الدينية والسياسية، وتتساءل عن حكم الشريعة الإسلامية في هذا النوع من العقاب، وفيما هل يجوز قتل متهمين بدلا عن القاتل الحقيقي؟.

وفي صيف عام 1823 استغل سكان قبائل بني عباس قيام المخزن ببعض الاضطرابات في الإيالة وحملوا السلاح في وجه الأتراك مطالبين باستعادة ممتلكاتهم في منطقة وادي الساحل ومجانة وبعد أن تمكنوا من الاستيلاء على منطقة المنصورة سيطروا على مضائق بيان الحديد وقطعوا اتصال بين قسنطينة مقر حكم بايلك الشرق ومدينة الجزائر، وأرجع مرسيه سبب تلك الثورة أن باي قسنطينة رفض دفع رسوم الخمسمائة حروف (500) التي اعتاد الأتراك دفعها لهم كرسوم العبور ولحماية قوافل الأتراك عند عبورها مضائق بيان الحديد.<sup>2</sup>

وقد كلف القائد يحي آغا بالخروج للقضاء على التمرد في ماي 1823م (20 ذي الح 1239 ) حسب ما أورده دوفولكس، وقام بحرق 12 دشرة وقطع رأس 7 من الرجال واقتاد 16 أسيرا إلى مدينة الجزائر وتسخيرهم لتكسير الحجارة خارج باب الوادي. وفي السياق ذاته كتب القنصل الأمريكي وليم شالر عن تمرد قبائل بجاية في 21 أكتوبر 1823 المتوردون المدينة ونشروا الرعب والفرع في وسط السكان ووقع قتال سق الجانيين، واقتاد المتوردون المقتي الحنفي إلى السجن، كما احتجزوا الخوجة كغنيمة، و تعرض القاي إلى إطلاق النار في السوق وتعرضت ممتلكات السكان للنهب.<sup>3</sup> إثر ذلك القائد يحي آغا رسالة إلى مرابطي إولة للتأكد من صحة المعلومة ويطلب منهم في الوقت نفسه التعجيل

<sup>1</sup> سيمون بفايفر : المصدر السابق، ص 144.

<sup>2</sup> Mercier : *Histoire de l'Afrique...*, p515.

<sup>3</sup> وليم شالر: المصدر السابق، ص.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

ويده بالمعلومات الوافية وعليهم أن يعملوا ما بوسعهم حتى يلتحق بعين المكان وينظر في هذه القضية بنفسه.<sup>1</sup>

يبدو أن سكان هذه المنطقة قد استشعروا ضعف السلطة في هذه الفترة فكانوا يشورون من في العام الموالي وقع تمرد آخر في منطقة وادي الساحل وبني عباس، فخرج الآ لقضاء على تمرد هذه القبائل والانتقام منها قام بحرق 30 دشرة وقطع رأس 6 رجال وأقتاد 27 إلى مدينة الجزائر لتسخيرهم في عمليات تكسير الحجارة خارج باب الواد<sup>2</sup>. ونشير هنا إلى أن هذا القائد كان قبل أن يشرع في استعمال القوة يعرض على المتمردين الاستسلام حقنا للدماء، وأن تمكن بعد إخماد التمرد وإحضار المنطقة تقدم بعض أعيان المنطقة إلى العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم فاستجاب لطلبهم.<sup>3</sup>

ولكن يبدو أن السياسة العقابية للسلطة زادت من الأمور تعقيدا، حين سرعان ما انتشر لهيب الثورة وامتد من منطقة واد الساحل وبني عباس إلى بجاية، حيث حذت قبائل هذه الما حذو المذكورة وأعلنت الثورة على الحكام الأتراك، وهاجمت بعض القبائل الأتراك الذين كانوا موجودين بمنطقة وادي الصومام، وكان دهم ال ساعد أورابح (من قبيلة مزاية) وتقدم بهم نحو بجاية حيث فرض الحر وتعرضت للنهب والسلب وألقي القبض على قائدها الذي حاول الفرار ونفذ فيه حكم الإعدام، هو ومن كان في رفقته من جنود الحماية.<sup>4</sup>

إن الاستيلاء على بجاية والسيطرة على مضيق البيان يشكل تهديدا حقيقيا للوجود ا بكامل مناطق الإيالة، التي كانت تمر بظروف عصيبة داخليا وخارجيا. أمام خطورة ال أدركت السلطة الحاكمة أن تهدئة المنطقة والمحافظة على النظام بما لا يكون إلا بالطرق السلمية الدبلوماسية ولا سبيل لاستخدام القوة والعنف اللذان من شأنهما أن يثيرا مزيدا من القبائل، وللقيام بهذه المهمة كان لا بد من الاعتماد على حنكة ومهارة يحي آغا الذي اعتاد على إخراج الحكومة

<sup>1</sup> Robin: **La Grande Kabylie...**, pp 102-103.

<sup>2</sup> de Grammont : **Histoire d'Alger...**, pp 298-299.

<sup>3</sup> Devoulx: **Daftar Taschrifat...**, p52.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p313.



## الفصل الرابع: ----- علاقة السكان بالسلاطة

التركية من المازق من خلال خبرته في التعامل مع سكان منطقة القبائل<sup>1</sup> فقد كان قد عين المدعو محمد بن كانون برتبة شاوش وباعتباره من سكان منطقة القبائل وله علاقات قرابة مع الأسر الكبيرة في المنطقة فقد كان يكلفه بالقيام بمهمة إخماد أي تمرد باستعمال نفوذه ونفوذ أقاربه، كما أنه كان يحظى كذلك بسمعة طيبة وسط الأهالي، إلى درجة جعلت توفيق المدني يعتبره من أصل قبائلي<sup>2</sup> وكانت هذه السمعة والاحترام الذان كانا يتمتع بهما فضلا على قدراته الشخصية كما يذكر روبان كانت وراء اغتياله بأمر من الداى حسين كما سيأتي ذكره.<sup>3</sup>

والظاهر أن المنطقة المحيطة بمدينة بجاية لم تكن مستقرة وكثرت بها حركات التمرد والعصيان حيث قام سكان المنطقة بالثورة من جديد على السلطة 1825 قاموا بالهجوم على بجاية وقتلوا القائد التركي، وصاحب الهجوم أعمال نهب وسلب للمدينة وأحوازها، مما لحق أضرارا بليغة بالسكان وزرع الرعب و الذعر في نفوسهم، وسرعان ما انتشر التمرد في المنطقة فكلف الداى قائده يحي آغا بالمسير على رأس قوة عسكرية إلى بجاية ومناطق أخرى على التمرد، فانطلق على رأس قوة من الجند الأتراك تعضده قبائل المخزن الذين اعتادت السلطة على الاستعانة بخدماهم وخبراتهم في التعامل مع الأهالي في مثل هذه الظروف. وكان يحي آغا يتميز بالذكاء والحكمة والدبلوماسية.<sup>4</sup> ما وصل إلى المنطق ترك جيشه إراحة وركب حصانه واصطحب معه نحو 50 مع دليل قاده إلى المكان الذي كان يتواجد فيه زعيم التمرد الشيخ ساعد أورابح الذي كان يتمتع بسلطة ونفوذ كبيرين في وسط سكان المنطقة، كانوا يدينون له بالاحترام والتقدير ويهابونه. تخضع له نحو ستة وعشرون من ثل حوض الصومام حسب دوماس.<sup>5</sup> فاندesh هذا الشيخ لجرأة وشجاعة وإقدام القائد يحي آغا، وكان الشيخ يستعد رة المنطقة

<sup>1</sup> Boulifa: op, cit, p314.

<sup>2</sup> توفيق المدني في مؤلفه محمد عثمان باشا.

<sup>3</sup> تفاصيل وافية سجلها روبان حول ظروف اغتيال هذا القائد سجلها في دراسته:

Robin: «Note sur Yahia Agha...», op, cit.

Robin: **la Grande Kabylie...**, pp 120-134.

<sup>4</sup> انظر، محمد عثمان باشا، المرجع نفسه.

<sup>5</sup> Daumas: op, cit, p424.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

ضد السلطة، لكن القائد يحيى آغا كن من تدمثته بدهائه وحنكته، > وعده بأن يحصل له على الأمان من الباشا، وأهداه حصانا مرصعا ثم عاد إلى بجاية وأقام بها لفترة أعاد بناء تحصيناتها.<sup>1</sup>

وتجربنا لويس سالفاتور أن الشيخ ساعد أورابح استمر في مضايقة السلطة من خلال قيادة حركات التمرد والعصيان إلى غاية الاحتلال الفرنسي لبجاية في 29 سبتمبر 1833<sup>2</sup> لكن الأحداث تدل على أنه هو من كان يوظف نفوذه ومكانته في المنطقة لتوقيف حركات التمرد والعصيان مقابل الهدايا الثمينة التي كان يتسلمها من السلطة حسبما أورد روبان،<sup>3</sup> وهذا ما يمكن فهمه من الرسالة التي وجهها له الداى حسين سنة 1831 والتي خاطبه فيها قائلا: "ومنذ اليوم الذي اعتبرتك واحدا من أصدقائي المخلصين."<sup>4</sup>

وقد ساعدت القائد يحيى آغا صرامته وشدهته؛ في معاقبة المتمردين من جهة؛ وقدرته على تفريق القبائل من جهة ثانية القضاء على التمرد في منطقة بجاية و بني عباس الأولى التي نالت العقاب الشديد طر شيوحتها إلى طلب الأمان و تقدم رهائن لدى الأتراك كضمانة على احترام اتفاق الهدنة.<sup>5</sup> وبعد ذلك واصل يحيى آغا جولاته العقابية فمن منطقة بني عباس عباس اتجه نحو قبائل وادي الساحل المتمردة اجتاز هذه المنطقة الصعبة بنجاح ولا شك أن سلاح البندقية والمدفعية كان فعالا في مثل هذه الظروف و شارل فيرو يقول أمة تيمدوينت قرب بني مليكش، وهناك اتصل به مرابط ابن علي الشريف<sup>6</sup> وقدم له البغال

<sup>1</sup> Louis Salvator: op, cit, p42.

<sup>2</sup> Ibid : op, cit, p43.

<sup>3</sup> Robin: la Grande Kabylie..., p104.

<sup>4</sup> أنظر نص الرسالة في، قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830-1871)، د. م. ج،

الجزائر 1993، ص28.

<sup>5</sup> Robin: Ibid, pp 102-103.

<sup>6</sup> الفاضل المحترم الطريف السيد محمد السعيد بن علي الشريف. ولد عام 1238 ( 1820م ) في إلولة من بلاد زواوة، و هو من نسل الصالحين الذين جاءوا من المغرب و استوطنوا بلاد القبائل ما بين القرن السادس و القرن الثاني عشر، و جده الأعلى الشريف سيدي موسى (أو علي)، و ينتهي نسبة إلى السيد أبي محمد عبد السلام مشيش بن منصور ابن إبراهيم الحسيني.

و كان الشريف سيدي موسى فارق مسقط رأسه فس صغره، و أقام في إلولة و تزوج فيها بصالحة ابنة صالح

لاستعمالها في نقل المؤونة وأغراض الجيش ووعده بدعمه والوقوف إلى جانبه وأنه سوف لن يدخر جهداً يوظف فيه مكانته ونفوذه الديني على قبائل المنطقة من أجل فرض الهدوء، وكان هذا القائد يدرك تماماً أنه لم يكن بمقدوره مواجهة الموقف باستخدام القوة فلجأ إلى الأسلوب الدبلوماسي مستعيناً بمكانة ونفوذ هذا المرابط الشهير الذي كان مسموع الكلمة ومهاب الجانب في كامل المنطقة ولكنه اشترط على القائد يحيى - ناءً رواية فيرو- أن يقوم بالإغارة على قبائل السواحل وبني عباس وإحراق منازلهم، لأنهم نهبوا مناطق تابعة لنفوذه، فوعده يحيى آغا بتنفيذ ما طلب. <sup>1</sup> تمكن ابن علي الشريف من إقناع زعيم الثورة سي ساعد أورابح وضع السلاح لكن سي ساعد اشترط أن يحكم منطقة الصومام وحده دون منازع. وعند عودة يحيى آغا إلى مدينة الجزائر أخبر الداوي عما حدث وأحاطه علماً برغبة المرابط ابن علي الشريف، فقام الباشا بمنحه أراضي شاسعة في منطقة الغرازة<sup>2</sup> في نواحي سطيف تعويضاً له عما لحق به من خسائر جراء تلك الحملات وكصنيعه مع القائد يحيى آغا.<sup>3</sup>

وكانت عائلة أورابح تتمتع بنفوذ كبير لدى سكان حوض الصومام فلم يجد شيخها في الواقع صعوبة في إنهاء حالة الهيجان والتمرد بعد أن حصل من الأتراك على هدايا معتبرة، وواعد احترام استقلال سكان المنطقة وعدم التدخل في شؤونهم؛ وعدم التعرض لعاداتهم وتقاليدهم،<sup>4</sup> فحقق بذلك يحيى آغا مراده دون أن يدخل مع السكان المتمردن في مواجهات دموية لا شك أن عواقبها ستكون وخيمة على الأتراك.

هناك، و بعد مدة أحدث زاوية شلاطة المعروفة حتى الآن بهذا الاسم، و هي زاوية مقصودة لقراء كتاب الله عز وجل، يأتونها من كل فج عميق، كما أن طلاب الفقه يقصدون زاوية ابن أبي داود في تاسليت، و يقال أن من لم يقرأ القرآن في شلاطة، و لم يتعلم الفقه في تاسليت، و لو قرأ و تعلم في غيرهما يعتبر عند الحيين ناقص السر، و الدليل على هذا أن الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوه إلى إحدى الزاويتين، و زاوية ابن علي الشريف الذي ورثه في الظاهر و الباطن ولده سيدي محمد السعيد رحمه الله، المتوفى يوم 14 جمادى الأول سنة 1314.

<sup>1</sup> Féraud: « Histoire des villes... », p315

<sup>2</sup> Robin: «Note sur Yahia Agha...», p103.

<sup>3</sup> Ibid, pp315-316.

<sup>4</sup> Boulifa: op, cit, p314.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

وهناك رواية أخرى أن القائد يحي آغا لما وصل بقواته إلى وادي الفلاي ترك جيشه يرتاح من تعب الطريق وصحب معه حوالي 50 من الفرسان واتجه صوب الشيخ ساعد أورابح زعيم هذه الثورة الذي تفاجأ بوجوده في منطقته، وطلب منه استضافته وأخبره أن الداوي قد أعطاه الأمان ويعدده بحصان مطرور، فأعجب الشيخ ساعد أورابح بثقة يحي آغا فيه وبشجاعته وجرأته فصافحه وعقد معه الصلح دون أن تراق قطرة دم واحدة.

وأثناء عبور القائد يحي تراب قبيلة مزاية واجه صعوبة كبيرة كان هذه القبيلة واضطر إلى الانسحاب تاركا وراءه عدة خسائر، ولما دخل مدينة بجاية قام تعزيز دفاعاتها تحسبا لأي هجوم خارجي محتمل، أو هجوم داخلي قد تشنه القبائل المجاورة، وقام كذلك بإصلاح بعض الصهاريج الرومانية لتخزين المياه، قام بتنصيب قايد حديد للمدينة.<sup>1</sup> ولكن يبدو أن نهاية القائد يحي آغا كانت مأساوية حيث عملت الوشاية فعلتها همس أحدهم في أذن الداوي حسين أن هذا ال يخطط لانفصال ببجاية، ودليلهم في ذلك تلك الإصلاحات التي أشرنا إليها من قبل، إضافة إلى مع قبائل الم ولا ندري كيف صدق الداوي حسين هذه التهم، واستدعاه إلى مدينة الجزائر ثم نفاه إلى مدينة البليدة في بداية الأمر، و ما لبث أن أصدر أمره بقتله . دون أن يتحرى الحقيقة ففضى على أحد القادة الأكفاء وعلى دعامة هامة في الحكم في هذه الظروف الحالكة التي كانت تمر بها الإيالة داخليا وخارجيا.<sup>2</sup> وقيل أن المؤيدن له من الأتراك ظلوا حاقدين وناقمين على الداوي بسبب مقتل هذا القائد، وحاولوا ذات مرة اغتيال الداوي لكنهم لم يفلحوا.

إن مقتل القائد يحي آغا كان خطأ قاتل للداوي حسين دون أن يستند لأي دليل، كانت له انعكاسات سلبية على مستقبل الإيالة والأتراك حيث فشلت حكومة الداوي حسين في منع الغزو الفرنسي عام 1830 بسبب القيادة غير الكفأة للجيش الذي كان يقوده صهره ابراهيم آغا (الذي

<sup>1</sup> Féraud: op, cit, p316.

<sup>2</sup> ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص 243.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

من غير المستبعد أن يكون وراء اغتيال يحيى آغا) فكانت النتيجة وقوع البلاد تحت الاحتلال الفرنسي بعد الهزيمة في م. والي في جوان 1830.<sup>1</sup>

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورات مشتعلة في منطقة بجاية وبني عباس وقع حادث دبلوماسي بسيط سنة 1824 - 1825م تسبب فيه سكان قبائل بجاية أدى إلى توتر العلاقات بين إيالة الجزائر وحكومة الأ. و تطور الخلاف إلى حد قيام الحرب بين البلدين، تمثل الحادث في قيام سكان المنطقة بالاستيلاء على سفينة أمريكية تحمل العلم الأنجليزي اضطرتها العواصف إلى الاقتراب من ساحل بجاية، وكان هؤلاء السكان لا يعترفون بحكم السلطة عليهم<sup>2</sup> وكانت هذه السفينة محملة بالبضائع، فاستولى عليها السكان وأسروا الركاب الذين كانوا على متنه وفور سماع الداي حسين بالخبر أصدر الأوامر إلى مرتكبي هذه المخالفة بإطلاق سراح الأسرى وإعادة ممتلكاتهم، أعطى الأوامر في نفس الوقت بإلقاء القبض على كل عمال القبائليين المنحدرين من هذه المنطقة المتواجدين في مدينة الجزائر<sup>3</sup>، لكن القنصل ا لميزي رفض تسليم العمال الذين كانوا بحوزته اقتح الجنود مبنى القنصلية وألقوا القبض على العمال المطلوبين، مما تسبب في غضب القنصل واحتجاجه بشدة، وغادر الجزائر في شهر جانفي 1824 مما أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين.<sup>4</sup> عقب ذلك حكومة أنجلترا أسطولا بحري حاصر مدينة الجزائر من شهر فيفري 1824 إلى جويلية ولم يرفع الحصار، إلا بعد توقيع معاهدة صلح وسلم في هذه السنة.<sup>5</sup>

ورغم تمكن القائد يحيى آغا من القضاء على تمرد بني عباس سنة 1824 و 1825 إلا أن غلوه في إحراق المداشر والقرى، وإتلاف المحاصيل الزراعية في طريقه إلى القلعة ا

<sup>1</sup> حول تفاصيل الحملة الفرنسية ومعركة سطاوالي راجع، حمدان حوجة: المصادر السابق، وكذلك سيمون بقايفر المصدر السابق.

<sup>2</sup> de Grammont: **Histoire d'Alger...**, p 300.

<sup>3</sup> Belhamissi: **Histoire de la Marine...**, p127.

<sup>4</sup> Belhamissi: **Ibid**, p127.

<sup>5</sup> Robin: **La Grande Kabilie...**, p113.

أنظر رسالة القنصل الفرنسي دوفال حول حملة الأنجليز وحصار مدينة الجزائر في أرزقي شويتام: دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي، الفترة العثمانية 1519-1830، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010، ص ص 103-104.

الاستسلام، أدت إلى إعلان التمرد والعصيان في السنة الموالية حسب ما ذكر مبارك الميلي، مما زاد من متاعب حكومة الداى حسين التي كانت تعاني من صعوبات كبيرة في هذه الفترة.<sup>1</sup>

#### 4- أزمة نقص الأخشاب وتأثيرها على ضعف البحرية في أواخر العهد العثماني

سبق الحديث عن استغلال أخشاب منطقة بجاية وجيجل والدور الذي كانت الكراست في التقارب الذي حصل بين السلطة والقبائل بهذه المنطقة بواسطة الأسر المرابطية ويبدو أن الوقوف على مصلحة الكراست لم يعد حكرا على أسرة محمد أمقران مع مرور الوقت الامتياز لعائلة سيدي السعيد أو محمد<sup>2</sup> من قبيلة سيدي ميمون السواحلية، ويعد المسؤول عن التفاهم في عمروس وبني محمد وقبائل أخرى بخصوص قطع الأشجار وفرزها وتحميلها، وهو مصدر عيشتهم الوحيد بالنظر إلى المناطق الجبلية التي تفتقر إلى المساحات الزراعية التي يمكن أن تسمح لهم بممارسة النشاط الفلاحي<sup>3</sup>.

وقد شهدت الفترة الأخيرة من الحكم العثماني تراجع قوة ومكانة الأسطول الجزائري بشكل ملحوظ، حيث توقف استغلال غابات منطقة بجاية فلم تعد الأخشاب تصل إلى أماكن التصنيع في مدينة الجزائر، مما ساهم في تأزم الوضع وتفاقم الأزمة، كما أن المساعدات التي كان يرسلها الباب العالي توقفت بسبب الحصار الفرنسي، ويرجع سبب توقف إرسال الأخشاب إلى ثورة بجاية وتمردها إلى ، كما أن الطريق من بجاية وموانئ الشرق أصبح غير آمن بسبب التهديدات المستمرة للقوى الأوروبية وأجلبترا على وجه التحديد، فاضطر الداى حسين تحت هذه الظروف الصعبة إلى مكاتبة زعماء قبيلة بني جناد في جبال جرجرة التي الغابات التي أن عوض أخشاب منطقة بجاية بتزويد دار صناعة السفن بمادة الخشب حتى لا يتوقف نشاطها، إلا أن هذه القبيلة لم تتجاوب مع طلب الداى.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> مبارك الميلي: المرجع السابق، ص 267.

<sup>2</sup> عينته الإدارة الاستعمارية شيخ على قبيلة بني ميمون السواحلية.

<sup>3</sup> Féraud: « Notes sur Bougie... », p 298.

<sup>4</sup> Belhamissi: **Histoire de la Marine...**, p67-68.

و في هذه الأزمة النفوذ الذي باتت الطائفة اليهودية تتمتع به في أعلى هرم السلطة، حيث أدى إلى سوء العلاقات بين قبائل المنطقة وحكومة الداى، وذلك قام هذا الأخير بإسناد مصلحة الكراست إلى اليهودي بكري الذي قام الأثمان التي كانت تُدفع للعمال المستخدمين مما أدى إلى امتناعهم عن تسليم الأخشاب لـ وكدسوها في المنطقة مما تسبب في تضرر الترسانة البحرية من جهة، والسكان الذين كانت هذه المصلحة مصدر رزقهم حيث عمت البطالة وانتشر البؤس والفقر الشيخ أورابح المعالجة هذه القضية إلى السفر شخصيا إلى مدينة الجزائر ليقدّم شكوى للداى حسين هذا الأخير على الفور بحل هذه الأزمة لضمان تدفق مادة الخشب إلى مدينة الجزائر، وخاصة أنها كانت في أمس الحاجة لها بالنظر للتكاليف الأوروبية الذي تزايد على الجزائر خلال هذه الفترة.<sup>1</sup> ومهما يكن من أمر فقد نجم عن توقف إرسال الأخشاب إلى مدينة الجزائر إلى عدم التمكن من تعويض السفن التي تم إرسالها إلى حرب اليونان التي اندلعت ضد الحكم العثماني سنتي 1821-1826.<sup>2</sup>

ويبدو أن علاقة الشيخ أورابح صاحب النفوذ في قبائل نواحي بجاية مع الداى حسين في أواخر العهد العثماني كانت على ما يرام، وعلى الأرجح أنها تحسنت منذ آخر تمرد قام به هذا الزعيم والذي انتهى بالصلح كما ، ودليلنا على ما نقول هو تلك الرسالة التي بعث بها الداى إلى ولد أورابح. أن يقوم بتسليم رسائل أخرى إلى أعيان آخرين كما طلب منه توفير الحماية والحراس طريقه في أمان، و أكد له أن شجاعته وحزمه معروفة لديه، ومما جاء في الرسالة: "هذا مما جعلني متأكدا بأنكم إذا اتحدتم حول مبدأ العدل فإنكم لن تقهروا. ومن الضروري

---

أنظر رسالة حسين داي و رسائل القائد يحي آغا في هذا الشأن إلى شيخ بني جناد ورفضه السماح بتقطع الأشجار في منطقة نفوذه، فأعلن الداى الحرب عليه لكنه لم يتمكن لا بإقناعه ولا بإخضاعه بالقوة لمزيد من التفاصيل أنظر:

Robin: **La Grande Kabylie...**, pp 113-117.

<sup>1</sup> Féraud: « Histoire des villes... », p272.

أنظر كذلك، أرزقي شويتام: دراسات ووثائق...، ص ص 69-94.

<sup>2</sup> مبارك الميلي: المرجع السابق، ص 322.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

إن تسود الثقة فيما بينكم وأن تنسقوا أعمالكم وبذلك فإن انتصاركم على العدو سيكون مضموا . وفي الوقت الحاضر يجب أن لا تمهلوه ولا تتركوا له وقتا ليستريح فيه. إنكم تعلمون جيدا أن العدو ليس له قوة كبيرة، ولقد كان من السهل التغلب عليه وهزيمته لو أن الخائن ابراهيم آغا والآخرين لم ترفوا خيانتهم ضدي. ولقد كان بالإمكان أن لا يحصل العدو على طائل من وراء عمله". ثم يواصل القول " ومنذ اليوم الذي اغتبرتك واحدا من أصدقائي المخلصين فإني لا أتردد في أن أسند إليكم رعاية مصالحني وأنا واثق بأنكم ستفعلون ذلك من أجلي وبإذن الله سوف نلتقي قريبا"، كما وجد الداوي رسالة أخرى إلى مرابط بحاية محمد السعيد بن مقران يقول لـ : "إنني أرجو من صداقتكم أن تبذلوا كل ما في وسعكم لإنجاح ما كلفتمكم به وأطلب أن تتحلوا بالحزم والشجاعة وبعون الله ستكونون من المنتصرين."<sup>1</sup>

إن هذه الرسائل تدل على العلاقات الودية التي كانت تجمع الداوي حسين بالشيوخ المحليين الذين كانت تعتم عليهم السلطة في حكمها، كما تدل أيضا أن السباق كان محموما بين الداوي حسين والسلطات الفرنسية -التي كانت هي كذلك تراسل شيوخ المنطقة من أجل كسب ودها- فكل طرف كان يعمل على استمالة هذه القبائل إلى جانبه.

<sup>1</sup> جمال قنان: نصوص سياسية جزاء ... ، ص ص 27-28.



المبحث الرابع: الحملة الفرنسية على بجاية

1- الأسباب والظروف

قبل الخوض في الموضوع الحملة الفرنسية على بجاية نود أن نشير إلى أنه من الغرابة أن لا نعثر على مصدر محلي على الأقل سجل أحداث هذه الحملة مقارنة بحملة بيدرو نافارو في مطلع القرن السادس عشر، التي تالت حطها من التدوين، سواء من طرف الكتاب المحليين أو الأجانب، فرغم مضي قرابة الثلاثة قرون على ذلك، إلا أن لم نجد تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة، ورغم وجود مجموعة من العلماء في هذه الفترة اهتموا بتسجيل وتدوين أحداث تاريخية أخرى إلا أنهم على ما يبدو لم يكثرثوا لما حل ببجاية، أو انشغلوا بأحداث أخرى كالمقاومة في باليك الغرب والشرق مثلاً، أو ربما هناك من سجل هذه الأحداث ولكنها لم تصل إلينا، أو ضاعت. وحتى الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن هذه الحملة لم يشيروا في حدود علمنا إلى أي مصدر محلي اعتمدوا عليه، فهل يعود ذلك إلى غياب المصادر المحلية أو إلى اكتفائهم بالمصادر الفرنسية المتوفرة؟.

وفي ظل غياب كلي للمصادر المحلية كما قلت من قبل فقد اعتمدنا في هذا المبحث على المصادر الفرنسية، حيث تذكر هذه المصادر على أنه بلوغ خير سقوط مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين إلى مسامع سكان القبائل المحيطة ببجاية، قامت قبيلة مزاية بالهجوم على المذكورة وأصبح تحت سيطرتها، وتسببت أعمال السلب والنهب التي ارتكبها أفراد هذه القبيلة في السكان البجائيين ونقمتهم، وأمام عجز الأتراك المتواجدين فيها عن حمايتهم بسبب قلة عددهم كما مر بنا من قبل، أصبحت بجاية تحت رحمة قبيلة مزاية، أرسل سكان بجاية في طلب الحماية والنجدة من أحمد باي، الذي كان على ما يبدو ينتظر هذه الفرصة فشرع في تجهيز قوة وعزم على السير إلى بجاية ولكن رد فعله جاء متأخراً ذلك أنه في الوقت الذي توجه وفد إلى هذا الباي اتجه وفد آخر من بجاية إلى السلطات الفرنسية في مدينة الجزائر يحمل نفس المطلب.<sup>1</sup>

وتشير مصادر فرنسية أخرى أنه عقب سقوط مدينة الجزائر في 5 1830 أبحر شخص يدعى مراد يوم 3 أوت 1830 إلى المدينة المذكورة لمقابلة المر ال دو بورمون<sup>2</sup> مدعياً أنه يمثل

<sup>1</sup> Mercier : **Histoire de Constantine**, p393.

<sup>2</sup> Louis de Ghaisne de Bourmont 5 juillet 1830-12 août 1830

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلاطة

سكان بجاية، وعرض عليه ولاءه طة الفرنسية أن تعينه قائدا على بجاية، وطلب في نفس الوقت واحدة يكفي وجودها في المدينة للدلالة على الوجود الفرنسي بها، فوافق المارشال على طلبه وأعطى الأوامر لسفينة من نوع البريك بمرافقته إلى بجاية مع أمر بتعيينه قائدا على هدايا وطابع ختم ورافقه ضابط سامي ليتعرف على المنطقة، ووكيل تجاري لعقد الصفقات التجارية مع سكان المدينة، وعند وصول هذه السفينة إلى بجاية أرشدهم قائد آخر يفترض أنه مدير الميناء إلى مكان آمن للتزول على البر، بمجرد أن وطت قدما المدعو مراد الأرض حتى هاجمه السكان وقتلوه على الفور، أما السفينة فقد اضطرت إلى الانسحاب السريع تحت طلقات الأبراج والقلاع<sup>1</sup> من العودة إلى مدينة الجزائر بعدما ردت مدافعها بإطلاق عدة قذائف.<sup>2</sup> فكانت هذه إشارة واضحة للفرنسيين على أن وثيقة الاستسلام التي وقعها الادي معهم لا تعنيهم.

وهناك رواية أخرى تكشف على التفاصيل ذاتها لكنها تذكر أن شخصان قدما إلى مدينة الجزائر وعرضا على المارشال دوبرمون خدماتهما وذكر له المزايا التي تتمتع بها بجاية، شريطة أن يعين أحدهما قائدا على المدينة، والآخر قائدا على الميناء. لكن السكان أفسدوا عليهما هذه الخطة<sup>3</sup>. وبعد أيام قليلة من تلك الحادثة اغتتم أحد الكراغلة ويدعى بوسته فرصة انسحاب الحامية التركية من المدينة ونصب نفسه حاكما عليها بمساعدة عدد من رفاقه، ولكن من سوء حظه أن ظهر أحد البجائيين كمنافس له في المدينة ونازعه وحاربه بمساعدة قبيلة مزاية، ذهب المدعو بوسته هذا إلى مدينة الجزائر مدعيا أن سكان بجاية عينوه حاكما على بجاية وفوضوه بالقيام بمهمة الاتصال بهم

<sup>1</sup> كانت توجد في حصن القصبة 9 قطع مدفعية، وفي حصن عبد القادر 20 قطعة، وفي حصن موسى 4

وفي حصن الأبواق 7 قطع وفي دموس 4 قطع وكلها ذات أبعاد وعيارات مختلفة. رشيد قايد: المرجع السابق، ص 48.

<sup>2</sup> Pellessier de Reynaud: **Annales algériennes** T1, p109.

<sup>3</sup> رشيد قايد: رشيد قايد: «نضال بجاية ومنطقتها ضد الاحتلال الفرنسي» مجلة الأصالة، ع 17-18، 1973، ص 47.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

وعرض على الفرنسيين عن طريق ضابط يدعى جولي مساعدته بالتزول في ميناء بجاية والاستيلاء ولكن التجربة السابقة جعلتهم لا يعيرونه أي اهتمام.<sup>1</sup>

ويبدو أن بجاية لم تكن تشغل بال الفرنسيين في هذه المرحلة حيث لم تبد قلقها عندما استولى السكان على سفينتها وقاموا بقتل طاقمها خلال سنة 1831 وادعت السلطة الفرنسية حينها حسب ما جاء في تقرير رسمي أن حالة الطقس لم تسمح للجنرال الفرنسي بالانتقام الفوري من الجناة.<sup>2</sup> وفي السنة الموالية (1832) تعرضت سفينة فرنسية أخرى لطلقات المدفعية على يد الاضطرها إلى مغادرة المنطقة ومن المؤكد أن واجدها بالمنطقة كان لغرض التجسس.

وفي الواقع لم يكن الفرنسيون مهتمين باحتلال بجاية في هذه الفترة لأنهم كانوا متورطين في أحداث مدينة الجزائر ومقاومة منطقة المتيجة، وبالتالي لم يكونوا على استعداد لفتح جبهة جديدة للقتال، إلا أنه على ما يبدو كانت هناك عوامل ساهمت في التسريع لاحتلال بجاية،

فالعامل الأول يتمثل في التخوف من تدخل إنجلترا في المنطقة لا سيما وأنها كانت على اطلاع بالمزايا التي كانت تتوفر عليها بجاية، ومصدر قلق الفرنسيين ما تعرضت له سفينة إنجليزية رست بالقرب من ميناء بجاية 1831 من غير المستبعد أن يكون تواجدتها بالمنطقة لغرض استطلاعي،

السكان نيران مدافع قدمت الحكومة الإنجليزية على إثرها احتجاجا شديد اللهجة إلى السلطات الفرنسية عن طريق قنصلها بالجزائر جاء فيه أنه "إن عجزت السلطات الفرنسية عن فرض احترام سفن الدول الصديقة فإن إنجلترا تملك من القوة ما يجعل ما يحدث لسفينتها في بجاية لا يتكرر على الإطلاق، ففهمت الحكومة الية هذا الخطاب أنه تهديد صريح بإمكانية غزو بجاية، وفهمت أطماع الإنجليز في المنطقة فبدأت تفكر بجديّة في الاستيلاء على المدينة.<sup>3</sup>

وأما العامل الثاني الذي عجل باحتلال بجاية فيتمثل في تخوف الفرنسيين من قيام أحمد باي قسنطينة بالزحف بقواته على بجاية والاستيلاء عليها، وذلك بعد أن بلغهم خبره بأنه كان يحرض

<sup>1</sup> FR ANOM, F80/1671/1: Prise de Bône et de Bougie.

<sup>2</sup> ANOM, FR, 15MIOM/15, Article 8, Section 1, Carton 1, Trézel, 1833.

<sup>3</sup> Ch. A. Julien : **Histoire de l'Algérie contemporaine**, PUF, Paris, 1964, p103.

القبائل والأعراش على الانضمام إليه،<sup>1</sup> و أعلن أن الباب العالي عينه باشا بعد سقوط مدينة الجزائر، ومغادرة الداي حسين للإيالة، ورفض كل عروض الاستسلام التي عرضتها عليه الحكومة الفرنسية، مفضلا المقاومة والجهاد،<sup>2</sup> معتبرا نفسه الحاكم الفعلي والشرعي في الإيالة، فبعد فقدانه لميناء عنابة ( ) كمنفذ بحري ومركز تجاري حيوي التفت إلى مدينة بجاية بغية الاستيلاء عليها معتمدا في مراسلاته لكبار شيوخها ورؤساء القبائل والأعراش على سندها، بما مستخدما الأسلوب الديني في الخطاب،<sup>3</sup> حيث كان يعلن للقبائل والأعراش بمنطقة بجاية أن الباب العالي منحه لقب الباشا وأنه عازم على محاربة الفرنسيين بمساعدتهم، ويبدو أن جهوده للدعاية لقضيته، كللت بالنجاح حيث أبدى سكان المنطقة تعاطفهم وتعاونهم معه، وأعلنوا عن استعدادهم للعمل تحت أوامره، وجاء في رسالة الجنرال فوارول أن الحاج أحمد باي قمع الجيوش وسار نحو موقع سطيف وقام بتحصينه جيدا لاتخاذ قاعدة في توسعته وتقدمه ناحية زمورة بغية الإستعداد للزحف على بجاية،<sup>4</sup> جمع قواته وسار بهم صوب بجاية للاستيلاء عليها، لكنه سرعان ما غير وجهته نحو الونوغة قاصدا الزحف على المدينة،<sup>5</sup> ثم مدينة الجزائر لانتزاعها من أيدي الفرنسيين إن تلقى الدعم الكافي من طرف قبائل المنطقة.<sup>6</sup> وبناء على ما ذكر التميمي فإن أحمد باي يكون قد راسل كل القبائل يعلن لهم أنه قام بإسقاط الضرائب غير

<sup>1</sup> يعتبر الحاج أحمد باي من أشهر البايات الذين حكموا بايلك قسنطينة وأجدرهم، كما يعد مقاوم شرس للاحتلال الفرنسي، للإطلاع أكثر حل شخصية أحمد باي راجع،

Temimi: *le Beylik de ...*, op, cit.

محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي.

صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة (1823 - 1850)، د م ج، الجزائر، 1993.

بوعدة بوضرياسة: الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري - رجل دولة ومقاوم 1830-1848، دار الحكمة، الجزائر، 2004.

<sup>2</sup> كان سي حمدان خوجة هو من تكفل بالوساطة بين سلطات الاحتلال والحاج أحمد باي لمزيد من التفاصيل أنظر، Temimi: op, cit. أنظر كذلك، جمال قنان: نصوص سياسية...

<sup>3</sup> Temimi: *le Beylik de ...*, p65.

<sup>4</sup> Ibid, p130.

<sup>5</sup> أورد الأسير الأمازي سيمون بفايفر أن سكان المدينة رفضوا دفع زكاة العشور له وكان يتاجرون مع الفرنسيين، فشن عليهم حملة قوية قصد إلحاق بهم العقاب و إخضاعهم، أنظر، سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 55 .

<sup>6</sup> Temimi: Ibid, p130.

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الشرعية عنهم، وفتح باب الانخراط في صفوف جيشه أمام المقاتلين القبائليين، وكان يحرضهم على قتال الكفار، فازدادت مخاوف الفرنسيين فصدرت الأوامر من حكومة باريس إلى الجنرال تريزل Trizel لقيادة الأسطول والتحرك بسرعة لاحتلال بجاية<sup>1</sup>.

وبناء على ما أورده عبد الجليل التميمي فإن الحاج أحمد باي يكون قد بعث برسالة إلى الجنرال الفرنسي الدوق دو روفيقو<sup>2</sup> Duc de Rovigo يخبره عن استعدادة التخلي عن مدن الجزائر ووهران وبونة شريطة الاحتفاظ بباقي الموانئ وفي مقدمتها ميناء ومدينة بجاية<sup>3</sup>، والظاهر أن محاولته هذه لم تنجح، ثم حاول أن يستعمل سلاح ووسيلة أكثر فعالية تمثلت في توجيه خطاب سياسي إلى الأنجليز يحذرهم فيه بنوايا الفرنسيين في احتلال بجاية ونواحيها، وأفصح عن خطتهم في تدمير الحكم بالشرعية الإسلامية، واستبداله بالشرعية النصرانية وإراقة دماء المسلمين والتكيل بهم أحياء وأمواتا<sup>4</sup>. ويستخلص من هذا الخطاب أن الحاج أحمد باي كان يمتاز بذكاء حاد حيث أراد أن يوظف العداء التقليدي الذي كان على أشده في هذه الآونة بين فرنسا وأنجلترا،

جهة، وبدل الخطاب من جهة ثانية أن الرجل كان عارفا بالسياسة الدولية وبخباياها وبنوايا هذه الدول الاستعمارية، ومدركا للتنافس الحاد بين هذه القوى وكذا المخاطر التي كانت تحوم بالإيالة الجزائرية، فكان يستعمل كل الوسائل للحيلولة دون تمكن الف من الاستيلاء على الإيالة.

كانت أول خطوة خطاها الفرنسيون في مسعاهم للاستيلاء على بجاية هي الاتصال بالشخص المسمى بوستة المذكور عن طريق صاحبه السابق جولي قدم بوستة بنفسه إلى مدينة الجزائر على رأس مجموع من سكان بجاية تتألف من ستة أشخاص أحدهم تركي من الأعلاج قارة كان لا يزال هاربا من عقاب أحمد باي بسبب مؤامرة دبرها ضده، والثاني يدعى علي العجوز، والثالث يدعى المدني والرابع شخص يشتغل في تجارة الزيت والشخص الخ كان

<sup>1</sup> Temimi: Ibid, p66.

<sup>2</sup> هو الجنرال آن جين ماري روني سافاري. le général Anne Jean Marie René Savary (1774-1833) عينه نابليون بوناپرت دوق على مدينة روفيقو الإيطالية duc de Rovigo في 1808/2/7، وعين كقائد اعلى للجيش الفرنسي في الجزائر من 1831/12/6 إلى 1833/04/29.

<sup>3</sup> Temimi : op, cit, p243.

<sup>4</sup> Temimi : **Requête de Constantine...**, p137.

رايس فلوكة، والسادس يهودي يدعى ابراهام زرداب، وطلب هؤلاء مقابلة الحاكم العام فوارول (Voirol)<sup>1</sup> وكانوا يحملون رسالة مزورة تحمل توقيع قاضي المدينة<sup>2</sup>، وبعض سكان المدينة وتتضمن الرسالة شكوى ضد سكان قبيلة مزاية، والقبائل المنضوية تحت لوائها، وبناء على الشكوى فإنهم يطلبون من الفرنسيين التدخل لحمايتهم، وأبدت هذه المجموعة استعدادها التام للمساعدات للفرنسيين لتمكينهم من دخول المدينة، ويبدو أن الجنرال فوارول قد أعجبه هذا العرض المغربي، حيث وافق عليه وأرسل القائد لامورسيير la Moricière على رأس قوة عسكرية على سفينة لا زير la Zèbre ورافقه المدعو بوسته، ف وصلت هذه السفينة إلى بجاية، كان السكان يحرسون المدينة من الأبراج والقلاع مع الحامية التركية، فانتظروا بوسته حتى اقترب من منزله هاجمه السكان وأضرموا النار في منزله ونجا ه ومن كان معه من الجنود الفرنسيين من الموت بينما بقي القائد لامورسيير وجنوده في البحر، حيث ظل في انتظار أن يرحب به السكان ، ثم اضطر إلى المغادرة بعد أن يعس من الانتظار وعاد إلى مدينة الجزائر<sup>3</sup>. وهكذا أجهض السكان المحاولة الأولى للاستيلاء على المدينة من طرف القوات الفرنسية.

## 2- الاحتلال ورد فعل السكان:

وعلى أية حال اجتمعت العوامل والظروف المسالفة الذكر لتنفيذ خطة التحرك السريع نحو بجاية فانطلق الأسطول الحربي حسب ما ورد في تقرير فرنسي من ميناء طولون في اتجاه بجاية بقيادة الجنرال تريزل يوم 22 سبتمبر 1833 وكان يتألف من فرقاطة النصر و سبع سفن حربية وثمانية تجارية تحمل على متنها 1800 جندي وضابط، تتألف من جنود البحرية والقوات البرية وقد سخرت السلطات الفرنسية كل الإمكانيات لإنجاح الحملة، وكشفت التقارير الأمنية أن الاستيلاء على بجاية سيكون سهلاً.

<sup>1</sup> هو ثيوفيل فوارول (Théophile Voirol) حكم الجزائر من 29 أبريل 1833 إلى 27 .1834

<sup>2</sup> سلم ابن القاضي خاتم والده إلى بوسته بعد أن قدم له مبلغ من المال.

<sup>3</sup> رشيد قايد: المرجع السابق، ص48.

وفي يوم 29 سبتمبر 1833 على الساعة الرابعة صباحا وصل الأسطول إلى ميناء رأس الفحم (كاب كربون) ولما اقتربت السفن من ميناء بجاية كان السكان على أهبة الاستعداد لمواجهةها حيث وصلت أخبارها إلى مسامعهم رغم السرية التامة التي أحيطت بها، فكانوا متحصنين في مواقعهم في حصن عبد القادر وحصن الأبواق وحصن بوليلة وحصن سيدي موسى، وكانت الحامية التركية التي كانت تتألف من 60 ديا ترد على المدفعية الفرنسية من هذه الحصون بمساعدة السكان محاولة منعها من الإنزال على الساحل، ولكن يبدو أن تلك الطلقات لم تكن مجدية إذ لم تمنع القوات الفرنسية من الإنزال كما أن المدفعية البحرية الفرنسية كانت تغطي عمليات الإنزال وطلقات السكان كانت قصيرة.<sup>1</sup>

وكانت خطة الفرنسيين بعد الإنزال وجر المدافع تقضي بالاستيلاء على الأبراج والحصون وكل المراكز الاستراتيجية والحيوية يمكن للسيطرة على المدينة وإفشال حركة المقاومة<sup>2</sup> فتمكنوا بفضل تفوق عدتهم من الاستيلاء على حصن عبد القادر القريب من البحر ثم حصن موسى والقصبة، حيث كان القصف عنيف بواسطة البوارج، وفي الفترة الممتدة من الساعة الرابعة إلى العاشرة من نفس اليوم لم يتوقف القصف حيث تم إطلاق أزيد من ألفين طلقة مدفع. مما أجبر السكان على الانسحاب إلى السهول المحيطة بالمدينة من جهة الشرق، واختبأوا في البيوت والشوارع، وفي مساء يوم 29 سبتمبر كانت كل الأماكن الاستراتيجية تحت سيطرة الفرنسيين.<sup>3</sup>

وإذا كانت القوات الفرنسية قد استولت على الحصون والأبراج بفضل مدفعتها الثقيلة فإنها واجهت مقاومة شرسة في حرب الشوارع والأزقة، فلم يجد الفرنسيون في سيطرتهم على المدينة السهولة التي كانوا يزعمون<sup>4</sup> وهذا ما يؤكد تقرير النقيب المذكور وأجبر الجنود الفرنسيين على التزام المنازل والحدائق حتى لا يكونوا عرضة لطلقات المقاومة، التي كبدتهم في حصيلة أولية حسب التقرير الفرنسي أكثر من عشرين قتيل ولخمسين جريح.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> S.H.A.T, Article8, Section1, Carton1, n°3, **Bougie**, Rapports du colonel Lemercier.

<sup>2</sup> Cornulier-Lucinière, Raoul de: **La Prise de Bône et Bougie** : d'après des documents inédits, Corbeil, Imp, Créte, Paris, 1895, p312.

<sup>3</sup> FR ANOM, F80/1671/1: **Prise de Bone et de Bougie....**

<sup>4</sup> Daumas: op, cit, pp424-425.

<sup>5</sup> Cornulier-Lucinière: Ibid, p312.

وفي يوم 30 سبتمبر نزل الجنرال تريزل إلى شوارع المدينة شخصيا ليتفقد الأوضاع وأعطى الأوامر في الحال بتعزيز التحصينات والقلاع لأن السكان كانوا متمركزين خلف أسوار المدينة في حصن قاموا بتشييده على عجل، وفي يوم 1 أكتوبر 1833 باغت المقاومون المواقع الفرنسية الضعيفة وألقوا بها خسائر كبيرة،<sup>1</sup> وعلى الرغم من تفوق الفرنسيين وسيطرتهم على المواقع الحصينة إلا أن السكان رفضوا الاستسلام واستمروا في مهاجمتهم رغم الخسائر التي تكبدوها والتي بلغت 200 قتيل ومثله من الجرحى. وأهم القبائل التي تصدت للحملة الفرنسية قبيلة مزاية الشرسة، توجة بني سماعيل قبوش أولاد مزالي وفناية وباكورن، وكانت الخسائر الفرنسية حسب دوماس ستة قتلى بينهم ثلاثة ضباط وثلاثة وأربعين جريحاً، وأصيب الجنرال تريزل في ركبته لكن إصابته كانت خفيفة.<sup>2</sup>

وقد دافع السكان عن مدينتهم ببسالة كبيرة، رغم قلة عددهم الذي كان كان يتراوح بين ألف وخمسمائة وألفين مقاتل كانوا يطلقون المدافع من البرج الأحمر الذي لم يهزمه الفرنسيون من السيطرة عليه إلا بصعوبة، ونتيجة للتفوق في العدة والعتاد الفرنسيون الاستيلاء على المدينة.<sup>3</sup> ولكي يحتمي الجنود الفرنسيون من هجمات القبائل كان عليهم بناء الحصون والأبراج وتعزيز دفاعاتهم، فقاموا من أجل ذلك بتهدم المنازل والمؤسسات الدينية والثقافية لاستخدام الحجارة للبناء، كما استخدموا أحشاب المنشآت السابقة كوقود مما أدى إلى تخریب المدينة التي باتت مدينة للأشباح. بقى من البنايات القديمة قائما سوى ستة أحياء<sup>4</sup>. وهذا ما أكده الجنرال تريزل في قوله أنه دخل بجاية بعد سقوطها في أيدي قواته خراب أتت النيران على جزء كبير منها.<sup>5</sup> ووجب التذكير أن معظم السكان غادروا المدينة بعدما تمكن الفرنسيون من إنزال قواتهم، فحل محلهم المقاومون الذين حوا من قبائل مزاية وبني وغليس وتامزالت وفناية وتوج للدفاع عن المدينة وصد الحملة الفرنسية.

<sup>1</sup> Daumas: op, cit, pp424-425.

<sup>2</sup> Cornulier-Lucinière, Raoul de : op, cit, p294.

<sup>3</sup> Daumas : op, cit, pp426-427.

<sup>4</sup> Naima Mahindad Abderrahim : op, cit, p59.

<sup>5</sup> Le général Trézel, cité par Ch. Feraud : **Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie-** Constantine, L. Arnolet 1869, p 247.



وكشف تقرير آخر أن عملية التوسع العسكري في بجاية ستكون في غاية الأهمية ومحفوفة  
بخطورة بسبب الروح العدائية للسكان المتحصنين في الجبال المنيعه، ولتحقيق الاستقرار  
والحرص على عدم الدخول في مواجهات دموية وجاء في التقرير أنه على الحكومة إذا أرادت  
جلب السكان عليها بتفعيل ميناء نشاط الميناء، والإسراع في توفير الأمن لكسب ثقتهم وعدم التعرض  
لهم أي نشاط اقتصادي بدون السكان محكوم عليه بالفشل لا محالة.<sup>1</sup>

وبالرغم من تمكن الفرنسيين من الاستيلاء على بجاية بقوة السلاح، إلا أن القبائل المحيطة  
فرضت عليهم حصاراً خانقاً بتحريض من المرابطين<sup>2</sup>، لم يستطيعوا الفكك منه بسهولة، أعاد هذا  
الحصار إلى الأذهان حصار الإسبان في مطلع القرن السادس عشر، ومما لا شك فيه أن حثالة بجاية قد  
أضر كثيراً بمصالح القبائل المحيطة، مما جعلها لا تقوى على الاستمرار في الصمود والمقاومة وأعلنت  
خضوعها، فتحولت بجاية حينئذ إلى سوق من أكبر الأسواق على مستوى إيالة الجزائر في تجارة الزيت  
والتين المحفف على الخصوص.<sup>3</sup>

وبخصوص مصير الأتراك الذين كانوا يشكلون حامية بجاية غداة سقوط مدينة الجزائر في يد  
الفرنسي لا توجد بين أيدينا معلومات كافية حول الموضوع بسبب سكوت المصادر أو غيابها، فهل  
انتقل أفراد هذه الحامية إلى مدينة الجزائر ومن ثمة سافروا مع الأتراك إلى بلادهم بالأناضول؟ أم أنهم  
اندمجوا في وسط السكان يظل الاحتمال اثنان وارد في اعتقادنا بدليل وجود أسر تنتسب إلى  
الكراغلة مازالت متواجدة في مدينة بجاية إلى الآن كعائلة كرمال وبوستة وغيرها. وهذا ما يؤكد  
الفرنسي الذي أورد أن الجنود الأتراك في بجاية دخلوا تحت خدمة الجيش الفرنسي وكان  
عددهم إجمالاً في بجاية ووهران حوالي 250.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> F80/1671/1:Rapport de Mr le compte Derlon à Mr le gouverneur général de possessions françaises dans le Nord de l'Afrique, daté d'Alger le 1 Avril 1835, pp 22-23

<sup>2</sup> FR ANOM : BB<sup>7</sup>-8 : affaires étrangères n° : 09, Projet de compagnie Royale d'exploitation agricole et commercial d'Algérie, par Iluleil – 1830- 1831.

<sup>3</sup> Berbrugger: op, cit, p31.

<sup>4</sup> FR ANOM : F/80/1671/1

وكانت قبيلة أولاد عبد الجبار بناء على التقارير الفرنسية في مقدمة القبائل التي هبت للدفاع عن بجاية، بزعامة كبيرها سي ساعد أورابح الذي يبدو أنه كان شخصية نافذة في محيط بجاية بدون منازع، كما ورد في تلك التقارير، مما جعل الفرنسيين يسعون جاهدين إلى التقرب منه وإسناد قيادة بجاية له، وتنصيب حامية من الجنود الأتراك والانسحاب منها الاستفادة من نفوذه وسلطته قبائل المنطقة، ويذكر فيرو أن الفرنسيين لهم أنهم تسرعوا باحتلالهم بجاية ذلك أنهم جعلوا ذات 4 آلاف جندي في حالة شلل تام حيث ظلت حبيسة أسوار المدينة لمدة زمنية طويلة، فلم يستفيدوا من موقع بجاية كما كانوا يأملون.<sup>1</sup>

والظاهر أن فيرو محق في كلامه حيث أشار جوليان إلى أن الجنرال فوارول Voiron لم يكن حلال بجاية بسبب صعوبة التضاريس وحصانة المنطقة، لكن الجنرال تريزل والضابط وريسيير كانا مصران على الاستيلاء ع<sup>2</sup>. و يفهم من خلال ما جاء في تقرير من الحاكم العام إلى الملك الفرنسي أن الجنرال تريزل تعرض للانتقادات لاذعة في الدوائر الفرنسية في باريس بسبب الحملة على بجاية، حيث تضمن هذا التقرير رد تريزل الانتقادات أين دافع عن الاحتلال ووصفها بالناجحة بالنظر للنتائج الملموسة التي تحققت بفضل التمكن من السيطرة على بجاية، ومن المزايا التي ذكرها أن السيطرة على بجاية أحدث شرحا في علاقة بعض القبائل التي كانت موالية للباي أحمد،<sup>3</sup> وكذلك قطع الطريق على هذا الأخير في تنفيذته في الاستيلاء على هذه المدينة بعد فقدانه موانئ هامة في بايلك الشرق الجزائري لاسيما في عنابة وسكيكدة، وكذا قطع الطريق أمام أية قوة خارجية لتقوم بخطوة للاستيلاء عا (إشارة إلى إنجلترا) علاوة على المزايا الاقتصادية التي تطرحها المنطقة ومينائها الاستراتيجي الذي يربط بين بونة في الشرق وميناء مدينة الجزائر في الغرب.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Féraud : «Histoire des villes...», p298.

<sup>2</sup> Charles André Julien: **Histoire d'Algérie...**, p103.

<sup>3</sup> Daumas : op, cit, p79.

<sup>4</sup> F80/ 1671/1: Rapports au Roi sur l'organisation du gouvernement et de l'administration des concessions françaises dans l'Afrique du Nord, juin 1834.F80/1671/1pp.19-20.

وكان من النتائج الأولية للاحتلال الفرنسي لبحاية هجرة عدد كبير من سكانها إلى المناطق المجاورة ومنهم من اتجه نحو تونس، والنتيجة الثانية تمثلت في الحصار الخانق الذي فرضته القبائل الجبلية المحيطة بالمدينة على العساكر الفرنسيين الذين اضطروا إلى الاحتماء داخل أسوار المدينة التي يبدو أنهم باتوا عاجزين عن الدفاع عنها كما سبق للإسبان أن فعلوا فاضطروا إلى بناء سور آخر داخل السور القديم مما تسبب في خراب المدينة مجدداً لأنهم استعملوا حجارة بيوت ومساجد قاموا بتهدمها مرة أخرى لذات الغرض فكانت النتيجة دفع السكان الذين كانوا داخل السور القديم إلى الهجرة نحو المناطق الجبلية والهضاب العليا لحماية لأنفسهم وصيانة لأعراضهم وممتلكاتهم<sup>1</sup>.

وبخصوص ردة فعل سكان بحاية وقبائلها اتجاه الحملة الفرنسية تعترف المصادر الفرنسية بأن الجيش الفرنسي لقي مقاومة شرسة على يد السكان الذين انحدروا من الجبال من كل الجهات للدفاع عن بحاية، وبناء على أحد التقارير الفرنسية فإن المقاومين رغم افتقارهم إلى الأسلحة لم يتوقفوا عن القتال ولم يستسلموا بالسهولة التي كان يتوقعها الفرنسيون، بالنظر إلى ضعفهم في العدد والعدة، فكانوا يحاربون بشجاعة وبأسلوب حرب الشوارع حيث كانوا يتحصنون في البيوت والبساتين والحدائق واتخذوها حصوناً. ولم يتمكن جيش الحملة من الاستيلاء على بحاية حتى تم الاستنجاد بقوات إضافية من مدينة الجزائر.<sup>2</sup>

والظاهر أن جهود الفرنسيين في محاولة نسج علاقات مع أبرز شيوخ المنطقة قد كللت بالنجاح، حيث تمكنوا من توقيع اتفاقية سلم مع الشيخ أورابح في 9 أبريل 1835 بنودها على أن القبائل الجبلية المحيطة لها الحق في بيع مواشيهم والتزود واقتناء حاجاتهم من أسواق بحاية، ونص كذلك على تحالف الشيخ أورابح مع الفرنسيين والوقوف إلى جانبهم في قمع الثورات وإحضاع القبائل المقاومة، الشيخ أورابح لم يكن يستسغ هذا البند راضياً على ما يبدو فالتمس

<sup>1</sup> Gaid: *Histoire de Bejaia...*, p73.

<sup>2</sup> لمزيد من التفاصيل حول الحملة الفرنسية على بحاية ومقاومة سكان القبائل المحيطة راجع:

## الفصل الرابع: -----علاقة السكان بالسلسلة

الأعداء من السلطات الفرنسية لإلغاء.<sup>1</sup> لكن الفرنسيين لم ينعموا بالسلم طويلا، إذ ما لبث أن توفي الشيخ أورايح بعد أشهر قليلة، فخلفه أخوه أمزيان الذي أعلن الحرب على الفرنسيين، ولم ي القائد الأعلى للقوات سولومون Solomon من التوصل إلى هدنة إلا بصعوبة كبيرة.<sup>2</sup>

والأمر المؤكد الذي يجب التذكير به في الأخير إلى أن الفرنسيين لم ينعموا بالسلم والأمن في بجاية ومناطقها حتى يوم 2 نوفمبر 1846 تقدم 24 من شيوخ قبيلة مزاية إلى القائد الفرنسي عارضين عليه الاستسلام والخضوع معربين عن استعدادهم لدفع الضرائب عن كل الأراضي التي يملكونها، والتحالف مع القوات الفرنسية لمواجة الأخطار الخارجية، والتعاون لضمان أمن الاتصالات مع بجاية، و لحراسة ومراقبة سهل بجاية.<sup>3</sup>

يمكن الاستنتاج في آخر هذا الفصل أن قبول بعض الأسر التعامل مع الفرنسيين يعود بالأساس إلى الأضرار التي لحقت بتجارهم، مما أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي، لا سيما بعد الحصار البحري الذي فرضته فرنسا على الجزائر، من 1827. ومن الممكن أن تكون سياسة السلطة العثمانية في الفترة الأخيرة قد ساهمت في كثرة حركات التمرد والعصيان في هذه المنطقة.

<sup>1</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p271.

<sup>2</sup> Péllissier de Reynaud: op, cit, p54.

<sup>3</sup> Féraud : « Histoire des villes... », p350-351.

من خلال فصول البحث يمكن تسجيل النتائج التالية:

كانت بجاية حاضرة المغرب الأوسط تشد إليها الرحال وحققت الازدهار والرفي، لكن تعرضها للاحتلال الإسباني أدى إلى أفول نجمها، لتفسح المجال أمام مدن أخرى للرفي كمدينة الجزائر وقسنطينة وغيرها. نستنتج من خلال ما استعرضناه في الفصل الأول أن ا بجاية الحضارية والاقتصادية والسياسية يعود أساسا إلى الخراب الذي حل بها على يد الإسبان. كما نستنتج أن الرحالين الأوروبيين لا يشيرون إلى أن خراب المدينة وتراجع مكانتها كان بسبب الاحتلال الإسباني، بل أن بعضهم مثل الرحالة الفرنسي أندري بيسونال الذي زارها 1136 / 1725م يرجع سبب خرابه إلى الأتراك الذين قال أنهم لا يقومون بأي إصلاح أي شيء.

وقد لعب سكان بجاية ونواحيها دورا تاريخيا في التحول الذي عرفته الجزائر خلال العصر الحديث وذلك من لال اتصالحهم بالإخوة بربروس فكانوا السبب والمهد لإلحاق الجزائر بالباب العالي وما تبع ذلك من تحولات على جميع الأصعدة. كما لعب هؤلاء السكان دورا فعلا في محاربة العدو الإسباني وطرده من السواحل الجزائرية، وهو يدل على دينهم وعرضهم، وإدراكهم بالخطر المسيحي، وكذا إحساسهم بغياب سلطة فعلية يمكنها حمايتهم جعلهم يلتفون حول مرابطيهم وعلمائهم لتولي مهمة الجهاد. وقد لعب المهاجرون الأندلسيون بلا شك دورهم في التحذير من الوقوع تحت سيطرة الإسبان، مما زاد من كراهيتهم وحقدهم، وإدراكهم بالخطر الحقيقي المحدق.

على الرغم من تحريرها على يد الأتراك العثمانيين بعد 45 سنة من الدمار والتخريب، إلا أنها لم تتمكن من استعادة مجدها القديم، يعود السبب في اعتقادنا إلى روح الاستقلال التي كان يتمتع بها سكان المنطقة من جهة، وتمك الإخوة بربروس من الاستيلاء على مدينة الجزائر وتفضيلها على بجاية، وجعلها مقرا لحكم دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن ورغم تحرير بجاية على يد الأتراك فإنها لم تتمكن من استرجاع مكانتها ومجدها ولو نالت هذه المدينة حظها من اهتمام الحكام العثمانيين لتغير مصيرها ولأصبحت مدينة ذات شأن عظيم.

إن استنجد سكان المنطقة بالإخوة بربروس يعبر بعمق عن الرابطة الدينية القوية التي كانت تجمعهم بهم من جهة، كما يعد من أبرز مظاهر روح التضامن الإسلامي، وشعور الإخوة بربروس بثقل المسؤولية التي كانت على عاتقهم باعتبارهم يمثلون قوة جهادية ضد الغزاة المسيحيين من جهة ثانية.

الدور الأساسي الذي لعبه المرابطون، من أصحاب الطرق الصوفية، وشيوخ الزوايا، في ترسيخ الحكم العثماني في الإيالة عامة، وفي طقة بجاية ونواحيها خاصة، كما لعبوا الدور الفعال في حفظ الهدوء والاستقرار، وفرض النظام طوال فترة التواجد العثماني.

و أعطى انتزاع بجاية للسلطة العثمانية في الجزائر قوة وعزيمة لمواصلة تحرير كامل السواحل، عاد بالفائدة الاقتصادية عليها وعلى سكان المنطقة الغنية بإنتاجها وبخيراتها الطبيعية، ونستنتج كذلك أن التزعة الاستقلالية وشراسة سكان المنطقة، ساهم إلى حد بعيد في جعل السلطة تفضل مدينة الجزائر على هذه المدينة في جعلها عاصمة ومقر للحكم المركزي، ر المؤهلات التي كانت تتوفر عليها، كما وجدت حكومة الإيالة في ميناء بجاية الملاذ الآمن للأسطول البحري خلال موسم الشتاء حيث يكون نشاط القرصنة في راحة.

ونسجل عدم مخاطرة السلطة العثمانية بالتوغل أكثر في عمق المنطقة بسبب عداة السكان لأية سلطة أجنبية من جهة، وتحصنهم في الجبال الوعرة من جهة أخرى، مما جعل السلطة تلجأ إلى الاستعانة بالمرابطين والشيوخ الدينيين الذين كان لهم نفوذ وتأثير كبيرين على السكان، وذلك مقابل ذلك بامتيازات كبيرة. اعتمد السكان على أنفسهم في جميع مجالات الحياة، من تعليم ونشاط فلاحي وصناعي وتجاري، كما اعتمدوا على التنظيم الإداري الخاص بهم والذي يمثل نظام الجماعة جوهره، والذي أقره الأتراك العثمانيون، ولعل هذا من محاسن وجودهم في الإيالة الجزائرية (أي أنهم حافظوا على بعض خصوصيات السكان التي وجدوهم عليها). وستخلص كذلك أن سكان بجاية ومنطقتها كانوا يتميزون بالنشاط والحيوية وتنوع الحرف على الرغم من المنطقة الوعرة التي تمركزوا فيها، إلا أن ذلك شكل بالنسبة لهم حافزا قويا للتأقلم مع الطبيعة وتسخيرها قدر الإمكان لخدمتهم، فقد ساهمت المنطقة في تزويد الإيالة بمختلف المنتجات

الفلاحية أو الصناعية، وتعد مصلحة الكراست نموذج للتعاون المصلحي الذي جمع لسكان بالسلطة، فقد لعبت غابات المنطقة دورا في قوة الترسانة الحربية للإيالة، فساهمت المنطقة في المكانة التي حظيت بها الجزائر على الصعيد الدولي، من خلال الأسطول الذي فرض هيمنته على البحر المتوسط طوال فترة ناهزت الثلاثة قرون من الزمن، حيث كانت السلطة تجلب الأخشاب من غابات بجاية وجيجل.

وعلى الرغم من تراجع مكانتها خلال العهد العثماني إلا أنها ظلت تحتفظ بقيمتها الثقافية والعلمية حيث كانت عامرة بالزوايا والمساجد والمدارس وأضرحة الأولياء وظلت بالنسبة للسكان العاصمة الاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية، وكانت مقدسة بالنسبة لهم.

أستطاع الحكام العثمانيون فرض سيطرتهم غير المباشرة على المنطقة عن طريق التحالف والتعاون الأسر المرابطية والأسر الكبيرة المتنفذة ذات النفوذ القوي حيث لعبت هذه الأسر دور الوسيط بين السكان والسلطة، وحظيت بالامتيازات وبالاحترام والتقدير من طرف السلطة، وذلك مقابل الخدمات الجليلة التي كانت تقدمها، فلولا نفوذ هذه الأسر والشخصيات المرابطية، لعانت السلطة من تمرد وعصيان سكان هذه المناطق الحصينة، كما يمكن الاستنتاج أن حاجة السلطة الماسة لخدمة هذه الفئة جعلتها تطمئن لها، وتعتمد عليها في المحافظة على تبعية السكان، ولا سيما الحرص على مراقبة الطرق والمسالك والدروب، التي كان يسلكها الجيش، وذلك من خلال عناية المرابطين وحماية الأسر المتنفذة.

تميزت علاقة سكان بجاية ونواحيها بالسلطة بالتوتر في أواخر العهد العثماني ، شأنها شأن كثير من المناطق، نتيجة الظروف العصيبة التي كانت تمر بها السلطة والتي شكلت العامل المشترك بين السكان، منها شح موارد القرصنة بسبب بداية احتلال التوازن في القوى بين العثمانيين والأوروبيين، ومن ثمة اتجت أنظار السلطة نحو الداخل، لا لدفع وتيرة التنمية والسعي لتطوير القطاعات الاقتصادية كبديل عن القرصنة البحرية، ولكن لفرض مزيد من الضرائب المتنوعة على السكان، مما أثقل كاهلهم، ضف إلى ذلك تدهور الوضع الصحي في الآونة الأخيرة

عض الأوبئة والأمراض والجفاف وغيرها مما كان يدفع بالسكان إلى التمرد والقيام بالثورات تعبيرا عن نقيمتهم وسخطهم على السلطة.

وكان للنفوذ الكبير الذي حصل عليه اليهود في الإيالة بصفة عامة، وفي بجاية الخصوص، كان له دور في اهتزاز ثقة السكان في السلطة، وخاصة لما انتزعت هذه الأخيرة مصلحة الكراست من شيوخ ومرابطي المنطقة ومنحتها لليهودي بكري-، مما ساهم في التوتر الذي حصل بين سكان هذه المناطق والسلطة حيث كثرت حركات التمرد والعصيان والثورات.

تميزت العلاقات بين سكان منطقة بجاية والسلطة بالتوتر، عشية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر، إلا أن سكان المنطقة هبوا جميعا للدفاع عن مدينتهم لما علموا بقدوم الحملة الفرنسية في خريف 1833م، حيث واجه الفرنسيون مقاومة عنيفة وشجاعة، لكن التفوق الفرنسي في مجال التسليح والتنظيم أفضل المقاومة لتسقط بجاية في يد الفرنسيين الذين ظلوا حبيسي أسوار المدينة لمدة طويلة من الزمن بسبب الحصار الذي ضرب عليهم على يد قبائل المنطقة.

أدى استيلاء الفرنسيين على ميناء بجاية، إلى شلل الحركة الاقتصادية في المنطقة، مما نتج عنه ركود هذا النشاط، وما تبعه توقف النشاط التجاري والحرفي والفلاحي والتعليمي والثقافي، فانتشر الخراب والدمار، وساد اليأس وانتشر البؤس والحرمان، مما جعل بعض السكان والأسر تضطر إلى التعامل مع الفرنسيين، بعد حصار طويل، يبدو أن السكان كان لديهم آمال في إمكانية استرجاع بجاية، وهذا ما لمسناه من رسائل الداوي حسين ووعود الحاج أحمد باي، لكن الأوضاع كانت تزداد سوءا، ولا من مغيث، فالتعاون مع الفرنسيين لم يكن خيارا بل كان حتمية اقتضتها الظروف القاسية التي أصبح يعيشها السكان.

هذه بعض النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث الذي يبقى مجال البحث في لدراسات قادمة قد تكمله.



# الملاحق

جمعية الأمد عبد القادر للطب الإسلامي

ملحق رقم 01

باب البحر



سلسلة الفن والثقافة، بجاية، عدد خاص، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1975.

ملحق رقم 02

إحدى بوابات سور بجاية القديم (الباب الفوقة)



أخذت الصورة من طرف صاحب البحث في ماي 2012

ملحق رقم 03

برج موسى أو (حصن الإمبراطور)



أخذت الصورة من طرف الباحث بتاريخ جوان 2012.

ملحق 04

مدخل القصبة



أخذت الصورة من طرف الباحث بتاريخ جوان 2012.

ملحق 05

أحد جدران القصبية



أخذت الصورة من طرف الباحث بتاريخ جوان 2012.

شهادة تحمل امتياز منحه علي باشا إلى أحمد المكي ابن محمد أمقران بتاريخ 1128هـ (1717)

الحمد لله وحده

ليعلم من يفق على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضع الجسيم  
من الفواد والعمال والنخاص والعام وجميع المتصرفين في الاحوال  
خصوصاً فرية جيبل اما بعد فان حامله المعظم للاجل السيد  
الحاج احمد المكي نجبل الفطرب سيدي محمد امقران نبعنا الله  
ببركاته امين انعمنا عليه وقدمناه مرايط بفسرية جيبل... ولا  
يتعدى عليه احد من اهل النوبة ولا من يسكن عليه حرمة  
لا اغمه النوبة ولا غيره من سكان فرية جيبل من العسكر هذا  
كله حرمة مناره ولوفوفه مع النوبة في اتيان الاراف ولوجه  
جده المذكور ولطعامه للفقراء. والمسكين كتب عن اذن المعظم  
الاربع مولانا الدولاتلي السيد علي باشا اوسط شوال عام 1128

37

اجتمع الواجب على هذا الامن القويم والخطاب الواضح الجسيم التام  
 اية العلي شأنه وفداه من الفواد والعمارة اولادنا البيلار والحكام  
 والخاص والعام وجميع المنتصرين في الاعمال وسائر الاحكام بلادنا  
 الجزاير العلية بالله تعالى من سوا الدواير وسائر عيالاتها خصوصا  
 بلاد بجاية بسدد الله الجميع ووبق الكمل الصالح القول وحسن  
 الصنيع اما بعد فان حامله المسمى والاخي السيد مصعب ولد  
 المرحوم السيد احمد فايد كان فرعا انجمننا عليه وولناه فايدا على  
 محرم سنة بجاية حائما فيمنع منه ما يجمع امورهم وكافة شئونهم  
 بحيث لا يتصرف فيهم احد سواه ولا يتجر جارا في جميع امورهم وكافة  
 شئوننا على حسب العادة القديمة والخرى في الصلابة المشهورة عادة  
 المنفذ من امثاله مع كونه متبعاً للشرعية الجديدة على اهلها افضل  
 الصلاة وازكى التسمية وفد او صيغته بحقه واحترامه ورعيته  
 والارامه وحفظ السنن جباية بحيث لا تدفند له حرمة ولا يتفكح  
 له جناب ولا يصله احد باذنه ولا يكره ولا يفاخر بنا بفخامته غير  
 ولا لاحد اليه من سبيل بوجه ولا حال كما انجمننا عليه ايضا بقيادة  
 الكراسية وهو المتولى فعلها وارها على يديه وتلك انجمننا  
 عليه بقيادة الزيت وهي على نكته وتلك اهل المرسد وهو الفطيان  
 وهو المنصرم فيها وهو لا يتصرف فيها هو المنصرم فيها وعلى  
 نكته دور غيرك ولا يتصرف فيها احد سواه مع الحرمة الكاملة والبركة  
 الضامنة انعاماتنا ما شاءنا ملا عاماً بحسب الواجب عليه ان يعمل  
 لنا فيه ولا يتعداه ومن تعد الحد فقد استوجب الحد والله التوفيق  
 للصواب والبه المرجع والباب لا ريب غيرك ولا معمود سواه  
 والارث لله وهو حسي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي  
 العظيم والسلم وكتب عماد المعظم الامجد مولانا الدواني السيد  
 محمد باشا ايداه الله تحمداً واولادنا في الاولى

المصدر: 15MI-MIOM/25



ليعلم من يقف على هذا الامر الكرم والخطاب الواضح الجسيم الناقد امره  
 العلي شأنه وقد ذكر في القواعد والحكايا الخاص والعام وجميع المتعربين  
 في الاحوال وسائر الامتاع ببلد بجاية تسمه الله الجميع ووقف الكل الى  
 صالح القول وحسن الصنيع اما بعد فان حامله المكنى والاجل امره عمي  
 المير المير التال كتاب الله عز وجل العالم الامير ايضا السيد محمد بن السيد  
 الحسين قد انعمنا عليه وولينا فاضيا ورضيا وثقة محضيا ببلد بجاية  
 يحكم بين الناس فيما لهم وعليهم سال كتابه ذلك احسن المسالك ما حكما  
 بالمشهور من مذهب الامام مالك وليأخذ المظلول حقه من الظالم  
 بحيث لا يأخذ في الله لومة لائم مع حرمة واحترامه ورعيه وان الله  
 وجعل السنن جنابه بحيث لا تفتك له حرمة ولا يهضم له جناب  
 ولا يصله احد باذنيه ولا يهز ولا يفسر بما يفسر به غيره ولا لا عهد  
 اليه من سبيل بوجه ولا حال انعاما تاما وتفديا شاملا عاما مع الحرمة  
 الكاملة والجمرة الشاملة بحسب الوافد عليه ان يعمل بما فيه ولا  
 يتعداه ومن تعد الحد فقد استوجب الحد والله الموفق للصواب  
 واليه المرجع والمآب والسلام وكتب عن اخي المعظم الامير محمد  
 مولانا الامير ولا تله السيد محمد باشا ايداه الله او اخر رمضان سنة

تعيين قاضي مالكي في بجاية (1807)

ليعلم من يرفع علم هذا الامر الكريم والخطاب الواضح الجسيم  
 التاجدة امة العلي شانه وفدركه من العلماء والعمال والحكام  
 والخام والعام وجميع المتصرفين في الاحوال من جميع  
 الاحكام ببلدنا الجزائر المحمية بالله تعالى وسائر كما لتفهم  
 خصوصاً في وسنة بجاية سدد بالله الجميع ووقف  
 الكل الى صالح الفوا وحسن الصنيع اما بعد فان حامله  
 العظم الاجل المرعي المجل العالم الافضل السيد الحسين  
 بن السيد محمد قد انعمنا عليه ووليناها فاضيا من رضا  
 وثقة محضاً في البلد المذكور بفصل المحصرات الثانية  
 هناك بمذهب الامام مالك سالكاً في ذلك احسن  
 الخ وفو المسالك يتتبع للمخلوع من العالم ولا تأخذ  
 في خوف الله لومة لايم جارياً في احواله عادة السادات  
 الفضاة امثاله من غير معرفة بذلك ولا منازع ولا  
 مخالف ولا مدافع مع حرمة واحترامه ورعيه واكرامه  
 ومجده السنني جنابه بحيث لا تفتك له حرمة ولا يهظم  
 له جناب ولا يصله احد باذابة ولا بظروقه ولا يقاسم بما يقاس  
 به غيرك ولا احد اليه من سبيل بوجه ولا حال انعام تاماً  
 مباركاً شاملاً عاماً بحسب الوافق عليه ان يعمل بما فيه  
 والسلك وكتب عن ابي المعز الا بامر الامجد الذي ولا تله  
 السيد احمد باشا ايده الله بتاريخ اوائل جماد الثانية  
 ١٢٢٢ هـ

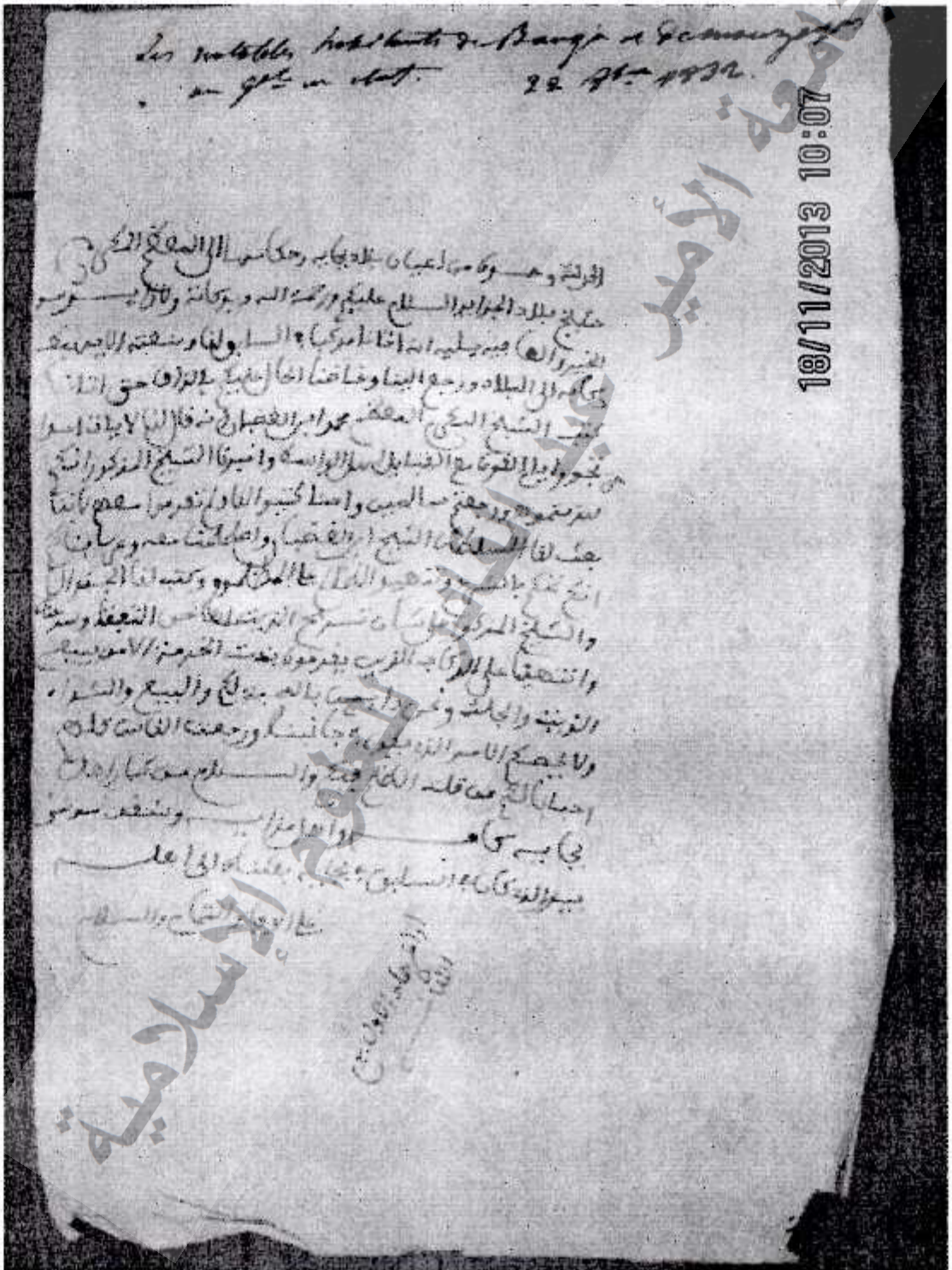
رسالة من قايد بجاية إلى القائد يحيى آغا مؤرخة بشأن ترميمات في بجاية وقدم سفينه  
أجليزية (1830)

عاشد  
هو الفتح  
صاحب العناية والمعطفة والمرؤة والرحمة سيدي وساطاني المكرم يحيى آغا ذو الشأن  
بعد اهداء السلام إلى حضرتك الشريفه الجيلة بمعال التزيم والتعظيم لا يحد ونقبيل  
بيدك الشريفه فعم سيدي وانه في يوم الخميس قبل المغرب بساعة ونصف ورد  
علينا كتاب من طرفك الشريف محبة احمد اونسش العبايحي وبعد قرانه علينا  
جميع ما فيه سيدي من حضرت الله تعالى جل وعلا بحرمه رسوله الأكرم صلى الله  
عليه وسلم ان ينصر دين الاسلام ويمين وباسيدي اما نحن في هذا الطرف خدامنا  
سبعة جماعات بحسنة معين وبحسنة مشرحة ام في يوم الثلاثاء ليل جميع شغلنا  
في الارجح والطباين ويوم الخميس جاز الخبر من سيدي فان شاء الله ببركة دعاء سيرنا  
حين باشا الزلا وبركة دعاء سيادة سيرنا تاينا بكونن الكطارن الاثني عشر اراذل بين  
الانام ولنا منكم الدعاء  
لمهردي المصنعة  
من بكرة كراشيد  
الحقير عبده المحارب  
الحاج خليل  
بجاية

والها يا حضرت سيدي اني قد اردت  
اولادها اراذلة من حضرتك  
حاجد ولا يا اعلى سيادتك  
سيدي وانت اعلم وايضا فالاشيا  
ذرتنا في ملوك سيدي جار العبا  
ملك ان ترسلنا اليها على جيل

أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 6.

رسالة من أعيان بجاية إلى القائد الأعلى (1832/10/22)



المصدر: 26/ MIOM/ 18



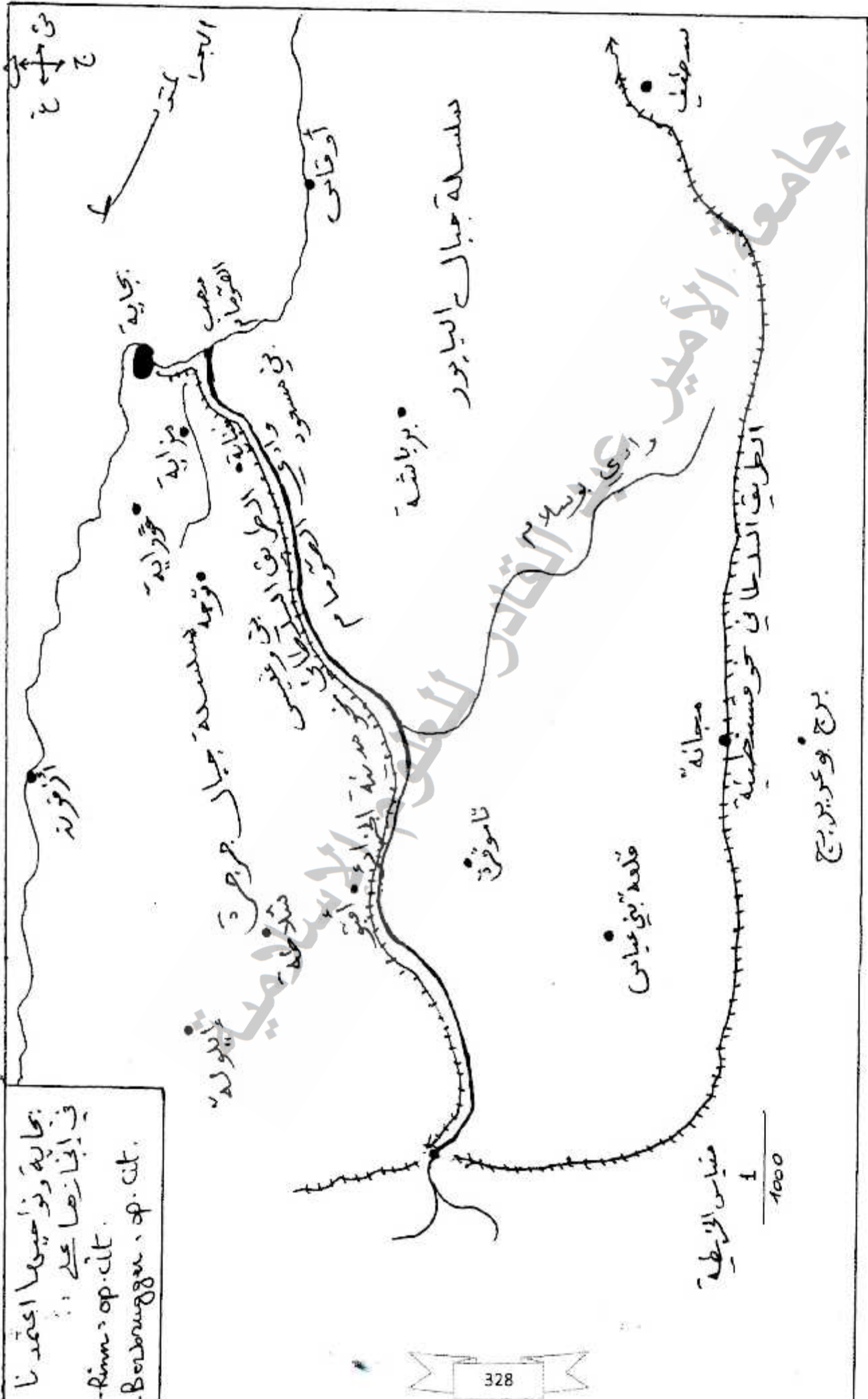


شهادة تحمل امتياز منحه محمد باشا إلى عبد القادر بن محمد أمقران بتاريخ 1093هـ (1682).

الوائف بالردود  
Cachet : الحاج محمد بن محمد

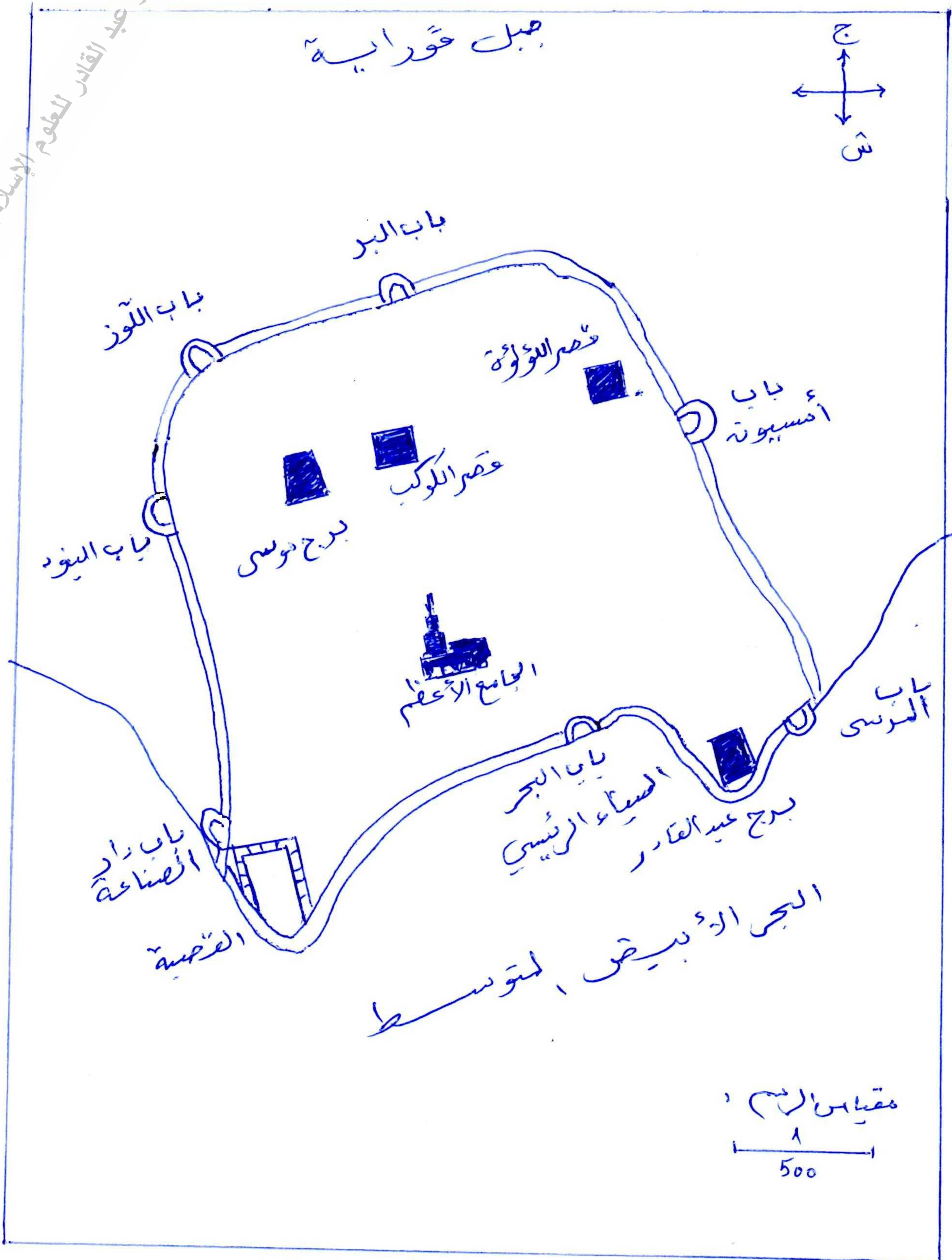
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله  
وصحبه وسلم  
ليعلم من يقف على هذا الامر الكريم والخطاب الواضح الجسيم من  
المعظمين الباي الار وكافة الفواد والعمال والنخاص والعام وجميع  
النظري الاحوال بالناحية الشرفية اسعد الله الجميع اما بعد  
بان حامله المعظم البقيه لاجل السيد المولى الاعلى البركة  
السيد عبد القادر ابن المرحوم الوالى الصالح الفطرب الناصح  
الشيخ البركة سيدي محمد امقران نفعنا الله ببركاته واجاز علينا  
انعمنا عليه بكافة عرش برباشة الذي بها على ثلاث برفات  
برفة يقال لها اولاد عبد الله والبرفة الثانية يسمى ببري  
والبرفة الثالثة التي تجمع الجميع يقال لها برباشة يكون  
الجميع كلهم زاوية له من جميع زواياه ويكون كلهم حسا  
عليه وعلى اعقاب اعقابه يتنفع بمفرهم وزكاتهم ورفعتنا عليهم  
يد باى الار المحال هذا الناحية الشرفية وعمالهم \* عن اذن المعظم  
لاربع مولانا الدولاتلى الحاج محمد باشا ايده الله بمنه امين

اوسط شهر جماد الثاني سنة 1093



بجاية ونواحيها اعتمدنا  
في الجانصا على :  
-Rinn, op.cit.  
-Berbrugger, op.cit.





سور بجارية خلال العهد الفخاري  
رسمت الخريطة اعتماداً على :  
Nepma A.F. Lalmi : op.cit , p 46.

# المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات والوثائق غير المنشورة:

أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 6.

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 8.

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 9.

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 17.

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 47.

دفتر مهم رقم 3204، ورقة رقم 82.

دفتر مهم رقم 3205، ورقة رقم 102.

دفتر مهم رقم 3207، ورقة رقم 171.

دفتر مهم، علبة رقم 3207، ورقة رقم 242.

مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية:

وثائق عثمانية، قرار تعيين أحمد المكي على جيجل، الملف 3204، وثيقة رقم 39 1170هـ/1756.

علبة رقم 3206، ورقة رقم 44 و 47.

الأرشيف الوطني الجزائري:

معاهدات سلم وتجارة بين الجزائر والقوى المسيحية خلال العهد العثماني، الجزائر،

01، دفتر مهم رقم 2، حكم رقم 565.

3206، الملف الثالث.

-FR A.O.M GGA 66K/3.

-45MIOM/18: Enlèvement de Bateaux dans le Port de Bougie.

-18MIOM/ 25: Place de Bougie,, Série E – 1830- 1873.

-15 MIOM/ 26 : place de Bougie, 12 sept 1833.

-18 MIOM/ 26: Correspondances, lettres au Gouverneur général- lettre de Cheikh Saad Ourabah au comandant supérieur à Béjaia et sa réponse.

-FR A.O.M: F/80/1671/1

-15MI-MIOM/25: Place de Bougie, situation militaire en Octobre 1833.

FR A.O.M, F80/ 1671/1: Rapports au Roi sur l'organisation du gouvernement et de l'administration des concessions françaises dans l'Afrique du Nord, juin 1834.

-FR ANOM, F80/1671/1: Rapport de Mr le compte Derlon à Mr le gouverneur général de possessions françaises dans le Nord de l'Afrique, Alger le 1 Avril 1835.

-ANOM, FR, 15MIOM/15, Article 8, Section 1, Carton 1, Trezel, 1833.

-(A.M.G) S.H.A.T: Article8 , Section1, Carton1,n°3, Bougie, colonel Lemercier, Rapports.

-BB<sup>7</sup>-8: affaires étrangères n° : 09, Projet de compagnie Royale d'exploitation agricole et commercial d'Algérie, par Iluleil – 1830-1831.

-Mémoires et reconnaissance, les archives du génie militaire, service historique de l'armée de terre.

-Rapport sur les diverses questions posés par Mr le Gouverneur Général du 31 mai 1849, n° 1745, Maison Mairie de Béjaia.

-Service Historique de la Défense, (Armée de la Terre): Article 8 ,  
Section 1, Carton 1, n°3, Bougie, colonel Lemerrier, Rapport sur la  
situation de Bougie.

المصادر المنشورة:

- اب الأمير القادر محمد: الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير القادر شرح و ممدوح  
ط 2 دار اليقظة العربية. بيروت، ج 1 1964.
- ابن أبي الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان 1963.
- ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس : محمد الشمام،  
الطبعة 3 ، المكتبة العتيقة 1967.
- ابن خلدون، عبد الرحمان: ب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن  
عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، الكتاب الثالث، دار الكتاب اللبناني، 1969.
- ابن ميمون الجزائري محمد: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية  
وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2، ش و ن ت، الجزائر، 1981.
- ابن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، الجزائر، 1904.
- الإدريسي، الشريف: وصف إفريقيا الشمالية، مقتبس من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر  
هنري بري ، الجزائر، 1957.
- التمرغوطي، محمد بن علي: النفحة المسكية في السفارة التركية، الطبعة الحجرية، د. ت.
- الجديري محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغار عليها جنود  
الكفرة، نشر سليم بابا عمر، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع 3 1967.
- الجعدي، الشيخ محمد: مناقب الشيخ الأزهري، مخطوط ة الوطنية الجزائرية ورقة رقم 2.
- الحموي ، ياقوت: معجم البلدان، ج 2، دار صادر، بيروت، 1995.

- هلال، عمار: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، د. م. ج، الجزائر، 1994.
- الغريبي أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة بيجاية رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1987.
- الورتلاني، الحسين بن محمد: الأنظار في ف ل علم التاريخ والأخبار. المشهورة بالرحلة الورقة، تقديم محمد بن شب، مطبعة بير فونتانا، الجزائر، 1908.
- الوزان، الحسن (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 2 ط 2 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- بفايفر سيمون: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر، أبو العيد دودو، شركة دار الأمة، ط1 2008.
- خوجة، حمدان بن عثمان: المرأة، تعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، ط2، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982.
- وليم: الجزائر في عهد رياس البحر عبد القادر زبادية ش. و. ن. ت، الجزائر، 1980.
- شالر، وليم: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب إسماعيل الربري، ش و ن ت، الجزائر، 1982.
- ف: قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1977.

---

-قون مالتسان : ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ترجمة أبو العيد دودو،  
ش.و.ن.ت، الجزائر 1973 .

-مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المط  
الثعالبية، الجزائر، 1934.  
المصادر الأجنبية:

-Albert Devoulx: **Daftar Taschrifat**, imp, du gouvernement, Alger, 1852.

-Boutin, Vincent-Yves: **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'Etat d'Alger**, Paris, 1830.

-Filippo pananti: **Relation d'un séjour à Alger**, trad, de l'anglais par Obruat Illod Malé Partum, imp de le Normant, Paris, 1907, p154.

-François Arago: **Histoire de ma jeunesse**, académie des sciences, 1854.

-Fray Diego de Haedo: **Histoire des Rois d'Alger**, trad, de l'Espagnole par Henri Delma de Grammont, Ed, Alger Grands Livres, Alger, 2004.

-Gentil de Bussy: **Etablissement des français dans la régence d'Alger**, Paris, T2, 1834.

-Gouvion, Marthe et Edmond: **Kitab Aayane el Maghariba**, Département de Constantine, Alger, 1920.

-João Mascaranbas: **Esclave à Alger, récit de captivité de João Mascaranbas** (1621- 1626), trad, de Portugais, annoté et présenté par Paul Teyssier, Ed, Chandeigne, Paris, 1993.

-Juan de Feraras: **l'Histoire d'Espagne (jusqu'en 1589)**, Madrid, 1720-1721, 16 vol, in-4, trad, en français, 1751.

-la Fay, Gean de et autres: **Relation en forme de journal du voyage pour la rédemption des captifs aux Royaume de Maroc et d'Alger, pendant les années 1723, 1724, 1725**, Paris, 1826.

---

-Laugier de Tassy: **Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement**, Amsterdam, 1725.

-Laurent (le Chevalier) d'Arvieux: **Mémoires du chevalier d'Arvieux**, Paris, T .V, Jean -Baptiste Delespine libraire, Paris, 1735.

-Léon L'Africain: **Description de l'Afrique**, Ed, Epaulard, Paris, 1956.

-M. Renaudot: **Voyage à Alger**, description de cette ville, de ses environs du Royaume d'Alger, avec l'état de son force de terre et de mer, le Cointe, Paris, 1830.

-Marmol Carjaval Louis del: **l'Afrique de Marmol** , trad par Nicolas Pérrot et sieur d'Ablancourt, Paris, 1667, T2, LV,,Méditerranée, N°8, 1970.

-Mordecai Manuel Noah: **Travels in England, France, Spain, and the Barbary States in the Years 1813-14 and 15** by New York: Kirk and Mercein, 1819.

-Moss, Niel: **un norvégien à Alger, 1769-1772** , trad, par Inès Bartolo, t X strid Nome, Ed, Statoil, Norvège, 2007.

-Peyssonnel et Défontaines: **Voyages dans les régence de Tunis et d'Alger**, T1.

-Pierre d'Avity: **Description générale de l'Afrique**, seconde partie du monde, C. Sinnius, Paris, 1637.

-Pierre Dan (le père): **Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, 2<sup>ème</sup> Ed, Pièrre Rocolet imprimerie, Paris, 1646.

-Poiret l'Abbé: **Voyage en Barbarie, ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 et 1786**, J. B. F, la Rochelle, 1789.

-R.B: **Description de l'état d'Alger**, de ses dépendances, de ses villes principales, de ses ports, Imp, de Perret, Metz, 1830.

-Thomas Shaw: **Voyage dans la Régence d'Alger au XVIII e siècle**, trad, de l'Anglais par Mac Carthy (1830), Ed, grand Alger Livres, Alger, 2007.



-Venture de Paradis : **Tunis et Alger au XVIII<sup>e</sup> siècle**, Ed, Sindbad, Paris, 1983.

### المراجع العربية:

- ابن علي : أم الحواضر بين الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، 1980.
- البوعبدلي المهدي: جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني ق: (10 - 13 ( لم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013.
- التر، عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.
- محمد حجي: الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأ والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ 2، مطبعة فضالة، الرباط، 1977.
- الزواوي، أبو يعلى: تاريخ الزواوة، تعليق سهيل الخالدي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2005.
- الشيخ آث ملويا، لحوسين: القانون العرفي الأمازيغي، دار الخلدونية، الجزائر، 2006.
- الكعك، عثمان: التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.
- المدني، أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792)، ش و ن ت، الجزائر، 1976.
- المدني، أحمد توفيق: عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، م.و.ك، الجزائر، 1986.
- المدني، أحمد توفيق: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1168-1246 1754-1830.

- أمطاط محمد: الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 - 1962 مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2008.
- المطوي أحمد العروسي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- محرز أمين: الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671، دار البصائر، الجزائر، 2011.
- بن خروف عمار: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس الميلادي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2006.
- : قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ترجمة سامية سعيد عمار، دار دحلب، الجزائر، 2007.
- بيل، ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- جدلة، ابراهيم: المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي. المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات، جامعة قفصة، تونس، 2010.
- حنوف : السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي، مطبعة العناصر، الأبيار، الجزائر، 1999.
- دلندة الأرقش وآخرون: مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، 1995.
- سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998.
- سعد الله، أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

- سعيدوني، ناصر الدين: الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، دار البصائر الجديدة للنشر و التوزيع، ط2 الجزائر 2013.
- سعيدوني، ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، م، و، ك الجزائر، 1984.
- سعيدوني، ناصر الدين: رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- سعيدوني: تاريخ الجزائر العثماني، دويلات المغرب العثمانية، الجزائر، تونس، طرابلس، المغرب دار البصائر، الجزائر، 2003.
- سعيدوني صر الدين، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ- العهد العثماني، م. و. ك، الجزائر، 1982.
- شويتام، أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926- 1246 -1519- 1830، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2009.
- بن حادة عبد الرحيم: «المثقفون والأزمة في العالم العثماني»، في: العثمانيون والعالم المتوسطي- مقاربات جديدة، تنسيق عبد الرحيم بن حادة وعبد الرحمان المودن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط، 2003.
- عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف ش.و.ن.ت، الجزائر، (د.ت).
- عبد القادر، نور الدين: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2007.
- فالانسي، لوسات: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر (1790- 1830)، ترجمة حمادي الساحلي، سيراس للنشر، تونس، 1994.
- فراد، محمد أرزقي: إطلالة على منطقة القبا ، دار الأمل، الجزائر، 2006.

- فرج، محمد الصغير: تاريخ تيزي وزو نشأتها حتى 1954 ترجمة زمولي للنشر، الجزائر 2002 .
- فر كوس صالح: الحاج أحمد باي قسنطينة (1823- 1850)، د م ج، الجزائر، 1993.
- مير، لوسي: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة علياء شكر وحسن الخولي، دار المعرفة، الإسكندرية، 1994.
- وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب، عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.
- الجيلاي، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ج 3 ط 7، د م ج، الجزائر، 1994.
- الحفناوي، أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيار فونتنا، الجزائر، 1903.
- الزبيري، محمد العربي: التجارة الخارجية للشرق الجزائري (1792- 1830م)، ط 2، م و ك، الجزائر، 1984.
- دراج، محمد: مذكرات خير الدين بربروس، الأصالة للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2010.
- الجعدي، الشيخ محمد : مناقب الشيخ الأزهرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ورقة رقم 2.
- العبدري: الرحلة، تحقيق محمد الفاسي، فاس، جامعة محمد الخامس، 1968.
- برنشفيك، روبرار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1988.
- مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط: 2، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1981.
- بورويبة، رشيد: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، د.م.ج، الجزائر، 1977.
- بوعزيز، يحيى: أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة 2 ج ، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1995.

-بوعزيز، يحيى: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار لهدى، الجزائر، 2009.

-جوليان، شارل أندري: تاريخ الجزائر المعاصرة، الغزو وبدايات الاستعمار 1827 - 1871 ترجمة المعهد العربي العالي للترجمة، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر ، 2008.

- ، عبد القادر: جغرافية الجزائر اقتصادية طبع ، مطبعة الشركة الجزائرية، 1968.

-ريمون، أندري: العواصم العربية، عمارتها وعمارتها في الفترة العثمانية، ترجمة قاسم طوير، ط1 دار الجحد، دمشق، 1986.

-ريمون أندري: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1991.

-سعيدوني، ناصر الدين: الشرق الجزائري، بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، تقديم وتعليق وترجمة، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

-سي يوسف، محمد: مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي (ثورة بوبغلة)، دار الأمل، تيزي وزو، 2000.

-سيدي موسى محمد الشريف: مدينة بجاية الناصرية (دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية) الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

-عبد الرحيم، عبد الرحمان عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط1، مطبعة الجبلأوي، القاهرة، 1979.

-عبد الكريم، كريم: تاريخ الدولة السعودية، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، 1972.

- عقاب، محمد الطيب: المسكن التقليدي بالقبائل الصغرى الملتقى الدولي الأول حول بحاية وجهاتما عبر العصور، 1997. مطبوعات جمعية جهيماب (GEHIMAB) 1997.
- غلاب، عبد الكريم: اءة جديدة في تاريخ المغرب العربي الإمبراطورية العهد التركي في الجزائر بيروت دار الغرب الإسلامي 2006.
- فيلاي، مختار بن الطاهر: رحلة الورتيلاني - عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1978.
- قنان، جمال: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914، د. م. ج، الجزائر، 1993.
- مروش، المنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني - القرصنة الأساطير والواقع-، ج2 دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.
- عبد القادر، نور الدين: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى نهاية العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر، 2007.
- نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر الثقافية، بيروت، 1980.
- هانوتو ولوتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية إبراهيم سعدي، ج2، دار الأ للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- هلال، عمار: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، د. م. ج، الجزائر، 1994.
- وولف، جون باتيست: الجزائر وأوروبا (1830/1500)، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، م. و. ك، الجزائر، 1986.

- Braudel, Fernand. Ricard Robert: **Les Espagnols en Algérie**, 1492-1792, dans **Histoire et Historiens de l'Algérie**, Bulletin Hispanique, Vol, N° 4, 1932.
- Defontaine, de Resbecq: **Alger et les côtes d'Afrique**, Gaume Frères librairie, Paris, 1832.
- Devoulx, Albert: **Daftar Taschrifat**, Imp, du gouvernement, Alger, 1852.
- Bernard, Augustin: **Géographie universelle**, TXI, Afrique, Paris, 1937.
- Djaghloul, Abdelkader: **Elément d'Histoire Culturelle Algérienne**, collection patrimoine, ENAL, 1984, p 242.
- Perrot, A-M: **Alger, Esquisse Topographique et Historique**, Ed, Hachette, Paris, 1830.
- Aissani, Djamil, Mechehed, Djamel Eddine: **Usages de l'écriture et production des savoirs dans la Kabylie du XIX e siècle**, REMMM,
- Alfred, Bel: **La religion musulmane en Barbarie du XIIème au XXème Siècle**, Gauthier, Paris ,1938.
- Anonyme: **La Kabylie**, de Maistrasse et Wiart, Imp, Paris , 1921.
- Babes, Leila: **Saints- tribus et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination turque**, Université d'Oran, Oran, S.D.
- Belhachemi, Jean- Louis: **Nous les frères Barberousse corsaires et rois d'Alger**.
- Belhamissi, Moulay: **Alger et l'Europe et la guerre secrète (1518-1830)**, Ed, Dahlab, Alger, 1999.
- Belhamissi, Moulay: **Histoire de la marine Algérienne**, (1516-1830), 2° Ed, ENAL, Alger, 1986.
- Bennassar Bartolomie: **Histoire des Espagnoles**, 1. du VI° au XVII° siècle, Armand Colin, éd, Paris, 1985.

- 
- Berbrugger, Adrien: **les Epoquees militaires de la grande Kabylie**, Paris, 1857.
- Bernard, Augustin: **Géographie universelle**, TXI, Afrique, Paris, 1937.
- Billiard et autres: **Les Ports et la navigation de l'Algérie**, la rose, Paris, 1930.
- Biziou, F: **Bougie, Monographie, Productions, Commerce, Industrie, Minéralogie, Imprimerie**, Comité Agricole de l'Arrondissement de Bougie, Bougie, 1900.
- Bontems Claud: **Manuel des institutions des Algériennes de la domination Turque à l'indépendance**, T1, Ed, Cujas, Paris, 1979.
- Bouabba, Yacine: **les Turcs au Maghreb Central**, Alger, 1972.
- Boulifa, Said: **Le Djurdjura à travers l'histoire**, depuis l'Antiquité, jusqu'à 1830, S. Bringou, Alger, 1923.
- Boutin, Vincent-Yves: **Aperçu Historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger**, Paris, 1830.
- Brahimi, Denise: **Opinion et regards des Européens sur le Maghreb au XVII et XVIII<sup>ème</sup> siècles**, SNED, Alger, 1978.
- Branerrais, T. de la: **Relation de l'Expédition de Bougie**, 16 octobre 1833, les archives du génie militaire, service historique de l'armée de terre, n° :881.
- Carette, E: **Etude sur la Kabylie**, Exploration Scientifique de l'Algérie de 1840 à 1842.
- Charvériat, François: **Huit Jours en Kabylie à travers la Kabylie et les questions kabyles**.
- Colonel Gaston Bautista: **Les Pachas et les Deys**, les prises de Fez et de Bougie, le 09/10/2002.
- Corinne Chevalier: **Les trente premières Années de l'Etat d'Alger**, 1510- 1541, O.P.U, Alger, 1986.



---

-Coulet du Gard: **la Course et la piraterie en Méditerrané**, éd, Empire, Paris, 1980.

-Daumas et Fabar: **la Grande Kabylie études historiques**, Librairie centrale de la Méditerranéen, Alger, 1847.

-Daumas, Eugène: **Mœurs et Coutumes da l'Algérie**, Ed, ANEP, Alger, 2006.

-Debeylie, L: **La Kalaa des Beni Hammad**, une capitale berbère de l'Afrique du nord, Paris, 1971.

-Dermenghem, Emile: **Le Culte des saints dans l'islam maghrébin**, Paris, 1954.

-Dieuzaide, Victor-Amédée: **Histoire de l'Algérie de 1830-1878**, -imp, de l'association des ouvriers, Oran, 1880.

-Estry, Stephen d': **Histoire d'Alger, de son territoire et de ses habitants, de ses pirateries, de son commerce et de ses guerres, de ses mœurs et usages, depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, jusqu'à nos jours**, A. Mame, Imp, Tours, 1845.

-Franck Laurent: **le voyage en Algérie**, Ed, Robert Laffont, Paris, 2008.

-Gaid Mouloud: **l'Algérie sous les Turcs**, SNED, Alger, 1974

-Gaid, Mouloud: **les Berbères dans l'histoire**, Alger, 1990.

-Gaid, Mouloud: **Histoire de Bejaia et de sa région depuis l'antiquité jusque à 1954 2<sup>eme</sup> Edition**, Ed, Mimouni, Alger : 1991.

-Gautier: **le passé de l'Afrique du Nord**, génie militaire, service historique de l'armée de terre, 881.

-Gentil de Bussy: **Etablissement des français dans la régence d'Alger**, T2, Paris, 1883.

-Grammont Henri Delma de: **Histoire d'Alger sous la domination Turque**, éd, Bouchène, Paris, 2002.

-Grammont Henri Delma de: **Correspondances des Consuls d'Alger**, (1690-1742).

---

-Gsell, Stéphane: **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, V5, librairie Hachette, Paris, 1927.

-Gzell, Stiphane: **Atlas Archéologique de l'Algérie**, Paris, 1911.

-Habsbourg, Louis Salvator de: **Bougie la perle de l'Afrique du nord**, trad, de l'anglais par Viviane de Jambert, Ed, de l'Harmattan, Paris, 1999.

-Hacoun, Pierre Compredon: **Etude sue l'évolution des coutumes Kabyles**, Alger, J. Garbonel, 1921.

-Haddadou, Mohamed Akli: **les Guides de la culture Berbère**, éd, INA-YAS, Paris, 2000.

-Hanoteau. A et Letourneaux . A: **La Kabylie et les coutumes kabyle**, Ed, Bouchène, Paris 2003.

-Henri Aucapitaine le Baron: **les Kabyles et la colonisation de l'Algérie**, Challamel Librairie, Paris, 1864.

-Hourani, Albert: **Histoire des peuples Arabes**, Trad de l'anglais par Paul Chemla, éd du Seuil, Paris, 1991.

-Jacques Heers: **les Barbaresques, la course et la guerre en méditerranée XIV<sup>e</sup>XVII<sup>e</sup> siècle**, Ed, LAP, Perrin, 2001.

-Jean Morizot: **les Kabyles propos d'un témoin**, C. H. E. A. M, Paris, 1985.

-Juchereau D .S.D: **Considération statistiques historiques militaires politiques sur la régence d'Alger**, De Lannay, lib, Paris, 1831.

-Lapene, Edouard: **26 mois de séjour à Bougie**, Paris, 1839.

-Lieussou. A: **Les Ports de l'Algérie**, Imp, administrative de Paul - Dupont, 2<sup>ème</sup> Ed, Paris, 1857.

-Loup Durand: **pirates et Barbaresques en Méditerranée**, éd, Aubanel, Paris, 1975.

-M. D. Avocat: **Histoire des naufrages ou recueil des relations intéressantes des naufrages**, 1789.

---

-Mac Carthy: **la kabylie et les kabyles**, Etudes économiques et ethnographiques, Paris, 1847.

-Mahé, Alain: **Histoire de la grande Kabylie XIX<sup>e</sup> XX Siècles** Anthropologie historique du lien social dans les communautés villageoises , Ed, Bouchène, France, 2002.

-Marchika, Jean: **la peste en Afrique septentrionale**, Alger, 1927.

-Masson, Paul: **Histoire des établissements Français dans l'Afrique Barbaresque, (1560-1793)**, Algérie, Tunis, Tripolitaine, Maroc, Librairie Hachette, Paris, 1903.

-Mauroy, M: **Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrional depuis les tems anciens jusqu'aux temps modernes**, imp, de Duverger, Paris, 1852.

-Merad Boudia Abdelhamid: **la Formation Algérienne précoloniale**, essai d'analyse historique, O.P.U, Alger, 1981.

-Mercier, Ernest: **Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus réculées jusqu'a la conquête Française (1830)**, T. III, Ernest leroux éditeur, Paris, 1868.

-Mercier, Ernest: **Histoire de Constantine**, J. Marle, et F.Biron imprimeurs éditeurs, Constantine, 1903.

-Meynier, Gilbert: **l'Algérie, cœur du Maghreb classique, de l'ouverture arabo-islamique au repli (698- 1518)**, Ed, la dicouverte, Paris, 2011.

-Michel Harvé: **les débuts de la Régence d'Alger, 1518-1566**, Paris, 2005.

-Ministre de le guerre: **Tableaux de la situation des établissements des Français en Algérie**, Imp, impériale, Paris ,1843.

-Noushi André, André Prinan, Yves Lacoste: **l'Algérie passé et présent**, Éd, sociales Villeneuve-Saint-Georges, 1960.

-Noushi André: **Enquête sur le niveau de vie dans le Constantinois**, in, Annales. Économies, Sociétés, Civilisations, V, 17, N°6, 1962.

- 
- Oussedik, Tahar: **le Royaume de Koukou**, E.N.A.L, Alger, 1986.
- P. Christian: **L'Algérie de la jeunesse**, (1847), Alph, Desesserts éditeur, Paris, 1847.
- Paul Bert: **Lettres de Kabylie. La politique algérienne**, Alphonse Lemerre Ed, Paris, 1885.
- Péllissier de Reynaud: **Annales algériennes**, T1, librairie Bastide, Paris, octobre, 1954.
- Peter, Jean: **les Barbaresques sous Louis XIV, le duel entre Alger et la marine du Roi(1681- 1698)**,éd, economica, Paris, 1997.
- Pierre Hacoun Compredon: **Etude sur l'évolution des coutumes Kabyles**, Alger, J. Garbonel, 1921.
- Plantet, Eugène: **Correspondances des Rois d'Alger avec la cour de France 1579-1833**, T, I, Pris, 1889.
- Prignet. A: **à travers l'Algérie (Province de Constantine et Kabylie)** librairie Hachette, Paris, 1914.
- Primaudae, Elie de la: **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506 – 1574)**.
- Primaudaie, Élie de La: **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506 – 1574)**, A , Jourdan, Alger, 1875.
- Reybaud, Eugène: **Echo de Bougie**, 18 Mars 1928.
- Robert Herrmann : **Plan de sauvegarde du centre historique de Bejaia**, Paris, 1980.
- Robin, Joseph Nil: **la grande Kabylie sous le régime Turc**, Ed, Bouchène, Alger, 1999.
- Roy, Jean le: **Deux ans de séjour en petite Kabylie**, Augustin Challamel éd, Paris, 1911.
- Rozet et Carette: **L'Algérie**, imp, Firmin Didot frères, Paris, 1850.

---

Salvatore Bono: **les corsaires en méditerranée**, Ed la porte, Paris, 2000.

-Shuval, Tal: **La ville d'Alger vers la fin du XVIII<sup>e</sup> Siècle, population et cadre Urbain**, C N.R.S, Ed, Paris, 1998.

-Solal, Edourad: **Philippeville et sa région (1837-1870)**, Alger , Ed, la maison du livre.(s.d).

-Temimi, A. Djallil: **le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey**, (1830-1837), Tunis, 1978.

-Trumelet, Corneille: **Les Saints de l'Islam; légendes hagiologiques et croyances algériennes**, Didier & Cie, Paris, 1881.

-Valérian, Dominique: **Bougie, port Maghrébin à la fin du moyen âge**(1067, 1510), Publications de l'École française de Rome, Rome, 2006.

-Vayssette, Eugène: **Histoire des Beys de Constantine sous la domination Turcs (1517-1837)**, Ed, Bouchène, 2002.

-Wintzer, Paul: **Bougie, place fort Espagnol**, Paris, 1972.

-Yves Ternon: **Empire Ottoman, le déclin, la chute, l'effacement**, Ed, du Felin, Paris, 2002.

#### المجلات والدورريات:

-اسماعيل، العربي: « بجاية من خلال النصوص الغربية » الأصاله، ع 17 - 18، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 1973.

-إسماعيل، العربي: « عرض و نقد كتاب تاريخ بجاية، لشارل فيرو » الأصاله، ع 19، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 1974.

-الأرقش، دلندة وآخرون: مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات كلية الآداب 1995.

-البوعبدلي، المهدي: «أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي » الأصاله، ع 2 1972.

-التميمي، عبد الجليل: « الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين » المجلة التاريخية المغربية، العدد 23-24 1981.

-التميمي، عبد الجليل: «الخلفية الدينية للصراع الإسباني - العثماني على الإيالات المغربية خلال القرن السادس عشر» المجلة التاريخية المغربية عدد 10-11 1978.

-التميمي، عبد الجليل: «أول رسالة أ لي مدينة الجزائر إلى السلطان الأول 1519» المجلة التاريخية المغربية عدد 8 1974.

- البوعبدلي المهدي: «الحياة الف في عهد الولا : الحفص والتركية وآثارها»،مجلة الأصالة، ع19، مارس 1974.

- مولاي: «أضواء على تاريخ الجزائر في العهد العثماني من خلال مخطوط الثغر الجماني في وصف ابتسام الثغر الوهراني» الأصالة، ع12 1972.

- بلحميسي، مولاي: «صناعة السفن بالجزائر أيام الأتراك (16-19)» مجلة الدراسات الأثرية معهد الآثار، جامعة الجزائر، ع3 1995.

- بلحميسي، مولاي: «غارة شارل العاشر على مدينة الجزائر 1541» الأصالة، ع23، الجزائر، 1978.

- مولاي: «بجاية في حدائق الكتب» مجلة الأصالة ع 14-15 1973.

-بونار، رابح: «بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين،» الأصالة، ع 17-18.

-حبار، مختار: «الحضور الصوفي في الجزائر على العهد العثماني» مجلة التراث العربي دمشق العدد 57 - السنة 15 - تشرين الأول "أكتوبر" 1994 - جمادى الأولى 1415.

-حجي، محمد: الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ 2، مطبعة فضالة، الرباط، 1977.

- حرّاث، محمد: عوامل انتشار الوعي الديني والقومي في منطقة زواوة منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد 09 2012م.
- : «الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس أسبابه مراحل» مجلة الأصالة، ع 14-15 1973.
- سعيدوني، ناصر الدين: «رسالة من أعيان مدينة قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح ريس (963/1555م)» في، الشرق الجزائري.
- سعيدوني، ناصر الدين: «الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة»، مجلة الأصالة ، عدد 60-61.
- سي يوسف، محمد: «العامل الديني في مقاومة الاستعمار الفرنسي لبلاد القبائل إلى غاية 1857» مجلة رسالة المسجد. ، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السنة السادسة، العدد الثامن، الجزائر، 1999.
- الله : «النظام القانوني و الشريعة في العهد العثماني» مجلة بحوث، د 4 1997.
- عمارة، علاوة: «التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط» مجلة جامعة الأمير للعلوم الإسلامية العدد 26 ، رمضان 1429 / سبتمبر 2008.
- فيلالي كمال: «البايلك نظام حكم في الجزائر العثمانية» الهجرة والرحلة، مجلة مخبر الأبحاث والدراسات السوسيو تاريخية حول حركات الهجرة، جامعة قسنطينة 2، أفريل 2014.
- قايد، رشيد: «نضال بجاية ومنطقتها ضد الاحتلال الفرنسي» مجلة الأصالة ع 17-18 1973.
- كاردياك، لوي: «الموريسكيون»، ترجمة وتقديم عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية عدد 23-24 نوفمبر 1981، وعدد 25 - 26، جوان 1980، وعدد 27-28، ديسمبر 1982.

- نورس علاء موسى: «مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية» المجلة التاريخية المغربية، عدد 25-26 1982.

-لقبال، موسى: «مميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة تاريخ المغرب الأوسط في العصور الوسيطة» الأصالة، ع 19 1974.

-مالتسان السير فون: «تاريخ بجاية»، ترجمة أبو العيد دودو، الأصالة، ع 19 1974.

-وزارة الإعلام والثقافة بجاية، سلسلة الفن والثقافة، عدد خاص 1975.

-A. A. B. Choib: «Les marabouts guérisseurs», in **R.A** N°51 ,1907.

-Aucapitaine et H. Federmann: « **notices sur l'histoire de l'administration du Beylik de Titeri**», **RA**, 1865.

-Bodin, Marcel : « Notes et questions sur Sidi Ahmed ben Youcef», in **RA**, n° 66, 1925.

-Boyer, Pierre: « Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles) » In: **R. O.M. M**, N°1, 1966.

-Boyer, Pierre: «Espagne et Kouko -Les négociations de 1598 et 1610-», In: **R. O.M. M**, Vol 8, N° 1, 1970.

-Boyer, Pierre: «l'Algérie à l'époque Turc», in **initiation à l'Algérie**, librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1957.

-Boyer, Pierre: «le problème Kouloughli dans la Régence d'Alger, in **R. O.M. M**, n°8, 1970.

-Braudel, Fernand: «les Espagnoles et l'Afrique du nord 1492- 1577», in **RA** n° 69, 1928.

-Cahen Ab: « les Juifs de l'Algérie et de Touggourt», in **R.S.A.C**, t10, Constantine, 1866.

-D. Luciani: « les Ouled-Athia de l'Oued Z'hour», **RA**, N° 33, 1889.



- 
- Débruge. A: «Abri sous roche à Bougie», Extraits du Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine, Constantine, 1903,
- Débruge. A: «Tombeau présumé Phénicien à Bougie», extrait du bulletin de la société archéologique de Sousse, n° 4, 1904, p4.
- Devoulx Albert: « Expédition d'Oreilly», RA, V, N°3, 1858.
- Devoulx, Albert: « Enlèvement d'un Pacha par les Kabyles », RA, n°13, 1869.
- Eisenbeth (M): «les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque(1516-1830)», RA, 1952.
- Emerit, Marcel: « Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX<sup>e</sup> siècle», In, **Annales, Économies, Sociétés, Civilisations**. 21<sup>e</sup> année, N°. 1, 1966.
- Emerit, Marcel: «L'état intellectuelle et moral de l'Algérie en 1830», **R.H.M.C**, T1, 1954.
- Fendri, Mounir: «Trois voyageurs Allemands en Tunisie au XVIII<sup>e</sup> siècle», in **R.H.M**, n°34-35, Tunisie, 1984
- Féraud, Charles: «Epoque de l'Etablissement des Turcs à Constantine», in –**RA**, N°11, 1866.
- Féraud, Charles: « Exploitation des forets de la karasta dans la Kabylie oriental sous la domination Turque» in, **R.A**, n°: 13, 1868.
- Féraud, Charles: «Conquête de Bougie par les Espagnoles d'après un manuscrit Arabe», in **R. A** n°: 13, 1868.
- Féraud, Charles: «Histoire de Bougie», in **l'Oued-Sahel**, n°1564, 04/04/1901.
- Guin : « Note sur le Bey Mohamed dit El- Bey Edebbah », in, **RA**, n° 7, 1886
- Lanfreducci et Bosio: «Côtes et discours de Barberie», trad de l'italien par Pierre Grandchamp, **RA**, n°66, 1925.

---

-Mantran, Robert: «La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis», in, **R. O. M. M.**, Vol 15, N°1 , 1973.

-Nedjma, A. Fettah Lalmi: «de mythe de l'isolat Kabyle», **cahiers d'études Africaines**, XLVI(3), 2004.

-Primaudai, Elie de la: « Le commerce et la navigation de l'Algérie», **R.A.C.**, 1860, voir annexe II.

-Primaudaie, Elie de la: «Occupation Espagnole en Afrique de 1506 à 1574», in : **RA**, n°17, 1875.

-Ravbaud, Eugène : «Histoire de Bougie», in **Echo de Bougie**, 18/03/1928.

-Rinn, Louis: «le Royaume d'Alger sous le denier Dey», in, **R.A.**, n°: 43, 1898.

-Robin, Joseph Nil : «Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie », **R.A.**, n° 17, 1873.

-Robin, Joseph nil: «Le bey Mohamed Ben Ali Ed-debbah», in **R.A** N°17, 1873.

-Robin, Joseph Nil: «le Bey Mohammed ed-Debbah», in, **RA**, n° 17, 1873.

-Watbled, Ernest: «Etablissement de la domination Turque en Algérie», in **RA** n°101, 1873.

-Watbled, Ernest: «Expédition de Duc de Beaufort contre Djidjli 1664», in **RA**, n° : 18, 1873.

-Xavier Yacono: «La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834», In: **R. O. M. M.**, N°1, 1966.

## الرسائل والأطروحات الجامعية:

- بوعزة: الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم (1826-1848)، رسالة ماجستير في التاريخ في الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 1990-1991.
- أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1837)، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2006. (مذكرة غير منشورة)
- درياس : المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الدرجة الثالثة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1989-1990.
- سيدي موسى، محمد شريف: الحياة الفكرية ببجاية من القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر (13-16م) رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، 2000/2001.
- فراد محمد أرزقي: الفكر الإصلاحية في كتابات أبي يعلى الزواوي 1866-1952، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005.
- قاسمي عبد المنعم الحسني: الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى الحرب العالمية الأولى، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008-2009.
- جميلة: الانكشارية والمجتمع في بايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني رسالة دكتوراه جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.
- جودي اسماعيل: الصناعة العسكرية في الجزائر في العهد العثماني 1518-1830، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008-2009.
- حماش : العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1988
- سيساوي أحمد: النظام الإداري ببيلك الشرق 1791-1830، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 1987/1988.

---

- عمر حرفوش: الإدارة الجزائرية في العهد العثماني 1518 - 1830، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009/2008.

- Abd el Fettah Lalmi, Nadjma: **la Ville, l'Urbanité; l'Autochtonie. Essai de restitution de l'Histoire urbaine de la Ville de Béjaia**, T1, (texte), mémoire de magister, option, préservation des sites et monuments historiques.

#### الملتقيات والندوات:

- صالح: بجاية وقبائل جهتها في العهد الحفصي نموذج للعلاقة بين المدينة والقبائل، الملتقى الدولي الأول حول بجاية وجهاتها عبر العصور، 1997. مطبوعات جمعية جهيماب، 1997.

- صاري الجيلالي: الدور التاريخي للطرقية بالمغرب العربي، محاضرة ملتقى الفكر الإسلامي 21 1983.

- سعيدوني : مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية "نموذج بلاد القبائل"، نشر في:

**International Congress Learning and Education in the Ottoman World**, 12-15 April 1999.

-Aisani, Djamil: **les soufismes au sein de mouvement intilecctuelle à Béjaia et sa région XI-XX siècles**, Béjaia 17-18 septembre 2003.

-Cherif, Mohamed El Hadi: «**Introduction de l'étude des rapports de l'états et des communautés tribales du Maghreb à l'époque moderne et contemporaine**», in: le Monde Rural Maghrébin, communautés et stratification social, actes de congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb, 3-4 mai 1983.

-Filali, Kamel: **Le rapport de Charles Féraud et la situation des lieux de culte à Béjaia**, 1848, la mairie de béjaia, Colloque International « Mouvement Intellectuel et Chemins de Vérité », Béjaia le 17et 18 septembre 2003.

-Haichour, Boudjamaâ: Bejaia et sa région à travers les Ages, Histoire, Société, Science, Culture, **Colloque international Bejaia**, 1997, Ed, JEHIMAB, 1997.

---

-Ouattmani Settar: « **Béjaia à l'époque ottomane : Etude sur l'état de la ville sur le plan politique et économique**», Colloque international Béjaia ville d'histoire et de civilisation, Béjaia 30-31 Octobre 2012.

الموسوعات والقواميس:

دائرة المعارف الإسلامية، 3 و 7.

المواقع الإلكترونية:

-بلغيث، محمد الأمين: النسق التاريخي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ العدواني،  
2010/12/18 <http://dernounisalim.com>

- محمد الأمين: الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيحة، منتدى فيض القلم، يوم  
2010/02/20.

- محمد: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني 1707-  
1827 منتدى تاريخ الجزائر، 2008/12/26.

-<http://www.maxforums.net>.

-<http://fr.wikipedia.org/wiki/Pinque>

-occupation de Bougie, [www.Algérie-Ancienne. Com](http://www.Algérie-Ancienne.Com)

Salim Khouache:Chronologie de la ville de bejaia.htm,  
27/11/2008,[www. http. Alger](http://www.http.Alger).

# الفهارس

جمعية الأمد عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

أبو عبد الله الحفصي (السلطان) 28	-أ-
أبو علي إبراهيم المريبي 30 39 40 43 46	ابن خلدون 23 26 39 132 149 273
أمزيان أورايح 273 307	الأب دان 125 162
الأمير عبد الرحمان 31 40 48	أحمد القلي 246
أبو يعلى الزواوي 140 142 183 195 238	ابراهيم جدلة 20 147 148 206
الأمير عبد القادر 236	إبراهيم وكييل الحرج 244
أبو القاسم سعد الله، 36 53 97 130 48	ابن أبي الضياف 27 56
186	أحمد المكلي 247
195 190 222 238 242	أحمد باشا 229
ألبير دوفولكس 117	ابن الأحرش 231 237 284 283 286
أحمد الشريف الزهار 287 283	أحمد باي 297 299 300 301
أحمد بن معمر 288 252 242 163	ابن العنابي 225 254 284 286 292
ألفرد بيل 102	أحمد بن القاضي 38 35 81 227 296
أرزقي شويتام 91 124 123 202 204	ابن علي الشريف الشلاطي 246 251 152
أحمد خوجة بن رحات 166 176	أبو العباس عبد العزيز 29
إرنست واتبلد 52 126	أبو القاسم الحفناوي 70 106 195 154 253
الإدريس 25 162 265	195
إزاييلا 34	أبو بكر (الحفصي) 31 39 41 51
آلان ماحي 108	أندره دوريا 70 106
-ب-	إرنست مرسيه 72 87 267
البكري 20	أبو حسون الوطاسي 264 282 285 295

-ج-

ن 210

جون وولف 53 128 178 211

الجيلالي صاري 220

جون لوروي 21 164

-ح-

الحاج خليل 129

حسان قورصو 170 105

حسن آغ 256 242

حسن باشا بن خير الدين 255 70 81

بكداش 97

حمدان خوجوة 202 162 150 98 86 41

-خ-

270

-د-

الداي حسين 294 153 129

درغووث 242 79

دو بارادي 298 279 177

دو بيرالطا 76 77

دوبوفورت 126

دوبيرالطا 77 76

بانانتي 241

الهاي عبد الله 284 283

بوايه 227 179 98

البلوي 20

بوتان 16

298 274

بول وينتر 43

بيدرو نافارو 297 47 41 38 29

بولس الثالث 63

بيار دافيتي 203 187 21

بيسونال 235 233 177 158

بيليسي دو رينو 247

277

-ت-

تريزل 204

التمغروتي 116 103 43

توفيق المدني 260 188 60 56 55 42 39

-ر-

الرايس حميدو 285

رمضان رايس 270 264

روبار برنشفيك 193 28 26



27 السلطان أبو زكريا الخف	262 248 228 77 دوغرامون
226 190 185 136 سيدي التواتي	294 201 (القنصل)
35 70 91 94 سليمان القانوني	305 290 181 164 دوماس
187 سيدي الموهوب	-ر-
247 سيدي بثقة	289 108 51 روبان
247 137 سيدي بوقيرين	289 162 126 روزي
188 136 سيدي عبد الحق	رونار 23
19 110 120 سيدي عبد القادر	رين 109
35 53 سليم الأول	-ز-
-ش-	الزياني 185 184
123 77 72 65 58 44 33 شارل الخامس	-س-
شارل أندري جوليان 58	305 290 274 ساعد أورابح
الشريف مولاي 252	60 51 48 سالم التو
شعبان آغا 196 128	سام 132
شوفاليه دارفيو 157 117	سيدي ناصر 172 247
الشيخ الجعدي 220	ستيفان غزال 162
الشيخ الخروبي الطرابلسي 191	-ص-
-ص-	السعيد 75 104 64 52 49 36
صالح رايس 155 153 90 80 79 61	251 261 144
259	سلفاتور دو هابسبورغ 155
-ط-	سنان رايس 264
طال شوفال 52	سترابون 22
طوماس شو 168 162 125 124 119 21	

269 112 87	فايسات	ستيفان ديستري	23
277 143	فرانسوا أراغو	-ع-	
33 65	فرانسوا الأول	عبد الجليل التميمي	301 108 61 54 35 33
56 48 33	فرديناندو الكاثوليكي	عبد الرحمان الجليلي	220 256 88 66 43
81	فرناند برودل	عبد الرحمان البلولي	195 189
300	فوارول	عبد الرحمن الثعالبي	108 100 98 65 37
141	فيليبو بانانتي	عبد القادر الجليلي	226 191 194
59 23 48	فيرو	عبد الكريم الفقون	182 119
64 95 109 117 122 127		العبدري	20
234 216 192 187 181 174 162		عروج	224 147 80 78 63 60 47
272 247 136			269 242
151 81	فيليب الثالث	علي داي	83
-ق-		علي صارو	106 90 78
176	القايد مصطفى	علي قارة	
263	قداش (محموظ)	86	
55	القديس يوحنا	26	
-ك-		عبد السلام بن مشيش	252
203 185 73 59 46 41	كربخال مرمول	-غ-	
266 263		الغبريني	149 19
22	كلوزال	غوفيون	251
226 20	كمال رايس	-ف-	
152		الفارس دارفيو	127 124 120 117
164 139 126	كار		

96 82 52 44 37 26 المهدي البوعبدلي 181	241 199 186 157 145 -ل-
62 48 43 41 مولاي عبد الله 256 218 182 144 مولود قايد -ن-	لابريموداي. لاموريسبير 152 لوجي دوطاسي 241
108 70 89 56 50 ناصر الدين سعيدوني 189	لويش الرابع عشر 126 123 ليون الإفريقي (الحسن الوزان) 60 55 45 43 157
الناصر بن علناس 24 148	-م-
نور الدين عبد القادر 166 106 97 47 - -	مارشيككا 201
هايدو 162 154 79 64 74 56 50 46 229	مبارك الملي 294 260 66 26 محمد الذباح 247
هبشترابت 142 203 89 23 -و-	محمد الشيخ المهدي 82 74 محمد العروسي المطوي 45 28 26 محمد أمقران 294 127 109 102 محمد باشا 110
الورتلاني 283 241 191 137 112 18 الولي دادة 98 وليم شالر 288 162 157 87 -ي-	محمد بن عبد الرحمان الأزهري 226 137 محمد دراج 52 20 محمد رايس 116
ياقوت الحموي 24 يحي آغا 290 288 279 يحي 221 189 168 158	محمود الثاني (السلطان) 116 محمد عثمان 226 114 93 60 مردوخاي نوا 169 165

116 192 70 50 38 المنور مروش

188 يحي أبو زكريه

26 يعقوب المنصور

191 يحي العبدلي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولاد سيدي علي أو موسى 245	-أ-
أولاد سيدي يحيى 110	الأتراك 19 24 35 56 60 66 74 104
أولاد عبد الجبار 102 39	107 114 110 116 120 257 255 153
أولاد عمر أو أيوب 110	الإخوة بربروس 31 36 51 50 52 53 54 55
أولاد مقران 32 95 104 229	57 62
أولاد تاييل 103	إزمالن 110
أويدير 110	الإسبان 29 33 53 57 70 74 78 80 100
آيت أحمد وارث 110	149 150 161 255 258 270
آيت اليوسى 110	أسرة الفكون 92 223
آيت بوشعيب 110	أسرة أورابح 212 235 238 246 254 273
آيت سعدان 223	276
آيت سعيد 110	أسرة بن قانة 102
آيت عامر 110	الأعلاج 75
آيت كسيلة 110	الأمازيغ 131
آيت يحيى 110	إفناين 109 274
آيت يحيى أو يوسف 110	آيت إيسوغر 110
أمزيان 238 225	الأنجليز 21
أولاد سيدي الـ	الأندلسيين 33 38 144 146 227
الإيطاليون 23	الأوروبيين. 61 100 121 161

295	بي ميمون	102	أولاد سيدي الشيخ
110	بيي وغيليس	--ب--	
110	بوتخدامن	225 132 149 39 23	البربر
22	البيزنطية ن	110	بيي إيمان
203	بيي زيان	110	بيي بو عيسى
48	بيي مرزونة	259 103 71	بيي جلاب
--ت--		110	بيي جليل
110	تيفرة	110	بيي حساين
--ث--		128 27 26	بيي حفص
150 103 31	الثعالبية	151 25 24	بيي حماد
--ج--		110	بيي سقوال
103	الحراكنة	110 66 64 63 58 47 40 32	بيي عباس
103	الحنانشة	262 203 167 162 154 127	
--ر--		110	بيي عمروس
33 22	الرومان	110	بيي عياد
--ز--		26	بيي مزين
154	الزواتنة	119 110 13	بيي مسعود
--ع--		213	بيي ملول
186 141 96 92 86 35 32	العثمانيين	291	بيي مليكش
239 226 213 209 161		273	بيي مهدي

- -	213	بني ميزاب
الهولنديين 128	199	العرب
-و-	-غ-	
الوندال 22	110	
-ي-	-ف-	
اليهود 22 144 151 153	136 126 121 54 35 52 24	الفرنسيين
	152 274 145	
	110	
	-ك-	
	34	
	132	
	306 299 144 111 97 93	الكرائغلة
	-م-	
	202 105 53 36 30	المسلمين
	110	
	224 151 35	الموريسكيين
	247	

فهرس الأماكن والبلدان

-ب-	-أ-
132	أراغون 34 46
119 102 بغداد	إمبولة 288 238 223
الباب العالي	أزفون 125 76
67 72 80 106 133 300 268 295 باب	الأغواط 259
121 اللوز	إسبانيا 260 182 125 57 48 39 34
121 باب المرقوم	270 269
243 باب الواد	اسطنبول 257 203 189 98 96 83 61 35
258 باب عزون	آسيف الحمام 110
18 263 108 162 284 البابور	إفريقيا 173 155 126 80 62 27
301 126 باريس	أقيور 188 155 53 19
36 30 27 24 22 19 16 بجاية	إقجان 132
63 61 57 53 49 45 44 40 42	أمدان 235
99 93 90 89 84 80 76 73 71	الأناضول 98 306
120 116 113 110 108 106 102	أنجلترا 128 125 153 294
146 149 140 136 130 127 124	الأندلس 20 31 257
179 176 173 170 166 162 153	أوروبا 107 99 65 62 53 48 26 23
225 217 213 200 190 185 180	273 279 178 168 126
255 253 249 240 239 233 232	أوزلاقن 110
298 295 294 290 261 285 283	إيلولة 189
308 306 303 302 300	132 40
174 البحر الأبيض المتوسط	
111 162 249	
26 بلاد الجريد	



34 31	البلقان 98
305 126 110 18	150
174 150 74 56 52 49 44	البندقية 62 139 140
307	بني ورتيلان
211 189 نيزي وزو	ج 122 121
279 247 113 66 التيطري	118 ( )
ث-	بورغي 211 231 247
الشفية 237	27 108 150
ج-	بيان الحديد 32 66 108 151 263 273
جبال الأوراس 50 132	بيزا 48 62
الجرجرة 37 107 285	برج البحر 118
جمعة الصهاريج 237	برج 212 237
76 55 51 54 31 23	برج 211 237
176 132 126 124 113 117	برج 211 237
283 250 244 237 217 180 200	ت-
ح-	نامزالت 155 305
حمزة 211 238	تاموقرة 182 191
البنون 34 59 66 67 70	تقرت 32 259
خ-	نكر كارت 40 41
خراطة 263	نلمسان 26 28 34 92 103 188 268
ع-	طرابلس 45 46 234
253 201 193 175 127 67	
307	

275 252 238 132 104	303 طولون
-ص-	-د-
110 237	الدار البيضاء 147
-غ-	دلس 31 37 76 132
146	-ر-
-ف-	الرباط 147 95
175 142 130 128 127 126	رودس 55
292 282 241 196 193 178	-ز-
309 302	زمورة 261 267 268 285
176 62	زواوة 49 50 67 76 103 131 154 167
65	262
71 74 189 فاس	زيامة المنصورية 180 240 245 285
--ق-	-س-
175 163 153 150 القالة	302 285 132 41 19
237 108 الترقور	سكيدة 308
237 القسطنطينية	السودان 34 213 221
62 51 49 47 44 40 34	سوق الاثنين 237
247 171 149 109	سيدي بلعباس 100
48 147	سيدي 237
106 البوسفور	-ش-
273 255 58 34 26 25 المغرب الأقصى	شرشال 31 34 243 251
107 37 61 38 31 المغرب الأوسط	34

151 191 193	القصر 77 84 237
ملاحة 110	القل 244 233 31
62	بني عباس 73 63 58 43 47 41 40
132	255 247 237 127 110 107 81 73
مينورة 62	272 264 259
مينورة 62	-ك-
-ن-	132
132 نقاوس	19
65 النمسا	107 103 81 75 73 64 62 50 32
-و-	282 274 255 177 154 132 125
154 واد الزيتون	-ل-
71 الوادي	243
244 وادي الزناتي	ليفورن 175
18 19 109 235 وادي الساحل	-م-
108 90 76 56 40 21 وادي الصومام	300 280 150 103 37
282 273 263 251 242 237 212	288 212 285 284 110 109 32 بحانة
الوادي الكبير (اغور أمقران) 19	269 255 39 34 المرسي الكبير
19 وادي بوسلام	178 62
259 ورقلة	269 266 264 261 المسيلة
18 دي الباردي	132
	111 51 50 وادي
	19 18 وادي غير

إهداء.....	
وعرفان.....	
1.....	
15.....	الفصل الأول: بجاية قبل مجيء الأتراك العثمان
16.....	المبحث الأول: المجال الجغرافي لبجاية ونواحيها:
22.....	المبحث الثاني: نبذة تاريخ بجاية ونواحيها
22.....	1- بجاية ونواحيها في العصور القديمة.....
23.....	المبحث الثالث: الحالة السياسية في المغرب الأوسط في مطلع القرن السادس
31.....	1- الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية (1505 - 1511م) ودور العلماء والشيوخ الدينيين في قيادة حركات الجهاد.....
38.....	2- الاحتلال الإسباني لبجاية: 1510 وموقف السلطة الحفصية والسكان.....
50.....	المبحث الرابع: استنجد سكان بجاية بالإخوة بربروس.....
50.....	1- ظهور شخصية ابن القاضي وتأثيره في المنطقة.....
52.....	2- تدخل الإخوة بربروس في بجاية (1512-1514).....
57.....	المبحث الخامس: بجاية تحت الاحتلال الإسباني (1510 - 1555).....
59.....	1- استنجد سكان مدينة الجزائر بالإخوة بربروس وإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:.....
63.....	3- إسبان سلطان إمارة بني عباس.....
67.....	4- سقوط حصن البينون وتأثيره على بجاية ونواحيها:.....

68.....الفصل الثاني: السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها

68.....المبحث الأول: تحرير بجاية على يد صالح ريس (1555)

69.....1-الوضع العام في الإيالة:

71.....2-الوضع في بجاية:

73.....3- تحرير بجاية وإلحاقها بالسلطة العثمانية:

81.....المبحث الثاني: التنظيم الإداري في الإيالة الجزائرية

81.....1-التنظيم الإداري في الجزائر

89.....2-التنظيم الإداري في بجاية

96.....3-التوجه الديني للسلطة العثمانية

100.....المبحث الثالث: أساليب الحكم العثماني في بجاية ونواحيها

104.....1-أهمية استرجاع بجاية من أيدي الإسبان بالنسبة للسلطة العثمانية:

106.....2-إشكالية تبعية بجاية

110.....أ-القايد و :

114.....ب-نظام الح في بجاية

119.....د-دفاعات المدينة وتحصيناتها:

123.....3-الأطماع الأوروبية الاستيلاء على بجاية:

124.....-الحملة العسكرية البحرية على بجاية:

131.....الفصل الثالث: السكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية

132.....المبحث الأول: أصل سكان بجاية ونواحيها

- 133.....-التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد.
- 144.....المبحث الثاني: الفئات الاجتماعية.
- 145.....1-البربر.....
- 146.....2-فئة الأندلسيين.....
- 151.....3-فئة اليهود.....
- 151.....4-الأترك والكراغلة.....
- 154.....5-فئة ا.....
- 156.....المبحث الثالث : نشاطات السكان
- 156.....1-النشاط الفلاحي.....
- 161.....2-الصناعة: مقوماتها وأنواعها.....
- 163.....أ\_صناعة السفن.....
- 167.....ب-صناعة الأسلحة:.....
- 168.....ج-الصناعة الحرفية:.....
- 169.....د-الصناعة الحديدية:.....
- 170.....-صناعة الشمع:.....
- 171.....و-الصناعة النسيجية.....
- 172.....ز-الصناعة الفخارية:.....
- 173.....3-التجارة.....
- 179.....-الأسواق ومكانتها في حياة السكان.....
- 181.....المبحث الرابع: المؤسسات الثقافية والدينية ودورها في بجاية ونواحيها

- 185.....أ-المساجد
- 187.....ب- الزوايا
- 195.....2-مؤسسات الأوقاف:
- 197.....المبحث الخامس: الأحوال الصحية في بجاية ونواحيها
- 197.....1-تطور عدد سكان مدينة بجاية:
- 202.....2-المسكن:
- 205.....3-المأكل:
- 208.....الفصل الرابع: علاقة السكان بالسلطة
- 209.....المبحث الأول: سياسة الحكام الأتراك في الجزائر
- 211.....1- سياسة السلطة في بجاية ونواحيها
- 218.....2-مكانة العلماء والمرابطين في وسط المجتمع
- 224.....3- العلماء والمرابطين بالسلطة
- 232.....4-علاقة السكان بسلطة القايد
- 242.....5-مصلحة الكراست مظهر للتعاون بين السكان والسلطة
- 246.....المبحث الثاني: الأسر النافذة في بجاية ونواحيها
- 246.....1-الأسر ذات النفوذ الروحي (المرابطين) في بجاية ونواحيها
- 247.....أ-أسرة محمد أمقران
- 251.....ب-أسرة بن علي الشريف
- 254.....2-الأسر ذات النفوذ المادي

255.....	أ- أسرة أولاد مقران.....
273.....	ب- أسرة أورابح.....
المبحث الثالث: توتر العلاقات بين قبائل بجاية والسلطة في أواخر العهد العثماني.....	
277.....	1- الصراع بين الأعراش والقبائل وموقف السلطة العثمانية.....
280.....	2- موقف الأسر الكبيرة في بجاية ونواحيها من ثورة ابن الأحرش.....
283.....	3- حركات التمرد والعصيان.....
287.....	4- أزمة نقص الأخشاب وتأثيرها على ضعف البحرية في أواخر العهد العثماني.....
295.....	المبحث الرابع: الحملة الفرنسية على بجاية.....
297.....	1- الأسباب والظروف.....
297.....	2- الاحتلال ورد فعل السكان.....
303.....	الخاتمة.....
310.....	الملاحق.....
314.....	المصادر والمراجع.....
330.....	الفهارس.....
358.....	فهرس الأعلام.....
359.....	فهرس القبائل والجماعات.....
365.....	فهرس الأماكن والبلدان.....
368.....	فهرس الموضوعات.....
372.....	



إن سقوط السلطة السياسية الحفصية وعجزها عن الدفاع عن مدينة بجاية وفها في منع الاحتلال الإسباني وعدم استسلام السكان المحيطين بزعمارة السلطة الدينية، بقيادة الشيخ أحمد بن القاضي، وعزمهم على التصدي للعدو ومقاومته ومحاوله طرده وذلك من خلال الاستنجد بالإخوة بربروس، إنما يدل عن معرفتهم ودرايتهم بالأحداث السياسية التي كانت تعرفها المنطقة حينئذ؛ وإحاطتهم علما كذلك بالأحداث التي كان البحر المتوسط مسرحا لها، ومن ثمة إدراكهم العميق لحقيقة ما كان يجري على الساحة؛ من صراع بين العالم الإسلامي الدولة العثمانية راعية المسلمين من جهة، والعالم المسيحي بقيادة إسبانيا راعية المسيحيين وحميتهم من جهة . فإذا كان الحكام الحفصيين في بجاية ونواحيها قد انسحبوا بعد هزيمتهم أمام الإسبان إلى المرتفعات المحاورة، ليختفي أثرهم إلى الأبد، فإن سكان بجاية ونواحيها ظلوا يراقبون المكان عن كثب، ولم يعدموا الحيلة حتى تمكنوا من تخليص المدينة والمنطقة من هذا العدو.

وتعتبر شجاعة سكان بجاية و دفاعهم وتضحياتهم عن وسيادتهم واستقلالهم من أهم الصفات التي كانوا يتحلون بها، وقد استثمر الإخوة بربروس اندفاعهم في بسط سيطرتهم على كثير من المناطق في إيالة، وفي محاولات تحرير بجاية كذلك، ورغم الدور الذي لعبه سكان بجاية ونواحيها في تحديد مصير الجزائر خلال العهد العثماني، من خلال المساهمة في ربطها بالدولة العثمانية وترسيخ حكمها، وما تبعه من تغييرات جذرية في المنطقة ، فإنها لم تنل حظها من الدراسة والتأريخ خلال هذه الحقبة من تاريخ الجزائر، وبالمقابل كان نصيب مدن جزائرية عديدة أوفر حظا، لأن بجاية لم يعد لها شأن يذكر خلال هذا العهد، لأنها لم تحافظ على أهميتها ومكانتها، وتعرضت إلى الإهمال والتهميش من طرف السلطة العثمانية . ومن هنا جاء الموضوع ومن هنا جاء بحثنا عنوان: "بجاية خلال العهد العثماني 1555-1833" ليعالج إشكالية الوجود العثماني في بجاية ونواحيها، ويميط اللثام عن الأحداث التي عرفتها المنطقة خلال هذه الفترة، التي لا تزال تميزها الضبابية والغموض.

ويتمحور موضوع الأطروحة حول إشكالية عامة تتمثل في الحالة العامة لبجاية ونواحيها و الوجود العثماني فيها منذ تحريرها من الاحتلال الإسباني عام 1555، إلى غاية سقوطها في أيدي الفرنسيين عام 1833م، وتتفرع عنها عدة أسئلة فرعية حاولت الإجابة عنها من خلال تقسيم الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ثم قائمة الملاحق والمصادر والمراجع، الفصل الأول تناول بجاية قبل مجيء الأتراك العثمانيين واشتمل على خمسة وتناولت في الفصل الثاني السلطة العثمانية في بجاية ونواحيها وخصصت له ثلاثة مباحث، وأما الفصل

الثالث سكان وبيئتهم الاجتماعية والثقافية والصحية، وتضمن هو الآخر خمسة مباحث و  
الفصل الرابع والأخير دراسة علاقة السكان بالسلطة وجعلته في ثلاثة مباحث رئيسية.

وقد توصلت من خلال البحث إلى مجموعة من النتائج أخصها فيما يلي:

- لعب سكان بجاية ونواحيها دورا تاريخيا في التحول الذي عرفته الجزائر خلال العصر الحديث وذلك من خلال اتصافهم بالإخوة ببربروس فكانوا السبب والممهد لإحقاق الجزائر بالباب العالي وما تبع ذلك من تحولات على جميع الأصعدة. كما لعب هؤلاء السكان دورا فعالا في محاربة العدو الإسباني وطرده من السواحل الجزائرية.

- رغم تحريرها على يد الأتراك العثما 45 سنة من الدمار والخراب، إلا أنها في الواقع لم تتمكن من استعادة مجدها القديم، ويعود السبب في اعتقادنا إلى روح الاستقلال التي كان يتمتع بها سكان المنطقة من جهة، وتمكن الإخوة ببربروس من الاستيلاء على مدينة الجزائر وتفضيلها على بجاية.

- كما نستنتج الدور الأساسي الذي لعبه المرابطون، من أصحاب الطرق الصوفية، وشيوخ الزوايا، في ترسيخ الحكم العثماني في الإيالة عامة، و في منطقة بجاية ونواحيها خاصة، كما لعبوا الدور الفعال في حفظ الهدوء والاستقرار، وفرض النظام طوال فترة التواجد العثماني.

- وقد عزز تحرير بجاية قوة السلطة العثمانية في الجزائر وزادها عزيمة لمواصلة تحرير كامل السواحل، كما عاد بالفائدة الاقتصادية عليها، وعلى سكان المنطقة الغنية بإنتاجها وخيراتها الطبيعية.

- عدم مخاطرة السلطة العثمانية بالتوغل أكثر في عمق المنطقة، بسبب عداة السكان لأية سلطة أجنبية من جهة، وتحصنهم في الجبال الوعرة من جهة أخرى، مما جعل السلطة تلجأ إلى الاستعانة بالمرابطين والشيوخ الدينيين الذين كان لهم نفوذ وتأثير كبيرين على السكان، وذلك مقابل ذلك تمتعهم بامتيازات كبيرة.

- تميزت العلاقات بين سكان منطقة بجاية والسلطة بالتوتر، عشية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر، إلا أن سكان المنطقة هبوا جميعا للدفاع عن مدينتهم لما علموا بقدوم الحملة الفرنسية في خريف سنة 1833م.

- أدى استيلاء الفرنسيين على ميناء بجاية، إلى شلل الحركة الاقتصادية في المنطقة، مما نتج عنه ركود هذا النشاط، وما تبعه من توقف النشاط التجاري والحرفي والفلاحي والتعليمي والثقافي، فانتشر الخراب والدمار، وساد اليأس وانتشر البؤس والحerman، مما جعل بعض السكان والأسر تضطر إلى التعامل مع الفرنسيين بعد حصار طويل.

## Résumé :

La chute du pouvoir hafside et son impuissance à défendre la ville de Bejaia, son échec à empêcher l'occupation, le refus de la population de la périphérie, sous une autorité religieuse dirigée par le cheikh Ahmed Ben El Kadi, de se soumettre et sa détermination de résister à l'ennemi, de lutter et essayer de l'expulser par le recours aux frères Barberousse, cela reflète l'ample connaissance de cette population, qui était alors connu des « évènements politiques que la région connus à l'époque et sa conscience des évènements dont la Méditerranée était le théâtre.

Et delà émerge une prise de conscience de ce qui se passait scène, un conflit entre le monde islamique (sous l'emprise de l'empire Ottoman) d'un coté, et le monde chrétien sous l'égide de l'Espagne, protectrice des les chrétiens de l'autre coté.

Si les dirigeants Hafside à Bejaia et sa périphérie, se sont désistés après leur défaite contre les Espagnols, ont rejoint les montagnes voisines, et ont disparu sans laisser de traces, les habitants de Béjaïa et ses environs ont demeuré afin de surveiller de près et n'on exclu aucun moyen jusqu'à ce qu'ils ont pu délivrer leur ville toute la région de l'ennemi chrétien.

Défier la mort, se sacrifier, et défendre leur liberté et leur souveraineté t'elles étaient les caractéristiques majeurs de la population des tribus de la région. les frères Barberousse ont profité de la situation pour étendre leur contrôle sur de nombreux domaines dans la Régence, et ont aussi tente d'éditer Bejaïa.

Malgré le rôle joué par les habitants de Béjaïa et ses environs pour déterminer le sort de l'Algérie à l'époque ottomane, en contribuant à relier l'Empire ottoman et consolider sa domination, et malgré tous ce qui à succédé comme changements radicaux dans la région dans l' ensemble, cela n'a pas eu sa part dans les 'étude et l'histoire durant cette période de l'histoire de l'Algérie. Et revanche, de nombreuses villes algériennes étaient plus chanceuses car Bejaïa n'avait plus de statue à signaler lors de cette époque. Elle a été délaissée et marginaliser par l'Empire ottoman. De ces constats surgit notre sujet et notre étude intitulée: « **Bejaïa à l'époque ottomane 1555-1833** » qui traite la problématique de la présence ottomane à Bejaia et ses environs, et dévoile les événements qu'à connus durant de cette époque qualifiée et continue à être qualifiée de brumeuse et d'ambigüe.

L'axe de sujet de la thèse gravite autour d'une problématique général se présentant dans la situation générale de Béjaïa et ses environs et la nature de la présence ottomane dans cette région, depuis la libération de l'occupation espagnole en 1555, jusqu'à sa chute aux mains des Français, en 1833.

Notre problématique et subdivisé en une pluralité de questions secondaires aux quelles nous avons essayé de répondre à travers la répartition de notre étude en une

introduction, quatre chapitres et une conclusion, vient ensuite la listes des annexes, des sources et des références.

Nous avons traité dans le premier chapitre composé de cinq sections; Bejaïa avant l'avènement des Turcs ottomans. Le deuxième chapitre, auquel nous avons consacré traite la puissance ottomane à Bejaia et ses environs. Les cinq sections constituant le troisième chapitre abordent : la population et son environnement social, culturel et sanitaire. Quant au quatrième trimestre, réparti en trois sections, nous l'avons consacré à l'étude de la relation de la population au pouvoir.

Nous avons abouti à travers cette étude à un ensemble de résultats que nous résumeront dans ce qui suit:

- les habitants de Béjaïa et de ses environs ont Joué un rôle historique dans la transformation qu'a connue l'Algérie durant l'époque contemporaine, et se à travers le contact établi avec les frères Barberousse qui étaient la cause introduisant de l'intégration de l'Algérie à la porte-sublime et ce qui sont suivit de transformations sur tous les plans, Ces mêmes habitants ont joué un rôle primordial dans la lutte contre l'ennemi espagnol et son expulsion de les côtes algériennes.

-bien quelle soit libéré du colonisateur Espagnol par les Turcs ottomanes, après 45ans de dévastation,et de destruction , Béjaioa n'a pas pu restaurer son ancienne gloire,

et la raison pour laquelle nous crevenu au profit économique de celui-ci, et de la population de la région riche de produit naturel. de

-Bien que libéré par les Turcs ottomans années royons l'esprit d'indépendance des habitants de la région d'une part, et le succès des frères Barberousse a prendre la ville d'Alger et préférer cette ville et la choisir comme capital d'une autre part.

-comme on en déduit le rôle fondamental joué par les marabouts, et les cheikhs des zaouiyas, dans la consolidation de la domination ottomane dans la régence en générale, et dans la région de Bejaia et ses environs en particulier , ont également joué un rôle actif dans le maintien de calme et de stabilité, et imposer l'ordre pendant toute la durée de la présence ottomane.

-Nous avons enregistré pas le risque de l'autorité ottomane pénétré plus en profondeur de la région, en raison de l'hostilité de la population d'une autorité étrangère d'une part, et de creuser dans les montagnes escarpées, d'autre part, ce qui rend le pouvoir de recourir à l'utilisation de marabouts et qui avait un grand influence au habitants, par rapport à cette jouissance de grands privilèges.

-l'autorité ottomane ne risque pas de pénétrer plus dans la profondeur de la région, en raison de l'hostilité de la population d'une autorité étrangère d'une part, et de creuser dans les montagnes escarpées, d'autre part, ce qui rend le pouvoir de recourir à l'intervention des marabouts et des cheikhs religieux qui avait de grande influence sur la population, par rapport à celle ils sont bénéficiaires de grands privilèges.

-la prise du port de Bejaia par les français, paralyse le mouvement économique dans la région, ce qui a entraîné la stagnation de cette activité, et l'arrêt ultérieur de l'activité commerciale littérale, agricole, éducatif et culturel, la dévastation et la destruction, et il y avait le désespoir et la propagation de misère et de privations, ce qui rend certains résidents et les familles doivent traiter les français après un long siège.

الأمير عبد القادر للعظم الإسلامي

## **Abstract :**

The fall of Hafsîd power and its inability to defend the city of Bejaia, and its inability to prevent the occupation, not to surrender to the surrounding population led by the religious authority, led by Sheikh Ahmed Ben El Kadi, and Their determination to respond to the enemy and his resistance and try to expel him by appeal to the Barbarossa brothers but reflects their knowledge and knowledge of the political events that were then known in the region and also inform them of events that have The theater of the Mediterranean have, and there is a deep awareness of the reality of what is happening on the scene, the conflict between the Muslim world and the Christian world led by Spain sponsoring Christians and their protection On one side, the Ottoman Empire protector of the Islamic world on the other side. If the Hafsîd leaders in Bejaia and its surroundings withdrew after their defeat against the Spaniards to the neighboring mountains, and disappear forever their traces, the inhabitants of Bejaia and its region were always watching the place closely, Not executed the case managed to rid the city and the region of this enemy.

The defense of the tribal people of the region and their sacrifices for their freedom and sovereignty is one of the most important qualities that have been characterized, the Barberousse brothers have invested the situation to extend their control over many areas in The Regency, and attempts to publish Bejaïa as well, and despite the role played by the inhabitants of Bejaia and its surroundings in determining the fate of Algeria in the Ottoman era, helping to connect the Ottoman Empire and consolidate its Dominance, and the following radical changes in the region as a whole, it has not received its share of study and history during this period of Algerian history, and on the other hand the share Of many more lucky Algerian cities, because Bejaïa is no longer it is to be noted during this time, because it did not hold its importance and its place, and subjected to neglect and marginalization By the " Ottoman Empire. Hence the subject and we discussed here came under the title: "Bejaïa in the Ottoman era 1555-1833" to solve the problem of the Ottoman presence in Bejaia and its surroundings, and reveals the events in the region during Of this period, which continues to distinguish uncertainty and ambiguity.

The theme of the thesis addresses the general problematic is the general state of Bejaia and its surroundings and the nature of the Ottoman presence since the liberation of the Spanish occupation in 1555 until its fall at the hands of the French in 1833 and Subdivided by several sub-questions which I tried to answer by dividing the study into an introduction, four chapters and a conclusion and then the list of annexes, sources and references, chapter one deals with Bejaia before the advent of the Ottoman Turks and Consisted of five sections, and I dealt with in the second chapter the Ottoman power in Bejaia and its surroundings and allocated three sections, and the third chapter dealt with population and social and cultural environment and health, it is also included five Sections, and set aside the fourth quarter and the recent study of the strength of the population and made into three main sections. At the end I reached the results which I summarize them as follows:

- the population of Béjaïa and its surroundings played a historical role in the transformation that knew Algeria in the modern era, by contact with the brothers Barbarossa They were the reason impious to inflict high door Algeria and the subsequent transformations to all levels. They also played an active role in the fight against the Spanish enemy and expelled him from the Algerian coast.

- The liberation of Bejaia reinforced the Ottoman power in Algeria and strengthened their will to continue to increase them by altering the whole coast, and returned to the economic profit of it, and the population of the area rich of natural product.

جامعة الأميرة  
عبد القادر للعالم الإسلامي